تراثنا

المجلد الثالث

من

لطائف الإشارات

تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم

للإمام القشيري

قدم له وحققه وعلق عليه

الدكتور ابراهيم بسيوني

صدّر له

الأستاذ حسن عباس زكي

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

بالقاهرة

al-Qushayri

"Laṭā'if"



بسم الله الرحمن الرحيم

ربِّ يَسِّرْ

تَبرَّأْنَا مِمَّا مِنَّا مِنَ الحَوْلِ والمُنَّةِ ، وَتحَقَّقْنَا بِما مِنْكَ مِنَ الطَوْلِ وَالمِنَّةِ . فَلَا تَجْعَلْنَا عُرْضَةً لِسِهامِ أَحكامِك ، وَارْحَمْنَا بِلُطْفِكَ وَإِكْرَامِك . وَنَجِّنا مِمَّنْ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ فأَذْلَلْتَهُمْ ، وَ بِكَيِّ فِرَاقِكَ وَسَمْتَهُمْ .

عبد الكريم القشيري

عند

سورة يونس

السورة التى تذكر فيها التوبة

جرَّد الله — سبحانه — هذه السورة عن ذكر « بسم الله الرحمن الرحيم » لِيُعْلَمَ أنه يَخُصُّ مَنْ يشاء وما يشاء بما يشاء ، ويفْرِدُ مَنْ يشاء وما يشاء بما يشاء ، ليس لِصُنْعِه سَبَبٌ ، وليس له فى أفعاله غَرَضٌ ولا أَرَبٌ ، واتَّضَحَ للكافة أن هذه الآية أُثْبِتَتْ فى الكتاب لأنها مُنَزَّلَة ، وبالأمر هنالك مُحَصَّلة .

ومَنْ قال : إنه لم يذكر التسميةَ فى هذه السورة لأنها مفتتحةٌ بالبراءة عن الكفار فهو — وإن كان وجهاً فى الإشارة — فضعيفٌ ، وفى التحقيق كالبعيد ؛ لأنه افتتح سوراً من القرآن بذكر الكفار مثل : « لم يكن الذين كفروا »[1] وقوله : « ويلٌ لكل همزة لمزة »[2] وقوله : « تبَّتْ يدا أبى لهبٍ وتب »[3] وقوله : « قل يأيها الكافرون »[4] . . . هذه كلها مفاتِحُ للسُّوَرِ . . وبسم الله الرحمن الرحيم مُثْبَتَةٌ فى أوائلها — وإن كانت مُتَضَمِّنَةً ذِكرَ الكفار . على أنه يحتمل أن يقال إنها وإن كانت فى ذكر الكفار فليس ذكر البراءة فيها صريحاً وإنْ تَضَمَّنَتْهُ تلويحاً ، وهذه السورة أولها ذكر البراءة منهم قطعاً ، فلم تُصَدَّرْ بِذِكْرِ الرحمة .

ويقال إذا كان تجرُّدُ السورة عن هذه الآية يشير إلى أنها لذكر الفراق فبالحرىِّ أن يُخْشَى أنَّ تجردَ الصلاة عنها يمنع عن كمال الوصلة والاستحقاق .

قوله جل ذكره : ﴿ براءة مِنَ اللهِ ورسولِه إلى الذين عاهدتُم مِنَ المشركين ﴾

---

(١) آية ١ سورة البينة .

(٢) آية ١ سورة الهمزة .

(٣) آية ١ سورة المسد

(٤) آية ١ سورة الكافرون

الفراقُ شديدٌ ، وأشدُّه ألا يعقُبَه وصال ، وفراقُ المشركين كذلك لأنه قال : « إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »[١]

ويقال مَنْ مُنِيَ بفراق أحبائه فبئست صحبته . وقد كان بين الرسول عليه السلام وبين أولئك المشركين عهد ، ولا شكَّ أنهم كانوا قد وطَّنوا نفوسَهم عليه ، فنزل الخبرُ من الغيب بغتةً ، وأتاهم الإعلامُ بالفرقةِ فجأةً ، فقال: «بَرَاءةٌ من الله ورسوله» ، أى هذه براءة من الله ورسوله ، كما قيل :

فَبِتَّ بخيرٍ — والدُّنَى مطمئنةٌ وأصبحتَ يوماً والزمانُ تَقَلَّبَا

وما أشدَّ الفُرقةَ — لا سيَّما إذا كانت بغتةً على غير تَرَقُّبٍ — قال تعالى : « وأنْذِرْهُم يومَ الحسرة إذ قُضِيَ الأمر وهم فى غفلة » [٢] وأنشدوا :

وكان سراجُ الوصلِ أزهر بيننا فهبَّتْ به ريحٌ من البَيْنِ فانطفا

قوله جل ذكره : ﴿ فَسِيحُوا فى الأرضِ أربعةَ أشهر واعلموا أنكم غيرُ مُعْجِزى اللهِ وأنَّ اللهَ مُخْزِى الكافرين ﴾

إنْ قَطَعَ عنهم الوصلةَ فقد ضَرَبَ لهم مدةً على وجه المُهْلَةِ ، فأمَّنَهُم فى الحالِ ليتأهبوا لِتَحَمُّلِ مقاساةِ البراءةِ فيما يستقبلونه فى المآلِ .

والإشارةُ فيه : أنهم إنْ أقلعوا فى هذه المهلة عن الغيِّ والضلال وجدوا فى المآل ما فقدوا من الوصال ، وإنْ أبَوْا إلا التمادى فى تَرْكِ الخدمة والحرمة انقطع ما بينه وبينهم من العصمة .

ثم قال : واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مُخْزِى الكافرين » والإشارة فيه : إنْ أصررتم على قبيح آثاركم سعَيْتُم إلى هلاككم بِقَدَمِكُم ، وندمتم فى عاجلكم على سعيكم ، وحَصَّلْتُم فى آجِلكم على خسرانكم ؛ وما خسِرْتُم إلا فى صفقتكم ، وما ضَرَّ جُرْمُكم سواكم وأنشدوا :

تبدَّلْتَ وتبدَّلْنا واحسرتا مَنْ ابتغى عِوَضًا لليلى فلم يَجِدِ

---

(١) آية ٤٨ سورة النساء (٢) آية ٣٩ سورة مريم

قوله جل ذكره : ﴿ وأذانٌ مِنَ اللهِ ورسولِه إلى الناسِ يومَ الحجِّ الأكبر ﴾

أى ليَكُنْ إعلامٌ من الله ورسوله للناس بنقض عهدهم ، وإعلانٌ عنهم بأنهم ما انقطعوا عن مألوفهم من الإهمال[1] ومعهودهم ، وقد برح الخفاء من اليوم بأنهم ليس لهم ولاء ، ولم يكن منهم بما عقدوا وفاء ، فَلْيَعْلَمْ الكافةُ أنهم أعداء ، وأنشدوا :

أشاعوا لنا فى الحىِّ أشنعَ قصةٍ وكانوا لنا سِلْماً فصاروا لنا حرباً

قوله جل ذكره : ﴿ أنَّ اللهَ برىء من المشركين ورسولُه ﴾ .

مَنْ رأى من الأغيار — شظيةً من الآثار ، ولم يرَ حصولَها بتصريفِ الأقدار فقد أشرك — فى التحقيق — واستوجب هذه البراءة .

ومَنْ لاَحظَ الخلْق تَصَنُّعاً ، أو طالَعَ نَفْسَه إعجاباً فقد جعل ماللهِ لغيرِ الله ، وظنَّ ما لله لغير الله ، فهو على خطرٍ من الشرْكِ بالله .

قوله جل ذكره : ﴿ فإنْ تُبْتُم فهو خيرٌ لكم وإنْ تولَّيْتُمْ فاعلموا أنكم غيرُ مُعْجِزِى اللهِ وبَشِّرِ الذين كفروا بعذابٍ أليم ﴾ .

إنْ عادوا إلى البابِ لم يقطعْ رجاءهم ، ومدَّ إلى حدِّ وضوحِ العُذْرِ إرجاءهم . وبيَّن أنهم إنْ أصرُّوا على عُتُوِّهم فإلى مالا يُطِيقون من العذاب مُنْقَلَبُهم ، وفى النار مثواهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إلاَّ الذين عاهدتُم من المشركين ثُمَّ لم ينقُصوكم شيئاً ولم يُظَاهِروا عليكم أحداً فأتِمُّوا إليهم عَهْدَهم إلى مُدَّتِهم إنَّ اللهَ يُحِبُّ المتقين ﴾ :

(١) وردت (الإمهال) والصواب أن تكون (الإهمال) لأن الإمهال لا يكون إلا من الحق ، ومألوفهم ومعهودهم (الإهمال) .

منْ وَفَّى الحقَّ فى عقدِه فَزِدْه على حفظِ عهدِه ؛ إذ لا يستوى مَنْ وفَّاه ومنْ جفاه .

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا انسلخَ الأشهُرُ الحُرُمُ ﴾ .

يريد إذا انسلخ الحُرُمُ فاقتلوا مَنْ لا عهدَ له من المشركين ، فإنَّهم — وإن لم يكن لهم عهد وكانوا حُرُماً — جعل لهم الأمانَ فى مدة هذه المُهلَة ، (. . . .)[1] فكرتم يأمر بترك قتال مَنْ أبَى كيف يرضى بقطع وصال مَنْ أتَى ؟! .

قوله جل ذكره : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وَجَدْتُموهم وخُذوهم واحصروهم واقْعُدُوا لهم كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ .

أمَرَهم بمعالجة جميع أنواع القتال مع الأعداء .

وأعْدَى عدوِّك نَفْسُكَ التى بين جَنْبَيْك ؛ فسبيلُ العبدِ فى مباشرة الجهاد الأكبر مع النَّفْس بالتضييق عليها بالمبالغة فى جميع أنواع الرياضات ، واستفراغ الوسع[2] فى القيام بصدق المعاملات . ومِنْ تلك الجملة ألا ينزلَ بساحات الرُّخَصِ والتأويلات ، و يأخذَ بالأشقِّ فى جميع الحالات

قوله جل ذكره : ﴿ فإنْ تابوا وأقاموا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ فخَلُّوا سبيلَهم إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾ .

حقيقة التوبة الرجوعُ بالكلية من غير أن تتركَ بقية . فإذا أسْلَمَ الكافرُ بعد شِرْكه ، ولم يُقَصِّرْ فى واجبٍ عليه من قِسْمَىْ فِعْله وتَرْكه ، حَصَلَ الإذنُ فى تَخْلِيَةِ سبيله وفكِّه :

إن وَجَدْنا لِمَا ادَّعَيْتَ شهوداً   لم نجدْ عندنا لحقٍّ حدوداً

وكذلك النَّفْسُ إذا انخنست ، وآثارُ البشرية إذا انْدَرَسَتْ ، فلا حَرَجَ — فى التحقيق — فى المعاملات فى أوان مراعاة الخطرات مع الله عند حصول المكاشفات . والجلوسُ مع الله

---

(١) مشتبهة

(٢) وردت (الواسع) والصواب أن تكون الوسع .

أَوْلَى من القيام بباب الله تعالى ، قال تعالى فيما ورد به الخبر : « أنا جليس مَنْ ذكرنى »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ من المشركين استجارك فَأجِرْه حتى يسمعَ كلامَ الله ثم أَبْلِغه مأمَنَه ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون ﴾ .

إذا استجار المُشْرِكُ — اليومَ — فلا يُرَدُّ حتى يسمعَ كلامَ الله ، فإذا استجار المؤمنُ طول عمره من الفراق — متى يُمْنَعُ من سماع كلام الله ؟ ومتى يكون فى زمرة مَنْ يقال لهم : « اخسئوا فيها ولا تكلمون[2] » .

وإذ قال — اليومَ — عن أعدائه : « فَأجِرْه حتى يسمع كلامَ الله » فإنْ لم يؤمن بعد سماع كلامه نُهِىَ عن تعرضه حيث قال : « ثم أبلغه مأمنه » — أترى أنه لا يُؤَمِّنُ أولياءه — غداً — مِنْ فراقه ، وقد عاشوا اليومَ على إيمانه ووفائه ؟ ! كلا .. إنه يمتحنهم بذلك ، قال تعالى : « لا يحزنهم الفزعُ الأكبر »[3] .

ثم قال : « ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون » فإذا كان هذا بِرَّه بِمَنْ لا يَعْلَم فكيف بِرُّه بِمَنْ يعلم ؟

ومتى نُضَيِّعُ مَنْ يُنِيخُ ببابنا والمُعْرِضون لهم نعيمٌ وافِرُ ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ كيف يكون للمشركين عَهْدٌ عند اللهِ وعند رسولِه إلا الذين عاهَدْتُمْ عند المسجدِ الحرامِ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إنَّ اللهَ يُحبُّ المتقين ﴾ .

---

(١) جاء فى الرسالة ص ١١١ قال محمد الفراء سمعت الشبلى يقول : (أليس الله تعالى يقول : أنا جليس من ذكرنى ؟ ما الذى استفدتم من مجالسة الحق ؟) .

(٢) آية ١٠٨ سورة المؤمنون .

(٣) آية ١٠٣ سورة الأنبياء .

كيف يكون المُفْلِسُ من عرفانه كالمخلص فى إيمانه ؟

وكيف يكون المحجوبُ عن شهوده كالمستهلَكِ فى وجوده ؟

كيف يكون مَنْ يقول « أنا » كمن يقول « أنت » ؟ وأنشدوا :

وأحبابُنا شتَّان : وافٍ وناقِصٌ ولا يستوى قطٌّ مُحِبٌ وباغِضُ

قوله : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » ، إنْ تَمَسَّكُوا بحبل[1] وفائنا أحللناهم ولاءنا ، وإنْ زاغوا عن عهدنا أبليناهم بصدِّنا ، ثم لم يَرْبَحُوا فى بُعْدِنا .

« إنَّ اللهَ يحب المتقين » : المُتَّقِى الذى يستحق محبةَ مَنْ يُتَّقَى ، وذلك حين يتقى محبَّةَ نَفْسِهِ ، وذلك بِتَرْكِ حظِّه والقيامِ بحقِّ ربِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ كيف وإنْ يَظْهَرُوا عليكم لا يرقُبُوا فيكم إلًّا ولا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بأفواهِهِم وتأبى قلوبُهم وأكثرهم فاسِقون ﴾ .

وَصَفَهم بلؤم الطبع فقال : كيف يكونون محافظين على عهودهم مع ما أضمروه لكم من سوء الرضاء ؟ فلو ظَفِرُوا بكم واستولوا عليكم لم يُراعوا لكم حُرْمَةً ، ولم يحفظوا لكم قرابةً أو ذِمَّةً .

وفى هذا إشارة إلى أنَّ الكريمَ إذا ظَفِرَ غَفَرَ ، وإذا قدر ما غَدَرَ ، فيما أَسرَّ وجَهَرَ .

قوله « يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبُهم » أى لا عَجَبَ مِنْ طَبْعِهِمْ ؛ فإنهم فى حقِّنا كذلك يفعلون : يُظْهِرُون لباسَ الإيمان ويُضْمِرُون الكفر . وإنهم لذلك يعيشون معكم فى زِيِّ الوفاق ، ويستبطنون عين الشِّقاق وسوء النِّفاق .

قوله جل ذكره : ﴿ اشْتَرَوْا بآياتِ اللهِ ثَمَنًا قليلًا فَصَدُّوا

---

(١) وردت (لجبل) وهى خطأ فى النسخ .

عن سبيله إنهم سَاء ما كانوا
يعملون ﴾ :

مَنْ رَضِىَ مِنَ الله بغير الله أرخص فى صفقته ثم إنه خسر فى تجارته ؛ فَلَاَلَه — وهو عن الله — أثر استمتاع، ولا له — فى دونه سبحانه — اقتناع ؛ بَقِىَ عن الله، ولم يستمتع عن الله . وهذا هو الخسران المبين .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يَرْقُبُونَ فى مُؤْمِنٍ إِلاًّ ولا ذِمَّةً
وأولئك هم الْمُعْتَدُون ﴾ .

كيف يراعى حقَّ المؤمنين مَنْ لا يراعى حق الله فى الله ؟ أخلاقُهم تشابهت فى تَرْكِ الْحُرْمَة .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاةَ وآتَوُا
الزكاةَ فإخوانُكم فى الدِّين ونُفَصِّلُ
الآياتِ لقومٍ يعلمون ﴾ .

معناه : وإن قبلناهم وصَلُحُوا لولائنا فَلُحْمَةُ النَسَبِ فى الدِّين بينكم وبينهم وشيجة[1] ، وإلا فليكن الأجانبُ منا على جانبٍ منكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهم مِنْ بَعْدِ
عَهْدِهم وطَعَنُوا فى دينِكم فقاتِلوا أئِمةَ
الكفرِ إنهم لا أَيْمَانَ لهم لَعَلَّهم
يَنْتَهُون ﴾ .

إذا جنحوا إلى الغَدْرِ ، ونكثوا ما قدَّموه من ضمان الوفاء بالعهد ، وبسطوا ألسنتهم فيكم باللومِ فاقصدوا مَنْ رحى الفتنةِ عليه تدور ، وغُصْنُ الشَّرِّ مِنْ أَصْلِه يَتَشَعَّبُ ، وهم سادةُ الكفار وقادتُهم .

وحقُّ القتالِ إعدادُ القوةِ جهراً ، والتبرِّى عن الحول والقوةِ سِرّاً .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلاَ تُقَاتِلون قوماً نكثوا أَيْمَانَهم

(١) أى مشتبكة متصلة .

وَهَمُّوا بإخراجِ الرَّسولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتخشَوْنَهم فاللهُ أَحقُ
أن تخشَوْه إنْ كنتم مؤمنين ﴾

حَرَّضَهم على القتال — على ملاحظة أمرِ الله بذلك — لا على مقتضى الانطواء على الحقد لأحد، فإنَّ مَنْ غَضِبَ لنَفْسِه فمذمومُ الوصف، ومَنْ غَضِبَ لله فإنَّ نصرَ اللهِ قريبٌ.

وقال « أتخشونهم فالله أحقُّ أن تخشَوْه » : فالخشية من الله بشيرِ الوَصْلة، والخشية من غيرِ الله نذير الفُرقة. وحقيقة الخشية نَفْضُ السِّرِّ عن ارتكاب الزَّجر ومخالفة الأمر.

قوله جل ذكره : ﴿ قاتِلوهم يُعذِّبْهُمُ اللهُ بأيديكم
ويُخْزِهِم وينْصُرْكُم عليهم ويَشْفِ
صدورَ قومٍ مؤمنين * ويُذْهِبْ
غَيْظَ قلوبِهم، ويتوبُ اللهُ على مَنْ
يشاء واللهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾

هوَّن عليهم كافةَ المخاطرة بالمهجة بما وَعَدَهُم مِن الظَّفَرِ والنصرة، فإنَّ شهودَ خِزْيِ العدوِّ مما يُهَوِّنُ عليهم مقاساةَ السوء. والظَّفَرُ بالأَرَب يُذْهِبُ تعَبَ الطَّلَب.

وشفاء صدور المؤمنين على حسب مراتبهم فى المقام والدرجات ؛ فمنهم مَنْ شفاء صدره فى قَهْرِ عدوِّه، ومنهم مَنْ شفاء صدرِه فى نَيْلِ مَرْجُوِّه. ومنهم مَنْ شفاء صدره فى الظَّفَر بمطلوبه، ومنهم مَنْ شفاء صدرِه فى لقاء محبوبه. ومنهم من شفاء صدره فى درك مقصوده، ومنهم من شفاء صدره فى البقاء بمعبوده.

وكذلك ذهابُ غيظِ قلوبهم تختلف أسبابه، وتتنوَّعُ أبوابُه، وفيما ذَكَرْنا تلويحٌ لِما تركنا[1].

« ويتوبُ اللهُ على مَنْ يشاء » حتى يكون استقلاله بحوِّل الأحوال.

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ حَسِبْتم أَنْ تُتْرَكُوا ولمَّا يَعْلَمِ

(1) توضح هذه العبارة ميل القشيرى للإقلال خشية الملال — كما ذكر فى مقدمة كتابه.

اللهُ الذين جاهدوا منكم ولم يتَّخِذُوا
مِنْ دونِ اللهِ ولا رَسُولِهِ ولا المؤمنينَ
وَليجةً ، واللهُ خبيرٌ بما تعملون ﴾

مَنْ ظَنَّ أنه يُقْنَعُ منه بالدعوى — دون التحقق بالمعنى — فهو على غَلَطٍ في حسبانه . والذي طالبهم به من حيث الأمر صِدْقُ المجاهدةِ في الله ، وتَرْكُ الركونِ إلى غير الله ، والتباعدُ عن مُساكَنَةِ أعداءِ الله . . ثقةً بالله ، واكتفاءً بالله ، وتبرِّياً من غير الله .

وهذا الذي أمرهم به ألا يتخذوا من دون المؤمنين وليجةً فالمعنى فيه : ألا يُفْشُوا في الكفارِ أسرارَ المؤمنين .

وأولُ مَنْ يهجره المسلمُ — لئلا تَطَّلِعَ على الأسرار — نَفْسُه التي هي أعدى عدوٍّ ، وفي هذا المعنى قال قائلهم :

كتابي إليكم بعد موتي بليلةٍ ولم أدرِ أنِّي بعد مَوْتِيَ أكتبُ

ويقال : إن أبا يزيد[1] — فيما أُخْبِرَ عنه — أنه قال للحقِّ في بعض أوقات مكاشفاته : كيف أطلبك ؟ فقال له : فارِقْ نفْسَكَ .

ويقال إن ذلك لا يتمُّ ، بل لا تحصل منه شظيّة إلا بكَيِّ عُرُوقِ الأطماعِ والمطالباتِ لِماً في الدنيا ولِماً في العُقبي ولِماً في رؤية الحال والمقام — ولو بذَرَّةٍ . والحريةُ عزيزةٌ[2] ... قال قائلهم :

أتمنى على الزمانِ مُحَالاً أنْ ترى مُقْلَتَايَ طَلْعَةَ حُرٍّ

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان للمُشركين أنْ يَعْمُرُوا
مساجِدَ اللهِ شاهدين على أنفُسِهم

---

(١) هو أبو يزيد البسطامي كان جده (سروشان) مجوسياً وأسلم ، وهو أحد إخوة ثلاثة كانوا جميعاً زهاداً وأصحاب أحوال ، مات سنة ٢٦١ ، وقيل سنة ٢٣٤ (طبقات السلمي) و (رسالة القشيري) .
(٢) (والحرية عزيزة) هنا معناها نادرة الوجود .

بالـكُفْرِ أولئك حَبِطَتْ أعمالهُم ،
وفى النَّارِ هُمْ خالِدون ﴾[1]

عمارةُ المساجد بإقامة العبادة فيها ، والعبادةُ لا تُقْبَلُ إلا بالإخلاص ، والمشرِكُ فاقِدُ الإخلاص ، وشهادتُهم على أنفسهم بالـكفر دعواهم حصول بعض الحدثان بتأثير الأسباب ، فمن أثبت فى عقده جوازَ ذَرَّة فى العالم من غير تقديره — سبحانه — شارَكَ أربابَ الشِّرْكِ فى المعنى الذى لزِمَتْهم به هذه السِّمة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما يَعْمُرُ مساجِدَ اللهِ مَنْ آمنَ باللهِ
واليومِ الآخِرِ وأقامَ الصلاةَ وآتَى
الزكاةَ ولم يخشَ إلا اللهَ فعسى أولئك
أنْ يكونوا مِنَ المهتدين ﴾

لا تـكون عمارةُ المساجد إلا بتخريبِ أوطان البشرية ، فالعابد يُعَمِّرها بتخريب أوطان شهوته ، والزاهدُ يعمرها بتخريب أوطان مُنْيته ، والعارف يعمرها بتخريب أوطان علاقته ، والموَحِّدُ يعمرها بتخريب أوطان ملاحظته ومُسَاكنتِه . وكلٌّ واحدٍ منهم واقفٌ فى صفته ؛ فلصاحب كلِّ موقفٍ منهم وصفٌ مخصوص .

وكذلك رُتْبتُهم فى الإيمان مختلفة ؛ فإيمانٌ من حيث البرهان ، وإيمان من حيث البيان ، وإيمان من حيث العيان ، وشتان ما هم ! قال قائلهم :

لا تعرِضَنَّ بِذِكْرِنا فى ذِكْرِهِم   ليس الصحيحُ — إذا مشى — كالمُقْعَدِ

قوله جل ذكره : ﴿ أجَعَلْتُم سِقَايَة الحاجِّ وعمارةَ
المسجدِ الحرامِ كَمَنْ آمنَ باللهِ واليومِ
الآخِرِ وجاَهَدَ فى سبيل اللهِ لا يستوُون
عنـد اللهِ واللهُ لا يهدى القومَ
الظالمين ﴾

(١) أخطأ الناسخ إذ أنهى الآية : (م فيها خالدون)

ليس مَنْ قام بمعاملة ظاهره كمن استقام فى مواصلة سرائره ، ولا مَنْ اقتبس من سراج علومه كمن استبصر بشموس معارفه ، ولا من نُصبَ بالباب من حيث الخدمة كمن مُكِّنَ من البِساط من حيث القربة[1] ، وليس نعتْ مَنْ تَكَلَّفُ نِفاقاً كوصفِ مَنْ تحقّقَ وِفاقاً ، بينهما بَوْنٌ بعيدٌ !

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آمنوا وهاجَرُوا وجَاهَدُوا
فى سبيل اللهِ بأموالِهم وأنْفسِهم
أعظمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وأولئك هم
الفائِزون ﴾

« آمنوا » أى شاهدوا بأنوار بصائرهم حتى لم يبقَ فى سماءِ يقينهم سحابُ رَيْبٍ ، ولا فى هواءِ[2] معارفهم ضبابُ شك .

« وهاجروا » : فلم يُعَرِّجُوا فى أوطان التفرقة ، فَتَمَحَّضَتْ[3] حركاتهم وسكناتهم بالله لله .

« وجاهدوا » : لا على ملاحظة غَرَضٍ أو مطالعة عِوَضٍ ، فلم يَدَّخِرُوا لأنفسهم — مِنْ ميسورهم — شيئاً إلا آثروا الحقَّ عليه ، فَظَفِروا بالنعمة ، فى قيامهم بالحقّ بعد فنائهم عن الخلْق .

قوله جل ذكره : ﴿ يُبَشِّرهم ربُّهم برحمةٍ منه ورِضوانٍ
وجناتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ * خالدين
فيها أبداً إنَّ اللهَ عِنْدَهُ أجْرٌ
عظيم ﴾

---

(١) يتدرج الدخول عليه — حسبما نعرف من أسلوب القشيرى — من الباب إلى البساط إلى العقوة أو الساحة ثم السدة .

(٢) وردت (هؤلاء) وقد صوبناها (هواء) لتلائم (سماء) و (سحاب) و(ضباب) فضلا عن أنها أقرب فى الكتابة إليها .

(٣) تمحضت أى صارت خالصة لله

البشارة من الله تعالى على قسمين: بشارة بواسطة المَلَك، عند التوفى:

« تَتَنَزَّلُ عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة »[1].

وبشارة بلا واسطة بقول المَلَك، إذ يُبَشِّرهم ربُّهم برحمةٍ منه، وذلك عند الحساب. يبشرهم بلا واسطة بِحُسْنِ التولّى؛ فعاجِلُ بشارتهم بنعمة الله، وآجل بشارتهم برحمة الله، وشتان ما هما!

ويقال البشارة بالنعمة والجنة لأصحاب الإحسان، والبشارة بالرحمة لأرباب العصيان، فأصحاب الإحسانِ صَلُحَ أمرهم للشهرة فأَظْهَرَ أَمْرَهُمُ للمَلَكِ حتى بَشَّر وهم جَهْراً، وأهلُ العصيان صلح حالهم لِلسَّتْرِ فتولّى بشارتهم — مِنْ غير واسطة — سِرّاً.

ويقال إنْ كانت للمطيع بِشارةٌ بالاختصاص فإنَّ للعاصى بشارة بالخلاص. وإن كان للمطيع بشارة بالدرجات فإن للعاصى بشارة بالنجاة.

ويقال إنَّ القلوبَ مجبولةٌ على محبة من يُبَشِّر بالخير؛ فأراد الحقُّ ـ سبحانه ـ أن تكون محبةُ العبد له — سبحانه — على الخصوص؛ فتولّى بشارته بعزيز خطابه من غير واسطة، فقال: يبشرهم ربهم برحمة منه » وفى معناه أنشدوا:

لولا تَمتُّعُ مُقْلَتِى بلقائه لَوَهَبْتُها بُشْرَى بقرب إيابه

ويقال بَشَّرَ العاصِىَ بالرحمة، والمطيعَ بالرضوان، ثم الـكافةَ بالجنة؛ فَقَدَّمَ العاصِىَ فى الذكر، وقدَّم المطيع بالبرِّ، فالذِّكر قوْلُه وهو قديم والبِرُّ طَوْلُه وهو عميم. وقولُه الذى لم يَزَلْ أعَزُّ مِنْ طوْلِه الذى حصَلَ. قدَّم العصاة على المطيعين لأنَّ ضَعْفَ الضعيف أَوْلَى بالرِّفق من القوى.

ويقال (قدَّم أمر العاصى بالرحمة حتى إذا كان يومُ العَرْضِ وحضورِ الجمعِ لا يفتضح العاصى)[2].

ويقال « يبشرهم ربُّهم برحمته » يُعَرِّفُهم أنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من تلك الدرجات

---

(١) آية ٣٠ سورة فصلت

(٢) ما بين القوسين موجود فى الهامش أثبتناه فى موضعه من النص حسب العلامات المميزة، ولنتأمل مقدار انفساح صدور الصوفية بالنسبة للعصاة، وذلك نتيجة امتلاء قلوبهم بالأمل في المحبوب.

بسعيهم وطاعتهم ، ولكن برحمته — سبحانه — وصلوا إلى نعمته ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحدٍ يُنَجِّيه عمله . قالوا : ولا أنتَ يارسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته »[1] .

قوله : « لهم فيها نعيم مقيم » : قومٌ نعيمُهم عطاء ربِّهم على وصف التمام ، وقومٌ نعيمُهم لقاء ربهم على نعت الدوام ؛ فالعابدون لهم تمام عطائه ، والعارفون لهم دوام لقائه .

ثم قال : « خالدين فيها أبداً » والكناية فى قوله « فيها » كما ترجع إلى الجنة تصلح أن ترجع إلى الحالة ، سيما وقد ذكر الأجر بعدها ؛ فكما لا يَقْطَعُ عطاءه عنهم فى الجنة لا يمنع عنهم لقاءه متى شاءوا فى الجنة ، قال تعالى : « لا مقطوعة ولا ممنوعة »[2] أى لا مقطوعةٌ عنهم نعمتُه ، ولا ممنوعةٌ منهم رؤيتُه .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إنِ استحبوا الكُفْرَ على الإيمان ومَنْ يَتَوَلَّهُم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾

مَنْ لم يَصْلُحْ بطاعته لربه لا تَسْتَخْلِصْهُ لصحبة نَفْسِك .

ويقال من آثر على الله شيئاً يُبَارِكْ له فيه ؛ فيَبْقَى بذلك عن الله ، ثم لا يُبْقِى ذلك معه ، فإنْ استبقاه بجهده — كيف يستبقى حياته إذا أذِنَ الله فى ذهاب أَجَلِهِ ؟ وفى معناه أنشدوا :

مَنْ لم تَزَلْ نعمتُه قَبْلَهُ زَالَ مع النعمة بالموتِ

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إنْ كان آباؤُكم وأبناؤُكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتُكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَها ومساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ

(١) الشيخان عن عائشة مرفوعاً : سددوا وقاربوا وأبشروا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم الجنة عمله ، قالوا ...الخ

(٢) آية ٣٣ سورة الواقعة

إليكم مِنَ اللهِ ورسُولِهِ وجهادٍ في سبيله
فتربَّصُوا حتى يأتِيَ اللهُ بأمره
واللهُ لا يهْدِى القومَ الفاسقين ﴾

ليس هذا تخييراً لهم ، ولا إذْناً فى إيثارِ الحظوظِ على الحقوقِ ، ولكنه غاية التحذير والزَّجر عن إيثار شيءٍ من الحظوظ على الدِّين ، ومرورُ الأيامِ حَكَمٌ عَدْلٌ يَكْشِفُ فى العاقبة عن أسرار التقدير ، قال قائلهم :

سوف ترى إذا انجلى الغُبَارُ أفَرَسٌ تحتك أم حمار ؟

ويقال علامةُ الصدقِ فى التوحيد قطعُ العلاقات ، ومفارقةُ العادات ، وهجران المعهودات والاكتفاء بالله فى دوام الحالات .

ويقال مَنْ كَسَدَت سوقُ دِينِه كَسَدَتْ أسواقُ حظوظه ، وما لم تَخْلُ منك مَنَازِلُ الحظوظ لا تعْمُرُ بك مَشَاهِدُ الحقوق .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ نصرَكم اللهُ فى مواطِنَ كثيرة ﴾

النصرة من الله تعالى فى شهود القدرة ، والمنصورُ مَنْ عَصَمه اللهُ عزَّ وجلَّ عن التوهُّم والحسبان ، ولم يَكِلْه إلى تدبيره فى الأمور ، وأثبته الحقُّ — سبحانه — فى مقام الافتقار متبرياً عن الحَوْل والمُنَّة ، متحققاً بشهود تصاريف القدرة ، يأخُذُ الحقُّ — سبحانه — بيدِه فيخرجه عن مهواة تدبيره ، ويوقفه على وصف التصبُّر لقضاء تقديره .

قوله جل ذكره ﴿ ويومَ حُنَيْنٍ إذْ أعْجَبَتْكم كَثْرَتُكم
فلم تُغْنِ عنكم شيئاً وضاقَتْ عليكم
الأرضُ بما رَحُبَتْ ثمَّ وَلَّيْتُم
مُدْبِرين ﴾ .

يعنى نَصَرَكم يومَ حُنَيْن حين تَفَرَّقَ أكثرُ الأصحاب ، وافترت أنياب الكَرَّةِ عن نِقاب القَهْر فاضطربت القلوبُ ، وخانت القوى أصحابَها ، ولم تُغْنِ عنكم كَثْرَتُكم ، فاستخلص اللهُ أسرارَكم — عند صدق الرجوع إليه — بحُسْنِ السكينةِ النازلة عليكم ، فقَلَبَ اللهُ الأمرَ على

الأعداء ، وخَفَقَتْ راياتُ النصرة ، ووقعت الدائرةُ على الـكفار ، وارتدَّتْ الهزيمةُ عليهم فرجعوا صاغرين .

قوله جل ذكره ﴿ ثمَّ أنزل اللهُ سكينتَه على رسولِه وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تَرَوْها وعَذَّبَ الذين كفروا وذلك جزاء الـكافرين ﴾

السكينةُ ثَلَجُ القلب عند جريان حُكْمِ الربِّ بنعت الطمأنينة ، وخمودُ آثار البشرية بالـكلية ، والرضاء بالبادى من الغيب من غير معارضةِ اختيارٍ .

ويقال السكينة القرار على بساط الشهود بشواهد الصحو ، والتأدب بإقامة صفات العبودية من غير لحوق مشقة ، وبلا تحرُّكِ عِرْقٍ لمعارضةِ حُكْمٍ . والسكينة[1] المنزلةُ على « المؤمنين » خمودُهم تحت جريان ما وَرَدَ من الغَيْبِ من غير كراهةٍ بنوازع البشرية ، واختطافُ الحقِّ إياهم عنهم حتى لم تستفزهم رهبةٌ من مخلوق ، فَسَكَنَتْ عنهم كلُّ إرادةٍ واختيارٍ .

« وأنزل جنوداً لم تَرَوْها » من وفور اليقين وزوائد الاستبصار .

« وعذَّبَ الذين كفروا » بالتطوح[2] فى متاهات التفرقة ، والسقوط فى وهدة[3] ضيق التدبير ، ومِحنَةِ الغَفْلةِ ، والغَيْبَةِ عن شهود التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ يتوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذلكَ على مَنْ يَشاء واللهُ غَفُورٌ رحيمٌ ﴾

ردهم من الجهل إلى حقائق العلم ، ثم نَقَلَهم من تلك المنازل إلى مشاهد اليقين ، ثم رقَّاهم عن تلك الجملة بما لقَّاهم به من عين الجمع .

---

(١) وردت (والسكين) وهى خطأ فى النسخ

(٢) وردت (والتطوع) بالعين وهى خطأ في النسخ .

(٣) جاءت الواو فوق فاء (فى) واكتملت بعدها خطأ : (هذه) ، والصواب أن تأخذ الواو مكانها بعد (في) وتصبح الـكلمة (وهدة)

قوله جل ذكره ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَسٌ فلا يقربوا المسجدَ الحرامَ بعد عامهم هذا ﴾

فقدوا طهارة الأسرار بماءِ التوحيد ، فبقوا فى قذورات الظنون والأوهام ، فَمُنِعُوا قُربانَ المساجدِ التى هى مشاهدُ القرب . وأمَّا المؤمنون فطهَّرَهم عن التدنُّس بشهود الأغيار ، فطالعوا الحقَّ فَرْداً فيما يُبَيِّنُه مِنَ الأمرِ ويُمضِيه من الحُكْم .

قوله جل ذكره ﴿ وإنْ خِفْتُم عَيْلَةً فسوف يُغْنيكم اللهُ مِنْ فَضْلِه إنْ شاء إنَّ اللهَ عليمٌ حكيمٌ ﴾

تَوَقُّعُ الأرزاقِ من الأسبابِ من قضايا انغلاق باب التوحيد ، فَمَنْ لم يفرِدْ معبودَه بالقسمة بَقِيَ فى فقرٍ مُسَرْمَدٍ .

ويقال مَنْ أناخَ بعُقْوةِ كَرَمِ مولاه ، واستمطر سحابَ جودِه أغناه عن كل سبب ، وكفاه كلَّ تَعَبٍ ، وقضى له كلَّ سُؤْلٍ وأرَب ، وأعطاه من غير طلب .

قوله جل ذكره : ﴿ قاتِلوا الذين لا يؤمنون باللهِ ولا باليوم الآخِرِ ولا يُحَرِّمون ما حرَّم اللهُ ورسولُه ولا يَدِينُون دينَ الحقِّ مِنَ الذين أُوتُوا الكتابَ حتى يُعْطوا الجزيةَ عن يَدٍ وهم صاغِرون ﴾

مَنْ استوجب الهوانَ لا ينجيكَ مِنْ شَرِّه غير ما يستحقه من الإذلال على صغره ، ومَنْ دَاهَن عدوَّه فبالحرىِّ أنْ يلقى سوءه .

ومِنْ أشدِّ الناسِ لكَ عداوة ، وأبعدِهم عن الإيمان - نفسُكَ المجبولةُ على الشرِّ فلا تقْلَعُ إلاَّ بذبحها بِمُدْيَةِ المجاهدات . وهى لا تؤمن بالتقدير ، ولا يزول شكها قط ، وكذلك تخلدُ إلى التدبير [1] ،

(١) أى تدبير الإنسان الناقص لتقدير الحق.

ولا تسكن إلا بوجود المعلوم[1] ، ولا تقبل منك إلا كاذبَ المواعيد ، ولذلك قالوا :

وأَكْذِبْ النَّفْسَ إذا حَدَّثْتَها فإنَّ صِدْقَ القول يذرى بالأمل

قوله جل ذكره : ﴿ وقالَتْ اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ ،
وقالت النَّصارَى المسيحُ ابنُ اللهِ ،
ذلك قولُهم بأفواهِهِم ﴾

لو كان هذا فى تخاطب المخلوقين لكان عينَ الشكوى ؛ والشكوى إلى الأحباب تشير إلى تحقق الوصلة .

شكا إليهم ما حصل من قبيح أعمالهم ، وكم بين مَنْ تشكو منه وبين مَنْ تشكو إليه ! !

قوله جل ذكره : ﴿ يُضَاهِؤُنَ قَوْلَ الذين كفروا من
قبلُ ، قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكون ﴾

الكفار قبلهم جحدوا الربوبية ، وهؤلاء أقروا بالله ، ثم لما أثبتوا له الوَلَدَ نقضوا ما أقروا به من التوحيد ، فصاروا كالكفار قَبْلَهم .

ويحتمل أن تكون مضاهاةُ قولهم فى وصف المعبود بأنَّ عيسى ابنه وعزيراً ابنه كقولِ الكفار قَبْلَهم إنَّ الملائكةَ بناتُ الله .

ويقال لمَّا وصفوا المعبود بما يتعالى عن قولهم لم ينفَعْهُم صِدْقُهم فى الإقرار بربوبيته مما أضافوا إليه من سوء القالة . وكلُّ مَنْ أطلق فى وصفه ما يتقدَّسُ — سبحانه — عنه فهو للأعداء مُشاكِلٌ فى استحقاق الندم والتوبيخ .

قوله جل ذكره : ﴿ اتخذوا أحبارَهم ورُهْبانَهم أرباباً من
دون اللهِ والمسيحَ ابنَ مريم وماأُمِرُوا
إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو
سبحانه عَمَّا يُشْرِكون ﴾

---

(١) ربما كان المقصود بالمعلوم هنا مايقع فى نطاق الحس ؛ وتقدير الحق غيبى لا يقع تحت حس الإنسان وعلم الإنسان .

كما لا تجوز مجاوزة الحد فى وَضع القدْرِ لا تجوز مجاوزة الحد فى رَفع القَدْرِ ، وفى الخبر : « أُمِرْنا أنْ نُنْزِلَ الناسَ منازِلهم »

فَمَنْ رأى من المخلوقين شظيةً من الإبداع أنْزَلَهم منزلةَ الأرباب ، وذلك — فى التحقيق — شِرْكٌ ، وما أخلص فى التوحيد مَنْ لم يرَ جميعَ الحادثات بصفاتها (. . . .)[1] من الله .

« وما أُمِروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً » : فَمَنْ رفع فى عقده مخلوقاً فوق قَدْرِه فقد أشرك بربِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ يريدون أنْ يطفِئوا نورَ اللهِ بأفواهِهِم
ويأبى اللهُ إلاَّ أنْ يُتِمَّ نورَه ولو كَرِهَ
الكافرون ﴾

مَنْ رام أن يَسْتُرَ شُعاعَ الشمس بِدُخانٍ يوجهه من نيرانه ، أو عالج أنْ يمنع حكم السماء بحيلته وتدبيره ، أو يُسْقِطَ نجومَ الفَلَكِ بسهام قوسه — أظهرَ رُعونتَه ثم لم يَحْظَ بمراده .

كذلك مَنْ توهَّم أن سُنَّةَ التوحيد يعلوها وَهَجُ الشُّبَه فقد خاب فى ظنِّه ، وافتضح فى وهمه .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى أرْسَل رسولَه بالهُدَى ودينِ
الحقِّ لِيُظهِرَه على الدِّين كُلِّه
ولو كَرِه المشركون ﴾

أزاحَ العِلَل بما ألاح من الحُجَج ، وأزال الشُّبَه بما أفصح من النهج ؛ فشموسُ الحقِّ طالِعةٌ ، وأدلة الشرع لامعة ، كما قالوا :

هى الشمسُ إلا أنَّ للشمسِ غيبةً وهذا الذى نعنيه ليس يَغيب

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا إنَّ كثيراً من
الأحبار والرُّهبانِ لَيأْكُلون أموالَ
الناسِ بالباطلِ ويَصُدُّونَ عن
سبيل اللهِ ﴾

---

(١) مشتبهة .

العالِمُ إذا ارتفق بأموال الناس عِوَضاً عما يُعلِّمُهم زالَتْ بركاتُ عِلْمِه ، ولم يَطِبْ فى طريق الزهد مَطْعَمُه .

والعارِفُ إذا انتفع بخدمة المريد ، أو ارتفق بشيءٍ من أحواله وأعماله زالت آثارُ هِمَّتِه ، ولم تُجْدِ فى حكْمِ التوحيد حالتُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يَكْنِزُون الذهبَ والفِضَّة ولا يُنْفِقُونها فى سبيل اللهِ فَبَشِّرْهم بعذابٍ أليم ﴾ .

لهم فى الآجِلِ عقوبةٌ . والذين لا يؤثِرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فلهم فى العاجل حجبة . وقليلٌ مِنْ عبادِهِ مَنْ سَلِمَ من الحجاب فى مُحْتَضَرِه والعقابِ فى مُنْتَظَرِه[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ يومَ يُحْمَى عليها فى نارِ جهنَّمَ فتُكْوَى بها جِباهُهم وجُنُوبُهم وظُهورُهم هذا ما كَنَزْتُم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تَكْنِزُون ﴾

لمَّا طلبوا الجاهَ عند الخَلْقِ بمالِهم ، وبَخِلُوا بإخراج حقِّ الله عنه شانَ وجوهَهم . ولمَّا أسندوا ظهورَهم إلى أموالهم . قال تعالى : « فتكوى بها جِبَاهُهُم وجُنُوبُهُم وظُهُورهم » .

ويقال : لمَّا (عبسوا) فى وجوه العفاة[2] وعقدوا حواجبَهم وُضِعَتْ الكَيَّةُ على تلك الجباه المقبوضة عند رؤية الفقراء ، ولمَّا طَوَوْا كَشْحَهُم دون الفقراء — إذا جالسوهم — وَضَعَ المِكواةَ على جُنُوبِهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ عِدَّةَ الشهورِ عند اللهِ اثنا

(١) محتضره أى حاضره وعاجله ، ومنتظره أى مستقبله وآجله .
(٢) العفاة م طالبو العطاء ومستحقوه

عَشَرَ شهراً في كتابِ اللهِ يومَ
خَلَقَ السموات والأرضَ منها أربعةٌ
حُرُمٌ ذلكَ الدِّينُ القيِّمُ ﴾

لمَّا عَلِم أنهم لا يُداوِمُون على مُلازَمَةِ القُرْبِ أفْرَدَ بعضَ الشهور بالتفضيل ، ليخُصُّوها باستكثار الطاعة فيها . فأمَّا الخواصُ مِنْ عبادِه فجميعُ الشهورِ لهم شعبانُ ورمضانُ ، وكذلك جميع الأيام لهم جمعة ، وجميع البقاع[1] لهم مسجد . . . . وفي معناه أنشد بعضهم .

يا ربُّ إنَّ جهادى غيرُ مُنْقَطِعٍ وكلُّ أرضٍ لى ثَغْرُ طرسوس

قوله جل ذكره : ﴿ فلا تظلموا فيهنَّ أنْفُسَكم وقاتلوا
المشركين كافَّة كما يقاتلونَكم كافة
واعلموا أنَّ اللهَ مع المتقين ﴾

قال للعوام : لا تَظلِموا في بعض الشهور أنْفُسَكُم ، يعني بارتكاب الزَّلَّة . وأمَّا الخواص فمأمورون ألا يَظْلِمُوا في جميع الشهور قلوبَهم باحتقاب الغفلة[2] .

ويقال : الظلم على النَّفْس أن يجعلَ العبدُ زمامَه بيد شهواته ، فتُورِدُه مَواطِنَ الهلاك .

ويقال : الظلم على النَّفْس بخدمة المخلوقين بَدَل طاعة الحقِّ .

ويقال : مَنْ ظَلَم على قلبه بالمضاجعات امْتُحِنَ بِعَدمِ الصفوة في مرور الأوقات .

« وقاتلوا المشركين كافة » : ولا سِلاحَ أمضى على العدوِّ من تَبَرِّيكَ عن حَوْلِكَ وقُوَّتِك .

---

(١) وردت (البقاء) وهى خطأ فى النسخ
(٢) وردت (العقد) والصواب أن تكون (الغفلة) ، فالغفلة للقلب والزلة للنفس

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما النَّسيء[1] زيادةٌ في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحِلُّونه عاماً ويُحَرِّمونه عاماً ليواطِئوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ فيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللهُ ، زُيِّنَ لهم سوءُ أعمالِهم واللهُ لا يهدى القومَ الكافرين ﴾ .

الدِّينُ ملاحظةُ الأمر ومجانَبَةُ الوِزر وتركُ التقدم[2] بين يدى الله سبحانه — في جميع أحكام الشرع ، فالآجالُ فى الطاعاتِ مضروبة ، والتوفيقُ فى عرفانه متَّبع ، والصلاح فى الأمور بالإقامة على نعت العبودية ؛ فالشهرُ ما سمَّاه الله شهراً ، والعامُ والحوْلُ ما أعْلَمَ الخلْقَ أنه قَدْرُ ما بَيَّنه شرعاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا مالَكم إذا قيل لكم انفِرُوا فى سبيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُم إلى الأرضِ أرَضِيتُم بالحياةِ الدنيا مِنَ الآخرةِ فما متاعُ الحياةِ الدُّنيا فى الآخرةِ إلا قليلٌ ﴾ .

عاتَبهم على تَركِ البدار عند توجيه الأمر ، وانتهاز فُرْصَةِ الرُّخصَة .

وأمَرَهم بالجد فى العزم ، والقَصْدِ فى الفعل ؛ فالجنوحُ إلى التكاسل ، والاستر واحُ إلى التثاقل أماراتُ ضعفِ الإيمان إذ الايمان غريمٌ مُلازِمٌ لا يرضى من العبد بغير ممارسة الأشَقِّ ، وملابسة الأحَقِّ .

قولهُ « أرضيتم بالحياة الدنيا » : وهل يَجْمُل بالعابدِ أنْ يختارَ دنياه على عُقباه ؟ وهل يحسُن بالعارف أنْ يؤْثِرَ هواه على رضا مولاه ؟ وأنشدوا

(١) النسيء = تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ، فقد كانوا إذا هل شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهراً آخر

(٢) أى عدم استعجال شيء موقوت بأمر الله وشرعه .. هذا ما نفهمه من السياق

أيجملُ بالأحبابِ ما قد فعلوا ... مضَوْا وانصرفوا ياليتهم قَفَلُوا

إنَّ غيبةَ يومٍ للزاهد عن الباب تَعْدِل شهوراً ، وغيبةُ لحظةٍ للعارف عن البِساط تعدل دهوراً ، وأنشدوا :

الإلفُ لا يَصْبِرُ عن إلْفِهِ ... أكْثَرَ من طَرْفَةِ عَيْنِ

وقد صبَرْنا عَنكُمُ ساعةً ... ما هكذا فِعْلُ مُحِبَّيْنِ

قوله جل ذكره ﴿ إلاَّ تَنْفِروا يُعَذِّبْكم عذاباً أليماً
ويستبدِلْ قوماً غيرَكُم ولا تضرُوه
شيئاً واللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾ .

العذابُ الأليمُ إذا أعرض العَبْدُ عن الطاعةِ ألا يبعث وراءه من جنود التوفيق ما يردُّه إلى الباب .

العذابُ الأليمُ أنْ يَسْلُبَه حلاوةَ النَّجوى إذا آب .

العذابُ الأليمُ الصدودُ يومَ الورود ، وقيل :

واعدونى بالوصالِ — والوصالُ عَذْبُ — ... ورَمَونى بالصُّدودِ والصدُّ صعبُ

العذابُ الأليمُ الوعيدُ بالفِراق ، فأمَّا نَفْسُ الفِراق فهو تمامُ التَّلفِ ، وأنشدوا :

وزَعمْتَ أنَّ البَيْنَ مِنْكَ غداً ... هدَّدْ بذلك مَنْ يعيش غدا

قوله : « ويستبدل قوما غيركم » يصرف ما كان منْ إقباله عليه إلى غيره من أشكاله ، وليس كلُّ مَنْ حفَرَ بئراً يشربُ مِنْ معينِها ، وأنشدوا :

تَسْقِي رَيَاحِينَ الحِفَاظِ مدامعى ... وسِوَاىَ فى رَوْضِ التواصُلِ يَرْتَع

قوله جل ذكره : ﴿ إلاَّ تَنصُروه فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ
إذْ أخرَجَه الذين كفروا ثانىَ اثنينِ
إذْ هُما فى الغارِ إذ يقولُ لصاحبِه
لاتَحْزَنْ إنَّ اللهَ معنا ﴾ .

مِنْ عزيزِ تلك النصرة أنه لم يستأنِسْ بثانيه الذى كان معه بل رد الصِّدِّيقَ إلى الله ، ونهاه عن مساكنته إياه ، فقالَ : ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما ؟

قال تعالى : « إذ يقول اصاحبه لا تحزن إن الله معنا » .

ويقال من تلك النصرة إبقاؤه إياه فى كشوفاته فى تلك الحالة ، ولولا نصرتُه لتلاشى تحت سطواتِ كَشْفِه.

ويقال كان — عليه السلام — أمَانَ أهل الأرض على الحقيقة ، قال تعالى :

« وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم »[1] ، وجعله — فى الظاهر — فى أمان العنكبوت حين نَسَجَ خَيْطَه على باب الغار فَخَلَّصَه من كيدهم .

ويقال لو دخل هذا الغار لا نشقَّ نسيج العنكبوت . . فياعجباً كيف سَتَرَ قصةَ حبيبه — صلوات الله عليه وعلى آله وسلم ؟!

ويقال صحيحٌ ماقالوا : للبقاع دول ، فما خَطَرَ ببالِ أحدٍ أنَّ تلك الغار تصير مأوى ذلك السيِّد — صلى الله عليه وسلم ! ولكنه يختص بقسمته ما يشاء كما يختص برحمته من يشاء .

ويقال ليست الغيران[2] كلها مأوى الحيَّاتِ ، فمنها ما هو مأوى الأحباب . ويقال علقت قلوب قومٍ بالعرش فطلبوا الحق منه ، وهو تعالى يقول :

« إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » فهو سبحانه — وإن تقدَّس عن كل مكان — ولكن فى هذا الخطاب حياة لأسرار أرباب المواجيد ، وأنشدوا :

ياطالبَ الله فى العرشِ الرفيعِ به لا تطلب العرشَ إن المجد فى الغار

وفى الآية دليل على تحقيق صحبة الصدِّيق — رضى الله عنه — حيث سمَّاه الله سبحانه صاحبَه ، وعدَّه ثانيه ، فى الايمان ثانيه ، وفى الغار ثانيه ثم فى القبر ضجيعه ، وفى الجنة يكون رفيقه .

---

(1) آية ٣٣ سورة الأنفال

(2) الغار يجمع على أغوار وغيران

قوله جل ذكره : ﴿ فأنزل الله سكينته عليه ﴾

الكناية فى الهاء من « عليه » تعود إلى الرسول عليه السلام ، ويحتمل أن تكون عائدةً إلى الصديق رضى الله عنه ، فإن حُمِلَتْ على الصديق تكون خصوصية له من بين المؤمنين على الانفراد ، فقد قال عز وجلّ لجميع المؤمنين : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين »(١) .

وقال للصدِّيق — على التخصيص — فأنزل الله سكينته عليه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يتجلّى للناس عامة ويتجلَّى لأبى بكر خاصة(٢) .

وإنما كان حزنُ الصديقِ ذلك اليوم لأجل الرسول — صلى الله عليه وسلم — إشفاقاً عليه . . لا لأجْلِ نَفْسِهِ . ثم إنه — عليه السلام — نفى حزنه وسلاّه بأن قال: «لاتحزن إن الله معنا » ، وحُزْنٌ لايذهب إلا لِمَعِيَّةِ الحقّ لايكون إلاّ « لحقّ الحق »(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ وأيَّده بجنودٍ لم تَرَوْها وجعل كلمةَ الذين كفروا السُّفلى وكلمةُ اللهِ هى العليا واللهُ عزيزٌ حكيمٌ ﴾

يريد به النبي صلى الله عليه وسلم . وتلك الجنودُ وفودُ زوائد اليقين على أسراره بتجلِّى الكشوفات .

« وجعل كلمة الذين كفروا السفلى » بإظهار حُجج دينه ، وتمهيد سُبُل حقِّه ويقينه ؛ فراياتُ الحقّ إلى الأبدِ عالية ، وتمويهات الباطل واهية ، وحِزْبُ الحقّ منصورون ، ووفد الباطل مقهورون .

---

(١) آية ٤ سورة الفتح

(٢) يتأيد كلام القشيرى عن خصوصية أبى بكر بنزول السكينة على قلبه بما يروى عن يوم بدر ، فحينما قال النبي عليه السلام « اللهم ان تهلك هذه العصابة لم تعبد فى الأرض من بعد ذلك » قال له أبو بكر : دع عنك مناشدتك ربك فإنه والله منجز لك ما وعدك وهو قوله تعالى : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب [مسلم والترمذى عن ابن عباس عن عمر]

(٣) لأنه ليس حزناً مرتبطاً بحظ من حظوظ النفس ولكنه لحق الحق

ويقال لما خلا الصديق بالرسول عليه السلام فى الغار ، وأشرقت على سِرِّه أنوار صحبة الرسول عليه السلام ، ووقع عليه شعاعُ أنواره ، واشتاق إلى الله تعالى لفقْدِ قراره — أزال عنه لواعِجَه بما أخبره مِنْ قُرْبه — سبحانه — فاستبدل بالقلق سكوناً ، وبالشوق أُنْساً ، وأنزل عليه من السكينة ما كاشفه به من شهود الهيبة .

ويقال كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — ثانى اثنين فى الظاهر بشبهه[1] ولكن كان مُسْتَهْلَكَ الشاهد فى الواحِدِ بِسِرِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ انفِروا خِفَافاً وثِقالاً وجاهِدوا
بأموالِكم وأنفُسِكم فى سبيل اللهِ
ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمون ﴾

أمرهم بالقيام بحقه ، والبدار إلى أداء أمره فى جميع أحوالهم .

« خفافا » يعنى فى حال حضور قلوبكم ، فلا يمسُّكم نَصَبُ المجاهدات .

« وثقالا » إذا رُدِدْتُم إليكم فى مقاساة تعب المكابدات . فإنَّ البيعةَ أُخِذَتْ عليكم فى (. . .)[2] و (. . .)[3] .

ويقال « خفافا » إذا تحررتم من رِقِّ المطالبات والاختيار ، « وثقالا » إذا كان على قلوبكم ثقل الحاجات ، وأنتم تؤمِّلون قضاء الحقِّ مآربكم .

قوله جل ذكره : ﴿ لو كان عَرَضاً قريباً وسفراً قاصداً
لاتَّبعوك ولكن بَعُدَتْ عليهم
الشُّقَّةُ وسيحلِفون باللهِ لو استطعنا
لخَرَجْنا معكم يُهلِكون أنفسَهم
والله يَعْلَمُ إنَّهم لكاذبون ﴾

---

(١) (بشبهه) هنا معناها بإنسان مثله ، أى كان أُنسه — فى الظاهر بصاحبه ، وعلى الحقيقة كان أنْسُه بالله .
(٢) ، (٣) لفظتان مشتبهتان ، وربما كانتا بمعنى (حضوركم وغيبتكم) أو (قربكم وبعدكم) أو نحو ذلك .. فهكذا نفهم من السياق .

يريد به المتخلفين عنه فى غزوة « تبوك » ، بيَّنَ سبحانه أنه لو كانت المسافةُ قريبةً ، والأمرُ هيِّناً لَمَا تخلَّفوا عنك ؛ لأنَّ مَنْ كان غيرَ متحقِّقٍ فى قَصْدِه كان غيرَ بالغٍ فى جهده ، يعيش على حَرْفٍ ، ويتصرَّف بحرف ، فإنْ أصابه خيرٌ اطمأنَّ به وإنْ أصابَتْه فتنةٌ انقلبَ على وجهه . وقال تعالى : « فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم »[1] .

فإذا رأيتَ المريدَ يتبعُ الرُّخَصَ ويَجْنَحُ إلى الكسل ، ويتعلَّلُ بالتأويلاتِ . فاعلَمْ أنه مُنْصَرِفٌ عن الطريق ، متخلِّفٌ عن السلوك ، وأنشدوا :

وكذا المَلُولُ إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوصال وقال : كان وكانا

ومَنْ جَدَّ فى الطلب لم يُعَرِّج فى أوطان الفشل ، ويواصل السير والسُّرى ، ولا يحتشم من مقاساة الكدِّ والعناء ، وأنشدوا :

ثم قطعتُ الليلَ فى مهمهٍ لا أسداً أخشى ولا ذيبا
يغلبنى شوقى فأطوى السُّرى ولم يَزَلْ ذو الشوقِ مغلوبا

قوله : « وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم » : يمينُ المتعلِّلِ والمُتَأَوِّلِ يمينٌ فاجرةٌ تشهد بكذبها عيون الفراسة ، وتنفر منها القلوب ، فلا تجد من القلوب محلاً .

قوله جل ذكره : ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لهم حتى يَتَبَيَّنَ لكَ الذين صَدَقُوا وتَعْلَمَ الكاذبين﴾

لم يكن منه صلى الله عليه وسلم خرْقُ حَدٍّ أو تعاطى محظورٍ ، وإنما (نذر)[2] منه ترك ما هو الأَوْلى . قدَّم الله ذِكْرَ العفو على الخطاب الذى هو فى صورة العتاب بقوله : « لِمَ أذنت لهم » .

أو مِنْ جواز الزَّلة على الأنبياء — عليهم السلام — إذ لم يكن ذلك فى تبليغ أمر

(١) آية ٢١ سورة محمد

(٢) هكذا فى (ص) وربما كانت (بدر) فى الأصل أى صدر عنه أما (نذر) فتفيد (قل) منه ترك ما هو الأولى ، وكلاهما لا يرفضه السياق .

أو تمهيد شرع (بقول قائله أنشدوا بالعفو قبل أن وقف للعـذر)[1] وكذا سُنَّة الأحباب مع الأحباب ، قال قائلهم :

ما حطَّك الواشون عن رتبة عندى ولا ضَرَّك مُغتَابُ
كأنهم أثنَوْا — ولم يعلموا — عليكَ عنـدى بالذى عابوا

ويقال حسناتُ الأعداء — وإن كانت حسنات — فـكالمردودة ، وسيئات الأحباب — وإن كانت سيئات — فـكالمغفورة :

مَنْ ذا يؤاخِذُ مَنْ يحبُّ بِذَنْبِه وله شفيعٌ فى الفؤاد مُشَفَّعٌ

قوله جل ذكره : ﴿ لا يستأذِنُكَ الذين يؤمِنون بالله واليومِ الآخِرِ أنْ يجاهدوا بأموالِهم وأنفسِهم واللهُ عليمٌ بالمتقين ﴾

المخلصُ فى عقده غيرُ مُؤْثِرٍ شيئاً على أمره ، ولا يدَّخر مستطاعاً فى استفراغ وُسْعِه ، وبَذْلِ جُهْدِه ، ومقاساة كَـدِّه ، واستعمال جِدِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما يستأذنك الذين لا يؤمِنون باللهِ واليومِ الآخِرِ وارتابَتْ قلوبُهم فهُمْ فى رَيْبِهم يترددون ﴾

مَنْ رام عن عهدة الإلزام خروجاً انتهز للتأخير والتخلُّف فرصةً لِعَدَمِ إيمانه وتصديقه ، ولاستمكان الريبة من قلبه وسِرِّه . أولئك الذين يتقلبون فى ريبهم ، ويترددون فى شكِّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أرادوا الخروجَ لأَعَدُّوا له عُدَّةً ﴾

أى لو صدقوا فى الطاعة لاستجابوا ببذل الوسع والطاقة ، ولـكن سَقِمَتْ إرادتُهم ، فحصلت دون الخروج بَلادَتُهم ، وكذلك قيل :

لو صحَّ منكَ الهوى أُرْشِدْتَ للحِيَـلِ

(١) ما بين القوسين مثبت كما فى (ص) وفيه اضطراب ناشىء عن النسخ ، وربما كان شاهداً شعرياً معناه : (جاد بالعفو قبل الوقوف على العذر) .

قوله جل ذكره: ﴿ ولكِنْ كَرِهَ اللهُ انبعاثَهم فَثَبَّطَهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾

أَلْزَمَهم الخروجَ من حيث التكليف، ولكن ثبَّتهم فى بيوتهم بالخذلان؛ فبالإلزام دعاهم، وبأمر التكوين أقصاهم.

قوله جل ذكره: ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خَبَالاً ولأَوْضعوا خِلالَكم يَبْغُونكم الفتنةَ، وفيكم سَمَّاعون لَهُمْ، واللهُ عليمٌ بالظالمين ﴾

أخبر عن سابق علمه بهم، وذكر ما علم أنه لا يكون أنْ لو كان كيف يكون؛ فقال: ولو ساعدوكم فى الخروج لكان ما يلحقكم من سوء سيرتهم فى الفتنة بينكم، والنميمة فيكم، والسعى فيما يسوؤكم أكثر مما نالكم بتخلُّفهم من نقصان عددكم. ومَنْ ضررُه أكثرُ من نفعِه فعَدَمُه خيرٌ مِنْ وجودِه، ومَنْ لا يحصل منه شيء غيرُ شرورِه فتخَلُّفُه أَنْفَعُ مِنْ حضوره.

قوله جل ذكره: ﴿ لقد ابتغَوا الفتنةَ مِنْ قَبلُ وقَلَّبوا لكَ الأمورَ حتى جاء الحقُّ وظهر أمرُ اللهِ وهم كارِهون ﴾

إنَّهم وإنْ أظهروا وِفاقَكم فقد استبطنوا نِفاقَكم؛ أعلنوا أنهم يؤازرونكم ولكن راموا بكيْدِهم تشويشَ أموركم، حتى كَشَفَ اللهُ عوراتِهم، وفَضَحَهم، حتى تحَذَّرْتم منهم بما تحققتم من أسرارهم.

قوله جل ذكره: ﴿ ومنهم مَنْ يقول ائذَنْ لى ولا تَفْتِنِّي ألاَ فى الفتنة سقطوا وإن جهنَّم لَمُحِيطة بالكافرين ﴾

أبرزوا قبيحَ فِعالِهم فى مَعْرِض التخرج ، وراموا أنْ يُلَبِّسُوا على الرسول — صلى الله وسلم وعلى آله — وعلى المسلمين خُبث[1] سيرتهم وسريرتهم ، فَبَيَّنَ الله أنَّ الذين (...)[2] بزعمهم سقطوا فيه بفعلهم ، وكذلك المتجلِّدُ بمـا يهواه متطوح فى وادى بلواه ، وسَيَلْقَى فى الآخرة من الهوَان ما يُغْنِي عن الحاجة إلى البرهان .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهم وإِنْ تُصِبْكَ مصيبةٌ يقولوا قد أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ ويتـولَّوْا وهم فَرِحون ﴾

هكذا صفة الحسود ، يتصاعد أنينُ قلبه عند شهود الحسنى ، ولا يَسُرُّ قلبَه غيرُ حلولِ البلوى ، ولادواء لجروح الحسود ؛ فانه لا يرضى بغير زوال النعمة ولذا قالوا :

كلُّ العداوةِ قد تُرْجَى إماتَتُها إلا عداوةَ مَنْ عاداك من حَسَدِ

وإن اللهَ تعالى عَجَّلَ عقوبةَ الحاسد ، وذلك : حزنُ قلبِه بسلامة محسوده ؛ فالنعمة للمحسود نقد والوحشة للحاسد نقد[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لن يُصِيبَنَا إلا ما كَتَبَ اللهُ لنا هو مولانا وعلى اللهِ فليتوكَّلْ المؤمنون ﴾

المؤمِن لا تلحقهُ شماتةُ عدوٍّ لانه ليس يرى إلا مُرادَ وليِّه ، فهو يتحقق أنَّ ما يناله مرادُ مولاه فيسقطُ عن قلبِه ما يهواه ، ويستقبله بروْح رضاه فَيَعْذُبُ عنده ما كان يَصْعُبُ مِنْ بلواه ، وفى معناه أنشدوا :

إنْ كان سَرَّكُمُ ما قال حاسدُنا فما لِجُرْحٍ — إذا أرْضَاكُم — ألَمُ

(١) وردت (حبث) وهى خطأ فى النسخ

(٢) مشتبهة .

(٣) أى جزاء معجل فى هذه الدنيا ؛ فعند القشيرى اصطلاحان : نقد (هنا في الدنيا) ، ووعد (في الآخرة) والسياق يؤدى إلى أن الجزاء بن نقد .

ويقال شهودُ جريانِ التقدير يخفف على العبد تَعَبَ كلِّ عسير .

قوله : « هو مولانا » : تعريفٌ للعبد أن له — سبحانه — أن يفعل ما يريد ، لأنه تصرفُ مالكِ الأعيانِ فى مُلْـكِه ، فهو يُبْدِى ويُجْرِى ما يريد بحقِّ حُـكْمِه .

ثم قال : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » : وأولُ التوكلِ الثقةُ بوعده ، ثم الرضا باختياره ، ثم نسيانُ أمورِك بما يَغْلِبُ على قلبك من أذكاره .

ويقال التوكل سكونُ السِّرِّ عند حلول الأمر ونهاية التفويض ، وفيها يتساوى الحلوُ والمرُّ ، والنعمةُ والمحنةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصون بِناَ إلا إحدى الْحُسْنَيَيْنِ ونحن نتربصُ أَنْ يُصِيبَكم اللهُ بعذابٍ مِنْ عنده أو بأيدينا فتربصوا إنَّا معكم مُتَرَبِصون ﴾

بَيَّنَ اللهُ فى هذه الآية الفرْقَ بين المؤمنين وبين الـكفار ، فقال قُلْ للذين ينتظرون : أيها الـكفار (إن كان[1]) من شأن المؤمنين وقوعُ الدائرة عليهم فى القتال ، أو أنَّ القَتْلَ ينالهُم فأىٌّ واحدٍ من الأمْرَيْن ينالهم فهو لهم من الله نعمة ؛ لأَنَّا إنْ ظَفِرْنا بكم فَنَصْرٌ وغنيمة ، وعِزٌّ للدِّين ورفعة ، وإنْ قُتِلْنَا فشهادةٌ ورحمة ، ورضوانٌ من الله وزُلْفَى . وإنْ كان الذى يصيبنا فى الدنيا هزيمةٌ ونكبةٌ ، فذلك مُوجِبٌ للأجْرِ والمثوبة ، فإذاً لن يستقبلنا إلا ماهو حُسْنَى ونعمة .

وأمَّا أنتم ، فإنْ ظَفِرْنَا بكم فتعجيلٌ لذُلِّـكم ومحنة ، وإن قُتِلْتُم فعقوبةٌ من الله وسخطة ، وإن كانت اليد لـكم فى الحال فخذلانٌ من اللهِ ، وسببُ عذابٍ وزيادةُ نقمة .

ويقال « هل تربصون بنا إلا إحدى الْحُسْنَيَيْنِ » إمَّا قيامُ بحقِّ الله فى الحال فنـكون بوصف الرضاء وهو — فى التحقيق — الجنَّةُ الـكبرى ، وإمَّا وصولٌ إلى الله تعالى فى المـآل بوصف الشهادة ، ووجدان الزلفى فى العقبى وهى الـكرامة العظمى .

---

(١) سقطت (إن كان) والمعنى يتطلبهما

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أنفِقوا طوْعاً أو كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ منكم إنَّكم كنتم قوماً فاسقين ﴾

المردودُ لا يُقبلُ منه توصُّل[1] ، ولا يُغيِّرُ حكمُ شقاوته بتكثير التكلُّف والتعمل .

ويقال تقرُّبُ العدوِّ يوجِبُ زيادةَ المقت له ، وتحبُّبُ الحبيب يقتضى زيادةَ العطف عليه ، قال تعالى : « فأولئك يُبدِّل اللهُ سيئاتهم حسناتٍ . »[2]

قوله جل ذكره : ﴿ وما مَنَعَهم أنْ تُقْبَلَ منهم نَفَقاتُهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسولِه ولا يأتون الصلاة إلا وهم كُسَالَى ولا يُنْفِقُونْ إلا وهم كارهون ﴾ .

فقدوا الإخلاصَ فى أموالهم فعدموا الاختصاص فى أحوالهم ، وحُرِموا الخلاصَ فى عاجلهم وفى مآلهم .

قوله : « ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى » : مَنْ أطَاعَ من حيث العادة — مِنْ غيرِ أن تحمله عليها لوعةُ الإرادة — لم يجِدْ لطاعته راحةً وزيادة .

ويقال مَنْ لاحظَ الخَلْقَ فى الجهر من أعماله ، وركَنَ إلى الكسلِ فى السِّرِّ من أحواله فقد وُسِمَ بالخذلان ، وخُتِمَ بالحرمان ، وهذه هى أمارة الفرقة والقطيعة ، قال تعالى : « ومكروا ومكر الله واللهُ خير الماكرين »[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أموالُهُمْ ولا أولادُهم إنَّما يريد اللهُ ليُعَذِّبَهم بها فى الحياة الدنيا وتَزْهَقَ أنْفُسُهم وهم كافرون ﴾ .

---

(١) لا نستبعد أنها تكون (توسل) بدليل ما بعدها ، والمراد يحتمل كليهما .

(٢) آية ٧٠ سورة الفرقان .

(٣) آية ٥٤ سورة آل عمران

بَيَّنَ أن ما حسبوه نعمة واعْتَدُّوه من الله مِنَّةٌ فهو — في التحقيق — مِحْنَةٌ ، وسببُ شقاءٍ وفُرْقة ، وإنما دَسَّ التقديرُ لهم سُمومَ الصَّابِ ، فيما استلذوه من الشرابِ ؛ « أيحسبون أن ما نُمِدُّهُمْ به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ويَحْلِفُون بالله إنَّهُمْ لَمِنْـكُم وما هم مِنْـكُمْ ولـكنَّهم قومٌ يَفْرَقُون ﴾ .

التَّقَرُّبُ بالأَيْمانِ الفاجرةِ لا يوجِبُ للقلوب إلا بُعْداً عن القَبول .

ويقال إنَّ إظهارَ التلبيس لا (. . .)[2] الأسرارَ بَرْدٌ السكون ، ولا يَشْفِي البصائر بَرْدٌ الثقة واليقين . . فما لا يكون فلا يكون بحيلةٍ أبداً ، وما هو كائنٌ سيكون .

قوله جل ذكره : ﴿ لو يَجِدُون مَلْجَأً أو مَغَارَات أو مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إليه وهم يجمحون ﴾.

إن المَاذِقَ[3] في الخُلَّة ينسلُّ عن سِلْـكِها بأضعف خلَّة ، وإنْ وَجَدَ مهرباً آوَى إليه ، ويأمل أن ينال فرصةً ما يتملَّلُ بها عند ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم مَنْ يَلْمِزُكَ في الصدقات فإنْ أُعْطُوا منها رَضُوا وإنْ لم يُعْطَوْا منها إذا هم يَسْخَطُون ﴾ .

أولئك أصحابُ الأطماع ، يتملقون في الظاهر ما دامت الأرفاقُ واصلةً إليهم ، فإنْ انقطَعَتْ انقلبوا كأن لم يكن بينكم وبينهم مودة .

ويقال مَنْ كان رضاؤه بوجدان سبب ، وسُخْطُه في عدم ما يوصِّله إلى نصيبه فهو ليس من أهل الولاء ، إنما هو قائمٌ بحظِّه ، غيرُ صالحٍ للصحبة ، وأمَّا المتحقِّقُ فكما قيل :

فَسِرْتُ إليكَ في طلبِ المعالي ... وَسَارَ سِوَايَ في طلب المعاشِ

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أنَّهم رَضُوا ما آتاهم اللهُ ورسوله

---

(1) آية ٥٦ سورة المؤمنون (2) مشتبهة .

(3) مذق فلان في الود أي لم يخلص ، والمذاق الكذوب الملول . والمقصود أن من لم يخلص في مودته يتنصل بأضعف صفة ولأقل شيء .

وقالوا حَسْبُنا اللهُ سَيُؤتِينا اللهُ من فضلِه ورسولُه إنّا إلى اللهِ راغبون﴾ .

لو وقفوا مع الله بِسِرِّ الرضا لأتَتْهُم فنونُ العطاء وتحقيقات المنى ، ولحفظوا مع الله — عند الوجدان[1] — مالهم من الأدب ، من غير معاناة تعبٍ ، ولا مُقاساة نَصَبٍ .. ولكنَّهم عَرَّجُوا فى أوطانِ الطمعِ فوقعوا فى الذُّلِّ والحَرَب .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكينِ والعاملينَ عليها والمؤلفةِ قلوبُهم وفى الرقابِ ﴾ [2] .

تكلَّم الفقهاء فى صفةِ الفقير ، والفرقِ بينه وبين المسكين لما احتاجوا إليه فى قسمة الزكاة المفروضة . . فأبو حنيفة رحمة الله عليه — يقول : المسكينُ الذى لاشىء له . والفقيرُ الذى له بُلْغَةٌ من العيش .

ويقول الشافعى رحمة الله عليه : الفقير الذى لا شىء له ، والمسكين الذى له بُلْغَةٌ من العيش — أى بالعكس .

وأهل المعرفة اختلفوا فيه ؛ فمنهم من قال بالأول ، ومنهم من قال بالقول الثانى ، واختلافهم ليس كاختلاف الفقهاء ؛ وذلك لأن كلَّ واحدٍ منهم أشار إلى ما هو حاله ووقته ووجوده وشربه ومقامه . فَمِنْ أهل المعرفة مَنْ رأى أنَّ أَخْذَ الزكاةِ المفروضة أَوْلى ، قالوا إن الله تعالى جعل ذلك مِلْكا للفقير ، فهو أَحَلُّ له مما يُتَطَوَّعُ به عليه .

ومنهم من قال : الزكاة المفروضة مستحقة لأقوام ، ورأوا الإيثار على الإخوان أَوْلى من أن يزاحموا أرباب السهمان — مع احتياجهم أخذ الزكاة — وقالوا : نحن آثرنا الفَقْرَ اختياراً .. فَلِمَ نأخذ الزكاة المفروضة ؟

---

(١) أى عند وجود النعمة

(٢) نلفت النظر إلى أهمية موقف القشيرى عند استخراج إشارات من هذه الآية الكريمة ، فقد كانت فرصة جيدة لكى يقارن بين نظرة الفقهاء ونظرة الصوفية .

ثم على مقتضى أصولهم فى الجملة — لا فى أخذ الزكاة — للفقر مراتب :

أولها الحاجةُ ثم الفقرُ ثم المسكنةُ ؛ فذو الحاجة مَنْ يرضى بدنياه وتسدُّ الدنيا فقرَه ، والفقير مَنْ يكتفى بعقباه وتجبرُ الجنةُ فقرُه ، والمسكين مَنْ لا يرضى بغير مولاه ؛ لا إلى الدنيا يلتفت ، ولا بالآخرة يشتغل ، ولا بغير مولاه يكتفى ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين »[1] وقال صلى الله عليه وسلم « أعوذ بك من الفقر » لأن عليه بقية[2] ؛ فهو ببقيته محجوبٌ عن ربِّه .

ويحسن أن يقال إن الفقر الذى استعاذ منه ألا يكون له منه شىء ، والمسكنة المطلوبة أن تكون له بُلْغَةٌ ليتفرَّغَ بوجود تلك البلغة إلى العبادة ؛ لأنه إذا لم تكن له بلغة شَغَلَه فَقْرُه عن أداء حقِّه ، ولذلك استعاذ منه .

وقوم سَمَتْ هِمَمُهم عن هذا الاعتبار — وهذا أَوْلى بأصولهم — فالفقير الصادق عندهم مَنْ لا سماء تُظله ولا أرضَ تُقلُّه ولا معلومَ يشغله ، فهو عبدٌ بالله لله ، يردُّه إلى التمييز فى أوان العبودية ، وفى غير هذا الوقت فهو مُصطلَمٌ عن شواهده ، واقفٌ بربِّه ، مُنْشَقٌ عن جملته .

ويقال الفَقِيرُ من كُسِرَتْ فقاره — هذا فى العربية .

والفقير — عندهم[3] — مَنْ سَقَطَ اختياره ، وتعطلت عنه دياره ، واندرست — لاستيلاء مَنْ اصْطَلَمَهُ — آثارُه ، فكأنه لم تبقَ منه إلا أخبارُه ، وأنشدوا :

أمَّا الرسومُ فَخَبَّرَتْ أنهم رحلوا قريباً

ويقال المسكين هو الذى أسكنه حالُه بباب مقصوده ، لا يبرح عن مدَّتِه ، فهو مُعْتَكِفٌ بقلبه ، لا يغفل لحظةً عن ربِّه .

---

(١) الترمذى ، وابن ماجة عن أبى سعيد الخدرى والحاكم وقال صحيح الإسناد ، ورواه الطبرانى بسند رجاله ثقات عن عبادة بن الصامت .

(٢) التفت السهروردى إلى ذلك حين ميز بين الفقير والصوفى فقال إن الفقير يتطلع إلى الأعواض ، أما الصوفى فيترك الأشياء لا للأعواض الموعودة بل للأحوال الموجودة فإنه ابن وقته ، والفقير له إرادة فى اختيار فقره ، أما الصوفي فلا إرادة بنفسه ولكن فيما يوقفه الحق (عوارف المعارف ص ٤٢) .

(٣) أى عند أرباب الأحوال .

وأمّا « العاملون عليها » فعلى لسان العلم : مَنْ يتولى جمع الزكاة على شرائطها المعلومة .

وعلى لسان الإشارة : أَوْلَى الناس بالتصاون عن أخذ الزكاة مَنْ صَدَقَ فى أعماله لله ، فإنهم لا يرجون على أعمالهم عِوَضاً ، ولا يتطلبون فى مقابلة أحوالهم عَرَضًا ، وأنشدوا :

وما أنا بالباغى على الحب رِشْوَةً قبيحٌ هوىً يُرجَى عليه ثواب[1]

وأمّا المؤلَّفَةُ قلوبهم — على لسان العلم — فمَنْ يُستَمَالُ قلبه بنوع إرفاقٍ معه ، ليتوفَّر فى الدين نشاطُه ؛ فلهم من الزكاة سهمٌ استعطافاً لهم ، وبيان ذلك مشهورٌ فى مسائل الفقه .

وحاشا أن يكون فى القوم[2] مَنْ يكون حضورُه بسبب طَمَع أو لنَيْل ثوابٍ أو لرؤية مقام أو لاطلاع حال . . فذلك فى صفة العوام ، فأما الخواص فكما قالوا .

من لم يكن بك فانياً عن حظه وعن الهوى والإنْسِ والأحباب
أو تيمته صبابة جمعت له ما كان مفترقاً من الأسباب
فلأنَّه بين المراتب واقفٌ لِمنَالِ حظٍّ أو لِحسْنِ مآبِ[3]

قوله جل ذكره : ﴿ وفى الرِّقاب ﴾

وهم على لسان العلم : المكاتَبُون ، وشرحه فى مسائل الفقه معلوم .

وهؤلاء[4] لا يتحررون ولهم تعريج على سبب ، أو لهم فى الدنيا والعقبى أرب ، فهم لا يستفزّهم طلب ، فمَنْ كان به بقية من هذه الجملة فهو عبدٌ لم يتحرر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله : « المكاتَبُ عَبْدٌ ما بقى عليه درهم » ، وأنشد بعضهم :

أتمنى على الزمان مُحَالاً أنْ ترى مقلتاى طَلْعَةَ حُرٍّ

قوله جل ذكره : ﴿ والغارمين ﴾

وهم على لسان العلم : مَنْ عليهم دَيْنٌ فى غير معصية .

(١) البيت للمتنبى من بائيته التى أولها : منى كن لى أن البياض خضاب

(٢) القوم هنا مقصود بها أرباب الأحوال .

(٣) الأبيات لأبى على الروزبارى (اللمع ص ٤٣٥)

(٤) وهؤلاء هنا مقصود بها أيضا ارباب الأحوال .

وهؤلاء القوم لا يقضى عنهم ما لزمهم امتلاك الحق[1] ، ولهذا قيل المعرفة غريم لا يُقْضَى دَيْنُه .

قوله جل ذكره : ﴿ وفى سبيل الله ﴾

وعلى لسان العلم : مَنْ سلك سبيلَ الله وَجبَ له فى الزكاة سهمٌ على ماجاء بيانه فى مسائل الفقه .

وفى هذه الطريقة : مَنْ سلك سبيلَ الله تتوجَّبُ عليه المطالبات ؛ فيبذل أولاً مالَه ثم جاهَه ثم نَفْسه ثم روحَه . . وهذه أول قَدَمٍ فى الطريق .

قوله جل ذكره : ﴿ وابن السبيل ﴾

وهو على لسان العلم : مَنْ وقع فى الغُربة ، وفارَقَ وطنَه على أوصاف مخصوصة .

وعند القوم: إذا تغَرَّبَ العبدُ عن مألوفاتأوطانهفهو فى قِرَى[2] الحقِّ ؛ فالجوعُ طعامُه ، والخلوةُ مجلسُه ، والمحبةُ شرابُه ، والأُنْسُ شهوده ، والحقُّ — تعالى — مشهودُه . قال تعالى : « وسقاهم ربُّهم شرابا طهوراً »[3] : لقومٍ وَعْدٌ فى الجنة ، ولآخرين نَقْدٌ فى الوقت ؛ اليومَ شرابُ المحابِّ وغداً شراب الثواب ، وفى معناه أنشدوا :

وَمُقْعَدِ قومٍ قد مشى من شرابنا ... وأعمى سقيناه ثلاثاً فأَبْصَرَا
وأخرسَ لم ينطِقْ ثلاثين حِجَّةً ... أَدَرْنا عليه الكأسَ يوماً فأخبرا

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم الذين يُؤْذُون النبيَّ ويقولون هو أُذُنٌ ﴾

عين العداوة بالمساوىء مُوَكَّلَة ، وعين الرضا عن المعايب كليلة .

بسطوا اللائمة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعابوه بما هو أمارة كرمه ، ودلالة فضله ،

---

(١) أى أن دينهم ليس يقضى أبداً إذ أمرهم بيد مالكهم .
(٢) القرى = الضيافة والإكرام .
(٣) آية ٢١ سورة الإنسان

فقالوا : إنه بحسن خُلُقِه يسمع ما يقال له ، فقال عليه السلام : « المؤمن غِرٌّ كريم والمنافق خَبٌّ لئيم »(١)

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أُذُنُ خيرٍ لكم يؤمنُ باللهِ
ويؤمن للمؤمنين ورحمةٌ للذين آمنوا
منكم والذين يُؤْذُونَ رسولَ اللهِ
لهم عذابٌ أليم ﴾

وقيل : مَنْ العاقلُ ؟ قالوا : الفَطِنُ المُتَغافِل . وفى معناه أنشدوا :

وإذا الكريمُ أتيْتَه بخديعةٍ ولقِيتَه فيما تروم يُسارِعُ
فاعلمْ بأنَّكَ لم تُخادِعْ جاهلاً إنَّ الكريمَ ـ بفضله ـ يتخادع

قوله جل ذكره : ﴿ يَحْلِفُونَ باللهِ لكم لِيُرْضُوكم واللهُ
ورسولُه أحقُّ أَنْ يُرْضُوه إنْ كانوا
مؤمنين ﴾

أخبر أنَّ من تزيَّن للخَلْق ، وتقرَّب إليهم وأدامَ رضاهم ، واتَّبعَ فى ذلك هواهم ، فإن اللهَ سبحانه يُسْقِط به عن الخَلْق جاهَهم ، ويُشينُهم فيما توهَّموا أنه يزينهم ، والذى لا يَضيعُ ما كان لله ، فأمَّا ما كان لغير الله فوَبَالٌ لِمَنْ أصابه ، ومُحالٌ ما طَلَبه .

ويقال إنَّ الخَلْق لا يصدقونك وإنْ حَلَفْت لهم ، والحقُّ يَقْبلُكَ وإنْ تخلَّفْتَ عنه ؛ فالاشتغالُ بالخَلْقِ محنةٌ أنت غيرُمأجورٍ عليها ، والإقبالُ على الحقِّ نعمةٌ أنت مشكورٌ عليها . والمغبونُ مَنْ تَرَكَ ما يُشْكَرُ عليه ويؤْثِر ما لا يؤجَرُ عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أنَّه مَنْ يحادِدْ اللهَ
ورسولَه فأنَّ له نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فيها
ذلك الخِزْىُ العظيم ﴾

(١) فى رواية الترمذى والحاكم عن أبى هريرة « المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم » (والخَبُّ = الخَبِيع) وفى الحديث : « لا يدخل الجنة خب ولا خائن »

مَنْ كَفرَ بالله وأشرك فى توحيده بإثباتِ موهومٍ استحق ما هو حقٌّ لله : تعَجَّلُ عقوبته فى الحال بالفُرقة ، وفى المآلِ بالخلود فى الحرقة .

فليس كلٌّ مَنْ مُنِي[1] بمصيبة يعلم ما ناله من المحنة ، وأنشدوا :

غداً يَتفرَّقُ أهلُ الهوى ويكْثُر باكٍ ومُسْترجِع

قوله جل ذكره : ﴿ يَحْذَرُ المنافِقُون أَنْ تُنَزَّلَ عليهم سورةٌ تُنَبِّئُهم بما فى قُلُوبِهم ، قُلْ اسْتَهْزِئُوا إنَّ اللهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُون ﴾

ظَنُّوا أَنَّ الحقَّ — سبحانه — لا يفضحهم ، فدَلَّسُوا عليكم ، وأنكروا ما انطوت عليه سرائرهم ، فأرخى[2] اللهُ — سبحانه — عنانَ إمهالهم ، ثم هتك الستر عن نفاقهم ؛ فَفَضَحَهم عند أهل التحقيق ، فتقنعوا بخِمار الخجل ، وكشف لأهل التحقيق مكامنَ الاعتبار . ونعوذ بالله من عقوبة أهل الاغترار ! « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين »[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولئِنْ سَأَلْتَهم ليَقُولُنَّ إنَّما كُنَّا نخوضُ ونلعبُ قُلْ أَبِاللهِ وآياتِه ورسوله كنتم تستهزِئون ﴾ .

مَنْ استهانَ بالدِّين ، ولم يحتشِمْ مِنْ تَرْكِ حُرْمةِ الإسلام جعله الله فى الحال نكالاً ، وسامَه فى الآخرة صِغَراً وإذلالا ، والحقُّ — سبحانه — لا يرضى دون أن يذيق العُتاةَ بَأْسَه ، ويَسْقِيَ كُلاًّ — على ما يستوجبه — كأسَه .

قوله جل ذكره : ﴿ لا تَعْتَذِروا قد كَفَرْتُم بعد إيمانِكم

(١) وردت (مسنى) وهى خطأ فى النسخ وربما كانت (مسته)

(٢) وردت (فأرضى) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) آية ٥٤ سورة آل عمران .

إنْ نَعْفُ عن طائفةٍ منكم نُعذِّبْ
طائفةً بأنهم كانوا مجرمين ﴾[1] .

جرَّدَ العفوَ والعذابَ من عِلَّة الْجرْم ، وسببَ الفِعْل مِنْ حُجّةَ العبد ؛ حيث أحالَ الأمر على المشيئة . . إذ لو كان الموجِبُ لعفوه أو تعذيبه صفةَ العبد لَسَوَّى بينهم عند تساويهم في الوصف ، فلمَّا اشتركوا في الكفر بعد الإيمان ، وعفا عن بعضهم وعذَّب بعضهم دَلَّ على أنه يفعل ما يشاء ، ويختصُّ من يشاء بما يشاء[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ المنافقون والمنافقاتُ بعضُهم مِنْ
بعضٍ يأمرون بالمُنْكَر ويَنْهَوْن
عن المعروف ﴾ .

المؤمِنُ بالمؤمِنِ يَتَقَوَّى ، والمنافقُ بالمنافق يتعاضد ، وطيور السماء على أُلاَّفِها تَقَعُ . فالمنافقُ لصاحبه أسٌّ[3] به قوامه ، وأصلٌ به قيامه ؛ يُعِينُه على فساده ، ويُعَمِّى عليه طريقَ رشادِه .

والمؤمنُ ينصر المؤمنَ ويُبَصِّرُه عيوبَه ، ويُبَغِّضُ لديه ويُقَبِّحُ — في عينه — ذنوبَه ، وهو على السدادِ يُنْجِدُه ، وعن الفسادِ يُبْعِده .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقبضون أيديَهم ﴾ .

عن طلب الحوائج من الله تعالى

قوله جل ذكره : ﴿ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ .

جازاهم على نسيانهم ، فسمَّى جزاء النسيانِ نسياناً . . تركوا طاعتَه ، وآثروا مُخالَفتَه ، فتَرَكَهُم وما اختاروه لأنفسهم ، قال تعالى : « وتَرَكَهم في ظُلماتٍ لا يبصرون » .

(١) أخطأ الناسخ إذ أنهى الآية : (بأنهم كانوا مجرمون) .
(٢) هذه لفتة هامة تشير إلى المذهب الكلامى عند القشيرى فيما يتصل بوجوب الإثابة أو العقوبة على الله وعدم وجوبهما .
(٣) الأس بفتح الألف وضمها وكسرها : أصل البناء .

قوله جل ذكره: ﴿ وَعَدَ اللهُ المنافقين والمنافقاتِ
والكفارَ نارَ جهنّمَ خالدين فيها
هى حَسْبُهُم ، ولَعَنَهُم اللهُ ولهم
عذابٌ مُقيم ﴾ .

وَعَدَهم النارَ فى الآخرة ، ولهم العذابُ المقيمُ فى الحاضرة ، فمؤجَّلُ عذابِهم الُحرقَةُ ، ومُعَجَّلُه الفُرقةُ .

قوله جل ذكره: ﴿ كالذين مِنْ قبلِكم كانوا أَشَدَّ
منكم قوةً وأكثرَ أموالاً وأولاداً
فاستمتعوا بِخَلاقِهم ، فاستمتعْتُم
بخلاقِكم كما استمتع الذين مِنْ
قبلِكم بخلاقهم ، وخُضْتُم كالذى
خاضوا ، أولئك حَبِطَتْ أعمالُهم
فى الدنيا والآخرة وأولئك هم
الخاسِرون ﴾ .

يقال: سلكتم طريقَ مَنْ قَبْلَكم من الكفار وأهل النفاق وقد كافأناهم . ويقال الذين تقدموكم زادوا عليكم فكافأناهم كما نكافىء أهل الشقاق والنفاق ؛ فى كثرة المدَّةِ وقوةِ العُدَّةِ ، والاستمتاع فى الدنيا ، والاغترار بالانخراط فى سِلْك الهوى . . ولكن لم تَدُمْ فى الراحة مُدَّتُهم ، ولم تُغْنِ عنهم يومَ الشِدَّةِ عُدَّتُهم ، وعما قريبٍ يَلْحَقُ بِكُم ما لَحَقَ بالذين هم قبلكم .

قوله جل ذكره: ﴿ أَلَم يأتِهم نبأُ الذين مِنْ قَبْلِهم قومِ
نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومِ ابرهيم
وأصحابِ مدين والمؤتفكات أَتَتْهم
رُسُلُهم بالبيناتِ فما كان اللهُ

لِيَظْلِمَهم ولكن كانوا أنفُسَهم
يَظْلِمُون ﴾

ألم يَنْتَهِ إليهم خبرُ القرون الماضية ، ونبأُ الأمم الخالية كيف دَمَّرْنا عليهم جَمْعَهُم ، وكيف بَدَّدْنا شملَهم ؟ قضَيْناَ فيهم بالعَدْل ، وحَكَمْناَ باستئصالِ الكُلِّ ، فلم يَبْقَ منهم نافخُ نار ، ولم يحصلوا إلاَّ على عارٍ وشنار .

قوله جل ذكره : ﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضُهم أولياء
بعضٍ يأمرون بالمعروفِ وينهَوْن
عن المُنْكرِ ويقيمون الصلاةَ
ويُؤْتُون الزكاةَ ويطيعون اللهَ
ورسولَه أولئك سيرحمهم اللهُ إنَّ
اللهَ عزيزٌ حكيم ﴾

يُعين[1] بعضُهم بعضاً على الطاعات ، ويتواصَوْن بينهم بترك المحظورات ؛ فتَحابُّهم في الله ، وقيامُهم بحقِّ الله ، وصحبتُهم لله ، وعداوتُهم لأجْلِ الله ؛ تركوا حظوظَهم لحقِّ الله ؛ وآثروا على هواهم رِضاء الله . أولئك الذين عَصَمَهم اللهُ في الحالِ ، وسيرحمهم في المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَدَ اللهُ المؤمنين والمؤمناتِ
جناتٍ تجرى مِنْ تحتِها الأنهارُ
خالدين فيها ومَساكِنَ طيبةً فيجناتِ
عَدْنٍ ورِضوانٌ مِنَ الله أكبر ذلك
الفوزُ العظيمُ ﴾

وَعَدَهُم جميعاً الجنةَ ، ومساكِنَ طيبة ؛ ولا يطيب المَسْكَنُ إلا برؤيةِ المحبوب ، وكلُّ مُحِبٍّ يطيب مَسْكَنُهُ برؤية محبوبه ، ولكنهم مختلفون في الهمم ؛ فَمِنْ مربوطٍ بحظٍّ مردودٍ إلى الخَلْقِ ، ومِنْ مجذوب بحقٍّ موصول بالحق ، وفي الجملة الأمر كما يقال :

(١) وردت (يعنى) وهى خطأ في النسخ .

أجيرانَنا ما أوحشَ الدارَ بَعْدَكم إذا غِبْتُمُ عنها ونحن حضورُ!

ويقال قومٌ يطيب مسكنُهم بوجودِ عَطَائِه ، وقومٌ يطيب مسكنُهم بشهود لقائه ، وأنشدوا :

وإنِّى لَأَهْوى الدارَ لا يستقرُّ لى بها الودُّ إلا أنَّها من دِيارِكا

ثم قال : « ورضوانٌ من الله أكبر » : وأمارةُ أهلِ الرضوانِ وجدانُ طَعْمِهِ ؛ فهم فى روْح الأُنْسِ ، وروْح الأُنْسِ لا يتقاصر عن راحة دار القُدْس بل هو أتمُّ وأعظم .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها النبيُّ جاهِدْ الكُفَّارَ والمنافقين واغلُظْ عليهم ومأواهم جَهَنَّمُ وبِئْسَ المصير ﴾

دعا نَبِيُّنا — صلى الله عليه وسلم — كافةَ الخَلْقِ إلى حُسْن الخُلُق .

قال لموسى عليه السلام : « قولا له قولاً لَيِّناً »(١) .

وقال لنبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — : « واغلُظْ عليهم »(٢) ويقال إنما قال هذا بعد إظهار الحجج ، وبعد ما أزاح عُذْرَهُم بأيام المهلة ؛ ففى الأول أمَرَه بالرِّفق حيث قال : « إنما أعظكم بواحدة »(٣) ، فلما أصروا واستكبروا أمَرَه بالغِلظة عليهم . والمجاهدة أولها اللسان لشرح البرهان ، وإيضاح الحجج والبيان ، ثم إنْ حَصَلَ من العدوِّ جُحْدٌ بعد إزاحة العذر ، فبالوعيد والزجر ، ثم إنْ لم ينجعْ الكلامُ ولم ينفع الملامُ فالقتالُ والحربُ وبَذْلُ الوسعِ فى الجهاد .

قوله جل ذكره : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كَلِمةَ الكُفر ، وكفروا بعد إسلامهم ﴾

---

(١) آية ٤٤ سورة طه .
(٢) آية ٩ سورة التحريم .
(٣) آية ٤٦ سورة سبأ .

تَسَتَّروا بأَيْمانِهِم فهَتَكَ اللهُ أستارهم وكشف أسرارهم .

قوله : « ولقد قالوا كلمة الكفر » : وهي طَعْنُهُم في نُبوَّةِ رسولِ الله — صلى الله عليه وسلَّم . وكلُّ مَنْ وَصَفَ المعبودَ بصفاتِ الخَلْق أو أضاف إلى الخَلْق ما هو من خصائص نعت الحقِّ فقد قال كلمة الكفر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهَمُّوا بما لم يَنَالُوا وما نَقَمُوا إلاَّ أَنْ أغناهم اللهُ ورسولُه مِنْ فَضْلِه ﴾ .

أي أظهروا من شعار الكفر ما دَلَّ على جُحْدِهِم بقلوبهم بعد ما كانوا يُظْهِرون الموافقة والاستسلامَ ؛ وهمُّوا بما لم ينالوا من قتلٍ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما سوَّلت أنفسهم أنه يُخْرِج الأَعَزُّ منها الأذلَّ ، وغير ذلك .

يقال تمنوا زوالَ دولةِ الإسلام فأبى اللهُ إلا إعلاء أمْرِها .

ثم قال : « وما نَقَمُوا إلا أنْ أَغْنَاهم الله ورسوله » : أي ما عابوه إلا بما هو أَجلّ خصاله ، فلم يحصلوا من ذلك إلا على ظهور شأنهم للكافة بما لا عذر لهم فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ فإنْ يتوبوا يَكُ خيراً لهم وإن يتولَّوْا يُعَذِّبْهم اللهُ عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ومالهم في الأرضِ مِنْ وليٍّ ولا نصير ﴾

وأقوى أركان التوبة حلُّ عقْدة الإصرار عن القلب ، ثم القيام بجميع حقِّ الأمر على وجه الاستقصاء .

قوله جل ذكره ﴿ ومنهم مَنْ عاهَدَ اللهَ لئن آتانا من فضلِه لَنَصَّدَّقَنَّ ولنَكُونَنَّ مِنَ الصالحين * فلمَّا آتاهم مِنَ فضلِه بَخِلُوا به وتَوَلَّوا وهم مُعْرِضون ﴾

منهم مَنْ أَكَّدَ العَقْدَ مع الله ، ثم نَقَضَهُ ، فَلَحِقَهُ شُؤْمُ ذلك ، فَبقِىَ خالداً فى نِفاقِهِ .

ويقال تطلَّبَ إحسانَ ربِّهِ ، وتقرَّبَ إليه بإبرام عهده فلمَّا حقَّقَ اللهُ مسئولَه واستجاب مأمولَه ، فَسخَ ما أبرمه ، وانسلخ عما التزمه ، واستولى عليه البُخْلُ ، فَضَنَّ بإخراج حقه ، فَلَحِقَه شؤمُ نِفاقِهِ ، بأن بَقِىَ إلى الأبد فى أسْرِه .

وحدُّ البخل — على لسان العلم — مَنْعُ الواجب . وبُخْلُ كلِّ أحدٍ على ما يليق بحاله ، وكلُّ مَنْ آثر شيئاً من دون رضاء ربِّه فقد اتصف ببخله ، فَمَنْ يَبْخَلْ بماله تَزَلْ عنه البركةُ حتى يئول إلى وارثٍ أو يزول بحارث . ومَنْ يبخلْ بنفْسه ويتقاعس عن طاعته تفارقه الصحةُ حتى لا يستمتع بحياته . والذى يبخل بروحه عنه يُعاقَبُ بالخذلان حتى تكون حياتُه سَبباً لشقائه .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ فأعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فى قلوبهم إلى يومِ يلقَوْنَه بما أخلفوا اللهَ ما وَعَدُوه وبما كانوا يَكْذِبون ﴾

أعقبهم ببخلهم نفاقاً فى قلوبهم ، ويصحُّ أعقبهم الله نفاقاً فى قلوبهم ، وفى الجملة : مَنْ نَقَضَ عهده فى نفسه رفض الودَّ من أصله ، وكلُّ من أظهر فى الجملة خيراً واستبطن شراً فقد نافق بقسطه . والمنافق فى الصف الأخير فى دنياه ، وفى الدَّرْكِ الأسفل من النار فى عقباه .

قوله جل ذكره : ﴿ ألَمْ يعلموا أنَّ اللهَ يعلمُ سِرَّهم ونجواهم وأنَّ اللهَ عَلَّامُ الغيوب ﴾

خوَّفَهم بعلمه كما خوَّفهم بفعله فى أكثر من موضعٍ من كتابه .

و « سِرُّهم » مالا يطلع عليه غير الله .

و « نجواهم » ما يتسارُّون بعضهم مع بعض . ويحتمل أن يكونَ ما لنفوسهم عليه إشرافٌ من خواطرهم[1]

---

(١) يقول القشيرى فى رسالته فى معنى « السر » هو محل المشاهدة كما ان الأرواح محل المحبة والقلوب محل للمعارف . وقالوا السر مالك عليه إشراف ، وسر السر مالا اطلاع عليه لغير الحق . (الرسالة ص ٤٨)

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يَلْمِزُونَ المُطَّوِّعينَ مِنَ المؤمنين في الصدقاتِ والذين لا يجدون إلا جُهْدَهم فيَسْخَرون منهم سَخِرَ اللهُ منهم ولهم عذابٌ أليم ﴾

عابوا الذين قَصُرَتْ أيديهم عن الإكثار في الصَّدَقة وجادوا بما وصَلَتْ إليه أيديهم ، فَشَكَرَ اللهُ سَعْيَ مَنْ أخلصَ في صدقته بعدما عَلِمَ صِدْقَه فيها . وقليلُ أهلِ الإخلاص أفضلُ مِنْ كثيرِ أهلِ النفاقِ .

ولمَّا أوجدوا(١) المسلمين بسخريتهم وَصَفَ اللهُ — سبحانه وتعالى — نفْسَه بما يستحيل في وصفه — على التحقيق — وهو السخرية بأحدٍ . . تطييباً لقلوبِ أوليائه ، فقد تقدَّس عن ذلك لعزَّة ربوبيته .

قوله جل ذكره : ﴿ استغْفِرْ لهم أوْ لاتَسْتغفرْ لهم إنْ تَسْتَغْفِرْ لهم سبعين مرةً فلَنْ يغفرَ اللهُ لهم ذلك بأنَّهم كَفَروا باللهِ ورسولِه واللهُ لا يهـدى القومَ الفاسقين ﴾

خَتَمَ القضايا بأنَّه لا يغفر لأهل الشِرْكِ والنفاق ، فلا تنفعهم الوسائل ، ولا ينتعش منهم الساقط .

ويقال مَنْ غَلَبَتْه شِقْوَتُنا لم ينفعه (تضرعه)(٢) ودعوته .

ويقال صريعُ القدرة لا يُنْعِشُه الجُهد والحيلة .

---

(١) (أوجدوا) أي سببوا لهم حفيظة وألماً .

(٢) وردت (تضر) بعدها عين مغلقة وهاء ساقطة وقد أكملناها (تضرعه) لملاءمتها للسياق ، ولانسجامها مع (دعوته) بمعنى دعائه واستغفاره لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَرِحَ المُخَلَّفُون بِمَقْعَدِهِم خِلافَ
رسولِ الله وكَرِهوا أنْ يجاهدوا
بأموالهم وأنفسِهم فى سبيل الله وقالوا
لا تنفرُوا فى الحرِّ قُلْ نارُ جهنَّمَ
أشدُّ حَرّاً لو كانوا يفقهون ﴾

استحوذ عليهم سرورُهم بتخلفهم ، ولم يعلموا أن ثبورَهم فى تأخرهم وما آثروه من راحة نفوسهم على أداء حق الله ، والخروج فى صحبة رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، فنزع الله الراحةَ بما عاقبَهم ، وسَيَصْلَوْنَ سعيراً فى الآخرة بما قدَّموه من نفاقهم ، وسوف يتحسرُون ولاتَ حينَ تحسُّر .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قليلاً وَلْيَبْكُوا
كثيراً جزاءً بما كانوا يكسِبُون ﴾

بَدَّل الله مَسَرَّتهم بِحَسْرةٍ ، وفَرْحَتهم بتَرْحَةٍ ، وراحتهم بِعَبْرَةٍ ، حتى يكثر بكاؤهم فى العُقبى كما كثر ضحكُهم فى الدنيا ، وذلك جزاءُ مَنْ كَفَرَ بربه .

قوله جل ذكره : ﴿ فإنْ رَجَعَكَ اللهُ إلى طائفة منهم
فاستأذنوك للخروج فَقُلْ لَن تَخْرجوا
معى أبداً ولَنْ تُقَاتِلوا معى عَدوّاً
إنَّكم رَضِيتُم بالقعودِ أوَّلَ مرةٍ
فاقعدوا مع الخالِفين ﴾

يقول : بعدما ظهرت خيانَتُهم ، وتقرر كذبهم ونفاقهم ، لا تَنْخَدِعْ بتملقهم ، ولا تَثِقْ بقولِهم ، ولا تُمَكِّنْهم مِنْ صُحبتِك فيما يُظْهِرونه مِنْ وفاقك[1] . فإذا وَهَنَ سِلْكُ العهدِ فلا يحتمِلُ بعدَه الشَّدَّ ، وإذا اتسع الخَرْقُ لا ينفع بَعْدَه الرَّقْعُ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُصَلِّ على أحَدٍ منهم ماتَ أبداً

(١) سقطت الواو من (وفاقك) .

ولا تَقُمْ على قَبرِه إنَّهم كفروا باللهِ
ورسولِه ، وماتوا وهم فاسِقون ﴾[1]

ليس بعد التَّبرِّى التولى ، ولا بعدَ الفراق الوفاق ، ولا بعد الحجبة قربة . مضى لهم من الزمان ما كان لأملهم فيه فسحة ، أو لرجائهم مساغ ، أو لظنِّهم تحقيق ، ولكن سَبَقَ لهم القضاء بالشقاوة ، ونعوذ بالله مِنْ سوءِ الخاتمة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُعْجِبْكَ أموالُهم وأولادُهم
إنَّما يُرِيدُ اللهُ أنْ يُعذِّبهم بها فى الدنيا
وتَزْهَقَ أنفُسُهم وهم كافِرون ﴾

يقول لا تحسبنَّ تمكينَ أهل النِّفاق مِنْ تنفيذ مرادهم ، وتكثيرَ أموالهم إسداء معروف منًّا إليهم ، أو إسباغَ إنعامٍ مِنْ لَدُنَّا عليهم ، إنما ذلك مكْرٌ بهم ، واستدراجٌ لهم ، وإمهال لا إهمال . وسيلقون غِبَّه[2] عن قريب .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أنْ آمِنوا
باللهِ وجاهِدوا مع رسولِه استأذنَكَ
أُولُو الطَّوْلِ منهم وقالوا ذَرْنَا نَكنْ
مع القاعدين ﴾

إذا تَوَجَّه عليهم الأمرُ بالجهاد ، واشتدَّ عليهم حكمُ الإلزام ، تعلَّلوا إلى السَّعَةِ[3] ، وركنوا إلى اختيار الدَّعَةَ واحتالوا فى موجِباتِ التَّخَلُّفِ ، أولئك الذين خَصَّهم[4] بخذلانه ، وصَرَفَ قلوبهم عن ابتغاءِ رضوانه .

---

(١) وقع الناسخ فى خطأ حين نقل الآية إذ كتب بعد (ورسوله) : (ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون) .
وقد صوبنا حسب الآية (٨٤) .

(٢) وردت (غيبه) بالياء وهى خطأ فى النسخ ، والصواب (غبه) أى عاقبته .

(٣) أى إلى نقص وسعهم ومكنتهم .

(٤) اشتبهت علامة التضعيف على الناسخ فظن الكلمة (خصتهم) بالتاء وهى غير ملائمة .

قوله جل ذكره : ﴿ رَضُوا بأَنْ يكونوا مع الخوالِفِ
وطُبِعَ على قلوبِهِم فهم لا يفقهون ﴾

بَعُدُوا عن بِساط العِبادة فاستطابوا الدّعة ، ورضوا بالتعريج فى منازل الفرقة ، ولو أنهم رجعوا إلى الله تعالى بِصِدقِ النَّدم لقابَلَهُم بالفضل والكرم ، ولكنْ القضاءغالِبٌ ، والتكلفَ ساقطٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ لكن الرسولُ والذين آمنوا معه
جاهَدوا بأموالهم وأنفُسِهم وأولئك
لهم الخيراتُ وأولئك همُ المُفْلِحُون ﴾

ليس مَنْ أقْبَلَ كمَنْ أعرض وصُدّ[1] ، ولا مَنْ قُبِلَ أمْرُه كمَنْ رُدَّ ، ولا من وحَّدَ كمن جَحَدَ ، ولا من عَبَدَ كمن عَنَدَ ، ولا مَنْ أتَى كمن أبَى . . . فلا جَرَمَ رَبِحَتْ تِجارَتُهم ، وجَلَتْ رُتْبَتُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أعَدَّ الله لهم جنات تجرى مِنْ تحتها
الأنهارُ خالدين فيها ذلك الفوزُ
العظيم ﴾

تشير الآية إلى أن راحاتِهم موعودة ، وإنْ كانت الأتعابُ[2] فى الحال موجودةً مشهودة .

ويقال صادِقُ يقينِهم بالثوابِ يُهوِّن عليهم مقاساةَ ما يلقونه — فى الوقت — من الأتعاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وجآء المُعَذِّرون مِنَ الأعرابِ
ليُؤْذَنَ لهم وقَعَدَ الذين كَذَبُوا الله

(١) وردت (سد) بالسين والصواب (صد) لتلائم أعرض .
(٢) اشتبهت على الناسخ فظنها (الألقاب) والصواب الأتعاب لتقابل (راحاتهم) ، ثم إنها تكررت فيما بعد قليل .

ورسوله سيُصيب الذين كفروا منهم
عذابٌ أليم ﴾

وهم أصحاب الأعذار — فى قول أهل التفسير — طلبوا الإذنَ فى التأخرِ عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى غزوة تبوك فسقط عنهم اللَّوْمُ .

أما الذين تأخروا بغير عُذْرٍ فقد توجَّه عليهم اللوم ، وهو لهم فى المستقبل الوعيد .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس على الضُّعفاءِ ولا على المرضى
ولا على الذين لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ
حَرَجٌ إذا نصحوا للهِ ورسولِه ماعلى
المُحْسِنين من سبيلٍ واللهُ غفورٌ
رحيم ﴾

قيمةُ الفقرِ تظهر عند سقوط الأمر ، ولو لم يكن في القلة خيرٌ إلا هذا لكفى لها بهذا فضيلة ؛ بقوا فى أوطانهم ولم يتوجَّه عليهم بالجهادِ أمرٌ ، ولا بمفارقة المنزل امتحان . واكتفى منهم بنصيحة القلب ، واعتقادِ أنْ لو قدروا لخرجوا .

وأصحابُ الأموال امتُحِنوا — اليومَ — بجَمْعِها ثم بحِفْظِها ، ثم ملَكَتْهُم محنتُها حتى شقَّتْ عليهم الغيبةُ عنها ، ثم توجَّه اللومُ عليهم فى تَرْكِ إنفاقها ، ثم ما يعقبه — غداً — من الحسابِ والعذاب يربو على الجميع .

وإنَّما رفع الحَرَجَ عن أولئك[1] بشرطٍ وهو قوله : « إذا نصحوا لله ورسوله » فإذا لم يوجد هذا الشرطُ فالحرجُ غيرُ مرتفعٍ عنهم .

قوله : « ماعلى المحسنين من سبيل » : المُحْسِنُ الذى لا تكون للشرع منه مطالبة لا فى حقِّ الله ولا فى حقِّ الخَلْق[2] .

---

(١) فى النسخة (هؤلاء) وقد آثرنا أن نضع (أولئك) لينصرف الكلام إلى الطائفة الأولى أى الضعفاء والمرضى وأصحاب العذر .

(٢) لأنه قد استوفى جميع المطالبات ولم يتبق عليه شيء .

ويقال هو الذي يعلم أنَّ الحادثاتِ كلَّها من الله تعالى .

ويقال هو الذي يقوم بحقوقِ ما نيط به أمْرُه ؛ فلو كان طيرٌ في حكمه وقصَّرَ في علَفِه ـ لم يكن محسناً .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتَوْكَ لتحْمِلَهم
قُلْتَ لا أجِدُ ما أحْمِلُكم عليه تولَوا
وأعينُهم تَفِيضُ مِنَ الدَّمع حَزَناً
ألا يجِدُوا ما يُنْفِقُون ﴾

منَعَهم الفقرُ عن الحَرَاكِ فالتمسوا من الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يحملهم معه ويهيئ أسبابَهم ، ولم يكن في الحال للرسول عليه السلام سَعَةٌ ليوافقَ سؤْلَهم ، وفي حالة ضيق صدره — صلى الله عليه وسلم — حَلَفَ إنه لا يَحْمِلُهم ، ثم رآهم صلى الله عليه وسلم يتأهبون للخروج ، وقالوا في ذلك ، فقال عليه السلام : إنما يحملكم الله .

فلمَّا رَدَّهم الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن الإجابة في أن يحملهم رجعوا عنه بوصف الخيبة كما قال تعالى : « تولوا وأعينهم تفيض من الدمع » كما قال قائلهم :

قال لي مَنْ أُحِبُّ والبَيْن قد حَلَّ ودمعي مرافِقٌ لشهيقي
ماتُرى في الطريقِ تصنع بعدى ؟ قلتُ : أبكي عليك طول الطريق

قوله : « حزناً ألا يجدوا ما ينفقون » شقَّ عليهم أنْ يكونَ على قلب الرسول — صلى الله عليه وسلم — بسببهم شُغْلٌ فتمنَّوْا أن لو أُزِيحَ هذا الشغلُ ، لا ميلاً إلى الدنيا ولكن لئلا تعودَ إلى قلبه — عليه السلام — مِنْ قِبَلِهم كراهةٌ ، ولهذا قيل :

مَنْ عَفَّ خَفَّ على الصديقِ لقاؤه وأخو الحوائجِ مُمْجِجٌ مَمْلولُ

ثم إنَّ الحقَّ — سبحانه — لمَّا عَلِمَ ذلك منهم ، وتمحضت قلوبُهم للتعلُّق بالله ، وخَلَتْ عقائدُهم عن مُساكنةِ مخلوقٍ تدارَكَ اللهُ أحوالَهم ؛ فأمر اللهُ رسولَه عليه السلام أنْ يَحْمِلَهم . . بذلك جرَتْ سُنَّتُه ، فقال : « وهو الذي يُنَزِّلُ الغيث مِنْ بعدما قنطوا » (١)

---

(١) آية ٢٨ سورة الشورى .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما السبيلُ على الذين يَسْتَـأْذِنُونك وهم أغنياء ﴾

يريد السبيل بالعقوبة والملامة على الذين يتأخرون عنك فى الخروج إلى الجهاد ولهم الأُهبة والمُـكْنَة ، وتساعدهم على الخروج الاستطاعةُ والقدرةُ ؛ فإذا استأذنوك للخروج وأظهروا[1] لم يَصْدُقوا ، فهم مُسْتَوجِبُون للنـكير عليهم ، لأنَّ مَنْ صَدَقَ فى الولاء لا يحتشم من مقاساةِ العناء ، والذى هو فى الولاءِ مماذِقٌ وللصِّدقِ مفَارِقٌ يتعلَّلُ بما لاأصل له ، لأنه حُرِمَ الخلوصَ فيما هو أهْلٌ له ، وكذا قيل :

إنَّ الملولَ إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوصَالَ وقال كان وكانا

قوله جل ذكره : ﴿ رَضُوا بأَنْ يكونوا مع الخوالِفِ ﴾

قيل فى التفسير : مع النساء فى البيوت .

والإسلام يثنى على الشجاعة ، وفى الخبر : إنْ الله تعالى يحب الشجاعة ، ولو على قتل حية ، وفى معناه أنشدوا .

كُتِبَ القتلُ والقتالُ[2] علينـا وعلى المُحْصَنَاتِ جرُّ الذّيولِ

ومَنْ استوطن مركبَ الـكسلِ ، واكتسى لِباسَ الفَشَلِ ، ورَكَنَ إلى مخاريق الحِيَلِ ـ حُرِمَ استحقاقَ القُربة . ومَنْ أراد اللهُ ـ تعالى ـ هَوَانَه ، وأذاقه خِذْلانَه ، فليس له عن حكم الله مناصٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إليكم إذا رَجَعْتُم إليهم قُلْ لا تعتذروا لَنْ نُؤْمِنَ لـكم قد نَبَّـأنا اللهُ مِن أخباركم وسيرى اللهُ عَمَلَـكُم ورسولُه ثُمَّ تُرَدُّون إلى عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهادةِ فينبئـكم بما كنتم تعملون ﴾

---

(١) ربما سقطت هنا « العذر » فهى مطلوبة للسياق .
(٢) وردت (القتل والقتل) والصواب (القتل والقتال) .

أراد إذا تَقَوَّلُوا بما هم فيه كاذبون ، وضلوا عما كانوا فى تخلفهم به يتّصِفون -- فأخبرُوهم أنَّا عرَّفنا اللهُ كذبَكم فيما تقولون ، واتضحت لنا فضائحُكم ، وتميَّز -- بما أظهره الله لنا -- سَيِّئُكم وصالحُكم ، فإنَّ اللهَ تعالى لا يَخْفَى عليه شىء مِنْ أحوالكم ، وستَلْقَوْنَ غِبَّ أعمالكم فى آجلكم[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ سَيَحْلِفُون باللهِ لكم إذا انقلبتُم إليهم لِتُعْرِضُوا عنهم فأَعْرِضوا عنهم إنَّهم رِجْسٌ ومأواهم جهنمُ جزاءً بما كانوا يَكْسِبُون ﴾

يريد أنهم فى حَلِفِهم باللهِ لكم أن يدفع السوء مِنْ قِبَلِكم ، وليس قصدهم بذلك خلوصاً فى اعتذارهم ، ولا ندامةً على ما احتقبوه من أوزارهم ، إنما ذلك لتُعْرِضُوا عنهم . . . فأَعْرِضوا عنهم ؛ فإنَّ ذلك ليس بمُنْجِيهم مما سيلقونه غداً من عقوبة الله لهم ، فإنَّ اللهَ يُمْهِلُ العاصىَ حتى يتوَهَّمَ أنه قد تجاوَزَ عنه ، وما ذلك إلا مَكْرٌ عُومِل به ، فإذا أذاقه ما يستوجِبُه عَلِمَ أن الأمرَ بخلاف ما ظنَّه ، وما ينفع ظاهرٌ مغبوطٌ ، والحال -- فى الحقيقة -- يأسٌ من الرحمة وقنوطٌ ، وفى معناه قالوا :

وقد حسدونى فى قُرْبِ دارى مِنْهُمُ ... وكم مِن قريبِ الدارِ وهو بعيدُ !

قوله جل ذكره : ﴿ يحلفون لكم لترضَوْا عنهم فإنْ تَرْضَوْا عنهم فإنَّ اللهَ لا يَرْضَى عن القومِ الفاسقين ﴾

من كان مسخوطَ الحقِّ لا ينفعه أن يكون مرضىَّ الخَلْقِ ، وليست العِبْرَةُ بقولِ غيرِ اللهِ إنَّما المدارُ على ما سَبَقَ من السعادة فى حُكْمِ الله .

قوله جل ذكره : ﴿ الأعرابُ أشدُّ كُفْراً ونِفاقاً وأَجْدَرُ ألا يَعْلَموا حُدُودَ ما أنزل اللهُ على رسولِه واللهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾

---

(1) وردت (غب أعمالكم فى أعمالكم) والصواب (فى آجلكم) لأن الآية تشير لذلك .

جُبِلَتْ قلوبُهم على القسوةِ فلم تَقْرَعْها هواجِمُ الصفوة ، وكانوا عن أشكالهم فى الخِلْقَةِ مستأخرين بما (. . .)[1] من سوء الخُلُق ؛ فَهُمْ مِنَ استبانةِ الحقائق أبعد ، ومن استيجاب الهوان أقرب .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِن الأعرابِ مَن يتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً ويتربَّصُ بِكمُ الدوائرَ ، عليهم دائرةُ السَّوْءِ والله سميعٌ عليمٌ ﴾

خَبُثَتْ عقائدُهم فانتظروا للمسلمين ما تعلقت به مناهم من حلول المِحن بهم ، فأبى اللهُ إلا أن يَحِيقَ بهم مكرُهم ، ولهذا قيل فى المثل : إذا حَفَرْتَ لأخيك فَوَسِّعْ فربما يكون ذلك مقيلَك !

ويقال مَنْ نَظَرَ إلى ورائه يُوَفَّقْ فى كثيرٍ من تدبيره ورأيه .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الأعرابِ مَنْ يؤمنُ باللهِ واليوم الآخرِ ويَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قرُباتٍ عند اللهِ وصلواتِ الرسولِ ألاَ إنَّها قُرْبَةٌ لهم سيُدْخِلُهم اللهُ فى رحمتِه إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾

تَنَوَّعُوا ؛ فمنهم مَنْ غَشَّ ولم يربح ، ومنهم مَنْ نَصَحَ فلم يَخْسِرْ ، فأمَّا الذين مذقوا فهم فى مهواةِ هوانِهم ، وأما الذين صَدَقُوا ففى رَوْحِ إحسانهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسانٍ رَضِىَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه وأعَدَّ

(١) مشتبهة .

لهم جناتٍ تجرى تحتَها الأنهارُ
خالدين فيها أبداً ذلك الفوزُ
العظيم ﴾

السابقون مختلفون ، فمنْ سابقٍ بصدقِ قَدَمِه ، ومنْ سابقٍ بصدقِ هِمَمِه .

ويقال السابقُ مَنْ ساعدَتْه القسمةُ بالتوفيق ، وأسعدَتْه القضية بالتحقيق ، فسبقت له من الله رحمتُه .

ويقال سبقهم بعنايته ثم سبقوا بطاعتهم له .

ويقال جَمَعَ الرِّضاءُ صَفَّيْهم : السابقَ منهم واللاحقَ بهم ؛ قال تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . . . رَضِى الله عنهم ورضوا عنه » .

ويقال ليس اللاحقُ كالسابق ، فالسابقُ فى رَوْحِ الطلبِ ، واللاحِقُ فى مقاساةِ التعبِ ، ومُعاناةِ النَّصَبِ ، وأنشدوا :

السِّباقَ السِّباقَ قولاً وفعلاً　　حَذِّروا النَّفْسَ حَسْرَةَ المسبوقِ

ويقال رِضَاهُم عن اللهِ قضيةُ رضاء الله عنهم ؛ فلولا أنه رَضِىَ عنهم فى آزالِه . . . فمتى وصلوا إلى رضاهم عنه ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ وممَّنْ حوْلَكم منَ الأعرابِ منافِقُون ومنْ أهل المدينة مَرَدُوا على النفاقِ ، لا تعلمهم ، نحن نعلمهم ، سَنُعَذِّبُهم مرتين ، ثُمَّ يُرَدُّون إلى عذابٍ عظيمٍ ﴾

تشاكل المخلِصُ والمنافقُ فى الصورة فلم يَتَمَيَّزا بالمبانى ، وإن تنافَيا فى الحقائق والمعانى وتقاصر عِلْمُهم عن العرفان فهتَكَ الله لنبيِّه أستارَهم . فعَرَفَهم ، وهم بإشرافه عليهم جاهلون ، وعلى الإقامة فى أوطان نفاقهم مصروفون ، فلم ينفعهم طولُ إمهاله لهم .

« سنعذبهم مرتين » : الأولى فى الدنيا بالفضيحة فيما ينالهم من المحن والفتن والأمراض ، ولا يحصل لهم عليها فى الآخرة عِوَضٌ ولا أَجْرٌ ولا مَسَرَّةٌ ، والثانية عذابُ القبر .

وقيل المرة الأولى بِقَبْضِ أرواحهم ، والثانية عذاب القبر ثم يوم القيامة يُمْتحنون بالعذاب الأكبر .

ويقال المرة الأولى ظنُّهم أنهم على شىء ، والمرة الثانية بخيبة آمالهم وظهور ما لم يحتسبوه لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وآخَرون اعترفوا بذنوبهم خَلَطُوا
عَمَلاً صالحًا وآخَرَ سَيِّئًا عسى اللهُ
أَنْ يتوبَ عليهم إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾

إنْ اتصفوا بعيوبهم فلقد اعترفوا بذنوبهم . والإقرارُ توكيدُ الحقوق فيما بين الخَلْق فى مشاهد الحكم ، ولكن الإقرار بحق الله — سبحانه — يوجِبُ إسقاط الجُرْم فى مقتضى سُنَّةِ كَرَم الحقِّ — سبحانه ، وفى معناه أنشدوا :

قيل لى : قد أساء فيكَ فلانٌ   وسكوتُ الفتى على الضيم عارُ
قلتُ : قد جاءنى فأَحْسَنَ عُذرا   دِيَةُ الذَّنبِ عندنا الاعتذار

« خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا » : ففى قوله « وآخر سيئًا » بعد قوله « صالحًا » دليلٌ على أن الزَّلَّةَ لا تُحبِطُ ثوابَ الطاعةِ ؛ إذ لو أحبطته لم يكن العملُ صالحًا .

وكذلك قوله : « عسى الله أنْ يتوب عليهم » : وعسى تفيد أنه لا يجب على الله شىء فقد يتوب وقد لا يتوب . ولأنَّ قوله صِدْقٌ . فإذا أخبر أنَّه يجيبُ فإنه يفعل ، فيجب منه لا يجب عليه(1) .

ويقال قوله : « خلطوا عَمَلاً صالحًا » : يحتمل معناه أنهم يتوبون ؛ فالتوبة عملٌ صالح . وقوله : « وآخر سيئًا » : يحتمل أنه نَقْضُهم التوبة ، فتكون الإشارة فى قوله : « عسى الله أن يتوب عليهم » أنهم إنْ نقضوا توبتهم وعادوا إلى ما تركوه من زَلَّتهم فواجبٌ منَّا أن

(1) واضح حرص القشيرى على مقاومة المعتزلة فيما يتصل بنفى اى وجوب على الله فقد جلت الصمدية عن ذلك ، وإن كان يرى أنه يجب منه — سبحانه — الفضل .

نتوب عليهم ، ولئن بطلت — بنَقْضِهم — توبتُهم . لَمَا اختَلَّتْ — بفضلنا — توبتُنا عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً تُطَهِّرُهم
وتُزكيهم بها وصَلِّ عليهم إنَّ صلاتَكَ
سَكَنٌ لهم واللهُ سميعٌ عليم ﴾ :

تطهرهم مِنْ طَلَبِ الأعواض عليها ، وتزكيهم عن ملاحظتهم إياها .

تطهرهم بها عن شُحٍّ نفوسهم ، وتزكيهم بها بألا يتكاثروا بأموالهم ، فيَرَوْا عظيم مِنَّةِ الله عليهم بوجدان التجرُّد منها .

« وصلِّ عليهم إن صلاتك سَكَنٌ لهم » : إنْ تُعاشِرْهم بِهِمَّتِكَ معهم أمِنُ لهم من استقلالهم بأموالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يعلموا أنَّ اللهَ هو يقبلُ التوبةَ
عن عبادِهِ ويأخذُ الصدقاتِ وأنَّ اللهَ
هو التوَّابُ الرحيم ﴾

تمدَّحَ — سبحانه — بقبول توبة العاصين إذ بها يظْهِرُ كَرَمَهُ ، كما تمدَّح بجلال عِزِّه وَنَبَّهَهم على أنْ يَعرِفوا به جَلاله وقِدَمَه .

وكما توحَّدَ باستحقاق كبريائه وعظمته تَفَرَّدَ بقبول توبة العبد عن جُرْمِهِ وزَلَّتِهِ . فكما لا شبيهَ له فى جماله وجلاله لا شريكَ له فى أفضاله وإقباله ؛ يأخذ الصدقاتِ — قَلَّتْ أو كَثُرتْ ، فقَدْرُ الصَّدَقةِ وخَطَرُها بأَخْذِهِ لها لا بكثرتها وقِلَّتها ؛ قَلَّتْ فى الصورة صَدَقَتَهُم ولكِنْ لَمَّا أَخَذَها وقَبِلها جَلَّتْ بقبوله لها ، كما قيل :

يكون أُجاجاً — دونكم ، فإذا انتهى إليكم تَلَقَّى طِيبَكم فيطيبُ

قوله تعالى : ﴿ وقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُم
ورسولُه والمؤمنون وستردُّون إلى

عالِم الغَيْب والشهادة فَيُنَبِّئُكم
بما كنتم تعملون ﴾ .

خوَّفهم برؤيته — سبحانه — لأعمالهم ، فلمَّا عَلِمَ أنّ فيهم مَنْ تتقاصر حالتُه عن الاحتشام لاطِّلاع الحقِّ قال : « ورسوله » ، ثم قال لِمَنْ نَزَلَتْ رتبتُه : « والمؤمنون » . وقد خَسِرَ مَنْ لا يمنعه الحياء ، ولا يردعه الاحتشامُ ، وسَقَطَ من عينِ اللهِ مَنْ هَتَكَ جلبابَ الحياءِ ، كما قيل :

إذا قَلَّ ماءُ الوَجْهِ قَلَّ حياؤه ولا خيرَ في وجهٍ إذا قَلَّ ماؤه

ومَنْ لم يَمْنَعْهُ الحياء عن تعاطى المكروهاتِ فى العاجل سيلقى غِبَّ ذلك ، وخسرانُه عن قريبٍ فى الآجل .

قوله جل ذكره : ﴿ وآخَرُون مُرْجَوْنَ لأمْرِ اللهِ
إمَّا يُعَذِّبُهُم وإمَّا يتوبُ عليهم
واللهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾ .

لم يُصَرِّحْ بقبول توبتهم ، ولم يَسِمْهُم باليأسِ من غفرانه ، فوقفوا على قَدَمِ الخجلِ ، متميلين بين الرهبة والرغبة ، متردِّدين بين الخوف والرجاء . أخبر اللهُ — سبحانه — أنَّه إنْ عَذَّبَهم فلا اعتراضَ يتوجّه عليه ، وإنْ رَحِمَهم فلا سبيلَ لأحدٍ إليه ، قال بعضهم :

ويشبعنى من الآمال وعدٌ ومن علمى بتقصيرى وعيد

قوله جل ذكره : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضِراراً
وكُفْراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً
لِمَنْ حارَبَ اللهَ ورسولَه مِنْ قبلُ
ولَيَحْلِفُنَّ إنْ أَرَدْنَا إلا الحُسْنَى
واللهُ يَشْهَدُ إنَّهم لكاذِبون ﴾ .

مَنْ لم يكن مخلصاً فى ولائه لم يأنسْ القلبُ بكدِّه وعنائه ، فتَوَدُّدُه فى الظاهر ينادى عليه بالتوائه ، وبقوله بالتكلُّفِ شهادةُ صِدْقٍ على عَدَمِ صفائه :

مَنْ لم يكنْ للوصال أهلاً فكلُّ إحسانه ذنوبُ

قوله جل ذكره: ﴿لا تَقُمْ فيه أبداً لَمسْجِدٌ أُسِّسَ
على التقوى مِنْ أولِ يومٍ أحقُّ
أَنْ تقومَ فيهِ فيه رجالٌ يُحِبُّون
أَنْ يتطهروا واللهُ يُحبُّ المُطَّهِرين﴾

المقام فى أماكن العصيان ، والتعريج فى أوطان أهل الجحود والطغيان — من علامات الموالاة مع أربابها ، وسُكَّانِها وقُطَّانِها .

والتباعدُ عن مَسَاكِنِهم ، وهجرانُ مَنْ جَنَحَ إلى مَسالِكهم عَلَمٌ لِمَنْ أشرب قلبه مخالفتهم ، وباشرت سِرَّه عداوتُهم .

« فيه رجال يحبون أن يتطهروا » : يتطهرون عن المعاصى وهذه سِمَة العابدين ، ويتطهرون عن الشهوات والأمانى وتلك صفة الزاهدين ، ويتطهرون عن محبة المخلوقين ، ثم عن شهود أنفسهم بما يتصفون وتلك صفة العارفين .

قوله « والله يحب المطهرين » : أسرارَهم[1] عن المساكنةِ إلى كل مخلوق ، أو ملاحظةِ كل مُحْدَثٍ مسبوق .

قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَه على تقوى
من اللهِ ورِضوانٍ خيرٌ أَمْ مَنْ
أَسَّسَ بُنْيانَه على شَفَا جُرُفٍ هارٍ
فانهار به فى نارِ جهنَّمَ واللهُ لا يهدى
القومَ الظالمين﴾ .

المريدُ يجب أن يؤسِّسَ بنيانَه على يقينٍ صادقٍ فيما يعتقده ، ثم على خلوص فى العزيمة ألا ينصرفَ قبل الوصولِ عن الطريق الذى يسلكه ، ثم على انسلاخه عن جميع مُناه وشهواتِه ، ومآربه ومطالبه ، ثم يبنى أمْرَه على دوام ذِكْرِه بحيث لا يعترِضُه نِسيان ، ثم على ملازمة حق المسلمين وتقديم مصالحهم ... بالإيثار على نفسه . والذى ضَيَّع الأصولَ

(١) أسرارهم مفعول به لاسم الفاعل « المطهرين » .

فى ابتدائه حُرِمَ الوصول فى انتهائه ، والذى لم يُحْكِمْ الأساسَ فى بنائه سَقطَ السَّقْفُ على جدرانه .

قوله جل ذكره : ﴿لا يزال بُنْيَانُهم الذى بَنَوْا رِيبَةً فى قلوبهم إلا أنْ تَقَطَّعَ قلوبُهم والله عليم حكيم﴾

عروقُ النِّفاقِ لا تُقْتَلَعُ من عَرَصَاتِ اليقين إلا بِمِنْجَلِ التَّحَقُّقِ بصحيح البرهان ؛ فَمَنْ أُيِّدَ لإدامة المسير ، وَوفِّقَ لتأمل البرهان وَصَلَ إلى ثَلَجِ الصدرِ ورَوْحِ العرفان .

ومَنْ أقام على مُعْتَادِ التقليد لم يسترِحْ قلبُه من كَدِّ التردُّدِ ، وظلمةِ التجويز ، وَجَولاَنِ الخواطر المشكلة فى القلب .

قوله جل ذكره : ﴿إنَّ اللهَ اشترى من المؤمنين أَنْفُسَهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنةَ ، يقاتِلون فى سبيل الله فَيَقْتُلُون وَيُقْتَلُون وَعْداً عليه حقاً فى التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ، ومَنْ أوفى بِعَهْدِه من اللهِ ؟ فاستَبْشِرُوا بِبَيْعِكم الذى بايَعْتُم به ، وذلك هو الفوزُ العظيم﴾

لمّا كان من المؤمنين تسليمُ أنفسهم وأموالهم لحكمِ الله ، وكان من الله الجزاء والثوابُ ؛ أى هناك عِوَضٌ ومُعَوَض ، فلما بَين ذلك وبين التجارة من مشابهة أطلق لفظَ الاشتراء ، وقد قال تعالى : « هل أدلكم على تجارة . . . »(١) ، وقال : « فما ربحت تجارتهم »(٢) .

وفى الحقيقة لا يصحُّ فى وصف الحق — سبحانه — الاشتراء لأنه مَالِكُ سِواه ، وهو مالكُ الأعيانِ كلِّها . كما أنَّ مَنْ لم يستحدِثْ مِلْكاً لا يُقَال إنه — فى الحقيقة — باع .

---

(١) آية ١٠ سورة الصف .

(٢) آية ١٦ سورة البقرة .

وللمقال فى هذه الآية مجال . . . فيقال : البائعُ لا يستحقُّ الثمنَ إذا امتنع عن تسليم المبيع ، فكذلك لا يستحق العبدُ الجزاءَ الموعودَ إلا بعد تسليمِ النَّفسِ والمالِ على موجب أوامر الشرع ، فَمَنْ قَعَدَ أو فَرَّطَ فغيرُ مستحقٍ للجزاء .

ويقال لا يجوز فى الشرع أن يبيع الشخصُ ويشترى شيئاً واحداً فيكونَ بائعاً ومشترياً إلا إذا كان أباً وجداً ولكن ذلك هنا بلفظ الشفقة ، فالحقُّ بإذنه كانت رحمتُه بالعبد أتمَّ ، ونظرُه له أبلغَ ، وكان للمؤمنِ فيه من الغبطة ما لا يخفى ، فصحَّ ذلك وإن كان حكمه لا يقاس على حكم غيره .

ويقال إنما قال : « اشترى من المؤمنين أنفسهم » ولم يقل « قلوبهم » لأنَّ النَّفْسَ محلُّ الآفات فجعل الجنة فى مقابلتها ، وجعل ثَمَنَ القلبِ أَجلَّ من الجنة ، وهو ما يخصُّ به أولياءه فى الجنة مِنْ عزيزِ رؤيته[1] .

ويقال النَّفْسُ محلُّ العيب ، والكريم يرغب فى شراء ما يزهد فيه غيره .

ويقال مَنْ اشترى شيئاً لينتفع به اشترى خيرَ ما يجده ، ومن اشترى شيئاً لِيَنْتَفِعَ به غيرُه يشترى ماردَّ على صاحبه لِيَنْفعَه بثمنه .

وفى بعض الكتب المنزلة على بعض الأنبياء — عليهم السلام — : يابنى آدم ، ما خلقتُكم لأربحَ عليكم ولكن خَلقْتُكم لتربحوا علىَّ .

ويقال اشترى منهم نفوسَهم فرهبوا على قلوبهم شكراً له حيث اشترى نفوسَهم ، وأمَّا القلبُ فاستأثره قهراً ، والقهر فى سُنَّةِ الأحبابِ أعزُّ من الفضل ، وفى معناه أنشدوا :

بُنِيَ الحبُّ على القَهْرِ فلو عَدَلَ المحبوبُ يوماً لَسَمُج
ليس يُستَحْسَنُ فى حكم الهوى عاشِقٌ يَطلُبُ تأليفَ الحُجَج

وكان الشيخ أبو على الدقاق[2] رحمه الله يقول : « لم يقل اشترى قلوبَهم لأن القلوبَ وَقْفٌ على محبته ، والوقفُ لا يُشترى » .

---

(١) أنظر كيف تحتل الجنة المرتبة الثانية بعد رؤية المحبوب — عند هذا الصوفى .

(٢) الدقاق هو شيخ القشيرى ورائده وأستاذه وصهره . وقد أشرنا إلى شىء من سيرته فى مدخل هذا الكتاب .

ويقال الطيرُ فى الهواء ، والسَّمَكُ فى الماءِ لا يصحُّ شراؤها لأنه غير ممكن تسليمهما ، كذلك القلبُ .. صاحبُه لا يمكنه تسليمه ، قال تعالى :

« واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه »[1]

وفى التوراة : « الجنَّةُ جنتى والمالُ مالى فاشتروا جنتى بمالى فإنْ ربحتم فلكم وإنْ خسرتُمْ فعلىَّ »

ويقال عَلِمَ سوءَ خُلُقِك فاشتراك قبل أَنْ أوجدك ، وغَالَى بثمنك لئلا يكونَ لَكَ حقُّ الاعتراض عند بلوغك .

ويقال ليس للمؤمن أن يتعصَّبَ لنفسه بحالٍ لأنها ليست له ، والذى اشتراها أَوْلى بها من صاحبها الذى هو أجنبيٌّ عنها .

ويقال أخبر أنه اشتراها لئلا يَدَّعِيَ العبدُ فيها ؛ فلا يساكنها ولا يلاحظها ولا يُعْجَبُ بها[2] .

قوله : « فيَقْتُلُون ويُقْتَلون » سيّان[3] عندهم أن يَقتُلوا أو يُقتَلوا ، قال قائلهم :

وإنَّ دَمَاً أجريتَه لك شاكرٌ وإنَّ فؤاداً خِرْتَه لكَ حامدُ

ويقال قال : « فاستبشروا ببيعكم » ولم يقل بثمن مبيعكم لأنه لم يكن مِنَّا بَيْعٌ ، وإنما أخبر عن نفسه بقوله « إن الله اشترى من المؤمنين » فجعل بَيْعَه بيْعَنا ، وهذا مثلما قال فى صفة نبيه — صلى الله عليه وسلم — : « وما رَميْتَ إذ رمَيْتَ ولكن الله رمى » وهذا عين الجَمْع الذى أشار إليه القوم .

قوله جل ذكره : ﴿ التائبون العابدون ﴾

مَدَحَهُم بعد ما أوقع عليهم سِمَةَ الاشتراء بقوله « التائبون العابدون . . . » ومَنْ رَضِيَ بما اشتراه فإنَّ له حقَّ الردِّ إذا لم يَعْلَمْ العيبَ وقتَ الشِّراء ، فأمَّا إذا كان عالماً به

---

(١) آية ٢٤ سورة الأنفال .

(٢) لاحظ مدى التقاء القشيرى — فيما يتصل بالنفس — بتعاليم أهل الملامة النيسابورية .

(٣) وردت (شتان) وهى — حسب ما هو واضح — خطأ فى النسخ .

فليس له حقُّ الردِّ ، قال تعالى : « ولقد اخترناهم على علم على العالمين »[1] .

ويقال مَنْ اشترى شيئاً فوَجَدَ به عيباً ردَّه على مَنْ منه اشتراه ولكنه — سبحانه — اشترى نفوسَنا منه ، فإذا أراد الردَّ فلا يردُّ إلا على نَفْسِه ، قال تعالى : « ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق » وكما أنَّ الردَّ إليه فلو ردَّنا كان الردُّ عليه .

قوله تعالى : « التائبون » أى الراجعون إلى الله ، فَمِنْ راجعٍ يرجع عن زلَّتِه إلى طاعته ، ومِنْ راجعٍ يرجع عن متابعة هواه إلى موافقةِ رضاه ، ومِنْ راجعٍ يرجع عن شهود نفسه إلى شهود لطفه ، ومِنْ راجعٍ يرجع عن الإحساس بنفسه وأبناء جِنْسِهِ إلى الاستغراق فى حقائق حقِّه .

ويقال تائبٌ يرجع عن أفعاله إلى تبديل أحواله ، فيجد غداً فنونَ أفضاله ، وصنوفَ لطفه ونواله ، وتائبٌ يرجع عن كل غيرٍ وضدٍ إلى ربِّه بربِّه لربِّه بِمَحْوِ كلِّ أَرَبٍ ، وعَدَمِ الإحساس بكلِّ طلب .

وتائب يرجع لحظِّ نَفْسِهِ من جزيل ثوابه أو حَذَرَاً — على نفسه — من أليم عذابه ، وتائب يرجع لأمره برجوعه وإيابه ، وتائب يرجع طلباً لفرح نفسه حين ينجو مِنْ أوضاره ، ويخلص من شؤم أوزاره ، وتائب يرجع لَمَّا سمع أنه قال : إنَّ اللهَ أفرَحُ بتوبةِ عَبْدِهِ من الأعرابى الذى وَجَدَ ضالَّتَه — كما فى الخبر ، وشتَّان ما هما ! وأنشدوا :

أيا قادماً من سَفْرَةِ الهَجْرِ مَرْحَبَا ... أُنَادِيكَ لا أنساكَ ما هبَّتِ الصَّبَا

وأمَّا قوله « العابدون » : فهم الخاضعون بكلِّ وجه ، الذين لا تَسْتَرِقُّهم كرائمُ الدنيا ، ولا تستعبدهم عظائمُ العُقْبَى . ولا يكون العبدُ عبداً لله — على الحقيقة — إلا بعد تجرُّدِهِ عن كل شيءٍ حادثٍ . وكلُّ أحدٍ فهو له عَبْدٌ من حيث الخِلْقة ؛ قال تعالى : « إنْ كل من فى السموات والأرض إلَّا آتى الرحمن عبداً »[2] . ولكنَّ صاحبَ العبودية خاصٌّ ، وهو عزيز .

(١) آية ٣٢ سورة الدخان .
(٢) آية ٩٣ سورة مريم .

قوله جل ذكره : ﴿ الحامدون ﴾

هم الشاكرون له على وجود أفضاله ، المُثْنُون عليه عند شهود جلاله وجماله .

ويقال الحامدون بلا اعتراضٍ على ما يحصل بقدرته ، وبلا انقباضٍ عما يجب من طاعته .

ويقال الحامدون له على منعه وبلائه كما يحمدونه على نفعه وعطائه .

ويقال الحامدون إذا اشتكى مَنْ لا فُتُوَّةَ[1] له المادحون إذا بكى مَنْ لا مروءةَ له .

ويقال الشاكرون له إنْ أدناهم ، الحامدون له إنْ أقصاهم .

قوله جل ذكره : ﴿ السائحون ﴾

الصائمون ولكن عن شهود غير الله ، الممتنعون عن خدمة غير الله ، المكتفون من الله بالله .

ويقال السائحون الذين يسيحون فى الأرض على جهة الاعتبار طلباً للاستبصار ، ويسيحون بقلوبهم فى مشارق الأرضِ ومغاربها بالتفكُّر فى جوانبها ومناكبها ، والاستدلال بتغيُّرها على مُنْشِئِها ، والتحقق بحكمةِ خالقها بما يَرَوْنَ من الآيات فيها ، ويسيحون بأسرارهم فى الملكوتِ فيجدون رَوْحَ الوصال ، ويعيشون بنسيم الأنْسِ بالتحقق بشهود الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ الراكعون ﴾

الخاضعون لله فى جميع الأحوال بخمودهم تحت سلطان التجلِّى ، وفى الخبر . « إن الله ما تجلَّى لشىءٍ إلا خَشَعَ له » .

وكما يكون — فى الظاهر — راكعاً يكون فى الباطن خاشعاً ، ففى الظاهر بإحسان الحقِّ إليه يُحسْنِ تولِّيه ، وفى الباطن كالعيان للعيان للحقِّ بأنوار تجلِّيه .

قوله جل ذكره ﴿ الساجدون ﴾

فى الظاهر بنفوسهم على بِساط العبودية ، وفى الباطن بقلوبهم عند شهود الربوبية .

---

(١) سأل شقيق البلخى جعفرَ بن محمد عن الفتوة فقال : ما تقول أنت ؟ فقال شقيق : إن أعطينا شكرنا وإن منعنا صبرنا ، فقال جعفر : الكلاب عندنا بالمدينة كذلك تفعل ! فقال شقيق : وما الفتوة عندكم ؟ فقال : إن أعطينا آثرنا ، وإن منعنا شكرنا (الرسالة ص ١١٥) .

والسجود على أقسام : سجود عند صحة القصود فيسجد بنعت التذلل على بساط الافتقار ، ولا يرفع رأسه عن السجود إلا عند تباشير الوصال . وسجودٌ عند الشهود إذا تجلَّى الحقُّ لقلبه سَجَدَ بقلبه ، فلم ينظر بعده إلى غيره ، وسجودٌ فى حال الوجود وذلك بخموده عن كليته ، وفنائه عن الإحساس بجميع أوصافه وجملته .

قوله جل ذكره : ﴿ الآمِرون بالمعروفِ والنَّاهون عن المنكرِ والحافِظون لحدودِ اللهِ وبَشِّرْ المؤمنين ﴾

هم الذين يَدْعُون الخَلْقَ إلى الله ، ويُحَذِّرونهم عن غير الله . يتواصَوْن بالإقبال على الله وتَرْكِ الاشتغالِ بغير الله . يأمرون أنفسَهم بالتزام الطاعات بِحَمْلِهم إياها على سَنَنِ الاستقامة ، ويَنْهَوْن أنفسَهم عن اتِّباع المنى والشهوات بِتَرْكِ التعريج فى أوطان الغفلة ، وما تعودوه من المساكنة والاستنامة .

والحافظون لحدود الله ، هم الواقفون حيث وقفهم[1] الله ، الذين لا يتحركون إلا إذا حرَّكهم ولا يَسْكنون إلا إذا سكنهم ، ويحفظون مع الله أنْفَاسَهم[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان للنبيِّ والذين آمنوا أنْ يَسْتَغْفِروا للمشركين ولو كانوا أُولى قُرْبَى من بعد ما تَبَيَّنَ لهم أنَّهم أصحابُ الجحيم ﴾

أصلُ الدين التَبَرِّى من الأعداء ، والتولِّى للأولياء ، والولىُّ لا قريبَ له ولا حميم ، ولا نسيبَ له ولا صَديق ؛ إنْ وَالَى فبأمر ، وإنْ عادى فَلِزَجْرْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيه

---

(١) يكون الفعل (وقف) متعدياً مثل : وقف فلانا على الأمر أى أطلعه عليه (الوسيط)

(٢) مراعاة الأنفاس من الأمور التى شغل بها الصوفية دائماً ، يقول الجنيد :

وما تنفست إلا كنت مع نفسى ... تجرى بك الروح منى فى مجاريها

إلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وعدها إيَّاهُ فلما
تبيَّنَ له أنه عدوٌّ لله تبرَّأ منه إنَّ
إبراهيم لأَوَّاهٌ حليم ﴾

لمـا أَمَرَ المسلمين بالتبرِّي عن المشركين والإعراض عنهم والانقباض عن الاستغفار لهم بَيَّنَ أنَّ هذا سبيلُ الأولياء ، وطريقُ الأنبياء عليهم السلام ، وأنَّ ابراهيمَ — عليه السلام — وإنْ استغفر لأبيه فإنما كان مِنْ قبلِ تَحَقُّقِهِ بأنه لا يُؤْمِنُ ، فلمَّا عَلِمَ أنه عدوٌّ لله أَظْهَرَ البراءةَ منه .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كانَ اللهُ ليُضِلَّ قوماً بعد
إذ هداهم حتى يُبَيِّن لهم ما يتقون
إن الله بكل شيء عليم ﴾

إنَّ اللهَ لا يحكم بضلالـكم وذهابـكم عن طريق الحقِّ باستغفاركم للمشركين إلا بعد ماتبيَّن لـكم أنـكم مَنْهِيُّون عنه ، فإذا علمتم أنـكم نُهِيتُمْ عن استغفارِكم لهم فإنْ أَقْدَمْتُمْ على ذلك فحينئذ ضللتم عن الحقِّ بفعلـكم بعد ما نُهيتم عنه . . . هذا بيان التفسير للآية ، والإشارة فيها أنه لا سَلْبَ لعطائه إلا بتَرْكِ أدب منـكم .

ويقال مَنْ أَحَلَّه بِساطَ الوصلة ما مُنِيَ بعده بعذاب الفرقة ، إلا لِمَنْ سَلَفَ منه تَرْكُ حُرْمة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ له مُلْكُ السموات والأرضِ
يحيي ويُميت وما لـكم من دونِ اللهِ
مِنْ وليٍّ ولا نصير ﴾

الحقُّ لا يَتَجَمَّلُ بوجود مملوكاته ، ولا يلحقه نَقْصٌ بِعَدَمِ[1] مخلوقاته ، فَقَبْلَ أنْ أوجد شيئاً من الحادثات كان مَلِكاً — والمَلِكُ أكثر مبالغةً من المالك — ومُلْكُه قدرتُه

(١) سقطت الميم من (بعدم) فأثبتناها إذ بدونها يضطرب السياق فالمراد (وجود المملوكات وعدمها).

على الإبداع ؛ والمعدوم مقدوره ومملوكه ، فإذا أَوْجَدَه فهو فى حال حدوثه مقدوره ومملوكه ، فإذا أعدمه خرج عن الوجود ولم يخرج عن كونه مقدوراً له .

« يحيي ويميت » يحيي مَنْ يشاء بعرفانه وتوحيده ، ويميت من يشاء بكفرانه وجحوده .

ويقال يُحيي قلوبَ العارفين بأنوار المواصلات ، ويُميتُ نفوسَ العابدين بآثار المنازلات .

ويقال يُحيي مَنْ أقبل عليه بِتَفَضُّله ، ويميت من أعرض عنه بِتَكبُّرِه .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَد تَابَ اللهُ على النبيِّ والمهاجرين والأنصار الذين اتَّبعوه فى ساعة العُسْرَةِ مِنْ بعدما كاد يَزِيغ قلوبُ فريقٍ منهم ثم تَابَ عليهم إنَّه بهم رءوفٌ رحيم ﴾

قَبِلَ توبتهم ، وتاب على نبيِّه — صلى الله عليه وسلم — فى إذنه للمنافقين فى التخلف عنه فى غزوة تبوك ، وأمَّا على المهاجرين والأنصار الذين قد خرجوا معه حين هَمُّوا بالانصراف(1) لِمَا أصابَهم من العُسْرة من الجوع والعطش والإعياء(2) فى غزوة تبوك ، كما قال : « من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم » : وتوبته عليهم أنه تداركَ قلوبَهم حتى لم تزغ ، وكذا سُنَّةَ الحقِّ — سبحانه — مع أوليائه إذا أشرفوا على العَطَبِ ، وقاربوا من التَّلفِ ، واستمكن اليأسُ فى قلوبهم من النصر ، ووَطَّنُوا أنفسهم على أنْ يذوقوا البأسَ — يُمْطِرُ عليهم سحائبَ الجود ، فيعود عودُ الحياةِ بعد يَبْسِه طريًّاً ، ويُرَدُّ وَرْدُ الأُنْس عقب ذبوله غضاً جَنِيّاً ، وتصير أحوالهم كما قال بعضهم :

كُنَّا كَمَنْ أُلْبِسَ أكفانَه وقُرِّب النَّعْشُ من اللَّحدِ
فجال ماء الرُّوحِ فى وَحْشَةٍ وردَّه الوصل إلى الوِرْدِ

---

(1) وردت (الإنصاف) وليس لها معنى فصوبناها (الانصراف) فهو المقصود .
(2) وردت (الأعياد) وهى خطأ فى النسخ إذ التبست الهمزة على الناسخ .

تبـارك الله سبحـانه ما (. . .)[1] هو بالسرمد

قوله جل ذكره : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقَتْ عليهم الأرضُ بما رَحُبَتْ وضاقَتْ عليهم أنفُسُهم وظنوا أنْ لا ملجأ منَ اللهِ إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إنَّ اللهَ هو التواب الرحيم ﴾

لمَّا صَدَقَ منهم اللجاء تداركهم بالشِّفاء وأسقط عنهم البلاء ، وكذلك الحقُّ يُـكَوِّرُ نهار اليُسْرِ على ليالى العُسْر ، ويُطلِعُ شموسَ المحنة على نحوس الفتنة ، ويُدِير فلكَ السعادة[2] فيمحق تأثير طوارق النكاية ؛ سُنَّةً منه — تعالى — لا يُبَدِّلُهـا ، وعادةً منه فى الـكَرَمِ يُجْرِيها ولا يحوِّلها .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وكونوا مع الصادقين ﴾

يأيها الذين آمنوا برُسُلِ الله ، يأيها الذين آمنوا من أهل الـكتاب . . كونوا مع الصادقين المسلمين ، يأيها الذين آمَنُوا فى الحالِ كونوا فى آخر أحوالـكم مع الصادقين ؛ أى استديموا الإيمان . استديموا فى الدنيا الصدقَ تـكونوا غداً مع الصادقين فى الجنة .

ويقال الصادقون هم السابقون الأولون وهم أبو بـكر وعمر وعثمان وعلى رضىَّ الله عنهم وغيرهم .

ويقال الصدق نهاية الأحوال ، وهو استواء السِّرِّ والعلانية ، وذلك عزيز . وفى الزَّبور : « كذب مَنْ ادَّعى محبتى وإذا جَنَّه الليلُ نام عنِّي » .

---

(١) مشتبهة ، والشطر الثانى من البيت الأخير مضطرب الوزن .

(٢) ربما كانت (العناية) لتنسجم مع (النـكاية) لأننا نلحظ اهتمام القشيرى بالموسيقى الداخلية فى تركيب فقرات هذه الإشارة ، وإن كانت « السعادة » مقبولة فى السياق .

والصدقُ — كما يكون فى الأقوال يكون فى الأحوال، وهو أَتَمُّ أقسامِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان لأهلِ المدينةِ ومَنْ حَوْلَهم مِنْ الأعرابِ أَنْ يتخلَّفوا عن رَسولِ اللهِ ولا يرغبوا بأنفسِهم عَنْ نَفْسِهِ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ فى سبيلِ اللهِ وَلَا يطئون موطِئا يغيظ الكفَّارَ ولا ينالون مِنْ عدوٍّ نَيْلاً إلا كُتِبَ لهم به عَمَلٌ صالح إنَّ اللهَ لا يضيعُ أَجْرَ المحسنين * ولا ينفقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً، ولا يقطعون وادياً إلا كُتِبَ لهم ليجزيَهم اللهُ أَحْسَنَ ما كانوا يعملون ﴾ .

لا يجوز لهم أن يؤثِروا على النبيِّ — صلى الله عليه وسلم — شيئاً من نَفْسٍ وروحٍ، ومالٍ وولَدٍ وأهلٍ، وليسوا يخسرون على الله وأنَّى ذلكَ ..؟ وإنهم لا يرفعون لأجْلِهِ خطوةً إلاَّ قابَلَهم بألفِ خطوة، ولا ينقلون إليه قَدَماً إلا لقَّاهم لطفاً وكرما، ولا يُقاسُون فيه عَطَشاً إلا سقاهم من شراب محابِّهِ كاسا، ولا يتحملون لأجله مشقةً إلا لقَّاهم لطفاً وإيناسا، ولا ينالون من الأعداء أذىً إلا شَكَرَ اللهُ سَعْيَهم بما يوجب لهم سعادة الدارين !

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان المؤمنون ليَنْفِروا كافَّةً فلَوْلَا نَفَرَ من كل فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقهوا فى الدِّين ولينذِروا قومَهم إذا رَجَعُوا إليهم لعلَّهم يحْذَرون ﴾ .

لو اشتغل الـكُلُّ بالتَّفَقُّهِ فى الدِّين لَتَعَطَّلَ عليهم المعاش ، ولبقى الـكافة عن درك ذلك المطلوب ، فجعل ذلك فرضا على الـكفاية .

ويقال جعل المسلمين على مراتب : فعوامُّهم كالرعية للمَلِك[1] ، وكَتَبَةُ الحديثِ كخُزَّان المَلِك ، وأهلُ القرآن كحُفَّاظ الدفاتر ونفائس الأموال ، والفقهاء بمنزلة الوكلاء للمَلِك إذ الفقيه (. . .)[2] عن الله ، وعلماء الأصول كالقُوَّادِ وأمراءِ الجيوش ، والأولياءُ كأركان الباب ، وأربابُ القلوبِ وأصحابُ الصفاء كخواص المَلِكِ وجُلَسائه .

فيشتغل قومٌ بحفظ أركان الشرع ، وآخرون بإمضاء الأحكام ، وآخرون بالردِّ على المخالفين ، وآخرون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقوم مُفْرَدُون بحضور القلب وهم أصحاب الشهود ، وليس لهم شُغْلٌ ، يراعون مع الله أنفاسَهم وهم أصحاب الفراغ ، لا يستفزُّهم طَلَبٌ ولا يهزُّهم أَرَبٌ ، فَهُمْ بالله لله ، وهم محو عما سوى الله[3] .

وأمَّا الذين يتفقهون فى الدِّين فهم الداعون إلى الله ، وإنما يُفْهِمُ الخلْقَ عن الله مَنْ كان يَفْهَمُ عن الله .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا قاتِلوا الذين يَلُونَـكم مِنَ الـكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فيكم غِلْظَةً واعلموا أنَّ اللهَ مع المتَّقِين ﴾ .

أقربُ الأعداء إلى المسلم من الـكفار ، الذى يجب عليه منازعته هو أعدى عدوِّه

---

(١) فى الهامش (فالناس كلهم خدم للمالك) . ولا توجد علامة توضح أنها من المتن ، فربما كانت منه وسقطت العلامة ، وربما كانت توضيحاً من أحد القراء .

(٢) مشتبهة أقرب ما تـكون إلى (يرفع) أو (يوقع) ونرجح الثانية فقد وردت كذلك فى سياق مماثل.

(٣) من هذا التصور ندرك شيئاً هاماً عند القشيرى وعند الصوفية الخلص بعامة ، فهم لا يتصورون التصوف مذهباً يسود المجتمع بعامة فيكون الناس جميعاً متصوفة ، بل إن دوره العضوى الهام فى كيان المجتمع محصور في طائفة مخصوصة يمتد اثرها إلى خارج نطاقها ، والمقصود (بالشغل) و (الفراغ) أن يكونوا خالصين لله ، وليس المقصود البطالة من العمل وعدم السعى للرزق .

أى نَفْسُه . فيجب أن يبدأ بمقاتلة[1] نَفْسِهِ ثم بمجاهدة الكفار ، قال عليه السلام : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »[2] .

قوله : « وليجدوا فيكم غِلْظة » مَنْ حابَى عدوَّه قَهَرَهُ ، وكذلك المريد الذى يَنْزِل عن مطالباتِ الحقيقة إلى مايتطلبه من التأويلات فيفسخ عَهْدَه ، وينقض عَقْدَه ، وذلك كالرِّدَّةِ[3] لأهل الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا ما أُنْزِلَتْ سورةٌ فمِنهم مَنْ
يقول أيُّكم زَادَتْه هذهِ إيماناً ،
فأمَّا الذين آمنوا فزادَتْهم إيماناً
وهم يَسْتَبْشِرون ﴾[4]

جَعَلَ الله — سبحانه — إِنزالَ القرآن لقومٍ شِفَاءً . ولقومٍ شَقاءً ؛ فإِذا أُنْزِلَتْ سورةٌ جديدةٌ زاد شكُّهم وتحيُّرهم ، فاستعلم بعضُهم حالَ بعضٍ ، ثم لم يزدادوا إلا تحسُّراً ؛ قال تعالى : « وهو عليهم عَمًى »[5] وأمَّا المؤمنون فزادتْهم السورةُ إيماناً فارتقوا مِنْ حدِّ تأمل البرهان إلى روْح البيان ، ثم مِنْ روْح البيان إلى العيان ، فالتجويز والتردد و (. . . .)[6] والتحيُّر مُنْتَفٍ بأجمعه عن قلوبهم ، وشموسُ العرفانِ طالِعةٌ على أسرارهم ، وأنوار التحقيق مالكة أسرارهم ، فلا لَهُم تعبُ الطلب ، ولا لهم حاجة إلى التدبير ،

---

(١) وردت (مقابلة) والملائم بالنسبة للسياق (مقاتلة) هذا العدو .

(٢) رواه الخطيب فى التاريخ عن جابر (ص ٣٢٥ حـ ٢ منتخب كنز العمال بهامش مسند الإمام احمد) هكذا : (قدمتم خير مقدم وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . مجاهدة العبد هواه) .

(٣) وردت (الرد) والصواب ان تكون (الردة) ، وقد أوضح القشيرى ذلك فى موضع آخر من الكتاب إذ يقول (وكان المرتد اشد على المسلمين عداوة فكذلك من رجع عن الإرادة الى الدنيا والعادة ، فهو أشد الناس انكاراً لهذه الطريقة وابعد عن اهلها) المجلد الأول : ص ٧٥ .

(٤) ينبغى أن نلحق بهذه الآية الآية التى بعدها « وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون » لم ترد فى المتن مع أن المصنف يشير إليها فى شرحه .

(٥) آية ٤٤ سورة فصلت .

(٦) مشتبهة ، ومصححة فى الهامش بطريقة مبهمة وهى فى الكتابة هكذا : (النجث) ، ولا نعرف ضمن آفات العقل كلمة للقشيرى قريبة فى الخط منها ، وربما كانت (التعب) .

ولا عليهم سلطان الفكر . وأشعةُ شموس العرفان مستغرقة لأنوار نجوم العلم ، يقول قائلهم :

ولما استبانَ الصبحُ أدرك ضوءه ... بإسفارِه أنوارَ ضوءِ الكواكب

قوله جل ذكره : ﴿أَوَ لا يَرَوْن أَنَّهم يُفْتَنُون فى كل عامٍ مرةً أو مرتين ، ثم لا يتوبون ولا هُمْ يَذَّكَّرون﴾

لم يُخْلِ الحقُّ — سبحانه — أربابَ التكليف من دلائل التعريفِ ، التعريفُ لهم فى كل وقت بنوع من البيان ، والتكليفُ فى كل أوان بضرب من الامتحان ؛ فما لم يزد لهم فى إيضاح البرهان لم يتجدد لهم من الله إلا زيادة الخذلان والحجبة عن البيان .

وأمَّا أصحاب الحقائق فما للأغيار فى كل عامٍ مرة أو مرتين فلهم فى كل نَفَسٍ مرة ، لا يخليهم الحقُّ — سبحانه — من زواجِرَ توجِبُ بصائر ، وخواطر تتضمن تكليفاتٍ وَأَوَامِرَ[2] قال قائلهم :

كأنَّ رقيباً منك حَلَّ بمهجتى ... إذا رُمْتُ تسهيلاً علىَّ تَصَعَّبا

قوله جل ذكره : ﴿وإذا ما أُنْزِلَتْ سورةٌ نَظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ هل يراكُم مِنْ أَحدٍ ثم انصرفوا ، صَرَفَ اللهُ قلوبَهم بأنَّهم قومٌ لا يفقهون﴾

تَقَنَّعوا بخمارِ التلبيس ظانِّين أنهم يبقون فى سِرٍّ بتكلفهم ، والحقُّ أَبَى إلا أن فَضَحَهم ، وكما وَسَمَهم برقم النَّكَرَة[1] أَطْلَعَ أسرارَ الموحِّدين على أحوالهم فعرفوهم على ما هم عليه من أوصافهم .

قوله جل ذكره : ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفُسِكم

(١) النكرة اسم من الإنكار ؛ يقال : كان لى أشد نكرة (الوسيط) .

(٢) ذلك لأنهم بقيامهم بالحق قلما تبدر منهم أشياء تستدعى الزجر أو الأمر لأنهم دائماً يختارون الأشق .

عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حريصٌ عليكم
بالمؤمنين رءوفٌ رحيم ﴾

جاءكم رسولٌ يشاركُكم فى البشرية ، فلِمَا أفردناه به من الخصوصية ألبسناه لباسَ الرحمة عليكم ، وأقمناه بشواهد العطف والشفقة على جملتكم ، قد وَكَلَ هِمَّتَه بشأنكم ، وأكبرُ هَمِّه إيمانُكم .

قوله جل ذكره : ﴿ فإنْ تَوَلَّوْا فقُلْ حَسْبِيَ اللهُ
لا إله إلا هو عليه توكلتُ وهو
ربُّ العرشِ العظيم ﴾

أمَره أنْ يَدْعُوَ الخَلْقَ إلى التوحيد ، ثم قال : فإنْ أعرضوا عن الإجابة فكُنْ بنا بنعت التجريد .

ويقال قال له : يأيها النبي حسبُك الله ، ثم أمره بأن يقول حسبى الله . . . . وهذا عين الجمع ، وقوله « فقُلْ حسبي الله » فَرْق . . . بل هو جمع الجمع أى : قُلْ ، ولكنك بنا تقول ، ونحن المتولى عنك وأنت مُسْتَهلَكٌ فى عين التوحيد ؛ فأنت بنا ، ومَحْوٌ عن غيرنا .

سورة يونس عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمةٌ سماعُها يوجِب شِفاءَ كلِّ عابد ، وضياءَ كلِّ قاصد ، وعزاءَ كلِّ فاقد ، وبلاءَ كلِّ واجد ، وهُدُوَّ كلِّ خائف ، وسُلُوَّ كل عارف . وأمانَ كل تائب ، وبيانَ كلِّ طالب . قلوبُ العارفين لا تفرح إلا بسماع بسم الله ، وكروبُ الخائفين لا تبرح إلا عند سماع بسم الله .

قوله جل ذكره : ﴿ الر تلك آياتُ الكتابِ الحكيم ﴾ .

الألف مفتاح اسم « الله » ، واللام مفتاح اسم « اللطيف » والراء مفتاح اسم « الرحيم » .

أقسم بهذه الأسماء إن هذا الكتابَ هو الموعودُ لكم يوم الميثاق . والإشارة فيه أنا حقّقْنا لكم الميعاد ، وأطَلْنا لكم عِنان الوداد . . . وانقضى زمانُ الميعاد ، فالمَصَاةُ مُلْقَاة ، والأيامُ بالسرور مُتَلَقَّاة ، فبادِروا إلى شُرْبِ كاساتِ المحابِّ ، واستقيموا على نَهْجِ الأحباب .

قوله جل ذكره : ﴿أَكَانَ للناسِ عجباً أَنْ أَوْحَيْنا إلى رَجُلٍ منهم أَنْ أَنْذِرِ الناسَ﴾ .

تعجبوا منْ ثلاثة أشياء : من جواز البعث بعد الموت ، ومن إرسال الرسل إلى الخلْق ، ثم من تخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة مِنْ بين الخلْق . ولو عرفوا كمال مُلْكِه لم يُنْكِروا جوازَ البعث ، ولو علموا كمالَ ملكه لم يجحدوا إرسالَ الرُّسل إلى الخلْق ، ولو عرفوا أنَّ له أنْ يفعلَ ما يريد لم يتعجبوا من تخصيص محمد — صلى الله عليه وسلم — بالنبوة مِنْ بين الخلْق ، ولكنْ سُدَّتْ بصائرُهم فتاهوا فى أودية الحيرة ، وعَثَرُوا — من الضلالةِ — فى كل وَهْدَةٍ . وكان الأستاذ أبو على الدَّقاق — رحمه الله — يقول : جَوَّزُوا أن يكون المنحوتُ من الخشبِ والمعمولُ من الصخر[1] إلهاً معبوداً ، وتعجبوا أن يكون مثلُ محمد — صلى الله عليه وسلم — فى جلالةِ قَدْرِه رسولاً . . !! هذا هو الضلال البعيد .

قوله جَلَّ ذكره : ﴿وَبَشِّرْ الذين آمنوا أنّ لَهُم قَدَمَ صِدْقٍ عند ربِّهم﴾ .

وهو ما قدَّموه لأنفسهم من طاعاتٍ أخلصوا فيها ، وفنونِ عباداتٍ صَدَقُوا فى القيام بقضائها .

ويقال هو ما قدَّم الحقُّ لهم يومَ القيامة من مقتضى العناية بشأنهم ، وما حَكَمَ لهم من فنونِ إحسانه بهم ، وصنوفِ ما أفردهم به من امتنانهم .

ويقال : « قَدَمَ صِدْقٍ عند ربهم » : هو ما رفعوه من أقدامهم فى بدايتهم فى زمان

---

(١) وردت (الصفر) بالفاء وهى خطأ فى النسخ .

إرادتهم ، فإنّ لأقدام المريدين المرفوعة لأجل الله حرمةً عند الله ، ولأيامهم الخالية في حال تردُّدهم ، ولياليهم الماضية في طلبه وهم في حرقة تحيُّرهم .. مقاديرَ عند الله . وقيل :

مَنْ يَنْسَ داراً قد تخونها رَيْبُ الزمان فإني لست أنسا كا

وقيل :

تلك العهودُ أشدُّها لتحلُّها عندي كما هي عقدها لم يُحْلَلِ

قوله جل ذكره : ﴿ إنّ ربَّكم اللهُ الذى خلق السموات والأرضَ في ستة أيامٍ ثم استوى على العرشِ يُدَبِّر الأمرَ ما مِنْ شفيعٍ إلا مِنْ بعد إذنه ذلكم الله ربُّكم فاعبدوه أفلا تذَكّرون ﴾ .

لا يحتاج فعْله إلى مدّةٍ ، وكيف ذلك ومن جملة أفعاله الزمان والمدة ؟ فَخلَقَ السموات والأرضَ في ستة أيام ، وتلك الأيام أيضاً من جملة ما خَلَقَ الله سبحانه وتعالى .

« ثم استوى على العرش » أى توَحَّدَ بجلال الكبرياء بوصف الملكوت . وملوكنا إذا أرادوا التجلّي والظهورَ للحَشَمِ والرعية برزوا لهم على سرير مُلْكهم في ألوان مشاهدهم . فأخبر الحقُّ — سبحانه — بما يَقْرُب من فَهْم الخلْق ما ألقى إليهم من هذه الجملة : استوى على العرش ، ومعناه اتصافه بعز[1] الصمدية وجلال الأحدية ، وانفراده بنعت الجبروت وعلاء الربوبية ، تقدّس الجبّارُ عن الأقطار ، والمعبودُ عن الحدود .

« يُدَبِّرُ الأمر » : أى الحادثاتُ صادرةٌ عن تقديره ، وحاصلةٌ بتدبيره ، فلا شريكَ يعضده ، وما قضى فلا أحد يردُّه . « ما من شفيعٍ إلا من بعد إذنه » : هو الذى يُنْطِقُ مَنْ يخاطبه ، وهو الذى يخلق ما يشاء على من يشاء إذا التمس يُطالِبُه .

« ذلكم الله ربُّكم » : تعريف وقوله : « فاعبدوه » : تكليف ؛ فحصولُ التعريف بتحقيقه ، والوصولُ إلى ما وَرَدَ به التكليف بتوفيقه .

---

(١) وردت (بغير) الصمدية وهى خطأ في النسخ .

قوله جل ذكره: ﴿إليه مَرْجِعُكم جميعاً وعْدَ اللهِ حقّاً
إنَّه يبدأُ الخلْقَ ثم يُعيدُه ليجزىَ
الذين آمنوا وعَملوا الصالحاتِ بالقِسْطِ
والذين كفروا لهم شرابٌ من حميم
وعذابٌ أليم بما كانوا يَكْفُرُون﴾

الرجوع يقتضى ابتداء الأرواح قبل حصولها فى الأشباح، فإن لها فى مواطن التسبيح والتقديس إقامة، والغائب إذا رجع إلى وطنه من سفره فلقدومه أثر عند مُحِبِّيه وذويه، كما قيل:

أيا قادماً من سَفْرةِ الهجر مرحباً   أناديك لا أنساك ماهبَّت الصَّبا

ويقال المطيع إذا رجع إلى الله فله الزُّلفى، والثواب والحسنى. والعاصى إذا رجع إلى ربِّه فَبِنَعْتِ الإفلاس وخسران الطريق؛ فيتلقى لِباس الغفران، وحُلَّةَ الصفح والأمان، فرحمةُ مولاه خيرٌ له من نُسُكه وتقواه.

قوله: «وَعْدَ اللهِ حقّاً»: موعودُ المطيع الفراديسُ العُلَى، وموعودُ العاصى الرحمة والرِّضى. والجَنَّةُ لُطْفُ الحقِّ والرَّحمةُ وصفُ الحق؛ فاللُّطفُ فِعْلٌ لم يكن ثم حصل، والنَّعْتُ لم يزل[1].

قوله. «إنَّه يبدأُ الخلْقَ ثم يعيده»: مَنْ كان له فى جميع عمره نَفَسٌ على وصفِ ما ابتدأ الحقُّ سبحانه به ففى الإشارة: تكون لذلك إعادة، وأنشدوا:

كلُّ نَهرٍ فيه ماءٌ قد جَرَى   فإليه الماء يوماً سيعودُ

قوله جل ذكره: ﴿هو الذى جعل الشمسَ ضياءً والقَمَرَ
نوراً وقدَّره منازِلَ لتعلموا عَدَدَ
السِّنينَ والحسابَ ما خَلَقَ اللهُ ذلك
إلا بالحقِّ يُفَصِّل الآياتِ لقومٍ
يعلمون﴾

---

(١) يفرق القشيرى في كتابه (التحبير فى التذكير) الذى قمنا بتحقيقه بين صفات الفعل وصفات الذات.

أنوار العقول نجومٌ وهى للشياطين رجوم ، وللعلوم[1] أقمار وهى أنوار واستبصار ، وللمعارف شموس ولها على أسرار العارفين طلوع ، كما قيل :

إنَّ شمسَ النهار تَغْرُبُ بالليل وشمسُ القلوب ليست تَغِيبُ

وكما أنّ فى السماء كوكبين شمساً وقمراً ؛ الشمسُ أبداً بضيائها ، والقمرُ فى الزيادة والنقصان ؛ يُسْتَرُ بمحاقه ثم يكمل حتى يصير بدراً بنعت إشراقه،ثم يأخذ فى النقص إلى أنْ لا يبقى شىء منه لتمام امتحاقه ، ثم يعود جديداً ، وكل ليلة يجد مزيداً ، فإذا صار بدراً تماماً ، لم يجِدْ أكثرَ من ليلةٍ لكمَاَلِه مقاماً ، ثم يأخذ فى النقصان إلى أن يَخْـفَى شَخْصُه ويتِمَّ نقْصُه .

كذلك مِنَ النَّاسِ مَنْ هو مُتَرَدِّدٌ بين قَبْضِه وبَسْطِه ، وصَحْوِه ومَحْوِه ، وذهابه وإيابه ؛ لا فَنَاَء فيستريح ، ولا بقاء له دوامٌ صحيحٌ ، وقيل :

كلَّما قُلْتُ قد دنا حَلُّ قيدى كبّلونى فأوثقوا المِسْمَارا

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ فى اختلافِ اللَّيلِ والنَّهـارِ
وما خَلَقَ اللهُ فى السموات ِ والأرضِ
لآياتٍ لقومٍ يتَّقُون ﴾

اخْتُصَّ النهارُ بضيائه ، وانفرد الليلُ بظلمائه ، من غير استيجابٍ لذلك ، ومن غير استحقاق عقاب لهذا ، وفى هذا دليلٌ على أنَّ الردَّ والقبولَ ، والمَنْعَ والوصولَ ، ليست معلولةً بسببٍ ، ولا حاصلةً بأمرٍ مُـكْتَسَبٍ ؛ كلاَّ . . إنها إرادةٌ ومَشِيئَةٌ ، وحُكْمٌ وقضية .

النهارُ وقتُ حضورِ أهلِ الغفلة فى أوطان كَسْبِهم ، ووقتُ أربابِ القربة والوصلة لانفرادهم بشهود ربِّهم ، قال قائلهم :

هو الشمس ، إلا أنَّ للشمسِ غَيبةً وهذا الذى نعنيـه ليس يغيبُ

والليلُ لأحدِ شخصين : أمَّا للمُحِبِّ فَوَقْتُ النَّجوى ، وأمَّا للعاصى فَبَثُّ الشكوى .

---

(١) وردت (العموم) وهى خطأ فى النسخ إذ المقصود نوع من المقابلة بين (العلوم) والمعارف .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين لا يرجون لِقاءنا ورَضُوا بالحياةِ الدُّنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتِنا غافلون * أولئك مأواهم النارُ بما كانوا يَكْسِبُون ﴾

أنكروا جوازَ الرؤية فَلَمْ يرجوها ، والمؤمنون آمنوا[1] بِجَوَازِ الرؤية فأَمَّلُوها .

ويقال : لا يرجون لقاءه لأنهم لم يشتاقوا إليه ، ولم يشتاقوا إليه لأنهم لم يُحِبُّوه لأنهم لم يعرفوه ، ولم يعرفوه لأنهم لم يطلبوه ولن يطلبوه لأنه أراد ألاَّ يطلبوه ، قال تعالى : « وَأَنَّ إلى ربك المنتهى »[2] .

ويقال لو أراد أن يطلبوه لطلبوه ، ولوطلبوا لعرفوا ، ولو عرفوا لأحبُّوا ، ولو أحبُّوا لاشتاقوا ، ولو اشتاقوا لرجوا ، ولو رجوا لأَمَّلوا لقاءه ، قال تعالى : « ولو شئنا لآتينا كلَّ نفسٍ هداها »[3]

قوله تعالى : « ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها » : أصحابُ الدنيا رضوا بالحياة الدنيا فَحُرِمُوا الجنةَ ، والزُّهَّادُ والعُبَّادُ رَكَنُوا إلى الجنة ورضوا بها فبقوا عن الوصلة ، وقد عَلِمَ كلُّ أناسٍ مَشْرَبَهم ، ولكلٍّ أحدٍ مقامٌ .

ويقال إذا كانوا لايرجون لقاءه فمأواهم العذابُ والفرقة ، فدليلُ الخطاب أن الذى يرجو لقاءه رآه ، ومآله ومنتهاه الوصلةُ واللقاء والزُّلْفة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ يهديهم ربُّهم بإيمانهم تجرى مِنْ تحتهم الأنهارُ فى جنَّاتِ النَّعيم ﴾

كما هداهم اليومَ إلى معرفته من غير ذريعة يهديهم غداً إلى جنته ومثوبته من غير نصيرٍ من المخلوقين ولا وسيلة .

---

(١) من هذا نفهم أن القشيرى يؤمن بجواز رؤية الله فى الآخرة ، أما رؤيته فى الدنيا فإنه يقول فى الرسالة ص١٧٥ : (الأقوى أنه لاتجوز رؤية الله بالأبصار في الدنيا — وقد حصل الإجماع فى ذلك) .

(٢) آية ٤٢ سورة النجم .

(٣) آية ١٣ سورة السجدة .

ويقال أمَّا المطيعون فنورهم يسعى بين أيديهم وهم على مراكب طاعاتهم، والملائكةُ تتلقَّاهم والحقُّ، قال تعالى: «يومَ نَحشر المتقين إلى الرحمن وفداً»[1] نحشرهم، والعاصون يَبقَوْن منفردين متفرقين، لا يقف لهم العابدون، ويتطوحون فى مطاحات[2] القيامة.

والحقُّ — سبحانه — يقول لهم: عِبَادى، إنَّ أصحابَ الجنة — اليومَ — فى شُغْلٍ عنكم، إنهم فى الثواب لا يتفرَّغون إليكم، وأصحابُ النار من شدة العذابِ لا يرقبون لكم معاشرَ المساكين.

كيف أنتم إنْ كان أشكالكم وأصحابُكم سبقوكم؟ وواحدٌ منْهم لا يهديكم فأنا أهديكم. لأنى إنْ عاملتُكم بما تستوجِبُون... فأين الكرمُ بحقنا إذا كنا فى الجفاء مِثْلهم وهجرناكم كما هجروكم؟

قوله جل ذكره: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللَّهُمَّ وتحيتُهم فيها سلامٌ وآخِرُ دعواهم أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين﴾

قالتُهم الثناء على الله، وذلك فى حال لقائهم. وتحيتهم فى تلك الحالة من الله: «سلام عليكم» «وآخر دعواهم أن الحمد لله»: والحمد هاهنا بمعنى المدح والثناء، فيثنون عليه ويحمدونه بحمدٍ أبدىٍّ سرمدىٍّ، والحقُّ — سبحانه — يُحَيِّيهم بسلامٍ أزلىٍّ وكلام أبدى، وهو عزيزٌ صمدىٌّ ومجيدٌ أحدىٌّ.

قوله جل ذكره: ﴿ولو يُعَجِّلُ اللهُ للناسِ الشَّرَّ استعجالَهم بالخير لَقُضِىَ أَجَلُهم فنَذَرُ الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يَعْمَهُون﴾

أى لو أجبناهم إذا دعوا على أنفسهم عند غيظهم وضَجَرِهم لَعَجَّلنا إهلاكَهم، ولكن

(١) آية ٨٥ سورة مريم.
(٢) المطاح والمطاحة: اسما مكان من طاح، وهو المسلك الوعر المهلك.

تَحَمَّلْنَا ألا نُجيبَهم ، وبرحمتنا عليهم لا نسمع منهم دعاءهم . وربما يشكو العبدُ بأنّ الربَّ لا يجيب دُعاءه ، ولو عَلِمَ أنه تَرْكَ إجابَتَهُ لُطفاً منه وأنَّ فى ذلك بلاء لو أجابه ، كما قيل :

أُناسٌ أعرضوا عنَّا بلا جُرْمٍ ولا معنى
أساءوا ظَنَّهم فينـا فهلاَّ أحسنوا الظنَّـا

قوله جل ذكره : ﴿ وَإذا مسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لِجَنْبِه أو قاعِداً أو قائِماً فلمَّا كَشَفْنَا عنه ضُرَّه مرَّ كأن لم يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّه كذلك زُيِّن للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾

إذا امتُحِنَ العبدُ وأصابه الضُّرُّ أزعجته الحالُ إلى أنْ يرومَ التخلُّصَ مما ناله ، فيعلمَ أنَّ غيْر الله لا يُنْجِيه ، فتحمله الضرورةُ على صِدْق الالتجاءِ إلى الله ، فإذا كَشَفَ اللهُ عنه ما يدعو لأجْلِهِ شَغَلَتْه راحةُ الخلاصِ عن تلك الحالة ، وزَايَلَه ذلك الالتياع ، وصار كأنه لم يكن فى بلاءٍ قط :

كأنَّ الفتى لم يَعْرَ يوماً إذا كتسى ولم يكُ صُعلوكاً إذا ما تَموَّلاَ

ويقال بلاء يُلْجِئُك إلى الانتصابِ بين يَدَيْ معبودِك أجدى لك من عطاءٍ يُنْسِيكَ ويكفيك عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أَهْلَكْنَـا القُرونَ مِنْ قبلِكم لمَّا ظَلَمُوا وجاءتْهُم رُسُلُهم بالبيناتِ وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القومَ المجرمين ﴾

أخبر الحقُّ سبحانه بإهلاك الظالمين ، كما فى الخبر : « لو كان الظلم بيتاً فى الجنَّة لسلَّط اللهُ عليه الخراب » . والظلمُ وَضْعُ الشىء فى غير موضعه ، فإذا وَضَعَ العبدُ قَصْدَه ـ عند حوائجه ـ فى المخلوقين ، وتعلَّق قلبُه بهم فى الاستعانة ، وطَلَبِ المأمول فقد وَضَعَ الشىء فى غير موضعه ،

وهو ظلم ؛ فعقوبة هذا الظلم خرابُ القلب ، وهو انسداد طريق رجوع ذلك القلب إلى الله ؛ لأنه لو رجع إلى الله لأعانه وكفاه ، ولكنه يُصِرُّ على تعليق قلبه بالمخلوق فيبقى عن الله ، ولا ترتفع حاجتُه من غيره ، وكان من فقره وحاجته فى مَضَرَّةٍ . فإنْ صار إلى مضرة المذلة والحاجة إلى اللئيم فتلك محنةٌ عظيمةٌ .

وعلى هذا القياس إذا أحبَّ مخلوقاً فقد وَضَعَ محبته فى غير موضعها ، وهذا ظلم ؛ وعقوبتُه خرابُ روحه لِعَدَمِ صفاءِ ودِّه ومحبته لله ، وذهاب ما كان يجده من الأُنس بالله ، إذا بقى عن الله يُذيقه الحقُّ طعمَ المخلوقين ، فلا له مع الخَلْقِ سَلْوة ، ولا من الحقِّ إلا الجفوة ، وعدم الصفوة .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم جعلناكم خَلائفَ فى الأرض مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كيف تعملون ﴾

عرَّفناكم بِسِرِّ مَنْ قَبْلَكُم ، وما أصابهم بسبب ذنوبهم ، فإذا اعتبرتم بهم نَجَوْتُم ، ومن لم يعتبرْ بما سَمِعه اعتبر به من تبعه .

ويقال أحللنا بهم من العقوبة ما يعتريكم ، ومَنْ لم يعتبرْ بِمَنْ سَبَقَه اعتبر به مَنْ لَحِقَه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بَيِّناتٍ قال الذين لا يَرْجُونَ لقاءنا ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بَدِّله قُلْ مايكونُ لى أَنْ أُبَدِّلَه مِنْ تِلقاءِ نَفْسى إنْ أَتَّبِعُ إلا ما يُوحَى إلىَّ إنِّى أخافُ إنْ عَصَيْتُ ربى عذابَ يومٍ عظيم ﴾

إذا اقترحوا عليك بأنْ تأتيهم بما لم نأمركَ به ، أو تُرِيَهُم ما لم نُظْهِرْ عليك من الآيات .. فأَخْبِرْهم أنَّكَ غير مُسْتَقِلٍ بك ، ولا موكولٍ إليك ؛ فنحن القائمُ عليكَ ، المصرِّفُ لكَ ، وأنتَ المتَّبِعُ لما نُجريه عليك غيرَ مُبْتَدِعٍ لِما يحصل منك .

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ لو شاءَ اللهُ ما تلوْتُه عليكم
ولا أدراكم به فقد لَبِثْتُ فيكم
عُمُراً مِنْ قبلِه أفلا تعقلون﴾

قد عِشْتُ فيكم زمانا ، وعرفتم أحوالى فيما تطلبون منى عليه برهانا[1] ، فما ألفيتمونى (. . .)[2] بل وجدتمونى فى السداد مستقيماً ، وللرشاد مستديماً ، فلولا أنَّ الله تعالى أرسلنى ، ولِماَ حمَّلَني مِنْ تكليفه أَهَّلني لَمَا كنتُ بهذا الشرع آتِياً ولا لهذا الكتاب تالِياً .

« أفلا تعقلون » مالكم تعترضون ؟ ولا لأنفسكم تنظرون ؟

قوله جل ذكره : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افترى على اللهِ
كَذِباً أو كَذَّب بآياتِه ! إنَّه لا يُفْلِحُ
المجرِمون﴾ .

الكَذِبُ فى الشرع قبيحٌ ، وإذا كان على الله فهو أقبح .
ومِنَ المفْتَرِين على الله : الذين يُظْهِرون من الأحوال ما ليسوا فيه صادقين ، وجزاؤُهم أنْ يُحْرَموا ذلك أبداً ، فلا يَصِلون إلى شيء .

قوله جل ذكره : ﴿ويعبدون مِنْ دون اللهِ ما لا يَضُرُّهُم
ولا ينفعُهُم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا
عند اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ الله بما
لا يَعْلَمُ فى السموات ولا فى الأرضِ
سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ .

ذَمَّهُم على عبادة ما ليس منه ضَرٌ ولا نَفَعٌ .
فدليلُ الخطاب يقتضى أنْ يكونَ المعبودُ منه الضَّرُّ والنفع ، ومِنْ فَرْطِ غباوتهم أنهم

---

(١) أى لماذا تطلبون الآن منى برهاناً على شيء أنتم عرفتموه عنى من قبل وهو صدق ؟
(٢) مشتبهة .

انتظروا فى المآلِ الشفاعةَ ممن لا يوجَدُ منه الضَّرُّ والنَّفْعُ فى الحال . ثم أخبر أنهم يخبرون عما ليس على الوجه الذى قالوا معلوماً ، ولو كان كما قالوا لَعلِموا أنه سبحانه لا يَعْزُبُ عن علمه[1] معلومٌ .

ومعنى قوله : « لا يعلم » : خلافه . ومَنْ تعَلَّقَ قلبُه بالمخلوقين فى استدفاع المضَارِّ واستجلاب المسَارِّ فـكالسالكِ سبيلَ مَنْ عَبَدَ الأصنام ؛ إذ المنْشِئ والموجِدُ للشيءِ مِنَ العَدم هو الله — سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان النَّاسُ إلا أُمَّةً واحدةً فاختلفوا ، ولولا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ من ربِّكَ لقُضِىَ بينهم فيما فيه يختلِفون ﴾ .

وذلك مِنْ زمان آدم عليه السلام إلى أن تحاربوا ، والحق — سبحانه — سَبَقَ قضاؤه بتأخير حسابهم إلى الآخرة ، ولذلك لا يُجيبُهم إلى ما يستعجلونه من قيام القيامة .

وإنما اختلفوا لأنَّ الله خَصَّ قوماً بعنايته وقبوله ، وآخرين بإهانته وإبعاده ، ولولا ذلك لَمَا كانت بينهم هذه المخالفة .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقولون لولا أُنْزِلَ عليه آيةٌ مِنْ رَبِّهِ فقُلْ إنما الغَيْبُ للهِ فانتظروا إنى معكم من المنْتَظِرين ﴾ .

أخبر أنه — عليه السلام — فى سَتْرِ الغَيْبة وخفاء الأمر عليه فى الجملة لتقاصُرِ علمه عما سيحدث ، فهو فى ذلك بمنزلتهم ، إلا فى مواطن التخصيص بأنوار التعريف ، فـكما أنهم فى الانتظار لما يحدث فى المستأنف فهو أيضا فى انتظار ما يوجِدُ — سبحانه — من المقادير . والفَرْقُ بينه — عليه السلام — وبينهم أنه يشهد ما يحصل به — سبحانه — ومنه ، وهم مُتَطَوِّحون فى أودية الجهالة ؛ يُحيلُون الأمرَ مرةً على الدَّهْرِ ، ومرةً على النجم[2] ، ومرةً على الطبع . . وكلُّ ذلك حَيْرَةٌ وعَمىً .

---

(١) وردت (عمله) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) المقصود بالنجم هنا الطالع والحظ من نحس وسعود .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا أذَقْنَا النَّاسَ رحمةً مِنْ بَعْدِ
ضَرَّاء مَسَّتْهُم إذا لَهُم مَكْرٌ
فى آياتِنا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إنَّ
رُسُلَنَا يَكْتُبون ما تَمْكُرُونَ ﴾

يعنى إذا أصابهم ضُرٌّ ومحنة فرحمناهم وكشفنا عنهم ، أحالوا الأمر على غيرنا ، وتوهموه مما هو سوانا مثل قولهم : مُطِرْنا بنوء كذا ، ومثل قولهم إن هذه سعادة نَجْمٍ أو مساعدةُ دولة أو تأثيرُ فَلَكٍ أو خيراتُ دهر .

فهذا كان مكرُهم أما مكر الله — سبحانه — بهم فهو جزاؤهم على مكرهم . والإشارة فى هذا أنه ربما يكون للمريد أو للطالب حجبة أو فترة .. فإذا جاء الحقُّ بكشفٍ أو تجلٍّ أو إقبال فَمِنْ حقِّهم ألا يلاحظوها فضلاً عن أن يساكنوها[1] ، لأنهم إذا لم يرتقوا عن ملاحظة أحوالهم إلى الغيبة بشهود الحقِّ مَكَرَ الله بهم بأَنْ شتَّتهم فى تلك الأحوال من غير تَرَقٍّ عنها أو وجود زيادة عليها ، وهذا مَكْرُه بخَوَاصِّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى يُسَيِّرُكم فى البرِّ والبحرِ
حتى إذا كنتم فى الفُلْكِ وجَرَيْنَ
بهم بريحٍ طيبةٍ وفرِحوا بها جاءتْها
ريحٌ عاصِفٌ وجاءهم الموجُ مِنْ كلِّ
مكانٍ وظنُّوا أنهم أُحيط بهم دَعَوُا
اللهَ مُخْلِصِين له الدِّين لئنْ أنْجَيْتَنَا
مِنْ هذه لنَكُونَنَّ من الشاكرين ﴾

يريد أنهم يُصْبِحون فى النعِّم يجرُّون أذيالَهُم ، ثم يُمْسُون يبكون لَيَالِيَهُم . وقد يَبِيتُون والبهجةُ مَلَكَتْهُم ثم يصبحون وخفايا التقدير أهلكتْهُم ، وأنشدوا :

---

(١) نفهم من هذا أن (الملاحظة) أخف من (المساكنة) وكلتاهما من آفات الطريق ، يلح القشيرى دائماً على التحذير منهما ، وقد بالغ أهل الملامة فى توضيح أضرارهما — كما تشهد بذلك النصوص التى رواها عنهم فى (رسالته) .

أقمتَ زماناً والعيونُ قريرةٌ   وأصبحتَ يوماً والجفونُ سوافكُ

فإذا رجعوا إلى الله بإخلاص الدعاء يجود عليهم بكَشْفِ البلاء .

فلمَّا أنجاهم بالإجابة لدعائهم إذا هم إلى غيره[1] يرجعون، وعلى مناهجهم — فى تمردهم يسلكون.

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرضِ بغيرِ الحقِّ يأيها الناسُ إنَّما بَغْيُكُم على أنفُسِكم متاعَ الحياةِ الدنيا ثم إلينا مرجعُكم فَنُنَبِّئُكم بما كنتم تعملون ﴾

« يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم » معناه : تُمَتَّعُكم أياماً قلائلَ ، ثم تَلْقَوْن[2] غِبَّ ذلك وتبدأون تقاسون عذاباً طويلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما مَثَلُ الحياةِ الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماءِ فاختلط به نباتُ الأرضِ مما يأكلُ الناسُ والأنعامُ حتَّى إذا أخَذَتْ الأرضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ وظنَّ أهلُها أنهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأنْ لَمْ تَغْنَ بالأمسِ كذلك نُفَصِّلُ الآياتِ لقومٍ يتفكرون ﴾

شَبَّهَ الحياةَ الدنيا بالماء المُنَزَّلِ من السماء يَنْبُتُ به النباتُ وتَخْضَرُّ الأرضُ وتَظْهَرُ الثمار ، ويوطِّن أربابُها عليها نفوسَهم ، فتصيبهم جائحةٌ سماوية بغتةً ، وتصير كأن لم تكن .

كذلك الإنسانُ بعد كمال سِنِّه وتمام قُوَّتِه واستجماع الخصال المحمودة فيه تَخْتَرِمُه المَنِيَّة ، وكذلك أموره المنتظمةُ تَبْطُلُ وتَختلُّ بوفاته ، كما قيل :

---

(١) وردت (غيرهم) والأكثر ملاءمة للسياق أن تكون (غيره) .

(٢) وردت (يلقون) وهى خطأ فى النسخ لعدم اتفاقها مع أسلوب الخطاب .

فَقَدْنَاه لمَّا تمَّ واختمَّ بالعُلَى كذاك كسوفُ البدرِ عند تمامه

ومن وجوه تشبيه الأحوال الدنيوية بالماء المُنَزَّلِ من السماء أن المطرَ لا ينزل بالحيلة، كذلك الدنيا لا تساعدها إلا القسمة.

ثم إن المطر إن كان لا يجيء إلا بالتقدير فقد يُسْتَسْقَى.. كذلك الرزق — وإنْ كان بالقسمة — فقد يُلْتَمَسُ من الله ويُسْتَعْطَى.

ومنها أن الماء فى موضعه سببُ حياة الناس، وفى غير موضعه سببُ خرابِ الموضع، كذلك المال لمستحقه سببُ سلامته، وانتفاعِ المتصلين به، وعند مَنْ لا يستحقه سببُ طغيانِه، وسببُ بلاءِ مَنْ هو متصل به، كما قيل: نِعَمُ الله لا تُعاب ولكنه ربما استعجم على إنسان، وكما قيل:

يا دولةً ليس فيها من المعالى شظيَّةْ زولى فما أنتِ إلا على الكرام بَلِيَّةْ

ومنها أن الماء إذا كان بمقدارٍ كان سببَ الصلاح، وإذا جاوز الحدَّ كان سببَ الخراب.. كذلك المال إذا كان بقَدْرِ الكفاية والكفاف فصاحبه مُنَعَّمٌ، وإذا زاد وجاوز الحدَّ أوجب الكُفران والطغيان.

ومنها أن الماء ما دام جارياً كان طيباً، فإذا طال مكثه تغيَّر.. كذلك المال إذا أنفقه صاحبُه كان محموداً، فإذا ادَّخَره وأمسكه كان معلولا مذموماً.

ومنها أن الماء إذا كان طاهراً كان حلالاً يصلح للشرب ويصلح للطهور ولإزالة الأذى، وإذا كان غيرَ طاهرٍ فبالعكس.. كذلك المال إذا كان حلالاً، وبعكسه لو كان حراماً.

ويقال كما أن الربيعَ تتورد أشجارُه، وتظهر أنوارُه، وتخضرُّ رباعُه، وتتزين بالنبات وِهَادُه وتلاعه، لا يُؤْمَن أنْ تصيبه آفة من غير ارتقاب، وينقلب الحال بما لم يكن فى الحساب. كذلك مِنَ الناسِ مَنْ تكون له أحوالٌ صافية، وأعمالٌ بشرط الخلوص زاكية؛ غصونُ أُنْسِه متَدَلِّية، ورياضُ قربِه مونِقهٌ.. ثم تصيبه عَيْنٌ فيذبلُ عودُ وِصاله، وتنسدُّ أبوابُ عوائدِ إقباله، كما قيل:

عينٌ أصابَتْكَ إنّ العينَ صائبةٌ والعينُ تُسْرِعُ أحياناً إلى الحَسَدِ

قوله جل ذكره : ﴿ والله يدعو إلى دارِ السلامِ ويهدى مَنْ يشاء إلى صراطٍ مستقيم ﴾

دعاهم إلى دار السلام ، وفى الحقيقة دعاهم إلى ما يوجب لهم الوصول إلى دار السلام ؛ وهو اعتناق أوامره والانتهاء عن زواجره . والدعاء من حيث التكليف ، وتخصيص الهداية لأهلها من حيث التشريف .

ويقال الدعاء تكليف والهداية تعريف ؛ فالتكليف على العموم والتعريف على الخصوص .

ويقال التكليف بحقِّ سلطانه ، والتعريف بِحُكْمِ إحسانه .

ويقال الدعاء قَوْلُه والهداية طَوْلُه ؛ دَخَلَ الكلُّ تحت قوله ، وانفرد الأولياء بتخصيص طَوْلِه . دار السلام دار الله لأن السلام اسم مِنْ أسمائه .

ويكون السلام بمعنى السلامة فهى دار السلامة أى أهلها سالمون فيها ؛ سالمون من الحُرقة وسالمون من الفُرقة ؛ سَلِموا من الحرقة فحصلوا على لذة عطائه ، وسَلِموا من الفُرْقة فوصلوا إلى عزيز لقائه .

ويقال لا يصل إلى دار السلام إلا من سَلِمَتْ نَفْسُه عن السجود لِلصَنَم ، وسَلِمَ قلبُه عن الشِّرْكِ والظُلم .

ويقال تلك الدار درجات ؛ والذى سَلِمَ قلبُه عن محبة الأغيار درجتُه أعلى من درجة مَنْ سَلِمَتْ نَفْسُه من الذنوب والأوضار .

ويقال قوم سلمت صدورُهم من الغِلِّ والحسد والحقد ؛ وسَلِمَ الخَلْقُ منهم ؛ فليس بينهم وبين أحدٍ محاسبة ، وليس لهم على أحد شىء ؛ فالمسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده ، والمحسنُ من سَلِمَ الخَلْقُ بأجمعهم من قلبه .

« الصراط المستقيم » : طريق المسلمين ، فهذا للعوام بشرط علم اليقين ، ثم طريق المؤمنين وهو طريق الخواص بشرط عين اليقين ، ثم طريق المحسنين وهو طريق خاص الخاص بشرط حق اليقين ؛ فهؤلاء بنور العقل أصحاب البرهان ، وهؤلاء بكشف العلم أصحاب

البيان ، وهؤلاء بضياء المعرفة بالوصف[1] كالعيان ، وهم الذين قال صلى الله عليه وسلم فيهم : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » .

قوله جل ذكره : « للذين أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وزيادة » .

« أحسنوا » : أى عَمِلُوا وأحسنوا إذ كانت أفعالُهم على مقتضى الإذن .

ويقال « أحسنوا » : لم يُقَصِّروا فى الواجبات ، ولم يُخِلُّوا بالمندوبات .

ويقال « أحسنوا » : أى لم يَبْقَ عليهم حقٌ إلا قاموا به ؛ إن كان حقَّ الحقِّ فَمِنْ غير تقصير ، وإن كان من حقِّ الخَلْق فأداءٌ من غير تأخير .

ويقال « أحسنوا »: فى المآل كما أحسنوا فى الحال،فاستداموا بما فيه واستقاموا ، والحسنى التى لهم هى الجنة وما فيها من صنوف النِّعَم .

ويقال الحسنى فى الدنيا توفيق بدوام[2] ، وتحقيق بتمام ، وفى الآخرة غفران مُعَجَّل ، وعيان على التأبيد[3] مُحَصَّل .

قوله : « وزيادة » : فعلى موجب الخبر وإجماعِ السلف النظرُ إلى الله . ويحتمل أن تكون « الحسنى » : الرُّؤية ، « والزيادة » : دوامُها . ويحتمل أن تكون «الحسنى» : اللقاء ، « والزيادةُ » : البقاء فى حال اللقاء .

ويقال الحسنى عنهم لامقطوعة ولا ممنوعة ، والزيادة لهم لاعنهم محجوبة ولا مسلوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يَرْهَقُ وُجوهَهُم قَتَرٌ ولا ذِلةٌ
أولئك أصحابُ الجَنَّةِ هم فيها
خالِدون ﴾ .

لا يقع عليهم غبارُ الحجاب ، وبعكسه حديث الكفار حيث قال : « ووجوه يومئذ عليها غَبَرة » .

---

(١) (المعرفة بالوصف) احتراز هام جداً ، حتى لا يظن أن (العيان) يستشرف من (الذات) الصمدية ، وإنما يقتصر الأمر على (عرفان الأوصاف) الإلهية كالجلال والجمال والكرم ... إلى آخره .

(٢) قال صلى الله عليه وسلم : « خير العمل أدومه وإن قل »

(٣) (التأبيد) معناه إلى الأبد فهم فى الجنة خالدون أبداً ، وستأتى لفظة (التأبيد) فى العقوبة أيضا بعد قليل .

« والذِّلة » التي لا تصيبهم أي لا يُرَدُّوا مِنْ غير شهودٍ إلى رؤية غيره ، فهم فيها خالدون في فنون أفضالهم ، وفي جميع أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كَسَبُوا السيئاتِ جزاء سيئةٍ بمثلها وترهَقُهُم ذِلَّةٌ مالهم مِنَ اللهِ مِنْ عاصمٍ كأنما أُغْشِيَتْ وُجوهُهُم قِطَعًا من الليلِ مُظْلِماً أُولئك أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فيها خَالِدُونَ ﴾ .

والذين كسبوا السيئاتِ وعملوا الزَّلاتِ لهم جزاء سيئة مثلها ، والباء في « بمثلها » : صلة أي للواحد واحد .

« وترهقهم ذلة » : هو تأبيد العقوبة .

« ما لهم من الله من عاصم » أي ما لهم من عذابه من عاصم ، سِيمُوا ذُلَّ الحجاب ، ومُنُوا بتأبيد العذاب ، وأصابهم هوان البعاد . وآثارُ الحجاب على وجوههم لائحة فإنَّ الأَسِرَّةَ تدلُّ على السريرة .

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ نَحْشُرُهم جميعاً ثم نقولُ للذينَ أشركوا مَكانَكم أنتم وشركاؤكم ، فَزَيَّلْنَا بينهم وقال شُرَكاؤُهم ما كنتم إيانا تَعْبُدُونَ * فكفى باللهِ شهيداً بيننا وبينكم إنْ كُنَّا عن عبادتكم لغافلين ﴾

يجمع بين الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله ، فتقول الأصنام : ما أمرناكم بعبادتنا . فيدعون إلى الشياطين التي أطاعوها ، وعلى الأصنام التي أمرتهم أن يعبدوها ، وتقول الأصنام : كفى بالله شهيداً ، على أنَّا لم نأمركم بذلك ؛ إذ كُنَّا جماداً . وذلك لأنَّ اللهَ يُحْيِيها يوم القيامة ويُنْطِقُها .

وفى الجملة . . . يتبرأُ بعضُهم مِنْ بعض ، ويذوقُ كلٌّ وبالَ فِعْلِه .

وفائدةُ هذا التعريف أنه ما ليس لله فهو وبالٌ عليهم ؛ فاشتغالُهم — اليومَ — بذلك مُحَالٌ[1] ، ولهم فى المآلِ — مِنْ ذلك — وبالٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ هنالك تَبْلُو كلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إلى اللهِ مولاهم الحقِّ ، وضَلَّ عنهم ما كانوا يَفْتَرون ﴾

إنما يقفون على خسرانهم إذا ذاقوا طَعْمَ هوانِهم ؛ فإذا رُدُّوا إلى الله لم يجدوا إلا البعدَ عن الله ، والطرْدَ من قِبَلِ الله ، وذلك جزاء مَنْ آثرَ على اللهِ غيرَ الله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَنْ يرزُقُكم من السماءِ والأرضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمعَ والأبصارَ ، ومَنْ يُخْرِجِ الحىَّ مِن المَيِّتِ ويُخْرِجُ المَيِّتَ مِن الحى ، ومَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فسيقولون اللهُ فقُلْ أفلا تتقون ﴾

كما تَوَحَّدَ الحقُّ — سبحانه — بكونه خالقاً تَفَرَّدَ بكونه رازقاً ، وكما لا خالقَ سواه فلا رازقَ سواه .

ثم الرزق على أقسام : فللأشباح رزق : وهو لقومٍ توفيق الطاعات ، ولآخرين خذلان الزَّلات . وللأرواح رزق : وهو لقومٍ حقائق الوصلة ، ولآخرين — فى الدنيا — الغفلة وفى الآخرة العذاب والمهلة .

« أَمَّنْ يملك السمعَ والأبصار » : فيكحل بعض الأبصار بالتوحيد ، وبعضها يعميها عن التحقيق .

---

(١) المحال هنا معناها ما عُدِلَ به عن وجهه (أنظر هذا المعنى فى الوسيط) .

« ومن يخرج الحىَّ من الميت ويخرج الميت من الحى » : يخرج المؤمنَ من الكافر، والكافرَ من المؤمن .

« فسيقولون الله » : ولكنْ ظَنًّا ... لا عن بصيرة ، ونُطقاً ... لا عن تصديق سريرة .

قوله جل ذكره : ﴿ فذلكُمُ اللهُ ربُّكم الحقُّ ، فماذا بعد الحقِّ إلا الضلالُ فأنَّى تُصْرَفون ﴾

ما يكون من موضوعاتِ الحق ، ومتعلقاتِ الإرادة ، ومتناولاتِ المشيئة ، ومُجَنَّساتِ التقدير ، ومُصَرَّفاتِ القدرة — فهى أشباحٌ خاوية ، وأحكامُ التقديرِ عليها جارية .

قوله جل ذكره : ﴿ كذلك حَقَّتْ كلمةُ ربِّكَ على الذين فَسَقُوا أنَّهمُ لا يؤمنون ﴾

سَبَق لهم الحُكْمُ ، وصَدَقَ فيهم القولُ ؛ فلا لِحُكْمِه تحويل ولا لقوله تبديل ، فإنَّ العلَلَ[1] لا تُغَيِّر الأزل .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هل مِنْ شركائكم مَنْ يبدأُ الخَلْقَ ثم يُعِيدُه ؟ قلْ اللهُ يبدأُ الخَلْقَ ثم يُعِيدُهُ فأنَّى تؤفَكون ﴾

كَشَفَ قبيحَ ما انطوت عليه عقائدُهم من عبادتهم ما لا يصحُّ منه الخلْقُ والإعادة ، وأثبت أن المعبودَ مَنْ منه الخَلْقُ والإعادة .

قومٌ جعلوا له فى الإيجاد شركاء بدعوى القَدَرِ ، وقوم منعوا جواز قدرته على الإعادة . وكل هذا جنوحٌ إلى الكُفْرِ وذهابٌ عن الدِّين .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُركائكم مَنْ يهدى إلى الحقِّ قُلْ اللهُ يهدى للحقِّ أفمَنْ يهدى إلى الحقِّ أحقُّ أنْ يُتَّبَعَ أمَّنْ

(١) أى — حسب مذهب القشيرى — أحكام الله السابقة لا تخضع لعلة ، غير أننا لا نستبعد أنها (الحِيَل) جمع حيلة ، فليس بتدبير الإنسان يتغير الحكم السابق فى الأزل .

لا يَهِدِّى إلَّا أنْ يُهْدَى فما لكم
تحْكُمون ﴾

الحقُّ اسمٌ من أسمائه سبحانه ، ومعناه أنه موجود ، وأنه ذو الحق ، وأنه مُحِقُ الحقِّ .

والحقُّ من أوصاف الخَلْق ما حَسُنَ فعله وصحّ اعتقاده وجاز النطق به .

« والله يهدى للحق » : أى إلى الحق هدايته . وهداه له وهداه إليه بمعنًى ؛ فَمَنْ هداه الحقُّ للحقِّ وَقَفَه على الحقِّ ، وعزيزٌ مَنْ هداه الحقُّ إلى الحقِّ للحقِّ ، فماله نصيبٌ وما له حَظٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُم إلا ظَنّاً إنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحقِّ شيئاً إنَّ اللهَ عليمٌ بما يفعلون ﴾

الظَّنُّ يُنافى اليقين ، فإنه ترجيح أحد طرَفَىْ الحكم على الآخر من غير قَطْع .

وأربابُ الحقائق على بصيرة وقطع ؛ فالظنُّ فى أوصاف الحقِّ معلولٌ ، والقطع — فى أوصاف النَّفْس — لكل أحدٍ معلول . والعَبْدُ يجب أن يكون فى الحال خالياً عن الظن إذْ لا يَعْرفُ أحدٌ غيْبَ نَفْسِهِ فى مآله .

وفى صفة الحقِّ يجب أن يكونَ العبدُ على قطعٍ وبصيرة ؛ فالظنُّ فى الله معلول ، والظن فيما مِنَ الله غير محمود . ولا يجوز بوجهٍ من الوجوه أن يكون أهلُ المعرفةِ به سبحانه — فيما يعود إلى صفته — على الظن ، كيف وقد قال الله تعالى فيما أمر نبيَّه — عليه السلام — أنْ يقول : « أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى »[1] ؟ وكما قلنا[2] :

طَلَعَ الصباحُ فلات حين سراج وأتى اليقين فلات حين حجاج
حصل الذى كُنَّا نؤمِّل نَيْلَه من عَقْد ألويةٍ وحلٍّ رتاج

(١) آية ١٠٨ سورة يوسف .
(٢) الشعر هنا للقشيرى نفسه كما يستفاد من عبارته .

والبعد قَوَّضَ بالدُّنو خيامه   والوصلُ وَكَّدَ سَجْلَه بعناج[1]
قَدْ حانَ عَهْدُ للسرور فحيهلا   لهواجم الأحزان بالإزعاج

قوله جل ذكره: ﴿وما كان هذا القرآنُ أنْ يُفْتَرَى مِن دونِ اللهِ ولـكنْ تصديقَ الذى بين يديْه وتفصيل الـكتاب لاريْبَ فيه مِن ربِّ العاَلَمِين﴾

انسدَّتْ بصائرهم فلا يزدادون بكثرة سماع القرآن إلا عمىً على عمىً ، كما أن أهل الحقيقة ما ازدادوا إلا هُدىً على هدى ، فسبحان مَنْ جعل سماعَ خطابه لقومٍ سببَ تحيُّرِهم ، ولآخرين موجِبَ تَبَصُّرِهم .

قوله جل ذكره: ﴿أم يقولون افتراه قل فَأْتوا بسورةٍ مثْلِهِ وادعوا مَنْ استطعتم مِنْ دونِ اللهِ إنْ كُنْتم صادقين﴾

كلَّتْ القرائح ، وخَمَدَتْ نيرانُ الفصاحة ، واعترف كلُّ خطيب مِصْقَعٍ بالعجز عن معارضة هذا الـكتاب ، فلم يتعرَّض لمعارَضته إلا مَنْ افتضح فى قالته .

قوله جل ذكره: ﴿بل كذَّبوا بمـا لم يُحيطوا بعلمه ولَمَّا يأْتِهم تأويلُهُ كذلك كذَّبَ الذين مِنْ قبلهم فانظر كيف كان عاقبةُ الظالمين﴾

قابلوا الحقَّ بالتـكذيب لِتَقَاصُرِ علومهم عن التحقيق ، فالتحقيقُ من شرط التصديق ، وإنمـا يؤمِن بالغيب مَنْ لوَّح — سبحانه — لقلبه حقائق البرهان ، وصَرَفَ عنه دواعى الرِّيَب .

(١) السجل = الدلو العظيمة ، والعناج = حبل يشد فى أسفل الدلو العظيمة (المنجد) .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم مَنْ يؤمِنُ به ومنهم مَنْ لا يؤمِن به، وربُّكَ أَعْلَمُ بالمفسدين ﴾

فأمَّا الذين آمنوا فهم الذين كَحَلَ الحقُّ أبصارَ قلوبهم بنور اليقين ، والذين لم يؤمنوا فهم الذين وَسَمَ قلوبَهم بالعمى فزلُّوا — بالضلالة — عن الهُدَى . . تلك سُنَّةُ الله فى الطائفتين، ولن تجِدَ لِسُنَّةِ الله تحويلا .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ كَذَّبوكَ فقُلْ لى عملى ولكم عملُكم أنتم بريئُون مِمَّا أعمل وأنا برىءٌ مما تعملون ﴾

بَرِحَ الخفاء ، واستبانت الحقائق ، وامتاز[1] الطريقان ، فلا المحسنُ بجُرْمِ المسىء مُعَاقَبٌ ، ولا المسىء بجُرْمِ المحسن مُعاتَب ، كُلٌّ على حِدَةٍ بما يعمله وعلى ما يفعله مُحَاسَب .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم مَنْ يَسْتَمِعُون إليكَ أفأنت تُسْمِعُ الصُّمَّ ولو كانوا لا يَعقِلُون ؟! ﴾ .

من استمع بتكلفه ازداد نَ تَخَلُّفِهِ بزيادة تصرفه ، ومَنْ استمع الحقَّ بتَفَضُّلِه — سبحانه — استغنى فى إدراكه عن تَعَمُّلِه . والحقُّ — سبحانه — يُسْمِعُ أولياءه ما يناجيهم به فى أسرارهم ، فإذا سمعوا دعاء الواسطة[2] قابلوه بالقبول لِمَا سَبَقَ لهم من استماعِ الحقِّ . ومَنْ عَدِمَ استماعَ الحقِّ إياه من حيث التفهيم لم يَزِدْه سماعُ الخَلْقِ إلا جحداً على جحد ، ولم يحظَ به إلا بُعْداً على بُعْد .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم مَنْ ينظر إليكَ أفأَنْتَ تَهْدِى العُمْىَ ولو كانوا لا يُبْصِرون ؟! ﴾ .

مَنْ سُدَّتْ بصيرتُه بالغفلة والغيبة لم يَزِدْه إدراكُ البَصَرِ إلا حجبةً على حجبة ، ومَنْ

---

(١) (امتاز) هنا معناها اتضح الفرق بينهما .

(٢) المقصود بالواسطة النبي عليه الصلاة والسلام .

لم ينظر إلى الله بالله ، ولم يسمع من الله بالله ، فقصاراه العمى والصمم ، « فإنها لا تعمى الأبصار ولـكن تعمى القلوب التى فى الصدور »[1] وقال عليه السلام فيما أخبر عن الله : « فبي يسمع وبي يبصر »[2]

وأنشد قائلهم :

تأمَّلْ بعين الحقِّ إنْ كنتَ ناظراً إلى منظرٍ منه إليه يعود

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ لا يظلِمُ الناسَ شيئاً ولـكنَّ الناسَ أنْفُسَهم يَظْلِمون ﴾ .

نَفَى عن نَفْسِه ما يستحيل تقديره فى نعته ، وكيف يوصَفُ بالظلم وكلُّ ما يُتَوَهَّمُ أنْ لو فَعَلَه كان له ذلك ؟ إذ الحقُّ حقُّه والمُلْكُ مُلْـكُه . ومَنْ لا يَصِحُّ تقديرُ قبيحٍ منه — أنَّى يوصف بالظلم جوازاً أو وجوباً ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ يَحْشُرهم كأنْ لَمْ يلبثوا إلا ساعةً من النهارِ يتعارفون بينهم قد خَسِرَ الذين كذَّبوا بلقاءِ اللهِ وما كانوا مُهْتَدِين ﴾ .

الأيامُ والشهور ، والأعوام والدهور بعد مُضيها فى حُكْمِ اللحظة لمن تفـكَّرَ فيها ، ومتى يكون لها أثر بعد تقضيها ؟ والآتى من الوقت قريب ، وكأنَّ قَدْرَ الماضى من الدهر لم يُعْهَدْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وإمَّا نُرِينَّك بعضَ الذى نَعِدُهم أو نَتَوَفَّيَنَّكَ فإلينا مَرْجِعُهم ثُم اللهُ شهيدٌ على ما يفعلون ﴾ .

---

(١) آية ٤٦ سورة الحج .

(٢) « حتى أحبه فإذا أحببته كنت عينه التى يبصر بها وسمعه الذى يسمع به ، ويده التى يبطش بها ، — حديث قدسى رواه البخارى عن أبى هريرة ، وأحمد عن عائشه .

معناه أن خبره صدق ، ووعده ووعيده حق ، وبعد النَّشر حَشْرٌ ، وفى ذلك الوقت مُطالَبَةٌ وحسابٌ ، ثم على الأعمال ثواب وعقاب ، وما أسرع ما يكون المعلومُ مُشاهَداً موجوداً !

قوله جل ذكره : ﴿ ولِكُلِّ أُمَّةٍ رسولٌ فإذا جاء رسولُهم قُضِى بينهم بالقِسطِ وهم لا يُظلَمون ﴾ .

لم يُخْلِ زماناً مِنْ شَرْعٍ ، ولم يُخْلِ شرعاً مِنْ حُكْمٍ ، ولم يُخْلِ حُكْماً مما يَعْقُبُه من ثوابٍ وعقاب .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقولون متى هذا الوعدُ إنْ كنتم صادقين ﴾ .

الاستعجال بهجوم الموعود من أمارات أصحاب التكذيب ، فأمَّا أهل التحقيق فليس لهم لواردٍ يَرِدُ عليهم اشتغالٌ قبل وجوده ، أو استعجالٌ على حين كَوْنه ، ولا إذا وَرَدَ استقبالٌ لما تضمنه حُكْمُه ؛ فهم مطروحون فى أسْرِ الحُكْمِ ، لا يتحرك منهم — باختيارهم — عِرْقٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لنفسى ضَرّاً ولا نفعاً إلا ما شاء اللهُ لكلِّ أُمَّةٍ أَجلٌ ، إذا جاء أَجَلُهم فلا يستأخِرون ساعةً ولا يَستَقْدِمون ﴾ .

المملوكُ متى يكون له مِلْك ؟!

وإذا كان سيِّدُ البرايا — عليه الصلاة والسلام — لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً .. فَمَنْ نَزَلَتْ رُتْبَتُه ، وتقاصَرَتْ حالتُه متى يملك ذرةً أو تسكون باختياره وإيثاره شمةٌ ؟ طاح الذى لم يكن[1] — فى التحقيق ، وتفرَّدَ الجبارُ بنعت الملكوت .

---

(١) (الذى لم يكن) يقصد بها الحادث من إنسان وحيوان وعين وأثر .. الخ .

قوله جل ذكره : ﴿ قلْ أرأيتم إنْ أتاكم عذابُه بياتاً أو نهاراً ماذا يَسْتَعْجِلُ منه المجرمون ﴾

مَنْ عرَفَ كمالَ القُدرة لم يأمَنْ فجاْةَ الأخذِ بالشدة ، ومن خاف البيات لم يستلذ السُّبات .

ويقال مَنْ توسَّدَ الغفلةَ أيقظتْه فجاءةُ العقوبة ، ومَنْ استوطن مركب الزَّلَّة عَثَرَ فى وَهْدَةِ المحنة .

قوله جل ذكره : ﴿ أثُمَّ إذا ما وقع آمنتُم به آلآنَ وقد كنتم به تستعجلون ﴾

بعد انتهاك سِتْرِ الغيب لا يُقْبَلُ تضرعُ المعاذير .

ويقال لا حُجَّةَ بعد إزاحة العلة ، ولا عذْرَ بعد وضوح الحجة .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم قيل للذين ظَلَمُوا ذوقوا عذابَ الخُلْدِ هل تُجْزَوْن إلا بما كنتم تَكْسِبُون ﴾

لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلا تجرع ما منه سَقَتْ ، ولا يحصد زارعٌ غَلَّةً إلا ما منه زرع ، وفى معناه قالوا :

سَنَنْتَ فينا سَنَناً قَذَفَ البلايا عقبه

يصبر على أهوالها مَنْ برَّ يوما رَبَّه(١)

قوله جل ذكره : ﴿ ويَسْتَنْبِئُونَكَ أحقٌ هُوَ قُلْ : إى وربى إنَّه لَحقٌ وما أنتم بِمُعْجِزِين ﴾

صرِّحْ بالإخبار عند استخبارهم ، وأعْلِمْ بما يزيل الشُّبْهَةَ عمَّا التبس على جُهَّالِهم ، وأكِّدْ إخبارَكَ بما تذكره مِنَ القَسَمِ واليمين ، مضافاً ذلك إلى ما تُسْلِفُه من التَّبيين . على أنه لا ينفعهم

(١) الشطر الثانى من هذا البيت مطموس غير واضح ، ولكننا أكملناه حسبما ورد النص فى موضع سبق .

نُصْحُك ، ولا يُؤثِّر فيهم وعظُكَ .. كيف لا ؟ وقد جُرِّعوا شرابَ الحجبة ، وَوُسِموا بكَيِّ الفُرقة ؛ فلا بصيرة لهم ولا (. . .)[1] ولا فهمَ ولا حصافة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مافي الأرضِ لافتَدَتْ به وأَسَرُّوا الندامةَ لمَّا رأَوْا العذابَ وقُضِيَ بينَهم بالقِسْطِ وهم لا يُظلَمون ﴾

لا يُقبَلُ منهم عَدْلٌ ولا سَرَفٌ[2] ، ولا يحصل فيما سَبَقَ لهم من الوعيد خَلَفَ . ولاندامة تنفعهم وإنْ صَدَقوها ، ولا كرامةَ تنالهم وإنْ طلبوهَا ، ولا ظُلْمَ يجرى عليهم ولا حيف ، كلا . . . بل هو اللهُ العَدْلُ فى قضائه ، الفَرْدُ فى علائه بنعت كبريائه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلاَ إِنَّ للهِ مافي السمواتِ والأرضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ ولكِن أكثرَهم لا يعلمون ﴾

الحادثات بأسْرِها لله مِلْكاً ، وبه ظهوراً ، ومنه ابتداءً ، وإليه انتهاءً ؛ فقولُه حقٌّ ، ووعدهُ صِدْقٌ ، وأمره حَتْمٌ ، وقضاؤه باتٌّ . وهو العَلِيُّ ، وعلى ما يشاء قويٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ هو يُحْيِي وَيُمِيتُ وإليه تُرْجَعُون ﴾

يحيي القلوبَ بأنوار المشاهدة ، ويميت النفوسَ بأنواع المجاهدة ، فنفوسُ العابدين تَلَفُها فنون المجاهدات ، وقلوب العارفين شَرَفُها عيون المشاهدات .

ويقال يحيي مَنْ أقبل عليه ، ويميت مَنْ أعرض عنه .

ويقال يحيي قلوبَ قوم بجميل الرجاء ، ويميت قلوبَ قومٍ بِوَسْمِ القنوط .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الناسُ قد جاءتكم مَوْعِظة مِنْ

---

(١) مشتبهة .

(٢) السرف هنا معناها مجاوزة الحد .

ربِّكم وشِفاءٌ لِمَا فى الصدور وهدىً
ورحمة للمؤمنين ﴾

الموعظة للكافة .. ولكنها لا تنجع في أقوامٍ ، وتنفع فى آخرين ؛ فَمَنْ أصغى إليها بَسْمِعِ سِرِّه اتضح نورُ التحقيق فى قلبه ، ومَنْ استمع إليها بنعت غَيْبَتِه ما اتصف إلا بدوام حجبته .

ويقال الموعظة لأربابِ الغيبة لِيَئُوبُوا ، والشِّفاء لأصحاب الحضور ليطيبوا .

ويقال « الموعظة » : للعوام ، « والشفاء » : للخواص ، « والهُدى » لخاص الخاص ، « والرحمة » لجميعهم ، وبرحمته وصَلوا إلى ذلك .

ويقال شفاءُ كلٍّ أحدٍ على حَسَبِ دائه ، فشفاءُ المذنبين بوجود الرحمة ، وشفاء المطيعين بوجود النعمة[1] ، وشفاء العارفين بوجود القربة ، وشفاء الواجدين بشهود الحقيقة .

ويقال شفاء العاصين بوجود النجاة ، وشفاء المطيعين بوجود الدرجات ، وشفاء العارفين بالقرب والمناجاة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُـلْ بفَضْلِ اللهِ وبرحمته
فبذلك فليفرحوا هُوَ خيرٌ مما
يجمعون ﴾ .

« الفضل » : الإحسانُ الذى ليس بواجبٍ على فاعله ، « والرحمة » إرادة النعمة وقيل هى النعمة .

والإحسان على أقسام وكذلك النعمة ، ونِعَمُ اللهِ أكثر من أنْ تُحْصَى .

ويقال الفضل ما أتاح لهم من الخيرات ، والرحمة ما أزاحَ عنهم من الآفات .

ويقال فضل الله ما أكرمهم من إجراء الطاعات ، ورحمته مَاعَصَمَهم به من ارتكاب الزَّلات . ويقال فضل الله دوام التوفيق ورحمته تمام التحقيق .

---

(١) نعلم من مذهب القشيرى أن (الرحمة) من أوصاف الذات ، و (النعمة) من أوصاف الفعل .. فتأمل كيف يرتبط مصير (المذنبين) بوصف من أوصاف ذاته ، ولاحظ كيف يفتح الصوفية بذلك أبواب الأمل أمام التائبين .

ويقال فضل الله ما يخُصُّ به أهل الطاعات من صنوف إحسانه ، ورحمته ما يخص به أهلَ الزلاّتِ من وجوه غفرانه .

ويقال فضل الله الرؤية ، ورحمته إبقاؤهم فى حالة الرؤية .

ويقال فضل الله المعرفة فى البداية ، ورحمته المغفرةُ فى النهاية .

ويقال فضل الله أَنْ أقامَكَ بشهود الطلب ، ورحمته أن أشهدك حقَّه بحكم البيان إلى أنْ تراه غداً بكشف العيان .

قوله : « فبذلك فليفرحوا » أى بما أهَّلَهم له ، لا بما يتكلَّفون من حرَكاتهم وسَكَناتهم ، أو يَصِلُونَ إليه بنوعٍ من تكلفهم وتعملهم . « هو خيرٌ مما يجمعون » : أى ما تُتْحَفُونَ به من الأحوال الزاكية خيرٌ ممَّا تجمعون من الأموال الوافية .

ويقال الذى لَكَ منه — فى سابق القسمة — خيرٌ مما تتكلَّفُه من صنوف الطاعة والخدمة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أرأيتم ما أَنْزَلَ اللهُ لكُم من رِزْقٍ فَجَعَلْتُم منه حراماً وحلالاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لكم أَمْ على اللهِ تَفْتَرون ؟ ﴾ .

يعَنِّفُهم ويُقَرِّعُهم[1] على ما ابتدعوه من التحليل والتحريم ، ويُظْهِر كذبهم فيما تقوَّلُوه من نسبتهم ذلك إلى إذن وشرع .

قوله جل ذكره : ﴿ وماَ ظَنُّ الذين يَفْتَرون على اللهِ الكذبَ يومَ القيامةِ إنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ على النَّاسِ ولكنَّ أكْثَرَهم لا يَشْكُرُون ﴾ .

هذا على جهة التهويل والتعظيم لما أسلفوه من الكذب .

---

(١) قرع فلانا أى أوجعه باللوم والعتاب (المحيط)

ثم قال: « إنَّ الله لذو فضلٍ على الناس» فى إمهالِ مَنْ أجرَم، والعصمةِ لِمَنْ لم يُجْرِمْ.

قوله جل ذكره: ﴿ وما تكونُ فى شأنٍ وما تَتْلُو منه مِنْ قرآنٍ ولا تعملون مِنْ عَمَلٍ إلا كُنَّا عليكم شهوداً إذْ تُفيضُون فيه، وما يَعْزُبُ عن ربِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فى الأرضِ ولا فى السماءِ ولا أصْغَرَ من ذلك ولا أكبرَ إلاَّ فى كتابٍ مُبين ﴾.

خَوَّفَهم بما عرَّفهم من اطلاعه عليهم فى جميع أحوالهم، ورؤية ماسيفعلونه من فنون أعمالهم. والعلمُ بأنه يراهم يوجِبُ استحياءهم منه، وهذه حال المراقبة، والعبد إذا عَلِمَ أن مولاه يراه استحيى منه، وتَرَكَ متابعة هواه، ولا يُحَوِّم حَوْلَ ما نهاه، وفى معناه أنشدوا:

كأنَّ رقيباً منك حَالٌّ بمهجتى إذا رُمْتُ تسهيلا علىَّ تَصعَّبَا

وأنشدوا:

أُعاَتِبُ عَنْكَ النَّفْسَ فى كلِّ خَصلَةٍ تعاتبنى فيها وأنت مقيم

« وما يعزُبُ عن ربك من مثقال ذرة »: وكيف يخفى ذلك عليه، أو يتقاصر علمه عنه، وهو منشئُه وموجِدُه؟ وبعض أحكامه الجائزة مخصصة، وإنما قال: « إلا فى كتاب مبين »: ردَّهم إلى كتابته ذلك عليهم — لعدم اكتفائهم فى الامتناع عمَّا نُهوا عنه — برؤيته وعلمه.

قوله جل ذكره: ﴿ألاَ إنَّ أولياءَ اللهِ لا خوفٌ عليهم﴾.

الولىُّ على وزن فعيل مبالغة من الفاعل، وهو مَنْ تَوَالَت طاعاته، من غير أن يتخللها عصيان.

ويجوز أن يكون فعيل بمعنى مفعول كجريح وقتيل بمعنى مجروح ومقتول؛ فيكون الولىُّ مَنْ يتوالى عليه إحسانُ الله وأفضاله، ويكون بمعنى كونه محفوظاً فى عامة أحواله من المحن.

وأشدُّ المحن ارتكابُ المعاصى فيعصمه الحقُّ — سبحانه — على دوام أوقاته من الزَّلَّات .

وكما أن النبيَّ لا يكون إلا معصوماً فالولىُّ لا يكون إلا محفوظاً .

والفَرْقُ بين المحفوظ والمعصوم أن المعصوم لا يُلِمُّ بذَنْبٍ ألْبتَّةَ ، والمحفوظُ قد تحصُل منه هَنَاتٌ ، وقد يكون له — فى الندرة — زَلَّاتٌ ، ولكن لا يكون له إصرار : « أولئك الذين يتوبون من قريبٍ » [1] .

قوله جل ذكره : ﴿لا خَوْفٌ عليهم ولاهم يحزنون﴾ .

حَسَنٌ ما قيل إنه « لا خوف عليهم » : فى الدنيا ، « ولا هم يحزنون » : فى العاقبة . ولكن الأوْلى أنْ يقال إنَّ الخواصَ منهم لا خوفٌ عليهم فى الحال — لأنَّ حقيقةَ الخوفِ توقُّع محذورٍ فى المستقبل ، أو ترقُّب محبوبٍ يزول فى المستأنف . . وهم بحُكْمِ الوقت ؛ ليس لهم تطلُّعٌ إلى المستقبل . والحزن هو أن تنالهم حُزُونة فى الحال ، وهم فى رَوْحِ الرضا بكلِّ ما يجرى فلا تكون لهم حزونة الوقت . فالولىُّ لا خوفٌ عليه فى الوقت ، ولا له حزنٌ بحال ، فهو بحكم الوقت .

ولا يكون وليَّاً إلا إذا كان موفَّقاً لجميع ما يلزمه من الطاعات ، معصوماً بكل وجه عن جميع الزلات . وكلُّ خَصْلَةٍ حميدةٍ يمكن أن يُعْتَبَرَ بها فيقال هى صفة الأولياء . ويقال الولىُّ مَنْ فيه هذه الخصلة .

ويقال الولىُّ من لا يُقَصِّر فى حقِّ الحق ، ولا يؤخِّر القيام بحق الخلق ؛ يطيع لا لخوفِ عقاب ، ولا على ملاحظةِ حسن مآب ، أو تطلع لعاجلِ اقتراب ، ويقضى لكلِّ أحدٍ حقاً يراه واجباً ، ولا يقتضى من أحدٍ حقّاً له ، ولا ينتقم ، ولا ينتصف [2] ولا يشمت ولا يحقد ، ولا يقلد أحداً مِنَّةً ، ولا يرى لنفسه ولا لما يعمله قَدْراً ولا قيمة .

قوله جل ذكره : ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ .

هذه صفة الأولياء ؛ آمنوا فى الحال ، واتقوا الشِّرْكَ فى المآل . ويقال « آمنوا » أى قاموا

---

(١) آية ١٧ سورة النساء .

(٢) أى إذا أساء إليه أحد لم يطلب من مخلوق إنصافاً ، وإنما عفا وتساهل ، تاركا الأمر لله .

بقلوبهم من حيث المعارف . « وكانوا يتقون » : استقاموا بنفوسهم بأداء الوظائف .

ويقال « آمنوا » بتلقى التعريف . « واتقوا » : بالتقوى عن المحرمات بالتكليف .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَهُم البُشْرَى فى الحياة الدُّنيا وفى الآخرة ، لا تبديلَ لكلمات الله ذلك هو الفوزُ العظيم ﴾ .

القيام بالأمر يدل على الصحة ، فإذا قاموا بما أُمِروا به ، واستقاموا بِتَرْك ما زُجِروا عنه بَشَّرَتْهم الشريعة بالخروج عن عهدة الإلزام ، وبَشَّرتهم الحقيقة باستيجاب الإكرام ، بما كوشفوا به من الإعلام .. وهذه هى البشرى فى عاجلهم . وأما البُشرى فى آجلهم : فالحقُّ — سبحانه — يتولّى ذلك التعريف ، قال تعالى : « يبشرهم ربهم برحمةٍ منه ورضوان »[1] .

ويقال البشارة العُظْمَى ما يجدون فى قلوبهم مِنْ ظَفَرِهم بنفوسهم بسقوط مآربهم ، وأىُّ مُلْكٍ أتمّ من سقوط المآرب ، والرضا بالكائن[2] ؟ هذه هى النعمة العظمى ، ووجدانُ هذه الحالة هو البشرى الكبرى .

ويقال الفرق بين هذه البشارة التى لهم وبين البشارة التى للخلْق أنّ التى للخلْق عِدَةٌ[3] بالجميل ، والذى لهم نَقْدٌ ومحصول .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُم إنَّ العِزَّةَ لله جميعاً هو السَّميعُ العليم ﴾ .

العبدُ مادام متفرقاً يضيقُ صدرُه ويستوحش قلبُه بما يسمع ويشهد من الأغيارِ والكفارِ ما تتَقَدَّسُ عنه صفةُ الحقّ ، فإنْ صار عارفاً زالَتْ عنه تلك الصفة لتحققه بأنَّ الحقَّ سبحانه وراء كلّ طاعةٍ وزَلّةٍ ، فلا له — سبحانه — من هذا استيحاش ، ولا بذلك استئناس .

---

(١) آية ٢١ سورة التوبة .

(٢) الكائن هنا معناها الواقع ، فلا يتطلعون إلى زيادة أو تغيير .

(٣) عدة = وعد ، وتذكر ما قلناه فى هامش سابق عن الوعد والنقد .

ثم يتحقق العارفُ بأنَّ المُجْرِيَ لطاعةِ أربابِ الوِفاق — اللهُ ، والمُنْشِئ لأحوال أهل الشِّقاقِ — اللهُ . لا يبالى الحقُّ بما يجرى ولا يبالى العبدُ بشهود ما يجرى ، كما قيل :

بنو حقٍّ قضوا بالحقِّ صِرْفاً فَنَعْتُ الخَلْقِ فيهم مستعار

قوله جل ذكره ﴿ ألا إنَّ للهِ مَنْ فى السموات ومَنْ فى الأرضِ وما يتَّبِعُ الذين يَدْعُون من دونِ اللهِ شُركاء إنْ يتَّبعون إلا الظنَّ وإنْ هم إلا يَخْرُصُون ﴾

لله مَنْ فى السموات ومَنْ فى الأرض مِلْكاً ، ويبدى عليهم ما يريد حكما جَزْماً ؛ فلا لقبوله عِلّة ، ولا موجِبَ لردِّه زَلّة ، كلا ... إنها أحكامٌ سابقة ، لم توجِبْها أجرامٌ لاحقة ، ولا طاعاتٌ وعباداتٌ صادقة .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى جَعَلَ لكم الليلَ لتسكُنُوا فيه والنهارَ مُبْصِراً إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يسمعون ﴾

الليلُ لأهل الغفلة بُعْدٌ وغيبة ، ولأهل الندم[1] توبة وأوبة ، وللمحبين زُلْفَةٌ وقربة ؛ فالليل بصورته غير مُؤْنِس ، لكنه وقت القربة لأهل الوصلة كما قيل :

وكم لظلامِ الليلِ عندى من يدٍ[2] تُخَبِّرُ أن المانوية تكذب

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا اتخذ اللهُ وَلَداً سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرضِ إنْ عندَكم مِنْ سلطان بهذا ، أتقولون على اللهِ ما لا تعلمون ﴾

---

(١) وردت (القوم) وهى خطأ فى النسخ إذ لا معنى لها هنا والمناسب (الندم) .
(٢) وردت (مزيد) وهى خطأ فى النسخ .

الوَلَدُ بعض الوالد ، والصمدية تَجِلُّ عن البعضية ، فَنَزَّهَ اللهُ نَفْسَه عن ذلك بقوله « سبحانه » .

ثم إنه لم يعجِّلْ لهم العقوبة — مع قبيح قالتهم ومع قدرته على ذلك — تنبيهاً على طريق الحكمة لعباده .

ولا تجوز في وصفه الولادة لِتَوَحُّدِهِ ، فلا قسيمَ له ، ولا يجوز في نعته التبني أيضاً لِتَفَرُّدِهِ وأنه لا شبيهَ له .

قوله : « هو الغنيُّ » : الغِنَي نَفْيُ الحاجة ، وشهوةُ المباشرةِ حاجة ، ويتعالى عنها سبحانه .

قوله جل ذكره ﴿ إنَّ الذين يَفْتَرون على اللهِ الكذبَ لا يُفْلِحون ﴾

ليس لهم بما هم فيه استمتاع ، إنما هى أيامٌ قليلة ثم تتبعها آلامٌ طويلة ، فلا قَدَمٌ لهم بعد ذلك تُرْفَع ، ولا نَدَمٌ ينفع .

قوله جل ذكره : ﴿ واتلُ عليهم نَبأَ نوحٍ إذ قال لقومِهِ يا قومِ إن كان كَبُر عليكم مَقامى وتذكيرى بآياتِ اللهِ فعلى الله توكلت فأَجْمِعوا أمرَكم وشُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُم عليكم غُمَّة ثم اقضُوا إلىَّ ولا تُنْظِرون ﴾

أنزل الله هذه الآية على وجه التسلية لنبيِّه — صلى الله عليه وسلم — لِمَا كان يمسُّه من مقاساة الشِّدَّة من قومه ، فإنَّ أيامَ نوحٍ — وإنْ طالَت — فما لَبِثَتْ كثيراً إلا وقد زالت ، كما قيل :

وأحْسَنُ شيءٍ في النوائب أنها إذا هى نابت لم تكن خلدا

ثم بيَّنَ أنه كان يتوكل على ربِّه مهما فعلوا . ولم يحتشم عبدٌ — ما وَثِقَ بربِّه — من كلِّ ما نَزَلَ به . ثم إن نوحاً — عليه السلام — قال : إنى توكلت على الله ، وهذا عين التفرقة ،

وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « يأيها النبيُّ حَسْبُكَ الله »[1] وهذا عين الجمع فبانت المزية وظهرت الخصوصية .

قوله جل ذكره : ﴿ فإنْ تولَّيْتُم فما سألتكم من أجرٍ
إنْ أجْرِىَ إلا على اللهِ وأُمِرْتُ أنْ
أكونَ من المسلمين ﴾

إذا كان عمله لله لم يَطْلُبْ الأَجْرَ عليه من غير الله ، وهكذا سنَّتُه في جميع أولياء الله .

قوله جل ذكره : ﴿ فكذَّبوه فنجَّيْناه ومَنْ معه
فى الفُلْكِ وجعلناهم خلائفَ وأغرقنا
الذين كذَّبوا بآياتنا فانظر كيف كان
عاقبةُ المُنْذَرين ﴾

أغرق قومَه بأمواج القَطْرة ، وفى الحقيقة أغرقهم بأمواج الأحكام والقدرة ، وحفظ نوحاً — عليه السلام — وقومه فى السفينة ، وفى الحقيقة نجَّاهم فى سفينة السلامة . كان نوحٌ فى سابق حكمه من المحروسين ، وكان قومُه فى قديم قضائه من جملة المُغْرَقين ، فَجرَتْ الأحوال على ما جرَتْ به القسمةُ فى الأزل .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم بَعَثْنا مِنْ بَعْدِه رُسُلاً إلى قومهم
فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا
بما كذَّبوا به مِنْ قَبْلُ كذلك
نَطْبَعُ على قلوبِ المُعْتَدين * ثم بعثنا
مِنْ بعْدِهم موسى وهارون إلى فرعون
وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا
قوماً مُجْرِمين ﴾

---

(١) آية ٦٤ سورة الأنفال .

قصّ عليه — صلوات الله عليه وسلامه — أنباء الأولين ، وشرح له جميع أحوال الغابرين ، ثم فَضَّلَه على كافتهم أجمعين ، فكانوا نجوماً وهو البدر ، وكانوا أنهاراً وهو البحر ، ثم به انتظم عِقْدُهم ، وبنوره أَشْرَقَ نهارُهم ، وبظهوره خُتِم عددُهم[1] ، كما قيل :

يومٌ وحَسْبُ الدهرِ من أجْلِه حيٌّ غدٌ والتفت الأمسُ

قوله جل ذكره : ﴿ فلما جاءهم بالحقِّ مِنْ عندنا قالوا إنَّ هذا لسِحْرٌ مبين ﴾

ما زَادَهم الحقُّ سبحانه بياناً إلا ازدادوا طغيانا ، وذلك أنه تعالى أجرى سُنَّتَه في المردودين عن معرفته أنه لا يزيد في الحجج هدىً إلا ويزيد في قلوبهم عمىً ، ثم خفى عليهم قصود النبيين صلوات الله عليهم أجمعين .

« يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون » : نظروا من حيث كانوا لم يعرفوا طعماً غير ما ذاقوا ، وكذا صفة مَنْ أقصته السوابقُ ، وردَّته المشيئة .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أجئْتَنا لِتَلْفِتَنَا عمّا وَجَدْنا عليه آباءنا وتكونَ لكما الكبرياء في الأرضِ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾

ركَنوا إلى تقليد آبائهم فيما عليه كانوا ، واستحبُّوا استدامة ما عليه كانوا . . . فلحقهم شؤمُ العقيدةِ وسوء الطريقة حتى توهموا أن الأنبياء عليهم السلام إنما دَعَوْهم إلى الله لتكونَ لهم الكبرياء على عباد الله ، ولم يعلموا أنهم إنما دَعَوْهم إلى الله بأمر الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال فرعونُ ائتوني بكلِّ ساحرٍ عليم ﴾

لما استعان في استدفاع ما استقبله بغير الله لم يلبث إلا يسيراً حتى تَبَرَّأ منهم وتوعّدهم

---

(١) قارن ذلك بما يقوله الحلاج في طواسينه وبما يقوله أصحاب « نظرية الانسان الكامل » عن الحقيقة المحمدية لتلحظ مدى اعتدال هذا الامام السني المتحفظ في نظرته لشخصية الرسول عليه صلاة الله وسلامه .

بقوله : لأفعلنَّ ولأصنعنَّ ، وكذلك قصارى كل حجة وولاية إذا كانت فى غير الله فإنها تئول إلى العدواة والبغضة ، قال تعالى : « الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعضٍ عدو »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فلما جاء السحرةُ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم مُلقُون * فلما ألقوا قال موسى ما جِئْتُم به السِّحْرُ إنَّ اللهَ سيُبْطله إنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ المفسدين ﴾

أمَرَهُم أمراً يُظْهِرُ به بُطْلانَهم ليُدخِلَ الحقَّ على ما أتوا به من التمويه ، فلذلك قال موسى عليه السلام : « إن الله سيبطله » ؛ فلمَّا التقمت عصا موسى — جميع ما جاءوا به من حِبَالهم وعِصِيِّهم — حين قَلَبَها اللهُ حيَّةً .. عَلِمُوا أنَّ اللهَ أبطل تلك الأعيان وأفناها .

قوله جل ذكره : ﴿ ويُحِقُّ اللهُ الحقَّ بكلماته ولو كَرِه المجرمون ﴾ .

من جملة ما أحقَّه أن السَّحَرَةَ كانْ عندهم أنهم يَنْصُرون فرعون ويحبونه فكانوا يُقْسِمون بعزَّته حيث قالوا « بعزَّةِ فرعونَ إنا لنحن الغالبون » وقال الحقُّ — سبحانه : بعزتى إنكم لمغلوبون ، فكان على ما قال تعالى دون ما قالوه ، وفى معناه قالوا :

كم رَمَتْني بِأسْهُم صائباتٍ وتَعَمَّدْتُها بِسَهْم فطاشا

قوله جل ذكره : ﴿ فما آمَنَ لموسى إلا ذُرِّيَةٌ مِنْ قومه على خوف من فرعونَ ومَلَئِهم أنْ يَفْتِنَهم وإنَّ فرعونَ لعالٍ فى الأرضِ وإنه لمن المسْرِفين ﴾ .

أهلُ الحقيقة فى كل وقتٍ قليلٌ عَدَدُهم ، كبيرٌ عند الله خَطَرُهم .

---

(١) آية ٦٧ سورة الزخرف .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال موسى يا قوم إنْ كنتم آمنتم
بالله فعليه توكلوا إنْ كنتم مسلمين ﴾

بيّن أن الإيمان ليس من حيث الأقوال . . بل لابد فيه من صدق الأحوال قصداً .
وحقيقةُ التوكل توسلٌ تقديمُه متّصِلٌ ، ثم يعلم أنه بفضله — سبحانه — تحصُلُ نجاته ، لا بما يأتى به من التكلف — هذه هى حقيقة التوكل[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا
فتنةً للقوم الظالمين ﴾ .

تبرأنا مما مِنّا مِنَ الحوْل والمُنّة ، وتحققنا بما منك من الطوْل والمِنّة .

فلا تجعلنا عرضةً لسهام أحكامك فى عقوبتك بانتقامك ، وارحمنا بلطفك وإكرامك ، ونجِّنا مِمّنْ غضِبْتَ عليهم فأذْللتهم ، وبِكّيِّ فراقك وتمّمْهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أنْ
تبوّءا لقومكما بمصْرَ بيوتاً واجعلوا
بيوتكم قِبْلةً وأقيموا الصلاة
وبَشِّرْ المؤمنين ﴾ .

مَهِّدْ إليهم لعبادتنا محَالَّ وهى نفوسهم ، ولمعارفنا منازِلَ وهى قلوبهم ، ولمحبتنا مواضعَ وهى أرواحهم ، ولمشاهدتنا معاهِدَ وهى أسرارهم ؛ فنفوس العابدين بيوت الخدمة ، وقلوب العارفين أوطان الحشمة ، وأرواح المهيمين مشاهد المحبة ، وأسرار الموحدين منازل الهيبة[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال موسى ربَّنا إنّك آتيتَ فِرْعَوْنَ
وملأه زينةً وأموالاً فى الحياة الدنيا
ربَّنا ليُضِلّوا عن سبيلك ربنا اطمِسْ

(١) أى يفنى عن التوكل برؤية الوكيل . . كما يقول إبرهيم الخواص (ت ٢٩١)
(٢) هذه الفقرة هامة فى توضيح الملكات الباطنية وترتيبها ووظائفها فى المعراج الروحى — فى مذهب هذا الصوفى .

على أموالهم واشْدُدْ على قلوبِهم
فلا يؤمِنُوا حتى يَرَوُا العذاب
الأليم ﴾ .

لما يَئِس من إجابتهم حين دعاهم إلى الله دعا عليهم بإنزال السُّخْطة وإذاقة الفرقة . ومن المعلوم أنّ الأنبياء — عليهم السلام — مِنْ حقهم العصمة ، فإذا دعا موسى عليهم بمثل هذه الجملة لم يكن ذلك إلا بإذن من قِبَل الله تعالى فى الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال قد أُجيبَتْ دَعْوَتُكما فاستقيما
ولا تَتَّبِعانِّ سبيلَ الذين لا يعلمون ﴾ .

الاستقامةُ فى الدعاء تَرْكُ الاستعجالِ فى حصول المقصود ، ولا يَسْقُطُ الاستعجالُ من القلب إلا بوجدان السكينة فيه ، ولا تكون تلك السكينة إلا بِحُسْن الرضاء بجميع ما يبدو من الغيب .

ويقال ينبغى للعبد أن يستقلَّ بالله[1] ما أمكنه ، فعند هذا يقلُّ دعاؤه . ثم إذا دعاه بإشارة من الغيب — فى جوازه — فالواجب ألا يستعجل ، وأن يكون ساكِنَ الجأشِ .

ويقال من شرط الدعاء صِدْقُ الافتقار فى الابتداء ، ثم حُسْنُ الانتظار فى الانتهاء ، وكمال هذا الرضاء بجريان الأقدار بما يبدو من المسار والمضار .

ويقال الاستقامة فى الدعاء سقوط التقاضى[2] على الغيب ، والخمود عن الاستعجال بِحُسْنِ الثقة ، وجميل الظّن .

ويقال فى الآية تنبيهٌ على أنَّ للأمورِ آجالاً معلومة ، فإذا جاء الوقت فلا تأخير للمقسوم فى الوقت المعلوم .

قوله جل ذكره : ﴿ وجَاوَزْنَا ببنى اسرائيلَ البَحْرَ

---

(١) الاستقلال بالله الاكتفاء به وعدم النظر إلى النفس أو الأغيار .
(٢) التقاضى على الغيب معناه النظر إلى ما يأتى من الغيب بعين التقليل أو التكثير ، البطء أو السرعة .. ففى ذلك إقحام لحظوظ النفس فى حقوق الحق .

فأتْبعَهُم فرعونُ وجنودُه بَغْياً
وعَدْواً حتى إذا أَدْرَكه الغَرَقُ ،
قال : آمنتُ أنَّه لا إلٰهَ إلا الذى
آمَنَتْ به بنو إسرائيلَ وأنا من
المسلمين ﴾

حَمَلَتْ العِزَّةُ فرعونَ على تَقَحُّمِ البحرِ على إثْرِهم ، فلمَّا تحقَّقَ الهـلاكُ حَمَلَتْه ضرورةُ الحيلةِ على الاستعاذة ، فلم ينفعه ذلك لفوات وقت الاختيار .

ويقال لمـا شهد صَوْلَةَ التقدير أفاق من سُـكْرِ الغلطة[1] ، لـكن : « بعد شهود البَاسْ لا ينفع التخاشعُ والابتئاسْ » .

قوله جل ذكره : ﴿ آلآنَ وقد عَصَيْتَ قَبْلُ وكُنْتَ
من المُفْسِدِين ﴾

... أَبَعْدَ طولِ الإمهال ، والإصرار على ذميم الأفعال ، والرَّكْضِ فى ميدان الاغترار ، وانقضاء وقت الاعتذار ؟! هيهات ! لقد استوجَبْتَ أن تُرَدَّ فى وجهك ، فلا لِعُذْرِك قَبُولٌ ، ولا لَكَ إلى ما ترومه وصولٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ فاليومَ نُنَجِّيكَ ببدنِكَ لتـكونَ
لِمَنْ خَلْفَكَ آيةً ، وإنَّ كثيراً من
الناسِ عن آياتِنا لَغَافِلون ﴾

لَنُشْهِرَنَّ تعذيبَكَ ، ونُظْهِرَنَّ — لِمَنْ استبصر — تأديبَك ، لِتـكونَ لِمَنْ خَلْفَكَ عِبْرة ، وتزدادَ حين أَفَقْتَ أَسَفاً وحسرةً .

قوله جل ذكره : ﴿ ولَقَدْ بَوَّأْنا بنى إسرائيل مُبَوَّأَ
صِدْقٍ ورزقناهم من الطيبات ، فما
اختلفوا حتى جاءَهم العِلْمُ إنَّ ربَّك

(١) تصح أن تـكون كذلك ، وتصح أن تـكون (الغلظة) بالظاء ، وهى قسوة القلب من الـكفر والعناد ، ولا نستبعد أيضاً أن تـكون : أفاق من سكر (الغفلة) .

يقضى بينهم يومَ القيامةِ فيما كانوا
فيه يختلفون ﴾

أذللنا لهم الأيامَ ، وأكثرنا لديهم الإنعامَ ، وأكرمنا لهم المقامَ ، وأتحنا لهم فنونَ الحسناتِ ، وأدمْنا لهم جميع الخيراتِ . . . فلمَّا قابلوا النعمة بالكفران ، وأصرُّوا على البَغْيِ والعدوان أذقناهم سوء العذاب ، وسَدَدْنا عليهم أبوابَ ما فتحنا لهم من التكريم والإيجاب ، وذلك جزاء مَنْ حادَ عن طريق الوِفاق ، وجَنَحَ إلى جانب الشِّقاق .

قوله جل ذكره : ﴿ فإنْ كُنْتَ فى شكٍ مما أنزلنا
إليكَ فاسْأَلْ الذينَ يقرءونَ
الكتابَ مِنْ قَبْلِك لقد جاءكَ
الحقُّ مِنْ ربِّكَ ، فلا تكونَنَّ من
المُمْتَرِين ﴾

ما شكَّ — صلى الله عليه وسلم — فيما عليه أُنْزِل ، ولا عن أحدٍ منهم سائل ، وإنما هذا الخطابُ على جهة التهويل ، والمقصودُ منه تنبيهُ القوم على ملازمة نهج السبيل .

ويقال صفةُ أهل الخصوص بملاحظةُ أنفسِهم وأحوالِهم بعين الاستصغار .

ويقال فإنْ تنزَّلْتَ منزلةَ أهلِ الأدب فى تَرْكِ الملاحظات فَسَلْ عمَّن أرسلنا قَبْلَكَ فهل بَلَّغْنا أحداً منزلتك ؟ وهل خَصصْنا أحداً بمثل تخصيصكَ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تكونَنَّ من الذين كَذَّبوا
بآياتِ الله فتكونَ من الخاسرين ﴾

ما كان منهياً عنه ، وكان قبيحاً فبالشرع كان قبيحاً ، فلا بد من ورود الأمر به حتى تكون منه طاعة وعبادة . وإنما لم يَجُزْ فى صفته — صلى الله عليه وسلم — التكذيبُ بآياتِ الله ؛ لأنه نُهِىَ عنه لا لكونه قبيحاً بالعقل[1] حتى يقال كيف نُهِىَ عنه وكان ذلك بعيداً منه ؟

(١) يغمز القشيرى هنا بقول المعتزلة : إن القبيح ما رآه العقل قبيحاً والحسن ما رآه العقل حسناً ، ويرى القشيرى التعويل على الشرع فى هذا الخصوص — كما هو واضح من إشارته .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عليهم كلمةُ رَبِّك لا يُؤْمِنون ﴾

فالأعداء حَقَّتْ عليهم كلمةٌ بالعقاب ، والأولياء حقت عليهم كلمةٌ بالثواب ؛ فالكلمة أزليَّة ، والأحكام سابقة ، والأفعال فى المستأنف على ممر الأوقات على موجب القضية لاحقة ، فالذين نصيبهم من القسمة الشِّقْوةُ لا يؤمنون وإن شاهدوا كل دلالة ، وعاينوا كل معجزة .

قوله جل ذكره : ﴿ فلولا كانت قرية آمَنَتْ فنفعَها إيمانُها إلا قومَ يُونسَ لَماَ آمنوا كَشَفْنَا عنهم عذابَ الخِزىِ فى الحياةِ الدنيا ومَتَّعْناَهم إلى حين ﴾ .

قومُ يونس تداركتْهم الرحمةُ الأزليةُ فيما أجرى عليهم من توفيقِ التضرع ، فكَشَفَ عنهم العذابَ ، وصَرَفَ عنهم ما أظلَّ عليهم من العقوبة بعدما عاينوا من تلك الأبواب ؛ فبرحمته وصلوا إلى تضرعهم ، لا بتضرعهم وصلوا إلى رحمته[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو شاء ربُّك لآمَنَ مَنْ فى الأرضِ كُلُّهم جميعاً أَفأَنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين ﴾ .

كيف يعتصى عليه سبحانه مرادٌ — والذى يبقى شىء عن مراده ساهٍ أو مغلوبٌ ؟ والذى يستحق جلالَ العِزَّةِ لا يفوته مطلوب .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إلا بإذنِ اللهِ ويجعلُ الرِّجْسَ على الذين لا يَعْقِلون ﴾ .

---

(١) أى أن عمل الإنسان لا يكفى وحده للوصول إلا إذا ارتبط بتوفيق الله وفضله .

لا يمكن حَمْلُ[1] الإذن فى هذه الآية إلا على معنى المشيئة ، لأنه للكافة بالإيمان ، والذى هو مأمورٌ بالشيء لا يقالُ إنه غير مأذون فيه . ولا يجوز حملُ هذه الآية على معنى أنه لا يؤْمِنُ أحدٌ إلا إذا ألجأه الحقُّ إلى الإيمان واضطره — لأنَّ موجبَ ذلك ألا يكون أحدٌ فى العَالَمِ مؤمناً بالاختيار ، وذلك خطأ ، فدلَّ على أنه أراد به إلا أنْ يشاءَ اللهُ أنْ يُؤْمِنَ هو طوعاً . ولا يجوز بمقتضى هذا أنه يريد من أحدٍ أن يؤمن طوعاً ثم لا يؤمن ؛ لأنه يُبْطِلُ فائدةَ الآية ، فَصَحَّ قولُ أهل السُّنَّة بأنَّ ما شاء اللهُ كان ومالم يشأ لم يكن[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ قل انظروا ماذا فى السمواتِ
والأرضِ وما تُغْنِي الآياتُ والنُّذُرُ
عن قومٍ لا يؤمنون ﴾ .

الأدلة — وإنْ كانت ظاهرة — فما تُغْنِي إذا كانت البصائرُ مسدودةً ، كما أن الشموسَ — وإن كانت طالعة — فما تُغْنِي إذا كانت الأبصار عن الإدراك بالعمى مردودة ، كما قيل :

وما انتفاعُ أخى الدنيا بمقلته إذا استوَتْ عنده الأنوارُ والظُّلَمُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فهل ينتظرون إلا مِثْلَ أيامِ الذين
خَلَوْا مِن قَبْلِهِم قُلْ فانتظِروا
إنّى معكم من المنتظِرين ﴾ .

تَمَنِّي ألطافِ أنوارِ الحقيقةِ تَعَنٍّ فى تسويل ، واستنادٌ إلى غير تحصيل ، وتمادٍ فى تضليل .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا والذين آمنوا
كذلك حقّاً علينا نُنْجِي المُؤْمِنِين ﴾ .

حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض فقوله تعالى : « علينا » هاهنا معناها « منّا » ،

---

(١) وردت (حول) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) هذا نموذج طيب لموقف القشيرى متكلماً سنياً — بالنسبة لقضية اختيار الإنسان .

فلا شيء يجب على الله لكونه إلهاً مَلِكاً ، فيجب الشيء من الله — لصدقه — ولا يجب عليه — لِعِزَّتِه[1] .

وكما لا يجوز أن يَدْخُلَ نبيٌ من الأنبياء — عليهم السلام — فى النار لا يجوز أن يُخَلَّدَ واحدٌ من المؤمنين فى النار لأنه أُخبر أنه يُنَجِّي الرسلَ والمؤمنين جميعاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يأيها الناسُ إنْ كنتم فى شَكٍّ
مِنْ ديني فلا أَعْبُدُ الذين تعبدون
من دون اللهِ ولكنْ أَعْبُدُ اللهَ
الذى يتوفَّاكم وأُمِرْتُ أنْ أكونَ
مِنَ المؤمنين ﴾ .

إن كنتم فى غطاء الرَّيْبِ فأنا فى ضياءِ مِنَ الغيبِ ، إنْ كنتم فى ظلمة الجهل فأنا فى شموس الوَصْلِ ، إن كنتم فى سدفة الضَّلالة فأنا فى خلعة الرسالة وعلى أنوار الدلالة .

ويقال قد تميزنا على مفرق الطريق : فأنتم وقعتم فى وهدة العوَجِ ، وأناَ ثابتٌ على سَوَاء[2] النَّهَجِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنْ أَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حنيفاً
ولا تكونَنَّ من المشركين ﴾

أى أخْلِصَ قلبَك للدِّين ، وجَرِّدْ قلبَكَ عن إثباتِ كلِّ ما لَحِقَه قهرُ التكوين ، وكنْ مائلاً عن الزيغ والبِدعِ ، داخِلاً فى جُمْلَةِ مَنْ أخلص فى الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَدْعُ مِنْ دون اللهِ ما لا ينفعكَ
ولا يَضُرُّكَ فإنْ فَعَلْتَ فإنَّك إذاً
من الظالمين ﴾

---

(١) تأمل هذا التخريج حتى ينسجم مذهبه الكلامى مع ظاهر النص القرآنى.
(٢) وردت (سوء) وهى خطأ فى النسخ .

لا تعبدْ ما لا تنفعكَ عبادتُه ولا تَضُرُّك عبادتُه ، وتلك صفة كل ما يعبد من دون الله . واستعانة الخلْق بالخلْق تحقيقٌ للوقت بلا طائلٍ ؛ فَمَنْ لاَ يملكُ لنَفْسِه ضَرّاً ولا نَفْعاً كيف يستعين به مَنْ هو فى مثل حاله ؟ وإذا انضاف الضعيفُ إلى الضعيف ازدادَ الضعفُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بضُرٍّ فلا كاشفَ
له إلاَّ هُوَ وإنْ يُرِدْكَ بخيرٍ فلا رادَّ
لِفَضله يصيب به مَنْ يشاء مِنْ عباده
وهو الغفور الرحيم ﴾

كما تفرَّد بإبداع الضُرِّ واختراعه فلا شريكَ يُعَضِّدُه . كذلك توحَّدَ بكشف الضُرِّ وصَرْفِه فلا نصيرَ يُنْجِدُه .

ويقال هوَّنَ على المؤمنِ الضُرَّ بقوله : « وإن يمسسك الله بضُرٍ » حيث أضافه إلى نفسه، والحنظلُ يُسْتَلَذُّ مِنْ كفِّ مَنْ تحبه .

وفَرَّقَ بين الضُرِّ والخير بإضافة الضرِّ إليه فقال : وإن يمسسك الله بضرٍّ ، ولم يقل : وإنْ يُرِدْكَ بضرٍ — وإنْ كان ذلك الضرُّ صادراً عن إرادته — وفى ذلك من حيث اللفظ دِقّة .

ويقال : عَذُبَ الضرّ حيث كان نفعه ؛ فلمَّا أوجب مقاساةُ الضُّرِّ من الحرَبَ أُبدل مكانَه السرورَ والطَّرَب .

قوله جل ذكره : ﴿ قل يأيها الناسُ قد جاءكم الحقُّ
من ربِّكم فمن اهتدى فإنما يهتَدِى
لنفسِه ومن ضل فإنما يَضلُّ عليها
وما أنا عليكم بوكيل ﴾

مَنْ استبصر رَبِحَ رُشْدَ نفسِه ، ومَنْ ضلَّ فقد زاغ عن قَصْدِه ؛ فهذا بلاءٌ اكتسب ، وذلك ضياء وشِفاء اجتلب .

قوله جل ذكره: ﴿واتَّبِعْ ما يوحَى إليكَ واصبِرْ حتى يَحْكُمَ اللهُ وهو خير الحاكين﴾

قِفْ عند جريان أحكامنا، وانسلِخْ عن مرادِك بالكلية، ليُجْرِىَ عليك ما يريد، والله أعلم بالصواب.

السورة التى يذكر فيها هود عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه كلمة استولت على عقولِ قومٍ فَبَصَّرَتْها، وعلى قلوب آخرين فَجَرَّدَتْها، فالتى بَصَّرَتْها فبنور برهانه، والتى جَرَّدَتها فبقهر سلطانه .. فعالِمٌ سَلَكَ سبيلَ بحثه واستدلاله فَسَكَنَ لَمَّا طلعت نجومُ عقله تحت ظلال إقباله، وعارِفٌ تعرَّضَ إلى وصالِه فطاح لَمَّا لاحت لَمعَةٌ ممن تقدَّس بالإعلام باستحقاق جلاله.

قوله جل ذكره: ﴿آلر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُه ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُن حكيمٍ خبير﴾

الألف إشارة إلى انفراده بالربوبية.

واللام إشارة إلى لُطْفِه بأهل التوحيد.

والراء إشارة إلى رحمته بكافة البَرِيَّة.

وهى فى معنى القَسَم: أى أقسم بانفرادى بالربوبية ولطفى بمن عَرَفَنى بالأحدية، ورحمتى على كافة البرية — إنَّ هذا الكتابَ أُحْكِمَتْ آياتُه.

ومعنى « أحكمت آياته »: أى حُفِظَتْ عن التبديل والتغيير، ثم فُصِّلَتْ ببيان نعوتِ الحقِّ فيما يتصف به من جلال الصمدية، وتعبَّد به الخَلْقُ من أحكام العبودية، ثم مالاح لقلوب الموحِّدين والمحبين من لطائف القربة، فى عاجِلِهم البُشْرى بما وَعَدَهم به من عزيز لقائه فى آجِلهم، وخصائصهم التى امتازوا بها عمَّنْ سواهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَّا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير﴾.

أى فصلَتْ آياتُه بألا تعبدوا إلا الله.

ويقال معناه فى هذا الكتاب ألا تعبدوا إلا الله، إنى لكم منه «نذيرٌ» مبينٌ بالفرقة، «وبشيرٌ» بدوام الوصلة، (فالفرقة بل فى عاجله واحداً)[1].

قوله جل ذكره: ﴿وأَنِ استغفروا ربَّكم ثم توبوا إليه﴾

استغفروا ربَّكم أولاً ثم توبوا إليه بعده.

والاستغفار طلب المغفرة، يعنى قبل أن تتوبوا اطلبوا منه المغفرة بحسن النَّظرة، وحَمْل الرجاء والثقة بأنه لا يُخَلِّد العاصىَ فى النار، فلا محالةَ يُخْرِجُه منها.. فابْتَدِئوا باستغفاركمْ، ثم توبوا بِتَرْكِ أوزاركم، والتَنَقِّى عن إصراركم.

ويقال استغفروا فى الحال مما سلف، ثم إنْ أَلْمَمْتُم بزِلَّةٍ أخرى فتوبوا.

ويقال استغفروا فى الحال ثم لا تعودوا إلى ارتكاب الزلة فاستديموا التوبة — إلى مآلِكم — مما أسلفتم من قبيح أعمالكم.

ويقال «استغفروا»: الاستغفار هو التوبة، والتنق من جميع الذنوب، ثم «توبوا» منْ تَوَهُّم أنكم تُجَابُون بتوبتكم، بل اعلموا أنه يُجيبكم بِكَرَمِهِ لا بأعمالكم.

ويقال «الاستغفار»: طَلَبُ حظوظكم مِنْ عَفوِنا.. فإذا فعلْتُم هذا فتوبوا عن طلب كل حظ ونصيب، وارجعوا إلينا، واكتفوا بنا، راضين بما تحوزونه من التجاوز عنكم أو غير ذلك مما نخرجكم به.

قوله جل ذكره: ﴿يُمَتِّعْكُم مَتَاعاً حَسَنًا إلى أجل مُسَمّى﴾

أى نُعَيِّشكم عيشاً طيباً حسناً مباركاً.

ويقال هو إعطاء الكفاية مع زوال الحرص.

ويقال هو القناعة بالموجود.

---

(١) هذه عبارة إما أنها زائدة نتيجة خطأ فى النسخ، أو أن بها اضطرابا فى الكتابة أفقدها المعنى.

ويقال هو ألا يخرجه إلى مخلوق ، ولا يجعل لأحد عليه مِنَّةً (لا سيما للئيم[1]) .

ويقال هو أن يوفقه (لاصطناع المعروف إلى المستحقين .

ويقال هو أن تُقْضَى على يديه)[2] حوائج الناس .

ويقال هو ألا يُلِمَّ فى حال شبابه بِزَلَّةٍ ، وألا يتصفَ بأنه عن الله فى غفلة .

ويقال هو أن يكون راضياً بما يجرى عليه من نَوْعَىْ العسر واليسر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذى فَضْلٍ فَضْلَه ، وإنْ تَوَلَّوْا فإِنِّى أخافُ عليكم عذابَ يومٍ كبير ﴾

مَنْ زادتْ حسناتُه على سيئاتِه أعطاه جزاء ما فَضَلَ له من الطاعات ، ومن زادت سيئاته على حسناته كافأه بما يستوجبه من زيادة السيئات . . . هذا بيان التفسير .

ويقال مَنْ فَضَّلَه بحسن توفيقه أوصله إلى ما يستوجبه من لطفه ويزيده . .

ويقال هو أن يستر عليه فضلَه حتى لا يلاحظ حالَه ومقامه ، بل ينظر إلى نفسه ، وما منه وما له . . بِعَيْنِ الاستحقار والاستصغار .

ويقال هو أن يرقيه عن التعريج فى أوطان البشرية إلى طاعات شهود الأحدية ، ويُنَقِّيه عن (. . . .)[3] البشرية ، والتكدر بما يبدو من مفاجآت التقدير .

ويقال هو ألا يُوحِشَه شيء بما يجرى فى الوقت .

ويقال هو أن يُحَقِّقَ له ما تسمو إليه هِمَّتُه ، ويُبَلِّغَه فوق ما يستوجبه محلُّه .

قوله جل ذكره : ﴿ إلى الله مرجِعُكم وهو على كلِّ شئٍ قديرٌ ﴾

---

(١) ما بين القوسين فى أعلى الصفحة ومكتوب بخط ردىء جداً .

(٢) ما بين القوسين فى هامش الصفحة بخط حسن ومن هذا وذاك يتضح أن النسخة قيض لها أن تراجع بواسطة قارئين مختلفين .

(٣) مشتبهة .

تنقطع الدعاوى عند الرجوع إلى الله ، وتنتفى الظنونُ ، ويحصل اليأسُ مِنْ غير الله بكل وجه ، ويبقى العبدُ بنعتِ الأضطرار ، والحقُّ يُجْرِى عليه ماسَبَقَتْ به القسمة من أنواع الأقدار .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَا إِنَّهُم يَثْنُونَ صُدورَهم ليستخفوا منه أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثيابهم يَعلَمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنون إِنَّه عليمٌ بذات الصدور ﴾

أى يسترون ما تنطوى عليه عقائدهم ، ويُضْمِرون للرسول — عليه السلام — وللمؤمنين خِلافَ ما يُظْهِرون ، والحقُّ — سبحانه — مُطَّلِعٌ على قلوبهم ، ويعلم خفايا صدورهم ، فتلبيسُهم لا يُغْنِي عنهم من الله شيئاً ، وكان الله — سبحانه — يُطْلِعُ رسولَه — عليه السلام — على ما أَخْفَوْه إمَّا بتعريفِ الوحى ، أو بإشهادِ لِقُوَّةِ نورٍ ، وكذلك المؤمنون كانوا مخصوصين بالفراسة ، فكل مؤمنٍ له بِقَدْرِ حاله من الله هداية ، قال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسةَ المؤمنَ فإن المؤمن ينظر بنور الله » [1] ولقد قال قائلهم .

أَبِعَيْنِي أَرَاكَ أَمْ بفؤادى ؟ كلُّ مافى الفؤادِ للعين بادِ

قوله جل ذكره : ﴿ وما من دابةٍ فى الأرضِ إلا على اللهِ رِزْقُها ﴾ .

أراح القلوبَ من حيرة التقسيم ، والأفكارَ من نَصَبِ التفكير فى باب الرزق حيث قال : « إلا على الله رزقها » فسَكَنَتْ القلوبُ لَمَّا تَحَقَّقَتْ أَنَّ الرزقَ على الله .

ويقال إذا كان الرزق على الله فصاحبُ الحانوتِ فى غَلَطٍ من حسبانه . ثم إن اللهَ سبحانه

---

(١) رواه الترمذى والطبرانى .

ورواه القشيرى فى رسالته (ص ١١٥) هكذا : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى قال أخبرنا أحمد ابن على الرازى قال أخبرنا محمد بن أحمد بن السكن قال حدثنا موسى بن داود قال حدثنا محمد بن كثير الكوفى قال حدثنا عمرو بن قيس عن عطية عن أبى سعيد قال قال رسول الله (ص) : « واتقوا ... » .

بيَّن أنَّ الرزقَ الذى « عليه » ماحالُه فقال : « وفى السماء رزقكم » ، وما كان فى السماءِ لا يوجد فى السوق ، ولا فى التَّطواف فى الغرب والشرق[1] .

ويقال الأرزاق مختلفة فرِزْقُ كل حيوانٍ على ما يليق بصفته .

ويقال للنفوسِ رزقٌ هو غذاء طريقُه الخلْقُ ، وللقلوب رزق وهو ضياء مُوجِدُه الحق .

ويقال لم يقل ما يشتهيه أو مقدار ما يكفيه بل هو موكولٌ إلى مشيئته ؛ فَمِنْ مُوَسَّعٍ عليه ومِنْ مُقَتَّرٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَعْلمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها
كلٌ فى كتابٍ مبين ﴾

قيل أراد به أصلابَ الآباءِ وأرحامَ الأمهات ، أو الدنيا والآخرة . ويقال مُسْتَقَرُّ المريدِ ببابِ شيخِه كمستقرِّ الصبيِّ بباب والديه . ويقال مستقر العابدين المساجد ، ومستقر العارفين المَشاهد ، فالمساجِدُ مستقرُّ نفوسِ العابدين ، والمشاهِدُ مُسْتَقَرُّ قلوب العارفين .

ويقال مستقرُّ المحب رأسُ سِكَّةِ محبوبِهِ لعلَّه يشهده عند عبوره .

ويقال المساجِدُ للعابدين مستقرُّ القَدَم ، والمشاهِدُ للعارفين مستقرُّ الهِمَم ، والفقراء مستقرهم سُدَّةُ الكَرَم .

ويقال الكلُّ له مثوىً ومستقر ، أما الموحِّد فإنه لامأوى له ولا مستقر ولامثوى ولا منزل.

ويقال النفوس مستودَعُ التوفيق من الله ، والقلوبُ مستودعُ التحقيق من قِبَلِ الله .

ويقال القلوبُ مستودعُ المعرفة ؛ فالمعرفة وديعةٌ فيها . والأرواح مستودع المحبة فالمحابُّ ودائع فيها . والأسرار مستودع المشاهدات فالمشاهدات ودائع فيها .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى خَلَقَ السمواتِ والأرضَ
فى ستة أيامٍ وكان عرشُه على الماءِ
ليبلوَكُم أيكم أحسنُ عملاً ﴾

---

(١) قد يبدو للوهلة الأولى أن كلام القشيرى لا ينتظم مع قوله تعالى : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » ولكن الواقع أنه يقصد بذلك رزق السرائر لا رزق الظواهر .

وأَحْسَنُ الأعمالِ موافقةُ الأمرِ ، ولم يَقُلْ أكثر عملا .

ويقال أحسن الأعمال ما كان صاحبُه أشدَّ إخلاصاً فيه .

ويقال أحسنهم عملاً أبعدُهم عن ملاحظة أعماله .

ويقال أحسن الأعمال ما ينظر إليه صاحبه بعين الاستصغار .

ويقال أحسن الأعمال ما لا يطلبُ صاحبُه عليه عِوَضاً .

ويقال أحسن الأعمال ما غابَ عنه صاحبه لاستغراقه فى شهود المعبود .

قوله : « ليبلوكم » الابتلاء مِنْ قِبَلِهِ تعريفُ الملائكة حالَ من يبتليه فى الشكر عند اليُسْر والصبر عند العُسر .

قوله جل ذكره : ﴿ ولئِن قُلْتَ إنَّكم مبعوثون مِنْ بَعْدِ الموتِ لَيقُولَنَّ الذين كفروا إنْ هذا إلا سحرٌ مبين ﴾

استبعدوا النَّشْرَ لِتَقَاصُرِ علومهم عن التحقُّق بكمال قدرة الحق ، ولو عرفوا ذلك لأيقنوا أن البعثَ ليس بمعتاصٍ فى الإيجاد ولا بمستحيلٍ فى التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ ولئن أخَّرْنا عنهم العذابَ إلى أُمَّةٍ معدودةٍ ليقولُنَّ ما يَحبِسُه ؟ ألاَ يومَ يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاقَ بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾

يقول : إنْ أَمْهَلْناَ ، وأخَّرنا عليهم العذابَ لا يَرْعَوُون ، بل يستعجلون العقوبة . ولئن عَجَّلْنا لهم العقوبةَ لا يتوبون ولا يستغفرون . . . استولى عليهم الجهلُ فى الحالَيْن ، وعَمِيَتْ بصائرُهم عن شهودِ التقدير والإيمان بالغيب فى النوعين . ويوم يأتيهم العذابُ فلا مناصَ ولا منجاةَ ولا مراحَ لهم منه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَئِنْ أذَقْنا الإنسانَ مِنَّا رحمةً ثم نزعناها منه إنَّه ليئوسٌ كفورٌ ﴾ .

تَكَدُّرُ ما صفا من النِّعم ، وتغيُّرُ ما أُتيح من الإحسان والمِنَن حالٌ معهودةٌ وخُطَّةٌ عامة ، فلا أحدَ إلا وله منها خِطَّة[1] فمَنْ لم يرجع بالتأسُّفِ قلبه ، ولم يتضاعفْ فى كل نَفَسٍ تَلَهُّفُهُ وكَرْبُهُ ففى ديوان النسيان ، وأثبت اسمه فى جملة أهل الهجران . ومن استمسك بعروة التضرع ، واعتكف بعقوة التذلل ، احتسى كاساتِ الحسرة عُلَلاً بعد نَهَل طاعته للحق بنعت الرحمة ، وجَدَّدَ له ما اندرس من أحوال القربة ، وأطلَعَ عليه شمسَ الإقبال بعد الأفول والغيبة ، كما قيل :

تَقَشَّعَ غيمُ الهجرِ عن قمر الحبِّ   وأشرق نورُ الصبح فى ظلمة الغيب

وليس للأحوال الدنيوية خَطَرٌ فى التحقيق ، ولا يُعدُّ زوالُها وتكدُّرها من جملة المحن عند أرباب التحصيل ، لكنَّ المحنة الكبرى والرزيةَ العظمى ذبولُ غصنِ الوصال ، وتكدُّرُ مشرب القرب ، وأفولُ شوارقَ الأُنْسِ ، ورَمَدُ بصائر أرباب الشهود . . . فعند ذلك تقوم قيامتُهم ، وهناك تُسْكَبُ العَبَراتُ . ويقال إذا نَعَقَ فى ساحاتِ هؤلاء غرابُ البَيْن ارتفع إلى السماء نُوَاحُ أسرارهم بالويل ، ومن جملة ما يبثون من نحيبهم ما قلتُ .

قولا لَمِنْ سَلَبَ الفؤادَ فراقُه   ولقد عَهِدْنا أن يُبَاحَ عِناقُه
بَعْدَ الفراقِ . . . فبالذى هو بيننا   هلَّا رحمتم مَنْ دنا إزهاقُه ؟
عهدى بمن جحد الهوى أزمانكُ   نًا بالصبابةِ — لا يَضيق نطاقُه
والآن مُذْ بَخِلَ الزمانُ بوصلنا   ضاق البسيطة حين دام فراقُه
هل تُرْتَجى من وصل عزِّك رجعةٌ   نحنو على قمرٍ يدوم محاقُه ؟
إن كان ذاك كما تروم فأخْبِروا   أنَّى له أن يعودَ شروقُه[2] ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولئن أذقناه نَعْمَاءَ بعد

(١) (الخطة) بضم الخاء = الأمر والحالة ، و (والخطة) بكسر الخاء ما يختطه الإنسان لنفسه من قدر معلوم من الأرض ونحوها .

(٢) الأبيات فى هذا النص وصلتنا مضطربة الوزن سيئة الخط ، مطموسة الكلمات فى كثير من المواضع وقد تدخلنا فيها بقدر يسمح بإظهار المعنى وتناسق السياق .

ضرَّاءَ مسَّتْهُ ليقولَنَّ ذهبَ
السيئاتُ عَنِّي إنه لَفرِحٌ فخور ﴾ .

إذا كشفنا الضُرَّ عنهم رحمةً مِنّا عادوا إلى تهتكهم بدلا من أن يتقربوا إلينا ، وأساءوا بخلع عذارهم بدل أن يقوموا بشكرنا ، وكلما أَنْحنا لهم من إمهالنا أَمِنوا لمكرنا ، ولم يخافوا أنْ نأخذهم فجأة بقهرنا .

قوله جل ذكره : ﴿ إلاّ الذين صبَرُوا وعملُوا
الصالحاتِ أولئك لهم مغفرة وأجْرٌ
كبير ﴾ .

الإنسان فى الآية السابقة اسم جنس .

وإلا للاستثناء منه ، وقيل بمعنى « لكن » ، يريد إذا أذقناهم نعمة بعد الشدة بطروا ، إلا المؤمنين فإنهم بخلاف ذلك ، أى لكنَّ الذين آمنوا بخلاف ذلك ، فإنهم لصبرهم على على مابه أُمِروا ، وعما عنه زُجِروا ، ولمعانقتهم للطاعات ومفارقتهم الزَّلات .. فلهم مغفرة وأجر ، مغفرة لعصيانهم ، وأجرٌ على إحسانهم . والفريقان لا يستويان ، قال قائلهم .

أَحْبَابُنا شتَّان وافٍ وناقِصٌ ولا يستوى قطُّ مُحبٌّ وباغِض

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بعضَ ما يوحى
إليك ﴾ .

اقترحوا عليه أن يأتى بكتاب ليس فيه سَبُّ آلهتهم ، وبيَّن الله — سبحانه — له ألا يتركَ تبليغ ما أُنزِل عليه لأجْلِ كراهتهم ، ولا يُبَدِّلَ ما يُوحَى إليه .

قوله جل ذكره : ﴿ وضائقٌ به صَدْرُك أنْ يقولوا لولا
أُنْزِلَ عليه كَنْزٌ أو جاء معه مَلَكٌ
إنّما أنتَ نذيرٌ واللهُ على كل شئٍ
وكيل ﴾ .

وهذا على وجه الاستبعاد ، أى لا يكون منك تركُ ما أُوحِىَ إليك ، ولا يضيق صَدرُك

بما يبدو من الغيب .. ومَنْ شرح الله بالتوحيد صدرَه ، ونوَّر بشهود التقدير سِرَّه — متى يلحقه ضيقُ صدْرٍ أو استكراهُ أمْرٍ ؟ ثم قال : « إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل » : أى أنت بالإرسالِ منصوبٌ ، وأحكامُ التقدير عليكَ مُجْرَاةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِه مُفْتَرَيَاتٍ وادعُوا مَنْ استطعتم مِن دون اللهِ إنْ كنتم صادقين ﴾ .

فى الآية بيانٌ أنَّ المكلَّفَ مُزَاحُ العِلَّةِ لِماَ أُقِيمَ له من البرهانِ وأُهِّلَ له من التحقيق . وأنَّ الإيمانَ بالواسطة — صلى الله عليه وسلم وآله — واجبٌ لِما خُصَّ به من المعجزات التى أوضحها الكتابُ المُنَزَّلُ والقرآنُ المُفَصَّلُ الذى عجز الكفار عن معارضته .

قوله جل ذكره : ﴿ فإلَّم يستجيبوا لكم فاعلموا أنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وأن لا إلَهَ إلا هو فهل أنتم مُسْلِمون ﴾ .

يعنى فإن لم يستجيبوا لكم يعنى إلى الإتيان بمثله — وهم أهل بلاغة — فتحققوا أنه من قِبَلِ الله ، وليس على سنة التحقيق (. . . . .)[1] إنما العمى فى بصائر من ضلُّوا عن الحقِّ ، وتاهوا فى سدفة الحيرة .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ كان يُرِيدُ الحياةَ الدنيا وزينتها نُوَفِّ إليهم أعمالَهُم فيها وهم فيها لا يُبْخَسُونَ ﴾ .

مَنْ قَنَع منهم بدنيا الدناءةُ صِفَتُها وَسَّعْنَا عليه فى الاستمتاع بأيامٍ فيها ، ولكن عَقِبَ اكتمالِها سيرى زوالَها ، ويذوق بعد عسلِها حَنْظَلَها .

(١) مشتبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة
إلا النارُ وحَبِط ما صَنَعُوا فيها ،
وباطِلٌ ما كانوا يعملون ﴾ .

أولئك الذين خَابَتْ آمالُهم ، وظهرت لهم — بخلاف ما احتسبوا — آلامُهم ، حَبِطَتْ أعمالُهم ، وحاق بهم سوء حالهم .

قوله جل ذكره ﴿ أَفَمَنْ كان على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّه ويتلوه
شاهِدٌ منه ومِنْ قَبْلِه كتابُ موسى
إماماً ورحمةً أولئك يؤمنون به ومَنْ
يكفر به من الأحزابِ فالنارُ مَوْعِدُه
فلا تَكُ فى مِرْيَةٍ منه إنَّه الحقُّ من
ربِّك ولكنَّ أكثرَ الناسِ
لا يؤمنون ﴾ .

فيه إضمار[1] ومعناه أفمن كان على بينة كمن ليس على بينة . . لا يستويان .

والبيِّنةُ لأقوامٍ برهانُ العِلْمِ ، ولآخرين بيانُ الأمر بالقطع والجزم ؛ يُشْهِدهم الحقُّ مالا يطلع عليه غيرهم ، كما قلت :

ليلى من وجهك شمس الضحا . . . .
فالناس فى الظلمة من ليلهم ونحن من وجهك فى الضوء والشاهد

فالذى يتولاه فهو مشاهِدٌ ، وفى الخبر «أولياء الله الذين إذا أرادوا ذكر الله ....»[2] .

قال تعالى : « ولو نشاء لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بسيماهم » .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله
كذباً . . . ﴾ الآية .

---

(١) إضمار هنا مستعملة لما يسمى فى علم البلاغة بإيجاز الحذف .
(٢) سقطت بقية الخبر من الناسخ .

مَنْ ادَّعى على الله حالاً لم يكن متحققاً بها فقد افترى على الله كذباً ، واستوجب المقت ، وعقوبته أَلّا يُرْزَق بركةً فى أحواله ، ثم إنه يكشف للشهداء عيوبَه ، فيفضحه بين الخلْق ، والشهداء قلوبُ الأولياء ، ومَنْ شهدت القلوبُ عليه بالردِّ فهو غيرُ مقبولٍ عند الحقِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يَصُدُّون عن سبيل الله ... ﴾ الآية .

هذا من جملة صفات المفترين على الله الكذب ، ومِنْ صدِّهم عن السبيل أن يُظهِروا من أنفسهم أحوالاً تُخِلُّ بأحكام الشريعة ، ولا يَرَوْن ذلك كبيرةً فى الطريقة ، ويُوهِمون المُسْتَضْعفين من أهل الاعتراض عليهم أنَّ لهم فى ذلك رخصة ، فيضِلُّون ويُضِلُّون . ومن جملة صدِّهم عن السبيل تغريرهم بالناس ، وإيقاعهم فى الغَلَطِ ، ويرتفقون بشىءٍ مما فى أيديهم من حطام الدنيا ، ولا يَسْتَحُون من أَخْذِ شىءٍ لا يستوجبونه بأى وجه حقٌّ ، ويُداهِنُون فى دين الله .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض ... الآية ﴾ .

مَنْ هذه صفتهم لا يربحون فى تجارتهم ، ولا يلحقون غايةً طلبوها ؛ فيبقون عن الحق ، ولا يبارك لهم فيما اعتاضوا من صحبة الخلْق .. خَسِرتْ صفْقتُهُمْ ، وبَارَتْ بضاعتهم ، لَقُوا الهوان ، وذاقوا اليأس والحرمان ..

قوله جل ذكره : ﴿ لا جَرَمَ أَنَّهم فى الآخرة هم الأَخْسَرون ﴾ .

لا محالةَ أنهم فى الآخرة أشدُّ خسراناً ، وأوفر — من الخيرات — نقصاناً .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأَخْبَتُوا ﴾ .

الإخباتُ التخشع لله بالقلب بدوام الانكسار ، ومن علامته الذبول تحت جريان المقادير بدوام الاستغاثة بالسر .

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم . . .
والبصير والسميع ... ﴾ الآية

مثلُ الـكافر فى كفره كالأعمى والأصم ، ومَثَلُ المؤمن فى إيمانه كالسميع والبصير — هذا بيان التفسير .

والإشارة فيه أن الأعمى مَنْ عَمِيَ عن الإبصار بِسِرِّه ، والأصمُّ الذى طَرِش بسَمْع قلبه ؛ فلا باستدلاله شَهِدَ سر تقديره فى أفعاله ، ولا بنور فراسةٍ توهم ما وقف عليه من مكاشفات الغيب لقلبه ، ولا بسَمْعِ القبولِ استجابَ لدواعى الشريعة ، ولا بِحُـكْمِ الإنصاف انْقَادَ لما يتوجَّب عليه من مطالبات الوقت مما يلوح لِسِرِّه من تلويحات الحقيقة .

وأما البصير فهو الذى يشهد من الحق أفعاله بعلم اليقين ، ويشهد صفاته بعين اليقين ، ويشهد ذاته بحق اليقين ، والغائبات له حضور ، والمستورات له كشف . فالذى يسمع فَصِفَتُه ألا يسمعَ هواجسَ النَّفْسِ ولا وساوس الشيطان ؛ فيسمع من دواعى العلم شرعاً ، ثم من خواطر التعريف قدراً ، ثم يكاشف بخطاب من الحق سِرّاً[1] .

فهؤلاء لا يستويان ، ولا فى طريق يلتقيان :

راحَتْ مُشَرِّقَةً ورُحْتُ مُغَرِّباً . فمتى التقاء مُشَرِّقٍ ومُغَرِّبٍ ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ ولقَدْ أرسلنا نوحاً إلى قومه إنِّى
لـكم نذيرٌ مبين * ألا تعبدوا
إلا اللهَ إنى أخَافُ عليـكم عذابَ
يوم أليم ﴾ .

كان نوحُ عليه السلام أطولَ الأنبياء عُمْراً وأشدَّهم بلاءً ، وسمى نوحاً لـكثرة نَوْحِهِ على نَفْسِهِ . . وسببُ ذلك أنه مرَّ بكلبٍ فقال : ما أقبحه ! فأوحى الله إليه أَنْ اخلقْ أنت أَحْسَنَ من هذا . فأخذ يبكى وينوح على نفسه كلَّ ذلك النَّوْح . فـكيف بحالِ مَنْ لم يذكر يوماً مما مضى من عمره فى مدة تـكليفه — ولم يحصل منه لله كثير من ولاية ! ؟

(١) تفيد هذه الإشارة فى بيان أحكام « السماع » عند الصوفية .

قوله جل ذكره : ﴿ فقال الملأُ الذين كفَروا مِنْ قَوْمِهِ
ما نراك إلا بَشَراً مِثْلَنا وما نَرَاكَ
اتَّبَعَكَ إلا الذين هم أَرَاذِلُنا بادِيَ
الرَّأْيِ وما نَرَى لـكم علينا مِنْ
فَضْلٍ بل نَظُنُّـكم كاذبين ﴾ .

أنـكروا صحة كوْنِهِ نبيًّا لمشاكلته إياهم فى الصورة ، ولم يعلموا أن المباينة بالسريرة لا بالصورة .

ثم قال : « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادىَ الرأى » : نظروا إلى أتباعه نَظْرَةَ استصغارٍ ، و نَسَبُوهم إلى قِلَّةِ التحصيل .. وما استصغر أحدٌ أحداً من حيث رؤية الفضل عليه إلا سَلَّطَ اللهُ عليه ، وأذاقه ذُلَّ صَغَارِه ، فبالمعانى يحصل الامتيازُ لا بالمبانى :

ترى الرجلَ النحيف فتزدريه وفى أثوابه أسد هصور
فإن أكُ فى شِرارِكم قليلا فإنى فى خِيارِكم كثير

قوله جل ذكره : ﴿ قال يا قوم أرأيتم إنْ كنتُ على
بَيِّنَةٍ من ربى وآتانى رحمةً مِنْ
عِنْدِهِ فعُمِّيَتْ عليـكم أنُلْزِمُـكُمُوها
وأنتم لَهَا كارِهون ﴾ .

الصُّبحُ لا خَلَلَ فى ضيائه لِـكَوْن الناظرين عميانا ، والسيفُ لا خَلَلَ فى مَضائِه لِـكَوْنِ الضاربين صبياناً . . . وكيف لِبَشَرٍ من قدرةٍ على هداية مَنْ أضَلَّه اللهُ — ولو كان نبيًّا ؟[1].

هيهات لا ينفع مع الجاهل نُصْحٌ ، ولا ينجح فى المُصِرِّ وعظٌ !

---

(١) الأفضل أن تـكون (ولو كان نبياً) جملة اعتراضية تلى (لبشر) حتى يستقيم التركيب ، ولـكننا أثبتنا ما جاء في (ص) .

قوله جل ذكره : ﴿ ويا قومِ لا أسألكم عليه مالاً إنْ
أجْرِىَ إلا على الله وما أنا بطاردِ
الذين آمنوا إنهم مُلاَقُو ربِّهم
ولكنِّى أراكم قوماً تجهلون ﴾ .

سُنَّة الأنبياء — عليهم السلام — ألا يطلبوا على رسالتهم أجراً ، وألا يُؤَمِّلوا لأنفسهم عند الخلق قَدْراً ، عَمَلُهُم لله لا يطلبون شيئاً من غيرِ الله . فَمَنْ سَلَكَ من العلماء سبيلَهم حُشِرَ فى زمرتهم ، ومَنْ أخَذَ على صلاحِهِ مِنْ أحدٍ عِوَضاً ، أو اكتسب بسداده جاهًا لم يَرَ من الله إلا هوانا وصَغَاراً .

قوله جل ذكره : ﴿ ويا قومِ مَنْ يَنْصُرُنى من الله إنْ
طَرَدْتُهم أفلا تَذَكَّرُون ﴾

مجالسةُ الفقراءِ اليومَ — وهم جُلَساء الحقِّ غداً — أجدى من مجالسة قومٍ من الأغنياء هم من أهل الردِّ .

ومَنْ طَرَدَ مَنْ قَرَّبَه الله وأدناه استوجب الخِزْىَ فى دنياه ، والصَّغَارَ فى عقباه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا أقول لكم عندى خزائنُ اللهِ
ولا أعْلَمُ الغيبَ ولا أقولُ إنِّى مَلَكٌ ﴾

لا أتخطَّى خَطِّى عما أبلغت مما حملتُ من رسالتى ، ولا أتعدَّى ما كُلِّفْتُ به ، ولا أزيد عما أُمِرْتُ ، ولن أخرجَ عن الذى أنبأونى ، بل أنتصب بشاهدى فيما أقامونى .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا أقول للذين تزدرِى أعْيُنُكم
لن يُؤْتِيَهم اللهُ خيراً ، اللهُ أعلمُ
بما فى أنفسِهم إنِّى إذاً لَمِنَ الظالمين ﴾

إن أولياء الله سبحانه فى أثوابِهم ولا يراهم إلا من قارَبَهم فى معناهم . اللهُ أعلمُ بأحوالهم ، وفى الجملة : طيرُ السماءِ على أُلاَّفها تقع .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يا نوحُ قد جادَلْتَنا فأكْثَرْتَ جِدالنا فأْتِنا بما تَعِدُنا إنْ كنتَ من الصادقين ﴾

أوضح لهم من البراهين مالوا أنعموا النظر فيه لتمَّ لهم اليقين ، ولكنهم أصروا على الجحود ، ولم يقنعوا من الموعود بغير المشهود .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إنما يأتيكم به اللهُ إنْ شاء وما أنتم بِمُعْجِزِين ﴾

أقرَّ بالعبودية ، وتبرَّأ عن الحول والقوة ، وأحال الأمرَ على المشيئة . ولقد أنصف مَنْ لم يُجاوِزْ حدَّه فى الدعوى . والأنبياء عليهم السلام — وإن كانوا أصحاب التحدى للناس بمعجزاتهم فهم معترفون بأنهم موقوفون عند حدودهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا ينفعكم نُصْحِى إنْ أردتُ أنْ أنصحَ لكم ، إنْ كان اللهُ يريد أن أن يُغْوِيَكم هو ربُّكم وإليه تُرْجَعون ﴾

مَنْ لم يُساعده تعريفُ الحقِّ — بما له بحكم العناية — لم ينفعه نُصْحُ الخَلْقِ فى النهاية .

ويقال مَنْ لم يُوَصِّلْه الحقُّ للوصال فى آزاله[1] لم ينفعه نُصْحُ الخَلْقِ فى حاله .

ويقال مَنْ سَبَقَ الحكمُ له بالضلالة أنَّى ينفعه النصحُ وبَسْطُ الدلالة ؟

ويقال من لم تساعدْه قسمةُ السوابق لم ينفعه نُصْحُ الخلائق .

قوله : « إن كان الله يريد أن يُغْوِيَكم » : من المحال اجتماع الهداية والغواية ، فإذا أراد اللهُ بقوم الغواية لم يصح أن يقال إنهم من أهل الهداية .

ثم بيَّن المعنى فى ذلك بأن قال « هو ربُّكم » ليَعْلَمَ العالِمون أنَّ الربَّ تعالى له أن يفعل بعباده ما شاء بحكم الربوبية .

---

(١) أى بما سبقت به القسمة — حسب تعبير القشيرى فى مواضع أخرى .

قوله جل ذكره: ﴿أم يقولون افتراه قُلْ إنْ افتريتُه فَعَلَيَّ إجرامي وأنا برىءٌ مما تُجْرِمُون﴾

ومهما وصفتمونى فإنى أُجيبُ اللهَ.. وكُلٌّ مُطالَبٌ بفعله دون فِعْلِ صاحبِه.

قوله جل ذكره: ﴿وأُوحِيَ إلى نوحٍ أنه لن يؤمِنَ من قومِكَ إلا مَنْ قد آمَنَ فلا تَبْتَئِسْ بما كانوا يفعلون﴾

عرَّفه الحقُّ أنَّه غنيٌّ عن إيمانهم، فكَشَفَ له أحكامَهم، وأنَّ مَنْ لم يؤمن منهم قدسبق الحكمُ بشقائهم، فعند ذلك دعا عليهم نوحٌ — عليه السلام — بالإهلاك.

ويقال لم يدعُ عليهم ما دام للمطمع فى إيمانهم مساغٌ، فلما حَصَلَ العكسُ نطق بالتماس هلاكهم.

قوله جل ذكره: ﴿واصنَعْ الفُلْكَ بأَعْيُنِنَا ووَحْيِنَا ولا تخاطبْنى فى الذين ظلموا إنَّهم مُغْرَقون﴾

أى قُمْ — بشرط العبودية — بصنع السفينة بأمرنا، وتحقق بشهودنا، وأنَّك بمرأىً منا. ومَنْ عَلِمَ اطلاعَه عليه لم يلاحِظْ نفْسَه ولا غيرَه، لا سيما وقد تحقق بأنَّ المُجْرِى هو سبحانه.

وقال له: راعِ حَدَّ الأَدَبِ، فما لم يكن لك إذْنٌ منا فى الشفاعة لأحدٍ فلا تُخاطِبْنا فيهم.

ويقال سبق لهم الحكمُ بالغَرَقِ — وأمواج بحر التقدير تتلاطم — فكلٌّ فى بحار القدرة مُغْرَقُون إلا من أَهَّلَه الحقُّ بحُكْمِه فَحَمَلَه فى سفينة العناية.

ويقال كان قومُ نوحٍ من الغَرْقَى فى بحار القَطْرة، ومِنْ قبلُ كانوا غرقى فى بحار القدرة.

قوله جل ذكره: ﴿ويصنع الفُلْكَ وكلما مرَّ عليه مَلأٌ من قومِه سَخِروا منه قال إنْ تسخروا مِنَّا فإنا نَسْخَرُ منكم كما تَسْخَرون﴾

لما تَحقَّقَ بما أمر اللهُ به لم يأبَه عند إمضاءِ ما كُلِّفَ به بما سَمِعَ من القيل ، ونظر إلى الموعود بطَرْفِ التصديق فكان كالمُشاهِد له قبلَ الوجود .

قوله جل ذكره : ﴿ فسوف تعلمون مَنْ يأتيه عذابٌ يُخْزِيه ويَحِلُّ عليه عذابٌ مقيم ﴾

لا طاعةَ لمخلوقٍ فى مقاساة تقديره — سبحانه — إلا من تحمل عنه بفضله ما يحمله بحُكْمه .

قوله جل ذكره : ﴿ حتى إذا جاء أمرُنا وفار التَّنُّورُ قلنا احملْ فيها مِنْ كل زوجين اثنين وأَهْلَكَ ﴾

طال انتظارُهم لِماَ كان يَتَوَعَّدُهم به نوحٌ عليه السلام على وجه الاستبعاد ، ولم يَزِدْهُم تطاولُ الأيامِ إلا كفراً ، وصَمَّمُوا على عقد تكذيبهم .

ثم لمَّا أتاهم الموعودُ إياهم بغتةً ، وظهر من الوضع الذى لم يُحِبُّوه فَارَ الماء من التنور المسجور ، وجادت السماء بالمطر المعبور[1] .

« قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين » : استبقاءً للتناسل .

ويقال : قد يُؤْتَى الحَذِرُ من مَأْمَنِهِ ؛ فإن ابليسَ جاء إلى نوحٍ — عليه السلام — .

وقال : احْمِلنى فى السفينة فأَبَى نوحٌ عليه السلام ، فقال له إبليس : أَمَا عَلِمْتَ أنى من المُنْظَرين إلى يومٍ معلومٍ ، ولا مكانَ لى اليومَ إلا فى سفينتك ؟

فأوحى الله إلى نوح أن يَحْمِلَه معه .

ويقال لم يكن لابن نوحٍ معه مكان ، وأُمِرَ بحَمْل إبليس وهو أصعب الأعداء ! وفى هذا إشارة إلى أن أسرار التقدير لا تجرى على قياسِ الخَلْق ؛ كأنه قيل له : يا نوح . . ابنك لا تحمله ، وعدوك فَأَدْخِلْه ، فالله سبحانه فعَّالٌ لما يريد[2] .

---

(١) أى الجارى .

(٢) فى هذه الإشارة تلميح إلى قاعدة فى مذهب القشيرى أن أفعال الله لا تخضع لما ألف الناس من مقاييس نسبية .

قوله جل ذكره : ﴿ إلاَّ مَنْ سَبَقَ عليه القولُ ومَنْ آمَنَ
وما آمَنَ معه إلا قليلٌ ﴾

« إلا من سبق عليه القول » بالشقاوة . وفيه تعريف بأن حُكمَ الأزَل لا يُرَدُّ ، والحقُّ — سبحانه — لا يُنَازَعُ ، والجبَّارُ لا يُخَاصَمُ ، وأن مَنْ أقصاه ربُّه لم يُدْنِهِ تنبيهٌ ولا بِرٌّ ولا وَعظٌ .

« وما آمن معه إلا قليل » ولكن بَارَكَ الحقُّ — سبحانه — في الذين نجَّاهم من نَسْلِه ، ولم يدخل خَلَلٌ في الكونِ بعد هلاكِ مَنْ أهْلَكَ مِنْ قومه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال اركبُوا فيها بسم الله مَجْرِيها
ومُرْساها إنَّ ربي لغفورٌ رحيم ﴾

عَرَفَ أنَّ نجاتَه من القَطْرةِ لمَّا تقاطَرَتْ ليست بالحِيَلِ — وإنْ تنوّعَتْ وكَثُرَتْ ، فباسم اللهِ سلامتُه ، وبتوكلِه على الله نجاتُه وراحتُه ، وبتفضله — سبحانه — صلاحُه وعافيته .

قوله جل ذكره : ﴿ وهي تجرى بهم في موجٍ كالجبالِ
ونادى نوحُ ابنَه وكان في مَعْزِلٍ
يا بُنَيَّ اركَبْ معنا ولا تكن مع
الكافرين ﴾

وكان في معزلٍ بظاهره ، وكان في سرِّ تقديره أيضاً بمعزلٍ عما سبق لنوحٍ وقومه من سابق فضله . فحينما نطق بلسانِ الشفقةِ وقال : « يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين » — لم يقل له : ولا تكن من الكافرين ؛ لأن حالته كانت مُلْتبِسةً على نوح إذ كان ابنُه ينافقه — فقيل له : يا نوح إنه مع الكافرين لأنه في سابق حُكْمِنا من الكافرين .

قوله جل ذكره : ﴿ قال سَآوِى إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ
الماءِ قال لا عاصِمَ اليومَ مِنْ أمْرِ اللهِ
إلاَّ مَنْ رَحِمَ وحَالَ بينهما الموجُ
فَكانَ مِنَ المُغْرَقِين ﴾

أخطأ مِنْ وجهين : رأى الهلاكَ من الماءِ وكان مِنَ اللهِ ، ورأى النجاةَ والعِصمةَ من الجبلِ وهما من الله ، فقال له نوح : لا عاصِمَ اليومَ من أمرِ الله . قيل أراد لا معصومَ اليوم من الله . وقيل لا أحدَ يَعْصِمُ أحداً من أمر الله ، لكنْ مَنْ رَحِمَه ربُّه فهو معصومٌ من ذلك ، وله عاصمٌ وهو الله .

ولقد كان نوح — عليه السلام — مع ابنه في هذه المخاطبات فجاءت أمواجُ الماءِ وحالَتْ بينهما وصار من المُغْرَقِين ، فلا وعظُه ونُصْحُه نفعاه ، ولا قولُه وتذكيره نَجَّيَاه وخَلَّصاه .

ويقال احتمل أن لو قيل له يا نوح عَرَّفْنا العَالَمَ بدعائك ولا عليكَ إنْ عَرَفَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وقيل يا أرضُ ابْلَعِي ماءكِ ويا سماء أقْلِعِي وغِيضَ الماء وقُضِيَ الأمرُ واسْتَوَتْ على الجُودِيِّ وقيل بُعْداً للقومِ الظالمين ﴾

فلما غَرِقَ ابنُ نوحٍ سَكَنَ الموجُ ونضَبَ[1] الماء وأقلعت السماء ، وكأنه كان المقصودُ من الطوفانِ أنْ يغرقَ ابنُ نوحٍ — عليه السلام — وقيل :

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدهرُ بيني وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سَكَنَ الدهرُ

قوله جل ذكره : ﴿ ونادى نوحٌ ربَّه فقال ربِّ إنّ ابني مِنْ أهلي وإنَّ وَعْدَكَ الحقُّ وأنت أحكمُ الحاكمين * قال يا نوحُ إنَّه ليس مِنْ أهْلِكَ إنه عَمَلٌ غيرُ صالِحٍ فلا تَسْألْنِ ما ليس لك به عِلْمٌ إنّي أعِظُك أنْ تكونَ من الجاهلين ﴾

---

(١) وردت (نصب) بالصاد ، وهى خطأ فى النسخ ، والمراد (نضب) الماء أى غار وانحسر ، فهى ملائمة لإقلاع السماء أى إمساكها عن المطر .

خاطَبَ الحقَّ — سبحانه — في باب ابْنِه ، واستعطفَ في السؤال فقال :

« إن ابني من أهلي » : فقال له : إنَّه ليست مِنْ أهل الوصلة قِسْمَتُه — وإنْ كان من أهلِكَ نَسَباً ولُحْمَةً ، وإنَّ خطابَك في بابه عملٌ غيرُ صالح ، أو إنه أيضاً عَمِلَ غيرَ صالح[1] .

« فلا تسألنِ ما ليس لك به علم » : أي سَتَرْتُ غيبي في حال أوليائي وأعدائي ، فلا يُعْلَمُ سِرُّ تقديري .

قوله : « إني أعظك » : وذلك لِحرْمةِ شيخوختهِ وكِبَرِه ، ولأنه لم يَسْتَجِبْ له في وَلَدِه ، فتَدارَكَ بِحُسْنِ الخطابِ قَلْبَه .

وقيل إن ابنَ نوحٍ بَنَى من الزجاجِ بيتاً وقتَ اشتغال أبيه باتخاذ السفينة ، فلما ركب نوحٌ السفينةَ دَخَلَ ابنهُ في البيتِ الذي اتخذه من الزجاج ، ثم إن الله تعالى سلَّطَ عليه البوْلَ حتى امتلأ بيْتُ الزجاج من بَوْلِه ؛ فغَرِق الكلُّ في ماء البحر ، وغرق ابنُ نوحٍ في بَوْلِه ! لِيُعْلَمَ أنه لا مفرَّ مِنَ القَدَر .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربِّ إنّي أعوذُ بك أنْ أسألَك
ما ليسَ لي به عِلْمٌ وإلَّا تغفِرْ لي
وترحمْني أكُنْ مِنَ الخاسرين ﴾

نَسِيَ نوحٌ — عليه السلام — حديثَ ابنه في حديث نفسه ، فاستعاذ بفضله واستجار بلطفِه ، فوجد السلامةَ من ربِّه في قوله جل ذكره :

﴿ قيل يا نوحُ اهبِطْ بسلامٍ منّا
وبركاتٍ عليكَ وعلى أممٍ ممّنْ معَكَ
وأممٌ سنُمتِّعُهم ثم يمسُّهم منّا
عذابٌ أليم ﴾

طَهَّرَ وجهَ الأرضِ من أعدائه ، وحفظ نوحاً عليه السلام من بلائه ، هو ومن معه من أصدقائه وأقربائه .

---

(١) وعلى هذا الرأي تكون نجاة قوم نوح بسبب عملهم الصالح لا بسبب قرابتهم له .

والأممُ التى أخبر أنه سَيُمَتِّعُهم ثم يَمَسُّهم العذابُ هم الذين ليسوا من أهل السعادة .

قوله جل ذكره : ﴿ تلك منْ أنباءِ الغيْبِ نُوحِيها إليكَ
ما كُنْتَ تَعْلَمُها أنتَ ولا قومُكَ
من قبلِ هذا ، فاصبِرْ إنَّ العاقبةَ
للمتقين ﴾

أعلمناكَ بهذه الجملة ، وأنبأناك بهذه القصص لما خصصناك من غير أن تتعلَّمه من شخص ، أو من قراءةِ كتاب ؛ فإنْ قابَلَكَ قومك بالتكذيب فاصبِرْ ، فعَنْ قريبٍ تنقلب هذه الأمور .

قوله جل ذكره : ﴿ وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال يا قومِ
اعبدوا اللهَ ما لكم من إلهٍ غيرُه
إنْ أنتم إلا مُفْتَرُون ﴾

كَلَّفَ الأنبياء — عليهم السلام — بالذهاب إلى الخَلْق لا سيما وقد عاينوا — بالحق — مَنْ تَقَدَّمهم من فترة الملأ ، ولكنهم تَحَمَّلُوا ذلك حين أمَرَهُم الحقُّ بالتوجُّهِ إليهم فَرَضُوا ، وأظهروا الدلالةَ ، وأدَّوْا الرسالةَ ، ولكن ما زاد الناسُ إلا نفرةً على نفرة .

قوله جل ذكره : ﴿ يا قومِ لا أسألكم عليه أجراً إنْ
أجْرِيَ إلا على الذى فطَرَنى
أفلا تَعْقِلُون ﴾ .

لم يأتِ نبيٌّ من الأنبياء — عليهم السلام — إلاَّ وأَخْبَرَ أنه ليس له أنْ يطلبَ فى الجملة أجْراً إلّا من اللهِ لا من غير الله .

قوله جل ذكره : ﴿ ويا قومِ استغفِروا ربَّكم ثم توبوا
إليه يُرْسِلْ السماءَ عليكم مِدْراراً
ويَزِدْكُم قوةً إلى قُوَّتِكم ولا تتولَّوْا
مُجْرِمين ﴾ .

استغفروا ربكم ثم توبوا إليه بعد الاستغفار ، مِنْ توهمكم أن نجاتكم باستغفارِكم . بل تحقَّقُوا بأنكم لا تجدون نجاتكم إلا بفضلِ ربِّكم ؛ فَبِفَضلِه وبتوفيقه توصَّلْتُم إلى استغفاركم لا باستغفاركم ، وصلتم إلى نجاتكم ، وبرحمته أهَّلَكُم إلى استغفاركم ، وإلَّا لَمَا وصلتم إلى توبتكم ولا إلى استغفاركم .

والاستغفار قَرْع باب الرزق ، فإذا رجع العبد إلى الله بحسن تضرعه ، فتح عليه أبوابَ رحمته ، ويَسَّرَ له أسبابَ نعمته .

ويقال يُنَزِّل على ظواهركم أمطارَ النِّعمة ، وعلى ضمائرِكم وسرائرِكم يُنَزِّل أنواعَ المِنَّة ، ويزيدكم قوة على قوة ؛ قوة تحصلون بها توسعة أنواع الرِزْقِ ، وقوةً تحصلون بها تحسين أصناف الخُلُقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا ياهودُ ما جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وما نحن بتارِكى آلِهتِنا عن قولِكَ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ .

ما زادهم هودُ عليه السلام بَسْطا فى الآية وإيضاحاً فى المعجزة إلا زادهم اللهُ تعالى عَمىً على عَمىً ، ولم يرزقْهم بصيرةً ولا هدىً ، ولم يزيدوا فى خطابِهم إلا بما دَلُّوا على فَرْطِ جهالتهم ، وشدة ضلالتهم بعد إطنابهم وانتهابهم[1] ، وقالوا :

﴿ إن نقولُ إلا اعتراكَ بعضُ آلهتنا بسوءٍ قال إنى أُشْهِدُ اللهَ واشْهَدُوا أنِّى برىءٌ مما تُشرِكون ﴾ .

وكيف ظَنُّوا أنَّ آلهتَهم تَمسُّ أعداءهم بسوءٍ وهى لا تضرُّ أعداءها ولا تنفع أولياءها ؟ فهؤلاء الغوايةُ عليهم مُسْتَوْلية . ثم إن هوداً عليه السلام أفْصَحَ عن فضل ربِّه عليه ؛ وصَرَّحَ بإخلاصه وحُسْنِ يقينه فقال : إنى برىء مما تشركون ، ثم قال :

﴿ مِنْ دونه ، فكيدُونى جميعاً ثم لا تُنْظِرونِ ﴾ .

(١) يقال نهب فلاناً أى تناوله بلسانه وأغلظ له القول .

فلم يَحْتجْ معهم إلى تضرعٍ واستخذاء ، ولا راوَدَهم فى سترٍ واستمهال ، ولم يَتَّصِفْ فى ذلك بركونٍ إلى حَوْله ومُنَّته ، ولم يستند إلى جِدِّه وقوَّته بل قال :

﴿ إنِّى توكلتُ على اللهِ ربِّى وربِّكم
ما من دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتِها
إنَّ ربى على صراط مستقيم ﴾ .

أخبر أنه بموعودِ الله له بنُصْرتِه واثق ، وأنه فى خلوص طاعته لربِّه وفى صفاء معرفته (غيرُ مُفارِقٍ)[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فإنْ تولَّوْا فقد أبلغتُكم ما أُرْسِلْتُ
به إليكم ويستخلِفُ ربِّى قوماً غيركم
ولا تضرونه شيئاً إنَّ ربى على كلِّ
شىءٍ حفيظ ﴾ .

أوحينا إليه أنْ قُلْ لهم : إنْ تولَّوْا ولم تُؤمنوا بى فقد بَلَّغْتُ ما حُمِّلْتُ من رسالتى ، وإنى واثقٌ بأنَّ الله إذا أهلككم يأتِ بأقوامٍ آخرين سواكم أطوعَ له منكم ، وإنْ أفناكم ما اختلَّ مُلْكُه ، إذْ الحقُّ — سبحانه — بوجود الأغيار لا يلحقه زيْنٌ — وإنْ وَحَّدُوا ، وبفقدهم لا يَمسُّه شَيْنٌ — وإنْ جحدوا وألحدوا .

قوله جل ذكره : ﴿ ولما جاء أمرُنا نجَّيْنا هوداً والذين
آمنوا معه برحمةٍ منَّا ونجَّيْناهُم مِنْ
عذابٍ غليظ ﴾ .

ولما جاء أمْرُنا بإهلاكهم نجَّيْنا هوداً والذين آمنوا برحمتنا ، ولم يَقُلْ باستحقاقه النجاةَ بوسيلةِ نبُوَّته ، أو لجسامة طاعته ورسالته بل قال : « برحمةٍ منا » ، ليَعْلَمَ الكافةُ أنَّ

---

(1) بعد (معرفته) يوجد بياض مما يدل على سقوط خبر أن وقد أكملنا النقص بكلمة ملائمة من عندنا تتفق مع السياق والنسق حسبما نعلم من طريقة القشيرى .

الأنبياء — عليهم السلام — ومَنْ دونَهم عتيقُ رحمته، وغريقُ مِنَّتِهِ، لا لاستحقاقِ أحدٍ ولا لواجبٍ على الله فى شىء.

قوله جل ذكره: ﴿ وتلك عادٌ جَحَدوا بآياتِ ربِّهم
وعَصَوْا رُسُلَه واتَّبَعُوا أمْرَ كلِّ
جبارٍ عنيدٍ ﴾

فى إنزالِ قصصهم تسلية للرسول — صلى الله عليه وسلم وآله — فيما كان يقاسى من العناء، وللمؤمنين فيما بذلوا من حسن البلاء، والعِدَةُ بتبديل — ما كانوا يلقَوْنه من الشِدَّة — بالرجاء.

قوله جل ذكره: ﴿ وأُتبِعوا فى هذه الدنيا لعنةً ويومَ
القيامةِ، ألَا إنَّ عاداً كفروا ربَّهم
ألا بُعْداً لعادٍ قومِ هودٍ ﴾

أخبر أنهم خسروا الدنيا والآخرة، أمَّا فى هذه الدنيا فبالاستئصال بأليم الشدة وما تَبِعَه من اللَّعنة، ثم ما يلقونه فى الآخرة من تأبيد العقوبة. وبقاؤهم عن رحمة الله أصعبُ من صنوف كل تلك المحنة[1]، وكما قيل:

تبدَّلَتْ وتبدلنا واحسرتا لِمَنْ ابتغى عوضاً لِسَلْمى فَلَمْ يَجِدِ

قوله جل ذكره: ﴿ وإلى ثمودَ أخاهم صالحاً قال ياقومِ
اعبدوا اللهَ ما لكم مِنْ إلهٍ غيرُهُ
هو أنشأكم من الأرضِ واستعمركم
فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إنَّ ربى
قريب مجيبٌ * قالوا يا صالحُ قد كنت
فينا مَرْجُوّاً قبل هذا أتنهانا أنْ

(١) وردت (المحبة) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح.

نعبُدَ ما يعبُدُ آباؤُنا وإنَّنا لفِى شكٍّ
مما تدعونا إليه مريب * قال يا قوم
أرأيْتم إنْ كُنتُ على بَيِّنَةٍ من ربى
وآتانى منه رحمةً فَمنْ يَنصُرُنى مِن
اللهِ إنْ عَصَيْتُه فما تزيدوننى غير
تَخْسير * وياقوم هذه ناقةُ اللهِ لكم
آيةً فَذَرُوها تأ كلْ فى أرضِ الله
ولا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فيأخذَكُم عذابٌ
قريبٌ * فعقروها فقال تَمَتَّعُوا
فى دارِكم ثلاثةَ أيامٍ ذلك وعْدٌ غيرُ
مكذوب * فلما جاَء أمرُنا نَجَّيْنا
صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منَّا
ومِنْ خِزىِ يومئذٍ إنَّ ربَّك هوالقوىُّ
العزيز * وأخذ الذين ظلموا الصيحةُ
فأصبحوا فى ديارهم جاثمين * كأن
لم يغنوْا فيها ألا إنَّ ثموداً كفروا
ربِّهم ألا بُعْداً لثمود *

عقَيْبَ مامضى من قصة عادٍ ذَكرَ قصة ثمود ، وثمود هم قوم صالح ، وقد انخرطوا فى الغىِّ فى سِلْكِ مَنْ سَبقَهم ، فَلَحِقَتْ العقوبةُ بجميعهم . ثم أخبر أنهم قابلوا نَبِيَّهم — عليه السلام — بالتكذيب ، ولم يقفوا على ما نَبَّهُم عليه من التوبة والتصديق ، وأصرُّوا على الإقرار أنهم فى شأنه لفِى شكٍ مريب .

ثم بيَّن أنَّ صالحاً لم يُعرِّجْ — فى التبليغ — على تقصير .

وبعْدَ تَمَرُّدِهم وامتناعهم عن الإنابةِ ، وإصرارهم على تَرْكِ الإجابة حقَّ عليهم

ما توعدهم به من عذاب غير مكذوب ، ونجّى نبيَّهم — عليه السلام — ، ونجّى مَنْ اتّبعَه من كل عقوبة .. سُنَّةٌ منه — سبحانه — فى إنجاء أوليائه أمضاها ، وعادةٌ فى تلطفه ورحمته بالمستحقين أجراها .

قوله جل ذكره ﴿ ولقد جاءت رُسُلُنا إبراهيمَ بالبُشرى قالوا سلاماً قال سلامٌ فما لَبِثَ أنْ جاء بعجل حَنيذٍ * فلما رأى أيديَهم لا تَصِلُ إليه نَكِرَهُمْ وأوْجَسَ منهم خيفةً قالوا لا تَخَفْ إنَّا أُرْسِلنا إلى قوم لوط ﴾

أخبر أن الملائكة أتوا إبراهيمَ — عليه السلام — بالبشارة . وأخبر أن إبراهيمَ — عليه السلام — أنْكَرَهُم ، ولم يَعْرِفْ أنهم ملائكةٌ . فيُحتمل أنَّه — سبحانه — أراد أن تكونَ تلك البشارة فجأةً من غير تنبيهٍ لتكونَ أتَمَّ وأبلغَ فى إيجاد السرور ، ولا سيما وقد كانت بعد خوف لأنه قال : فأوجس منهم خيفةً .

ويقال إن إبراهيم — عليه السلام — كان صاحبَ النبوة والخُلَّة والرسالة فلا بُدَّ أن تكون فراستُه أعلى من فراسة كلِّ أحدٍ ، ولكنه فى هذه الحالة لم يَعْرِفْ الملائكةَ ليُعْلَمَ أنَّ الحقَّ — سبحانه وتعالى — إذا أراد إمضاءَ حُكْمٍ يَسُدُّ على مَنْ أرادَ عيونَ الفراسة ، وإنْ كان صاحبُ الفراسة هو (خليل)(١) الله ، كما سَدَّ الفراسة على نبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — فى قصة الإفكِ إلى الوقت الذى نزل فيه الوحيُ ، وكذلك التبس على لوطٍ — عليه السلام — إلى أن تبيَّن له الأمر .

وتكلموا في هذه « البشرى » ما كانت ؛ فقيل كانت البشارة بإسحاق ، وبأنَّه سيولد له ولد من نَسْله وسُلالته ؛ قال تعالى : « ومن وراء إسحاق يعقوب » .

ويقال بسلامة قومه — حيث كانوا مُرْسَلين بإهلاك قوم لوط — عليه السلام .

---

(١) سقطت كلمة (خليل) فأثبتناها لحاجة السياق إليها .

ويقال بشارة بالخُلّة وتمام الوصلة .

ويقال إن الخُلّة والمحبة بناؤهما كتمان السِّرِّ ، فَيَعْلَمَ أنهم أُرْسِلُوا ببشارةٍ ما ولم يكن للغير اطلاع ، قال قائلهم :

* بين المحبين قولٌ لست أفهمه *

ويقال إن تلك البشارة هي قولهم : « سلاماً » وأن ذلك كان من الله ، وأىُّ بشارة أتمُّ من سلام الحبيب ؟ وأىُّ صباحٍ يكون مُفْتَتَحًا بسلام الحبيب فصَبَاحٌ مباركٌ ، وكذلك المبيتُ بسلام الحبيب فهو مباركٌ .

قوله : « فما لبث أن جاء بعجلٍ حنيذ » : لمَّـا توهمهم أضيافاً قام بحقِّ الضيافة ، فقدَّم خَيْرَ ما عنده مما شكره الحقُّ عليه حيث قال فى موضعٍ آخر : جاء بعجل سمين[1] . والمحبةُ توجبُ استكثارَ القليلِ من الحبيبِ واستقلالَ ما منْكَ للحبيب ، وفى هذا إشارة إلى أنه إذا نَزَلَ الضيفُ فالواجبُ المبادرةُ إلى تقديم السُّفْرة[2] ممَّا حضر فى الوقت .

قوله : « فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم » تمامُ إحسانِ الضيف أن تتناولَ يَدُه ما يُقَدَّم إليه من الطعام ، والامتناعُ عن أكل ما يُقَدَّم إليه معدودٌ فى جملة الجفاء فى مذهب أهل الظَّرْف[3] . والأكلُ فى الدعوة واجبٌ على أحد الوجهين .

« وأوجس منهم خيفةً » : أى خاف أنه وقع له خَلَلٌ فى حاله حيث امتنع الضِّيفانُ عن أكل طعامه ؛ فأوجس الخيفةَ لهم لا منهم .

وقيل إن الملائكة فى ذلك الوقت ما كانوا ينزلون جهراً إلا لعقوبة ؛ فلمَّا امتنعوا عن الأكل ، وعَلِمَ أنهم ملائكةٌ خافَ أنْ يكونوا قد أُرْسِلُوا لعقوبة قومه .

قوله جل ذكره : ﴿ وامرأتُه قائمةٌ ، فَضَحِكَتْ ، فَبَشَّرْنَاهَا بإسحاقَ ومِنْ وراءِ

---

(١) آية ٢٦ سورة الذاريات .

(٢) السفرة = طعام يصنع للمسافر ، أو المائدة وما عليها من طعام (الوسيط) .

(٣) الظرف : (يقال ظرف فلان ظرفاً كان كيسا حاذقاً ، والظرف فى اللسان البلاغة ، وفى الوجه الحسن ، وفى القلب الذكاء) الوسيط .

إسحاقَ يعقوبَ * قالَتْ يا ويلتىا
أ أَلِدُ وأنا عجوزٌ وهذا بَعْلِي شيخاً
إنَّ هـذا لَشَيءٌ عجيبٌ * قالوا :
أتعجبين من أمرِ اللهِ ؟ رحمةُ اللهِ
وبركاتُه عليـكم أهـلَ البيت إنَّه
حميدٌ مجيدٌ ﴾

كانت امرأتُه قائمةً بخدمة الأضياف ، فضحـكت تَعَجُّباً مِنْ أَنْ يـكونَ لمثلها فى هذه السِّنِّ ولدٌ .

وقيل كان سرورُها بالسلامة . ويحتمل أنها ضحـكت تعَجُّباً من امتناع الضِّيفان عن الأكل . أو تَعَجبَتْ من كوْن الملائـكة فى صورة البشر لَمَّا عَلِمَتْ أنهم ملائـكة . ويحتمل أنها ضحـكت لاستبشارها بالوَلَدِ وقد بُشِّرتْ باستحقاقه ومن ورائه يعقوب ، ثم أفْصَحَتْ عما ينطوى عليه قلبُها من التعجب فقالت : « أألد وأنا عجوز وهذا بَعْلِي شيخاً ؟ إنَّ هذا لشيءٌ عجيبٌ » !

فأحال الملائـكة خَلْقَ الوَلَدِ على التقدير : « قالوا أتعجبن من أمر الله ؟ » فزال موضِعُ التعجب ، وقالوا : « رحمة الله وبركاته عليـكم أهل البيت » فبقى الدعاء فى شريعتنا بآخر الآية حيث يقول الداعى : كما صَلَّيْتَ وباركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

والبركة الزيادة ؛ فقد اتصل النَّسْلُ من الخليل ، وبنو اسرائيل منهم — وهم خَلْقٌ كثير ، والعرب من أولاد اسماعيل — وهم الجَمُّ الغفير .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا ذَهَبَ عن إبراهيمَ الرَّوْعُ
وجاءته البُشرى يُجادِلُنا فى قومِ لوط ﴾

لما كانت مراجعته مع الله فى أمر قومِ لوطٍ بحقٍّ الله لا لحظِّ نَفْسِهِ سَلِمَ له الجدال ، وهذا يدلُّ على علوِّ شأنه حيث تجاوز عنه ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ ابراهيمَ لحليمٌ أوَّاهٌ مُنيبٌ ﴾

والإشارة فيه أنه كان يقابِل ما وَرَدَ على ماله ونَفْسِه وولده بالاحتمال ، ولماَّ كان حقُّ الحقِّ فى حديثِ قومِ لوط أخَذَ فى الجدالِ إلى أن أبَانَ له سلامةَ لوط — عليه السلام — وقال الله سبحانه : —

﴿ يا ابراهيمُ أعْرِضْ عن هذا إنه قد جاءَ أمرُ ربِّكَ وإنَّهم آتيهم عذابٌ غيرُ مردود ﴾

يا إبراهيم أعْرِضْ عن هذا فإنَّ الحُكْمَ بعذابِهم قد نَزَل ، ووقتُ الانتقامِ منهم قد حصل .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِم وضَاقَ بِهِم ذَرْعاً وقال هذا يومٌ عصيب ﴾

أى أنه حزن بسبب خوفه عليهم أن يَجْرِيَ عليهم من قومه ما لا يجوز فى دِين الله ؛ فذلك الحزنُ كان لحقِّ الله لا لنصيبٍ له أو حظٍّ لنفسه ، ولذلك حُمِدَ عليه لأنَّ مقاساةَ الحزنِ لحقِّ الله محمودةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاءه قومُهُ يُهْرَعُونَ إليه ومِنْ قبلُ كانوا يَعْمَلُون السيئاتِ قال يا قومِ هؤلاءِ بناتى هُنَّ أطْهَرُ لكم فاتَّقُوا اللهَ ولا تُخْزُونِ فى ضيفى أليس منكم رجلٌ رشيد ﴾

قوله « هؤلاء بناتى هُنَّ أطهرُ لكم » : قيل إنه أراد به نساء أمته ، فنبيُّ كلِّ أمةٍ مثل الوالد لأولاده فى الشفقة والنصيحة .

ويقال إنه أراد بناتِه من صُلْبِه .

« أليس منكم رجل رشيد » يرتدى جلبابَ الحشمة ، ويؤثِر حقَّ الله على ماهو مقتضى البشرية ، ويرعى حق الضيافة ، ويترك معصية الله ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا لقد عَلِمْتَ ما لنا فى بناتك من حقٍ وإنَّك لتَعْلَمَ ما نُريد ﴾

أصرُّوا على عصيانهم ، وزهدوا فى المأذون لهم شرعاً ، وانجرُّوا إلى ما قادهم إليه الهوى طبعاً ، وهذه صفة البهائم ، لا يَرْدَعُها عقلٌ ، قال تعالى : « أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ » .

قوله جل ذكره : ﴿ قال لو أنَّ لى بكم قوة أو آوِى إلى رُكْنٍ شديد ﴾

لو أن لى قوةً فأمنعكم عن ارتكابِ المعصية ، فإنَّ أهمَّ[1] الأشياء على الأولياء ألا يَجْرِىَ من العصاةِ ما ليس لله فيه رضاء .

ويقال : لو كان لى قدرةٌ لإيصال الرحمةِ إليكم — مع ارتكابكم المعاصى — لَرَحِمْتُكم وتجاوزتُ عنكم .

ويقال لو أنَّ لى قوةً لهَدَيْتُكم إلى الدِّين ، ولَعَصَمْتُكم عن ارتكاب المخالفات .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يا لوطُ إنّا رُسُلُ ربك لَنْ يَصِلوا إليك فأَسْرِ بأهلِكَ بِقِطْعٍ من الليلِ ولا يلتفِتْ منكم أحَدٌ إلا امرأتَك[2] إنَّه مصيبُها ما أصابهم ﴾

لمَّا ضَاقَ به الأمرُ كَشَفَ اللهُ عنه الضُرَّ فَعَرَّفَ إليه الملائكةُ وقالوا : لا عليكَ فإنهم لا يصلون إليكَ بسوءٍ ، وإنَّا رُسُلُ ربك جئنا لإهلاكهم ، فاخرُجْ أنت وقومُك من بينهم ، واعلمْ أنَّ مَنْ شارَكَهم فى عملهم بنوعٍ فَلَهُ مِنْ العذابِ حِصَّة . ومن جملتهم امرأتك التى كانت تدل القوم على المَلَكِ لفعلة الفاحشة ، وإن العقوبة لاحقةٌ بها ، مُدْرِكَة لها .

والإشارة منه أن الجسارةَ على الزَّلَّةِ وخيمةُ العاقبةِ — ولو بعد حين ، ولا ينفع المرء اتصاله بالأنبياء والأولياءِ إذا كان فى الحكم والقضاء من جملة الأشقياء .

---

(١) أفعل التفضيل هنا مأخوذ من الهم ، أى (فإن أكثر ما يسبب الهم للأولياء) .
(٢) مستثنى من (فأسر بأهلك) منصوب .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبحُ أليس الصبحُ بقريبٍ ﴾ .

ما هو كائنٌ فقريبٌ ، والبعيدُ ما لا يكون . وإنَّ مَنْ أقْدَمَ على محظورٍ ثم حُوسِبَ عليه — ولو بعد دهورٍ خالية وأعوام غير محصورة ماضية — تصور له الحال كأنه وقتُ مُباَشَرَتِهِ لتلك الزَّلة .

قوله جل ذكره : ﴿ فلما جاء أمرُنا جعلنا عاليَها سافِلَها وأمطرنا عليها حجارةً مِنْ سِجيلٍ منضُودٍ ﴾ .

سُنَّةُ الله فى عباده قلبُ الأحوال عليهم ، والانقلابُ مِنْ سِمَاتِ الحدوث ، أمّا الذى لا يزول ولا يحول فهو الذى لم يزل ولا يزال بنعوته الصمدية .

وإنَّ مَنْ عاش فى السرور دهراً ثم تبدل يُسْرُه عُسْراً فَكَمَنْ لم يَرَ قطُّ خيراً ، والذى قاسَى طولَ عمره ثم أُعطِىَ يُسْرًا فكمن لم يَرَ عُسْراً .

قال تعالى : « ونُقَلِّب أفئدتهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أول مرة »(1) .

قوله جل ذكره ﴿ مُسَوَّمَةً عند ربكَ وما هى مِنَ الظالمين ببعيد ﴾ .

ذكر سبحانه ما نالهم من العقوبة على عصيانهم ، ثم أخبر أنَّ تلك العقوبةَ لاحقةٌ بمن سَلَكَ سبيلَهم تحذيراً لمن لم يعتبر بهم إذا عرف طريقَهم ، كما قيل :

ومَنْ يَرَنى ولم يعتبر بمَنْدِى فإنَّ لكلِّ معصيةٍ عقابا

قوله جل ذكره : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهُمْ شُعَيْباً قال يا قوم اعبدوا اللهَ ما لكم مِنْ إلهٍ غيرُه

---

(1) آية ١١٠ سورة الأنعام .

ولا تَنقُصُوا المكْيالَ والميزانَ
إنى أراكم بخيرٍ وإنى أخاف عليكم
عذابَ يومٍ محيط * ويا قوم أَوْفُوا
المكيالَ والميزانَ بالقسط ولا تبخسوا
الناس أشياءهم ولا تَعثَوْا فى الأرض
مُفسِدِين ﴾ .

أخبر سبحانه عن قصتهم ، وما أصابهم من العذاب الأليم ، وما نالهم من البلاء العظيم .
وفى الظاهر لهم كانت أجرامُهم كاليسيرة ، ولعدم الفهم يعدون أمثالها صغيرة ، ولا يقولون إنها كبيرة ، وإن ذلك تطفيف فى المكيال .

وليس قَدْرُ الأَجرامِ[1] لأعيانها ، ولكن لمخالفة الجبارِ عَظُمَ شأنُها ، قال تعالى : « وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم »[2] .

ولما أن قال لهم شعيب :

« بقيةُ اللهِ خَيْرٌ لكم إنْ كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ » .

يعنى القليل من الحلالِ أجدى من الكثير المُعْقِبِ للوَبالِ لم يقابلوا نصيحتَه لهم إلا بالعِناد والتمادى فيما هو دائمٌ من الجحد والكنود .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يا شُعيبُ أصلاتُكَ تأمرك
أنْ نَترُكَ ما يعبد آباؤنا أو أنْ
نَفْعلَ فى أموالِنا ما نشاء إنَّك لأنت
الحليمُ الرشيد ﴾ .

استوطئوا مركب الجهل ، واستحلبوا مشْربَ التقليد ، وأعفَوْا قلوبَهم من استعمال الفكرِ ، واستبصارِ طريقِ الرُّشدِ .

---

(١) جمع (جرم) وهو الذنب .
(٢) آية ١٥ سورة النور .

قوله جل ذكره : ﴿قال يا قوم أرأيتم إنْ كنتُ على بَيِّنةٍ مِنْ ربى ورَزَقنى منه رِزْقاً حسناً﴾ .

البَيِّنةُ نورٌ تَستبْصِرُ به ما خَفِىَ عليكَ تحت غطاء الغفلة .

والرزق الحسن ما به دوام الاستقلال ، وما ذلك إلا مقتضى عنايته الأزلية ، وحُسْنُ توليه لشأنك — فى جميع ما فيه صلاحك — من إتمام النعمة ودوام العصمة .

وقيل الرزق الحسنُ ما تعنَّي صاحبُه لِطَلَبِهِ ، ولم يصِبْهُ نَصَبٌ بسببه .

وقيل الرزق الحَسَنُ ما يستوفيه بشهود الرزق ويحفظه عند التنعم بوجود الرَّزَّاق .

ويقال الرزق الحسن ما لا يُنْسِى الرزَّاق ، ويحمل صاحبَه على التوسعة والإنفاق .

قوله جل ذكره : ﴿وما أُريدُ أنْ أخالِفَكم إلى ما أنهاكم عَنْهْ﴾ .

يمكن للواعظ أو الناصح أنْ يساهِلَ المأمورَ فى كل ما يأمره به ، ولكن يجب ألا يجيز له ما ينهاه عنه ؛ فإنَّ الإتيانَ بجميع الطاعات غيرُ مُمْكن ، ولكنَّ التجرُّد عن جميع المحرَّماتُ واجبٌ .

ويقال مَنْ لم يكنْ له حُكْمٌ على نفسه فى المنع عن الهوى لم يكن له حُكْمٌ على غيره فيما يرشده إليه من الهدى .

قوله جل ذكره : ﴿إنْ أُريدُ إلا الإصلاحَ ما استطعت﴾.

مَدَارُ الأمرِ على الأغراض المقضية حُسْنُ القصد بالإصلاح ؛ فيَقْرِنُ اللهُ به حسن التيسير ، ومَنْ انطوى على قصدٍ بالسوء وَكَلَ الحقُّ بشأنه التعويق .

قوله جل ذكره : ﴿وما توفيقى إلاَّ باللهِ﴾ .

حقيقةُ التوفيق ما ينفق به الشيء ، وفى الشريعة التوفيق ما تنفق به الطاعة ، وهو قدرة الطاعة ، ثم كل ما تقرب العبد به من الطاعة من توفير الدواعى وفنون المَنْهيات يُعدُّ من جملة التوفيق — على التوسُّع .

والتوفيقُ باللهِ ومن اللهِ ، وهو — سبحانه — بإعطائه متفضِّلٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ عليه توكلتُ وإليه أُنيب ﴾ .

التوكل تفويض الأمر إلى الله ، وأمارته تركُ التدبير بشهود التقدير ، والثقة بالموعود عند عدم الموجود . ويتبين ذلك بانتفاء الاضطراب عند عدم الأسباب .

ويقال التوكلُ السكون ، والثقةُ بالمضمون .

ويقال التوكل سكون القلب بمضمون الرَّبّ

قوله جل ذكره : ﴿ وياقومِ لا يَجْرِمَنَّكُم شِقاقى أَنْ يُصيبَكم مِثْلُ ماأصابَ قومَ نوحٍ أو قومَ هودٍ أو قومَ صالحٍ وما قومُ لوطٍ منكم ببعيد ﴾ .

تورثكم مُخالَفَتُكم إياى فيما أدعوكم إليه من طاعةِ اللهِ أَنْ يلحقكم من أليم العقوبة ما أصاب مَنْ تقدَّمَكم من الذين سِرْتُم على مناهجهم ، وما عهدُكم ببعيد بمن تحققتم كيف حَلَّتْ بهم العقوبة ، وكيف أنهم ما زادتْهم كثرةُ النصيحةِ إلاَّ غُلُوًّا فى ضلالتهم ، وعُتُوًّا فى جهالتهم ، وكما قيل .

وكمْ سُقْتُ فى آثاركم من نصيحةٍ وقد يستفيد البغضةَ المُتَنَصِّحُ

قوله جل ذكره : ﴿ واستَغْفِرُوا ربَّكم ثم توبوا إليه إنَّ رَبِّى رحيمٌ وَدُود ﴾ .

الاستغفار هو التوبة .

ومعنى قوله « ثم توبوا إليه » أى توبوا ثم لا تَنْقُضُوا توبتَكم ؛ فهو أمرٌ باستدامة التوبة ؛ فإذا لم يتصل وفاء المآلِ بصفاءِ الحال لم يحصل قَبُولٌ ، وكأن لم يكن لِما سَلَفَ حصولٌ .

« إنَّ ربى رحيمٌ ودودٌ » : يرحم العصاةَ ويودُّهم .

ويقال يرحمهم ولذلك يودونه ؛ فالودود يكون بمعنى المودود كَحَلُوب بمعنى محلوب . والرحمةُ

تكون للعاصى لأنَّ المطيعَ بوصف استحقاقه للثواب على طاعاته ، ثم ليس كلُّ من يُحِبُّ السلطانَ فى محلِّ الأكابر ، فالأصاغرُ من الجُنْدِ قد يحبون المَلِكَ ، وأنشدوا :

ألا رُبَّ مَنْ يدنو ويزعم أنه يودُّك ، والنّائى أودُّ وأقربُ

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا ياشُعَيبُ ما نَفْقَهُ كثيراً مما تقول وإنَّا لنراكَ فينا ضعيفاً ، ولولا رهطُك لرَجَمْنَاكَ وما أنتَ علينا بعزيز ﴾ .

لاحظوا شعيباً بعين الاستصغار فَحُرِمُوا فَهْمَ معانى الخطاب ، وأقرُّوا على أنفسِهم بالجهل ، وأحالوا إعفاءهم إياه من الأذى على حشمتهم من رهطه وعشيرته ، فعاتبَهُم عليه :—

﴿ قَالَ ياقومِ أرَهْطِي أعزُّ عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظِهْرِياً إنَّ ربى بما تعملون محيط ﴾ .

أترون مِنْ حقِّ رهطى مالا تَرَوْنَ من حقِّ ربى ؛ وإنَّ ربى يُكافئكم على أعمالكم بما تستوجبون فى جميع أحوالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وياقومِ اعْمَلُوا على مكانَتِكم إنِّى عاملٌ سوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يُخْزِيه ومَنْ هو كاذب وارتقبوا إنِّى معكم رقيب * ولما جاء أمرُنا نجَّيْنا شُعَيْبًا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كأنْ لَمْ يَغْنَوْا فيهَا أَلاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾.

أرخى لهم ستر الإمهال فلمَّا أصَرُّوا على تماديهم فى الغواية حلَّت بهم العقوبة ، وصاروا وكأن لم يكن بينهم نافخ نارٍ ، ولا فى دِيارِ الظالمين ديَّار ، قال تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار »

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مبين * إلى فرعون ومَلَئِهِ ﴾

كرَّر قصة موسى عليه السلام تفخيما لشأنه ، وتعظيما لأمره ، وتنبيهاً على علوٍّ قدره عند الله وعلى مكانة الآيات التى أرسله بها ، ومعجزاته الباهرة ، وبراهينه القاهرة .

ويقال أصعبُ عدوٍّ قَهَرَهُ أولا نَفْسُهُ ، وقد دَلَّه — سبحانه — على ذلك لمَّا قال : إلهى ! كيف أطلبك ؟

فقال : عند المنكسرةِ قلوبُهم من أجلى .

فَنَبَّهَهُ إلى استصغارِه لنفسه ، وانكساره لله بقلبه ، فزادت صولتُه لما صار معصوماً عن شهود فضلٍ لنفسه ، والسلطانُ الذى خصَّه به استولى على قلوبِ مَنْ رآه ، كما قال : « وألقيتُ عليك محبةً منى »(1) فما رآه أحدٌ إلا أحبَّه ، ثم إنه لم يأخذه فى الله ضعفٌ ، مثلما لَطَمَ وجهَ فرعون — وهو رضيع — كما فى القصة ، ولَطَمَ وجهَ مَلَكِ الموت لمَّا طالبه بقبض روحه . . كما فى الخبر ، وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه لمَّا رجع من سماع الخطاب عند المعاتبة ، وأقدم بالجسارة على سؤال الرؤية ، وقتل القبطىَّ لما استعان به مَنْ وافقه فى العقيدة ، وقال لله « إن هى إلا فتنتك »(2) لمَّا أخبره الحق بما عمله قومه من عبادة العجل بحكم الضلالة . . . ففى جميع هذا تجَاوَزَ اللهُ عنه لمَا أعطاه من السلطان والقوة .

قوله جل ذكره : ﴿ فاتَّبَعُوا أمْرَ فرعونَ وما أمرُ فِرعونٍ برشيد * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يوم القيامة فأوردَهم النَّارَ وبئْسَ الوِرْدُ المورود ﴾

---

(1) آية ٣٩ سورة طه .

(2) آية ١٥٥ سورة الأعراف .

رضوا بمتابعة فرعون ، فاستحقوا ما استحقه . لم يشعروا بخطئهم ، وكانوا يحسبون أنهم يُحْسِنون صُنْعاً . وإذا ما أوردهم النارَ فهو إمامُهم ، وسيعلمون ما أصابهم من الخسران حين لا ينفع تضرعُهم وبكاؤُهم ولا ينقطع عذابُهم وعناؤهم ، وتغلب خسارتهم وشقاؤهم — وذلك جزاء مَنْ كَفَرَ بمعبوده ، وأسرف فى مجاوزة حدوده .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأُتْبِعوا فى هذه لعنةً ويومَ القيامةِ
بِئْسَ الرِّفْدُ المرفود ﴾

بَعُدُوا فى عاجلهم من الإيمان ، وفى آجلهم من الغفران والجنان . والذى لهم فى الحال من الفُرْقة أعظمُ — فى التحقيق — من الذى لهم فى المآلِ من الُحرقَة ، وهذه صفةُ مَنْ امتحنه اللهُ باللعنة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك من أنباءِ القُرَى نقصهُّ عليكَ
منها قائمٌ وحصيد ﴾

لم يكن فى جملة مَنْ قصَّ عليه مِنَ الأنبياء — عليهم السلام — مَنْ أكثر منه تبجيلا ، ولا فيمن ذكره من الأمم أعظم من أمته تفضيلاً ، فكما تَقَدَّمَ على الأنبياءِ — عليهم السلام تقدَّمَتْ أمتُه على الأمم ، قال تعالى : « كنتم خير أمةٍ أُخْرِجَتْ للناس »(1)

قوله جل ذكره : ﴿ وما ظلمناهم ولكنْ ظلموا أنفُسَهم
فما أغنَتْ عنهم آلهتُهم التى يَدْعُون
مِنْ دونِ اللهِ مِنْ شئٍ لمَّا جاءَ أمرُ
ربِّك ومازادهم غيرَ تتبيب ﴾

لا يجوز الظلمُ فى وصفه ، فتَصَرُّفُه فى مُلْكِه بحقٍّ إلهيته — مطلقٌ ، يحكم بحسب إرادته ومشيئته ، ولا يتوجه حقٌ عليه ، فكيف يجوز الظلمُ فى وصفه ؟

ويقال هذا الخطاب لو كان من مخلوقٍ مع مخلوق لأشبه العذر ، ولكن فى صفته لا يجوز العذر إذ الخلقُ خلقهُ ، والمُلْكُ مُلْكُه ، والُحكْمُ حُكْمُه .

(1) الآية ١١٠ سورة آل عمران .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك أَخْذُ ربِّك إذا أَخَذَ القُرَى
وهى ظالمةٌ إنَّ أَخْذَهُ أليمٌ شديد ﴾

إنَّ الحقَّ — سبحانه — يمهل ولكن لا يهمل ، ويحكم ولكن لا يعجّل ، وهو لا يُسأل عمَّا يفعل .

وقيل إذا أخذ النفوسَ بالتوفيق فلا سبيل للخذلان إليها ، وإذا أخذ القلوبَ بالتحقيق فلا طريق للحرمان عليها . قال تعالى : « إن بطش ربك لشديد »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ فى ذلك لآيةً لِمَنْ خَافَ عذابَ
الآخرة ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ
وذلك يومٌ مشهود ﴾

مشهودٌ يشهده مَنْ حُشِرَ من جميع الخلائق فى ذلك اليوم .

ويقال الأيام ثلاثة : يومٌ مفقودٌ وهو أمسِ ليس بيدك منه شىء ، ويومٌ مقصود وهو غدٌ لا تدرى أتدركه أم لا ، ويومٌ مشهودٌ وهو اليوم الذى أنت فيه ؛ فالمفقودُ لا يرجع ، والمقصود ربما لا تبلغ ، والمشهود وقتك وهو مُعَرَّضٌ للزوال .. فاستغله فيما ينفع .

قوله جل ذكره : ﴿ وما نُؤَخِّرُه إلا لِأَجَلٍ معدود ﴾

الأَجَلُ لا يتقدَّم ولا يتأخر لكل (...)[2] ، والآجالُ على ما عَلِمها الحقُّ — سبحانه — وأرادها جاريةٌ ؛ فلا طلبٌ يقَدِّمُ أو يؤخر وقتاً إذا جاء أجلُه ، وكذلك للوصول وقت ، فلا طلب مع رجاء الوصول ، ولا طلب مع خوف الزوال ، ولقد قيل :

عيبُ السلامةِ أنَّ صاحبَها متوقِّعٌ لقواصمِ الظَّهرِ
وفضيلةُ البلوى ترقبُ أهلِها عَقِبَ البلاء — مَسَرَّةَ الدهر

قوله جل ذكره : ﴿ يومَ يأتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاَّ بإذنه
فمنهم شَقِىٌّ وسعيد ﴾

---

(١) آية ١٢ سورة البروج .
(٢) مشتبهة .

الشقىُّ من قُسِم له الحرمانُ فى حاله ، والسعيد مَنْ رُزِق الإيمان فى مآله .

ويقال الشقاء على قسمين : قومٌ شقاؤهم غير مؤبد ، وقومٌ شقاؤهم على التأبيد ، وكذلك القول فى السعادة . الشقىُّ مَنْ هو فى أَسْرِ التدبير ونسيان جريان التقدير ، والسعيد مَنْ رَجَع من ظلمات التدبير ، وحصل على وصف شهود التقدير .

ويقال الشقىُّ من كان فى رق العبودية ظانًّا أَنَّ منه طاعاته ، والسعيد مَنْ تحرر عن رقِّ البشرية وعَلِمَ أن الحادثاتِ كلها لله سبحانه .

وأمَّا الأشقياء — على التأبيد — فهم أهل الخلود فى مقتضى الوعيد ، والسعداء — على التأبيد — من قال الله تعالى فى صفتهم : « لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » .

قوله جل ذكره : ﴿ فأمَّا الذين شَقُوا ففى النارِ لهم فيها زفير وشهيق * خالدين فيها مادامت السموات والأرضُ إلا ماشاء ربُّكَ ﴾

« إلا ما شاء ربُّك » أن يزيد على مُدَّةِ السموات والأرضِ .

« إلا ما شاء ربُّك » أن ينقلهم إلى نوعٍ آخر من العذاب غير الزفير والشهيق .

« إلا ما شاء ربُّك » ألا تلحقهم تلك العقوبة قبل أَنْ يُدْخِلَهم النار ؛ فلا استثناء لبعض أوقاتهم من العقوبة لا قَبْلَ إدخالهم فيها ولا بعده .

« إلا ما شاء ربُّكَ » من إخراج أهل التوحيد من النار فيكون شقاؤهم غير مؤبَّد .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ ربَّك فعَّال لِمَا يريد ﴾

فيه إشارة إلى أن الذى يحصل لهم يحصل بمشيئته لا باستحقاق عمل .

قوله جل ذكره : ﴿ وأمَّا الذين سُعِدوا ففى الجنةِ خالدين فيها ما دامت السموات والأرضُ إلا ماشاء ربُّكَ عطاء غير مجذوذ ﴾

لهم اليومَ جنَّاتُ القُربة ، ولهم غداً جنَّاتُ المثوبة .

والكفارُ اليوم فى عقوبة الفُرقة ، وغداً فى عقوبة الحُرْقة .

« فعّالٌ لما يريد » فلا استثناء لبعض أوقات أهل الجنة من أول أمرهم قبل دخولهم الجنة أو بعده . أو يحتمل أنه يزيد على مدة السموات والأرض .

وفى قوله « عطاء غير مجذوذ » — أى عطاء غير مقطوع — دليلٌ على أن تلك النعم غير مقطوعة ولا ممنوعة .

قوله جل ذكره : ﴿ فلاتَكُ فى مِرْيَةٍ مما يَعْبُدُ هؤلاء
ما يعبدون إلا كَمَا يَعْبُدُ آباؤُهم مِنْ
قبلُ وإنّا لَمُوَفُّوهُمْ نصيبَهم غيرَ
منقوص ﴾

لا يريد أنَّه عليه السلام فى شكٍ ، ولكنه أراد به تحقيق كونهم مُضاهين لآبائهم ، كما تقول : لا شكَّ أنَّ هذا نهارٌ .

ويقال الخطابُ له والمرادُ به لأُمَّتِه .

« وإنا لموفوهم نصيبهم » : نجازيهم على الخير بخير وعلى الشر بضُر [1]

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتابَ فاخْتُلِفَ
فيه ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ
لَقُضِىَ بَيْنَهم وإنَّهُم لَفى شَكٍّ
منه مُرِيب ﴾

اختلفوا فى الكتاب الذى أُوتِى ، وهو التوراة .

واختلفوا فى كونه رسولاً ، فمِنْ مُصَدِّقٍ ومِنْ مُكَذِّب .

ثم أخبر أنه — سبحانه — حَكَمَ بتأخير العقوبة ، ولولا حكمته لعجَّل لهم العقوبة .

وفائدةُ الآية من هذا التعريفِ التخفيفُ على المصطفى — صلى الله عليه وسلم — فيما كان

---

(١) لم يقل القشيرى : وعلى الشر بشر ، وإنما استعمل (الضر) تأدباً من ناحية ، ولأنه — حسب مذهبه الكلامى — لا ينسب (الشر) لله ، من ناحية أخرى ، وكما سنرى بعد قليل فى تفسيره للحسنة والسيئة

يلقاه من قومه من التكذيب ، فى سماع قصة الأشكال — وبعضهم من بعض — سلوة ، ولقد قيل :

أجارتنا إنَّا غريبان ها هنا وكلٌّ غريبٍ للغريب نسيب

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أعمالَهُم إنَّه بما يعملون خبير ﴾

أعاد ذكر الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب ، وكرَّر ذلك فى القرآن فى كثيرٍ من المواضع إبلاغاً فى التحذير ، وتنبيهاً على طريق الاعتبار بحسن التفكير .

ثم إن الجزاء على الأعمال معجَّلٌ ومؤجَّل ، وكلُّ مَنْ أعرض عن الغفلة وجَنَحَ إلى وصف التيقظ وَجَدَ فى معاملاته — عاجلاً — الربحَ لا الخسران ، وآجلاً الزيادةَ لا النقصان ، وما يجده المرء فى نفسه أتمُّ مما يدركه بعلمه بشواهد برهانه .

قوله جل ذكره . ﴿ فاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ معك وَلاَ تَطْغَوْا إنَّه بما تعملون بصير ﴾

يحتمل أن تكون السين فى الاستقامة سين الطلب ؛ أى سَلْ من الله الإقامة لكَ على الحقّ .

ويحتمل أن تكون الإقامة فى الأمر بمعنى أقام عليه .

وحقيقة الاستقامة على الطاعة المداومة على القيام بحقِّها من غير إخلالٍ بها ، فلا يكون فى سلوكِ نهج الوِفاقِ انحرافٌ عنه .

ويقال المستقيمُ مَنْ لا ينصرف عن طريقه ، يواصل سيره بسراه ، وورعه بتقواه ، ويتابع فى ترك هواه .

ويقال استقامة النفوس فى نفى الزَّلَّة ، واستقامة القلوب فى نفى الغفلة ، واستقامة الأرواح بنفى العلاقة ، واستقامة الأسرار بنفى الملاحظة(١) .

استقامة العابدين ألا يدخروا نفوسَهم عن العبادة وألا يُخِلُّوا بأدائها ، ويقضون عسيرَها ويسيرَها . واستقامةُ الزاهدين ألا يرجوا من دنياهم قليلها ولا كثيرها . واستقامة التائبين

---

(١) تهمنا هذه العبارة عند تحديد الآفات التى تصيب الملكات الباطنة حسب مذهب القشيرى .

ألا يُلِمُّوا بعقوة زلة فيَدَعُونَ صغيرَها وكبيرَها . . . وعلى هذا النحو استقامة كلِّ أحدٍ .

قوله « ومن تاب معك » : أى فَلْيَستَقِمْ أيضاً مَنْ معك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَرْكنوا إلى الذين ظلموا فتَمَسَّكم النارُ ومالَكُم من دونِ اللهِ مِنْ أولياء ثم لاتُنْصَرون ﴾

لا تعملوا أعمالَهم ، ولا ترضوا بأعمالِهم ، ولا تمدحوهم على أعمالهم ، ولا تتركوا الأمرَ بالمعروف لهم ، ولا تأخذوا شيئاً من حرام أموالهم ، ولا تساكنوهم بقلوبكم ، ولا تخالطوهم ، ولا تعاشروهم . . . كل هذا يحتمله الأمرُ ، ويدخل تحت الخطاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وأَقِمْ الصلاةَ طَرَفَيِ النهارِ وزُلَفاً مِنْ الليلِ إنَّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئاتِ ذلك ذِكرى للذاكرين ﴾

أى اِسْتَغْرِقْ جميعَ الأوقاتِ بالعبادات ، فإنَّ إخلالَكَ لحظةً من الزمان بفَرْضٍ تؤديه ، أو نَفْلٍ تأتيه حَسْرَةٌ عظيمةٌ وخُسرانٌ مبينٌ .

قوله « إن الحسنات يذهبن السيئات » الحسنات ما يجود بها الحق ، والسيئات ما يذنبها العبد ، فإذا دخلت حسناتُه على قبائح العبد مَحَتْها وأَبْطَلَتْها .

ويقال حسناتُ القُربة تَذْهَبُ بسيئات الزَّلَّة .

ويقال حسناتُ الندم تَذْهَبُ بسيئات الجُرْم .

ويقال (انسكاب)[1] العَبْرَة تُذْهِبُ العَثْرَة[2] .

ويقال حسناتُ العرفان تُذْهِبُ سيئاتِ العصيان .

ويقال حسنات الاستغفار تُذْهِبُ سيئات الإصرار .

ويقال حسناتُ العناية تذهب سيئات الجناية .

ويقال حسنات العفو عن الإخوان تذْهِبُ الحقدَ عليهم .

ويقال حسنات الكَرَمِ تُذْهِبُ سيئاتِ الخدَم .

---

(١) هكذا مصوبة في الهامش وهى أصوب مما جاء فى المتن (ارتكاب) .

(٢) وردت (العسرة) بالسين والأصوب (العثرة) لأنها تنسجم مع السياق .

ويقال حسنُ الظنِّ بالناس يُذْهِبُ سوءَتهم بكم[1] .

ويقال حسنات الفضل من الله تُذْهِبُ سيئاتِ حسبان الطاعة من أنفسكم .

ويقال حسناتُ الصدق تَذْهَبُ بسيئاتِ الإعجاب .

ويقال حسناتُ الإخلاص تَذْهَبُ بسيئاتِ الرياء .

قوله جل ذكره : ﴿ واصْبِرْ فإنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجْرَ المحسنين ﴾

الصبر تجرُّعُ كاساتِ التقدير من غير تعبيس .

ويقال الصبرُ حُسْنُ الإقبال على معانقة الأمر ومفارقة الزجر .

« فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » المحسنُ : العاملُ الذى يعلم أَنَّ الأجرَ على الصبر والطاعة بفضله — سبحانه — لا باستحقاق عملٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ فلولا كان من القرونِ مِنْ قَبْلِكم أُولو بقيةٍ يَنْهَوْن عن الفسادِ فى الأرضِ إلا قليلاً مِمَّنْ أنجينا منهم واتَّبع الذين ظلموا ما أُتْرِفوا فيه وكانوا مجرمين ﴾

معناه لم يكن فيكم مِنْ هؤلاء الذين كانوا ينهون عن القبائح إلا قليل . .

وقيل معناه لم يكن فيمن قبلكم من الأمم مَنْ يَنْهى عن الفساد ، ويحفظ الدِّين، ويطيعون أنبياءهم — إلا قليل .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان ربُّك لِيُهْلِكَ القرى بظلمٍ وأهلُها مُصْلِحون ﴾

أى لم يُهلِكْ اللهُ أحداً كان مصلحاً وإنما أهلك مَنْ كان ظالماً .

---

(١) ربما يقصد القشيرى من هذه العبارة الحث على الصفح عن عثرات الناس .

ويقال معناه : لو أهلك الله أهلَ القرى وهم مصلحون لم يكن ذلك ظلماً من الله، لأن المُلْكَ مُلْكه ، والخلْقَ عبيدُه .

ويقال « المصلح » مَنْ قام بحقِّ ربه دون طلب حظِّه .

ويقال : « المصلح » من آثر نجاته على هلاكه .

ويقال مصلحٌ تُصْلِحُ نَفْسَهَ طاعتُه ، ومصلحٌ تصلِحُ قلبَه معرفةُ سَيِّدِه ، ومصلح تُصْلِحُ سِرَّه مشاهدةُ سيِّدِه .

قوله جل ذكره ﴿ ولو شاء ربُّكَ لجعلَ الناسَ أمةً واحدةً ولا يزالون مُخْتَلِفِين ﴾

لو شاء لَجَعلهم أربابَ الوفاق ثم لايوجبون لمُلْكِه زَيْناً ، ولوشاء لجعلهم أرباب الخلافِ ثم لا يوجِبُون لمُلْكِه شَيْنا .

ثم قال : « ولا يزالون مختلفين » لأنه كذلك أراد بهم .

« إلا مَنْ رَحِمَ ربُّكَ » فى سابق حكمه فعصمهم عن الخلاف فى حاصل أمورهم ، وأقامهم به ، ونصبهم له ، وأثبتهم فى الوفاق والمحبة والتوحيد .

قوله جل ذكره ﴿ وتَمَّتْ كَلِمَةُ ربِّك لَأَمْلَأَنَّ جهنَّم من الجنَّةِ والناسِ أجمعين ﴾

أى لا تبديلَ لقوله ، ولا تحويلَ لحكْمه .

قوله جل ذكره : ﴿ وكُلًّا نَقُصُّ عليك من أنباءِ الرُّسلِ ما نُثَبِّتُ به فؤادك ﴾

سكَّنَ قلبه بما قصَّ عليه من أنباء المرسلين ، وعرَّفه أنه لم يُرَقِّ أحداً إلى المحلِّ الذى رقّاه إليه ، ولم يُنْعِمْ على أحد بمثل ما أنعم عليه .

ويقال قَصَّ عليه قِصَصَ الجميع ، ولم يذكرْ قصتَه لأحد تعريفاً له وتخصيصاً . ويقال لم يكن ثباتُ قلبه بما قصَّ عليه ولكن لاستقلال قلبه بِمَنْ كان يقص عليه ، وفَرْقٌ بين من يعقل بما يسمع وبين مَنْ يستقل بِمَنْ منه يسمع ، وأنشدوا :

وَحَدَّثْتَنِي يا سَعْدُ عنها فَزِدْتَنِي حَنِينًا فَزِدْنِي مِنْ حديثِكَ يا سعدُ

قوله جل ذكره: ﴿وقُلْ للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتِكم إنَّا عاملون * وانْتَظِروا إنَّا مُنْتَظِرُون﴾

إن الذين يجحدون التوحيد، ويؤثرون على الحقِّ غيرَ الحق، ولم يُصَدِّقوا الوعيد، يوشِكُ أنْ يَنْصَبَّ عليهم الانتقامُ فيغرقون فى بحار العقوبة، ويسقطون فى وهاد الهوان، فلا لويلهم انتهاء، ولا لِذُلِّهم انقضاء.

قوله جل ذكره: ﴿ولله غيبُ السمواتِ والأرضِ وإليه يُرْجَعُ الأمرُ كُلُّه فاعْبُدْه وتوكَّلْ عليه وما ربكَ بغافلٍ عما تعملون﴾

عمَّى عن قلوبهم العواقبَ، وأخفى دونهم السوابق، وألزمهم القيامَ بما كَلَّفهم فى الحال، فقال: «فاعبده» فإنْ تقسَّمَ القلبُ وتَرَجَّمَ الظَّنُّ وخيف سوء العاقبة.. فتوكَّلْ عليه أى اسْتَدْفِعْ البلاء عنك بِحُسْنِ الظَّنِّ، وجميل الأمل، ودوام الرجاء.

«وما ربك بغافل عما تعملون»: أحاط بكل شىءٍ عِلْماً، وأمضى فى كل أمرٍ حُكْماً.

السورة التى يذكر فيها يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسم[1] مِنْ وَسَمَ؛ فَمَنْ وَسَمَ ظاهرَه بالعبودية، وسرائرَه بمشاهدة الربوبية فَقَدْ سَمَتْ هِمَّتُه إلى المراتب العَلِيَّة، وأُزْلِفَتْ رتبَتُه من المنازل السنِيَّة.

أو أن الاسم مشتق من السِّمة أو من السموِّ.

(١) ربما كان القشيرى فى شرحه لمعنى (الاسم) متأثراً بالجو العام للسورة، وما حدث لكل من يوسف وإخوته من أحداث.

وقدَّم الله — سبحانه — اسمَ اللهِ فى هذا المحل على اسميه الرحمن والرحيم على وجه البيان والحكم ، فبرحمته الدنيوية وصل العبد إلى معرفته الإلهية .

والإشارة من الباء — التى هى حرف التضمين والالصاق — إلى أنَّ « به » عَرَفَ مَنْ عَرَفَ ، و « به » وقف مَنْ وقف ؛ فالواصل إليه محمولٌ بإحسانه ، والواقف دونه مربوط بخذلانه .

قوله جل ذكره : ﴿ الٓر تلك آياتُ الكتاب المبين ﴾

التخاطبُ بالحروف المتفرقة غير المنظومة سُنَّةُ الأحباب فى سَتْرِ المحابِّ ؛ فالقرآنُ — وإنْ كان المقصودُ منه الإيضاحَ والبيانَ — ففيه تلويح وتصريح ، ومفَصَّلٌ ومُجْمَلٌ ، قال قائلهم :

أبكى إلى الشرق إنْ كانت منازِلُكم مما يلى الغربَ خوفَ القيل والقالِ

ويقال وقفت فهُومُ الخَلْق عن الوقوف على أسراره فيما خاطب به حبيبه — صلى الله عليه وسلم ، فهم تعبدوا به وآمنوا به على الجملة ولكنه أفرد الحبيبَ بفهمه ، فهو سِرُّ الحبيب عليه السلام بحيث لا يطلع عليه الرقيب ، يقول قائلهم :

بين المحبين سِرٌّ ليس يُفْشيه قولٌ ، ولا قلم للخَلْق يحكيه

وفى إنزال هذه الحروف المقطعة إشارة : وهى أَنَّ مَنْ كان بالعقل والصحو استنبط من اللفظ اليسير كثيراً من المعانى ، ومن كان بالغيبة والمحو يسمع الكثير فلا يفهم منه اليسير ؛ ذاك لكمال عقله وهذا لتمام وَصْلِه ؛ فأنزل اللهُ هذه الحروف التى لا سبيلَ إلى الوقوف على معانيها، ليكون للأحباب فُرْجَةٌ حينما لا يقفون على معانيها بِعَدَم السبيل إليها فلا تتوجه عليهم مُطَالَبةٌ بالفهم ، وكان ذلك لائقاً بأحوالهم إذا كانوا مستغرِقين فى عين الجَمْع ، ولذا قيل : استراح من العقل له[1] .

وقوله تعالى : « تلك » يحتمل أن يكون إشارة إلى أن هذا خَبَرُ الوعد الذى وعدناك .

---

(١) هكذا فى (ص) ونرجح أنها (استراح من لا عقل له) والعقل هنا معناه الوعى .

وقيل هذا تعريفنا : إليك بالتخصيص ، وإفرادُنا لك بالتقريب — قد حققْناه لكَ ؛ فهذه الحروف بيانٌ للإنجاز ولتحقيق الموعود .

والإشارة من « الكتاب المبين » ها هنا إلى حُكْمِه السابق له بأنْ يُرَقِّيَه إلى الرتبة التى لا يبلغها غيرُه ، وقد قال تعالى : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا . . »[1] أى حين كلَّمنا موسى عليه السلام ، وأخبرناه بعلوِّ قَدْرِك ، ولم تكن حاضراً ، وأخبرناه بأننا نُبَلِّغُك هذا المقامَ الذى أنت فيه الآن . وكذلك كلُّ مَنْ أوحينا إليه ذَكَرْنا له قِصتَكَ ، وشَرَحْنا له خِلقَتَك ، فالآنَ وقتُ تحقيق ما أخبرنا به ، وفى معناه أنشدوا :

سُقْياً لمعهدِكَ الذى لو لم يكن ما كان قلبي للصبابةِ معهدا

قال الله تعالى : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر » يعنى بعد التوراة « أن الأرضَ يرثها عبادى الصالحون »[2] يعنى أمة محمد .

قوله جل ذكره : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقِلون ﴾ .

فى إنزال الكتاب عليه ، وإرسالِ الرسول[3] إليه — تحقيقٌ لأحكام المحبة ، وتأكيدٌ لأسباب الوصلة ؛ فإنَّ مَنْ عَدِمَ حقيقة الوصول استأنس بالرسول ، ومَنْ بَقِيَ عن شهود الأحباب تَسَلَّى بوجود الكتاب ، قال قائلهم :

وكُتْبُكَ حَوْلى لا تُفارِقُ مضجعى ففيها شفاء للذى أنا كاتِمُ

قوله جل ذكره : ﴿ نحن نقصُّ عليك أَحْسَنَ القَصَص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾

« أحسن القصص » : لخلوِّه عن الأمر والنهى الذى سماعه يوجب اشتغال القلبَ بما هو يعرِّض لوقوع التقصير .

« أحسن القصص » : ففيه ذكر الأحباب .

---

(1) آية ٤٦ سورة القصص . (2) آية ١٠٥ سورة الأنبياء .

(3) (الرسول) هنا مقصود به القرآن الكريم أو جبريل — كما هو واضح من السياق .

« أحسن القصص » : لأن فيه عفوَ يوسف عن جنايات إخوته .

« أحسن القصص » : لما فيه من ذِكْرِ تَرْكِ يوسفَ لامرأة العزيز وإعراضه عنها عندما راودته عن نفسه .

« أحسن القصص » : بالإضافة إلى ماسألوه أن يقص عليهم من أحوال الناس .

« أحسن القصص » : لأنه غير مخلوق(1) .

ويقال لمَّا أخبره الله — سبحانه — أن هذه القصةَ أحسنُ القصص وجد رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — لنفسه مزايا وزوائد لتخصيصه ؛ فَعَلِمَ أن الله تعالى لم يُرَقِّ أحداً إلى مثل مارقَّاه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ﴾

أى الذاهبين عن فهم هذه القصة . أى ما كنتَ إلا من جملة الغافلين عنها قبل أن أوحينا إليك بها ، أى إنك لم تَصِلْ إلى معرفتها بكدِّك وجهدك ، ولا بطلبك وجِدِّك . . . بل هذه مواهبُ لا مكاسب ؛ فبعطائنا وَجدْتَها لا بعنائك ، وبتفضُّلِنا لا بتعلُّمِكَ ، وبتلطُّفنا لا بتكلُّفك ، وبنا لا بك .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ قال يوسفُ لأبيه يا أبتِ إنى رأيتُ أحدَ عشَرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لى ساجدين ﴾

لما ذكر يوسف — عليه السلام — رؤياه لأبيه عَلِمَ يعقوبُ — عليه السلام صِدْقَ تعبيرها ، ولذلك كان دائم التذكُّر ليوسف مدةَ غيبته ، وحين تطاولتْ كان يَذْكُرُه حتى قالوا : « تالله تفتأ تذكر يوسف » فقال : « إنى أعلم من الله مالا تعلمون » فهو كان على ثقةٍ من صِدْقِ رؤياه

فإنْ قيل : فإذا كان الصبيُّ لا حُكْمَ لفِعْله فكيف يكون حكم لرؤياه ؟ وما الفرق ؟

---

(1) القرآن غير مخلوق . . هذا أصل من الأصول الكلامية الهامة عند الأشاعرة — ومنهم القشيرى .

فيقال : إن الفعل بِتَعَمُّدٍ يحصل فيكون مُعَرَّضاً لتقصير فاعله ، أمَّا الرؤيا فلا تكون بتعمد منه فتنسب إلى نقصان .

ويقال إنَّ حقَّ السِّرِّ الكتمانُ ولو كان على مَنْ هو قريب منك ؛ فإن يوسف لما أظهر سِرَّ رؤياه على أبيه اتصل به البلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤياكَ على إخوتِكَ فَيَكِيدوا لكَ كَيْداً إنَّ الشَّيْطانَ للإنسانِ عدوٌّ مُبِينٌ ﴾

إذا جاء القضاء لا ينفع الوعظ والحذر ؛ فإن النصيحة والحذر لا يزيدان على ما نصح يعقوب ليوسف عليهما السلام ، ولكن لمَّا سبق التقديرُ فى أمر يوسف ـ عليه السلام ـ حصل ما حصل .

ويقال إن يوسفَ خالَفَ وصيةَ أبيه فى إظهار رؤياه إذ لو لم يُظْهِرْها لما كادوا له ، فلا جَرَمَ بسبب مخالفته لأبيه — وإن كان صبيا صغيرا — لم يَعْرَ مِنَ البلايا .

ويقال لما رأى يوسف فى منامه ما كان تأويلُه سجودَ الإخوة له رأى ما تعبيره : وسجود أبيه وخالته حيث قال تعالى : « والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » ؛ فدخل الإخوة الحسَدَ(1) أما الأب فلم يدخله إلا بنفسه لِفَرْطِ شفقة الأبوة .

ويقال صَدَقَ تعبيره فى الإخوة فسجدوا له حيث قال : « وخرُّوا له سُجَّداً » ولم يسجد الأبُ ولا خالته حيث قال : « ورفع أبويه على العرش » فإن يوسفَ صانَهما عن ذلك مراعاةً لحشمة الأبوة .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك يَجْتَبِيكَ ربُّكَ ويُعَلِّمكَ مِنْ تأويلِ الأحاديث ﴾

أى كما أكرمك بهذه الرؤيا التى أراكها يجتبيك ويُحْسِنُ إليك بتحقيق هذه الرؤيا ، وكما أكرمك بوعد النعمة أكرمك بتحقيقها .

ويقال الاجتباء ما ليس للمخلوق فيه أثر ، فما يحصل للعبد من الخيرات — لا بتكلفه ولا بتعمده — فهو قضية الاجتباء .

---

(1) وردت (الحد) والصواب أن تكون الحسد (انظر توضيح ذلك بعد قليل صفحة ١٧٠) ودخول الأب كان بنفسه ولم يكن بقلبه ، وكان سببه شدة الإشفاق على ولده .

ويقال من الاجتباء المذكور أنْ عَصَمَهُ عن ارتكاب ما راودته امرأة العزيز عن نفسه .

ويقال من قضية الاجتباء إسباله الستر على فعل إخوته حيث قال : « وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن» ،ولم يذكر خَلاصَهُ من البئر . ومن قضية الاجتباء توفيقه لسرعة العفو عن إخوته حيث قال : « لا تثريب عليكم اليوم »

قوله جل ذكره : ﴿ ويُعَلِّمُكَ مِنْ تأويل الأحاديث ﴾

أى لتعرفَ قَدْرَ كلِّ أحد ، وتقفَ على مقدار كُلِّ قائلٍ بما تسمع من حديثه . . لا مِنْ قوله بل لِحدَّةِ كياستك وفَرْطِ فراستك .

قوله جل ذكره : ﴿ ويُتِمَّ نِعْمَتَهُ عليك وعلى آل يعقوبَ كَمَا أَتَمَّهَا على أبويكَ مِنْ قَبْلُ ابراهيم وإسحاق إنَّ ربَّك عليمٌ حكيم ﴾

مِنْ إتمامِ النعمة توفيقُ الشكرِ على النِّعمة ، ومن إتمام النعمة صَوْنُها عن السَّلبِ والتغيير ، ومن إتمام النعمة التَّحرزُ [1] منها حتى تَسْهُلَ عليكَ السماحةُ بها .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ كانَ فى يوسُفَ وإخوته آياتٌ للسائلين ﴾

يعنى لكلِّ ذى مِحنة حتى يعلم كيف يصبر ، ولكلِّ ذى نعمة حتى يعلم كيف يشكر .

ويقال فى قصتهم كيفيةُ العفو عن الزَّلَّة ، وكيفيةُ الخَجْلةِ لأهل الجفاءِ عند اللقاء .

ويقال فى قصتهم دلالاتُ لطفِ الله سبحانه بأوليائه بالعصمة ، وآياتٌ على أنَّ المحبة (. . .)[2] من المحنة .

ويقال فيها آياتٌ على أنَّ من صَدَقَ فى رجائه يُخْتَصُّ — يوماً — ببلائه .

---

(١) (التحرز) من النعمة التوقى منها ، وإذا افترضنا أنها قد تكون (التحرر) بالراء فمعناها ألا يكون العبد أسيراً للنعمة حتى يسهل عليه أن يجود بها ... وكلاهما صحيح مقبول فى السياق .

(٢) مشتبهة

قوله جل ذكره : ﴿ إذْ قالوا لَيُوسُفُ وأخوه أحبُّ إلى أبينا منَّا ونحن عُصْبَةٌ إنَّ أبانا لفى ضلالٍ مبين ﴾

عُرِّفُوا على ما سَتَرُوه من الحَسَدِ ،ولم يحتالوا فى إخراج ذلك من قلوبهم بالوقيعة فى أبيهم حتى قالوا : « إنَّ أبانا لفى ضلالٍ مبين » .

ويقال لمَّا اعترضوا بقلوبهم على أبيهم فى تقديم يوسف فى المحبة عاقبهم بأن أمهلهم (١) حتى بسطوا فى أبيهم لسانَ الوقيعة فوصفوه بلفظ الضلال ، وإن كان المرادُ منه الذهابَ فى حديث يوسف عليه السلام . ولمّا حسدوا يوسف على تقديم أبيهم له لم يَرْضَ — سبحانه — حتى أقامَهم بين يدى يوسف عليه السلام ، وخرُّوا له سُجَّداً ليعْلَموا أنَّ الحسودَ لا يسود .

ويقال أطولُ الناسِ حُزْنا مَنْ لاقَى الناسَ عن مرارةٍ ، وأراد تأخيرَ مَنْ قَدَّمه اللهُ أو تقديمَ مَنْ أخَّرَه اللهُ ؛ فإخوةُ يوسف — عليه السلام — أرادوا أن يجعلوه فى أسفل الُجبِّ فرفعه الله فوقَ السرير !

قوله جل ذكره : ﴿ اقتلوا يوسفَ أو اطرحوه أرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أبيكم ﴾

أى يَخْلُصْ لكم إقبالُ أبيكم عليكم ، وقديماً قيل : مَنْ طَلَبَ الكُلَّ فَاتَه الكلُّ ؛ فلمَّا أرادوا أن يكون إقبالُ يعقوب — عليه السلام — بالكلِّيَّةِ — عليهم قال تعالى : « فتولى عنهم » .

ويقال كان قَصْدُهم ألا يكونَ يوسفُ أمامَ عينيه فقالوا : إمَّا القتلُ وإمَّا النَّفْىُ ، ولا بأسَ بما يكونُ بعد ألا يكونَ يوسف عليه السلام .

قوله جل ذكره : ﴿ وتكونوا مِنْ بَعْدِه قوماً صالحين ﴾

عَجَّلوا بالحرام ، وعَلَّقُوا التوبةَ بالتسويف والعزم ، فلم يمحُ ما أجَّلوا من التوبة ما عجَّلوا من الحَوْبَة .

(١) وردت (أهملهم) وهى خطأ في النسخ لأن الله لا يهمل ولكن يمهل ، والسياق يقتضى (الإمهال) .

ويقال لم تَطِبْ نفوسُهم بأن يذهبوا عن بابِ الله بالكليَّة فدبَّروا لحُسْنِ الرجوع قبل ارتكاب مادعته إليه نُفُوسُهم ، وهذه صفة أهل العرفان بالله[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسفَ وألقُوه فى غيابة الُجبِّ يلتقطْه بعضُ السَّيَّارة إنْ كنتم فاعلين ﴾ .

إخوةُ يوسف — وإنْ قابلوه بالجفاء — منَعَتْهم شفقةُ النَّسَبِ وحُرْمةُ القرابةِ من الإقدام على قتله ؛ فقالوا لا تقتلوه وغَيِّبُوا شَخْصَه .

ويقال إنما حَمَلَهم على إلقائه مرادُهم أن يخلوَ لهم وجهُ أبيهم ، فلمَّا أرادوا حصولَ مرادهم فى تغييبه لم يبالغوا فى تعذيبه .

ويقال لمَّا كان المعلومُ له — سبحانه — فى أمر يوسف تبليغَه إياه تلك القربة ألقى اللهُ فى قلبِ قائلهم حتى قال : « لا تقتلوا يوسف » .

ثم إنه — وإن أبلاه فى الحال — سَهَّلَ عليه ذلك فى جَنْبِ ما رقَّاه إليه فى المآل[2] ، قال قائلهم :

كم مرةٍ حَفَّت بِكَ المكارِه خَارَ لَكَ اللهُ — وأنت كاره

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يا أبانا مالَكَ لا تأْمَنَّا على يوسف وإنَّا له لناصحون ﴾ .

كلامُ الحسودِ لا يُسمَع ، ووعدُه لا يُقْبل — وإنْ كانا فى معرِضِ النُّصحِ ؛ فإنَّه يُطْعِمُ الشَّهْدَ ويَسْقِى الصَّابَ .

ويقال العَجَبُ من قبول يعقوب — عليه السلام — ما أبدى بنوه له من حفظ يوسف عليه السلام وقد تفرَّسَ فيهم قلبه فقال ليوسف : « ويكيدوا لك كيداً » ولكن إذا جاء القضاء فالبصيرةُ تصير مسدودةً .

---

(١) واضح من هذا ومما جاء فى السياق أن القشيرى — بتسامحه الصوفى الأصيل — ينظر إلى إخوة يوسف نظرة خالية من التحامل عليهم .

(٢) كأنما ينصح القشيرى أصحاب الإرادة : إن لقيتم اليوم فى الله شدةً ، فلكم غداً مثوبة . وكأنما يوضح لأهل الجدل : إن مقاييس الشر والخير الإنسانية خاطئة قاصرة .

ويقال من قَبِلَ على محبوبه حديثَ أعدائه لَقِيَ ما لَقِيَ يعقوبُ فى يوسف — عليهما السلامُ — من بلائه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَرْسِلْهُ معنا غداً يرْتَعْ ويلعبْ وإنا له لحافظون ﴾ .

يقال أطمعوا يعقوبَ عليه السلام فى تمكينهم من يوسف بما فيه راحةُ نَفْسٍ فى اللعب ، فطابَتْ نَفْسُ يعقوب لإذهابهم إياه من بين يديه — وإنْ كان يشُقُّ عليه فراقُه ، ولكنَّ المحبَّ يؤثِرُ راحةَ محبوبه على محبةِ نَفْسِه .

ويقال لما رَكَنَ إلى قولهم : « وإنا له لحافظون » — أى مِنْ قِبَلِهم[1] — حتى قالوا : « وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » ؛ فَمَنْ أسلم حبيبَه إلى أعدائه غُصَّ بتحسِّى بلائه .

قوله جل ذكره : ﴿ قال إنِّى ليَحْزُنُنِي أنْ تذهبوا به وأخاف أنْ يأكلَه الذئبُ وأنتم عنه غافلون ﴾ .

يَحْزُنُنى أن تذهبوا به لأنى لا أصْبر عن رؤيته ، ولا أطيق على فُرقتِه . . . هذا إذا كان الحالُ سلامته . . فكيف ومع هذا أخاف أن يأكله الذئب ؟!

ويقال لما خاف عليه من الذئب امتُحِنَ بحديث الذئب ، ففى الخبر ما معناه : إنما يُسَلطُ على ابن آدم ما يخافه . وكان من حقه أن يقول أخافُ اللهَ لا الذئب ، وإنْ كانت مَحَالُّ الأنبياءِ عليهم السلام — محروسةً من الاعتراض عليها .

ويقال لمَّا جرى على لسان يعقوب — عليه السلام — من حديث الذئب صار كالتلقين لهم ، ولو لم يسمعوه ما اهْتَدَوْا إلى الذئب[2] .

---

(١) يرجع القشيرى ما أصاب يعقوب من بلاء إلى ركونه إلى حفظ يوسف من قبل الخلق ؛ وأنه اطمأن لدعواهم مع أن الحفظ لا يكون إلا بالله .

(٢) تفيد هذه النقطه فى إثبات كرامة الأولياء ، وما يجرى على ألسنتهم من تنبؤ بما قد يحدث فى المستأنف على وجه الإجمال .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا لَئِنْ أكله الذئبُ ونحن عُصْبةٌ إنَّا إذاً لخاسِرون ﴾ .

لَحِقَ إخوة يوسف عليه السلام ما وصفوا به أنفسهم من الخسران حيث قالوا : « إنَّا إذاً لخاسرون » : لأنَّ مَنْ باع أخاً مثل يوسف بمثل ذلك الثمن حقيقٌ بأن يقال قد خسرت صفقتُه .

ويقال لمَّا عدُّوا القوة فى أنفسهم حين قالوا : « ونحن عصبة » خُذِلُوا حتى فعلوا[1] .

ويقال لمَّا ركَنَ يعقوبُ — عليه السلام — إلى قولهم : « ونحن عصبة » لَقِىَ ما لَقِىَ .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غَيابَةِ الجُبِّ وأوحينا إليه لَتُنَبِّئَنَّهم بأمرِهم هذا وهم لا يَشْعرون ﴾ .

الجوابُ فيه مُقدَّر ؛ ومعناه فلما ذهبوا بيوسف وعزموا على أن يلقوه فى البئر فعلوا ما عزموا عليه . أو فلمَّا ذهبوا به وألقوه فى غيابة الجُبِّ أوحينا إليه ؛ فتكون الواو صلة .

والإشارة فيه أنه لمَّا حَلَّتْ به البلوى عجَّلنا له التعريفَ بما ذكرنا من البُشْرَى ؛ ليكون محمولاً بالتعريف فيما هو متحمِّلٌ له من البلاء العنيف .

ويقال حين انقطعت على يوسف عليه السلام مراعاةُ أبيه حَصَلَ له الوحىُ من قِبَل مولاه ، وكذا سُنَّتُه تعالى أنه لا يفتح على نفوس أوليائه باباً من البلاءِ إلا فَتَحَ على قلوبهم أبوابَ الصفاء ، وفنون لطائف الولاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاءوا أباهم عشاء يبكون ﴾ .

تمكينُ الكذَّابِ من البكاءِ سِمَةُ خذلان الله تعالى إياه ، وفى الخبر : إذا كَمُلَ نفاقُ المرء مَلَكَ عَيْنَه حتى يبكى ما شاء .

ويقال : لا يَبْعُدُ أنْ يقال إنهم وإنْ جَنَوْا على يوسف عليه السلام فقد ندموا على ما فعلوا ، فَعَلاهُمْ البكاء لندمهم — وإن لم يُظْهِروا لأبيهم — وتَقَوَّلُوا على الذِّئبِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاءوا على قميصه بِدَمٍ كذِبٍ ﴾ .

---

(١) فقد كانت من دعاوى النفس .

لم يُؤثِّرْ تزويرُ قالَبِهم فى إيجاب تصديق يعقوب — عليه السلام لـكذبهم بل أخبره قلبُه أنَّ الأمرَ بخلاف ما يقولونه فقال :

﴿ بل سَوَّلَتْ لـكم أَنْفُسُكم أمراً
فصبرٌ جميلٌ والله المُسْتَعانُ على
ما تَصِفُون ﴾ .

فَعَلِم على الجملة وإنْ لم يعلمْ على التفصيل .. وهكذا تقرع قلوبَ الصديقين عواقبُ الأمور على وجه الإجمال ، إلى أنْ تَتَّضحَ لهم تفاصيلُها فى المستأنف .

ويقال عوقبوا على ما فعلوه بأن أُغفلوا عن تمزيق قميصه حتى عَلِم يعقوب تَقَوُّلَهم فيما وصفوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاءَتْ سَيَّارةٌ فأرسلوا واردهم فأدلى
دلْوَه قال يا بُشرى هذا غلامٌ وأسَرُّوه
بضاعة والله عليم بما يعملون ﴾ .

ليس كلُّ من طلب شيئاً يُعطى مرادَه فقط بل ربما يُعْطَى فوق مأموله ؛ كالسيارة كانوا يقنعون بوجود الماء فوجدوا يوسفَ عليه السلام .

ويقال ليس كل مَنْ وَجدَ شيئاً كان كما وجده السيارة ؛ توهموا أنهم وجدوا عبداً مملوكاً وكان يوسف — فى الحقيقة — حُرّاً(١) .

ويقال لمَّا أراد الله تعالى خلاصَ يوسف — عليه السلام — من الجُبِّ أزعج خواطر السَّيارة فى قصد السفر ، وأعدمهم الماء حتى احتاجوا إلى الاستقاء لِيَصِلَ يوسف عليه السلام إلى الخلاص ، ولهذا قيل : ألا رُبَّ تشويشٍ يقع فى العالَم والمقصودُ منه سكونُ واحدٍ . كما قيل : رُبَّ ساعٍ له قاعد .

قوله جل ذكره ﴿ وشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دراهِمَ معدودةٍ
وكانوا فيه من الزَّاهدين ﴾

لم يعرفوا خسرانهم فى الحال ولـكنهم وقفوا عليه فى المآل .

---

(١) أى ربما تـكون حقيقة النعمة أعظم من ظاهرها .

ويقال قد يُبَاعُ مثل يوسف عليه السلام بثمن بخس ، ولـكن إذا وقعت الحاجةُ إليه فعند ذلك يعلم ما يلحق من الغَبْن .

ويقال لم يحتشموا من يوسف — عليه السلام — يوم باعوه بثمنٍ بَخْسٍ ، ولـكن لمَّـا قال لهم : أنا يوسف — وقع عليهم الخجل ، ولهذا قيل : كفى للمقصر الحيـاء يوم اللقاء .

ويقال لمَّـا خَرُّوا له سُجَّدًا علموا أنَّ ذلك جزاءُ مَنْ باع أخاه بثمنٍ بخسٍ .

ويقال لمَّـا وصل الناسُ إلى رفق يوسف عاشوا فى نعمته ، واحتاجوا إلى أن يقفوا بين يديه فى مقام الذُّلِّ قائلين « مَسَّناَ وأَهْلَنا الضُّرُّ » ، وفى معناه أنشدوا :

ستسمع بى وتذكرنى وتطلبنى فلا تجـد

ويقال ليس العَجَبُ ممن يبيع مثلَ يوسف — عليه السلام — بثمنٍ بَخْسٍ إنما العَجَبُ ممن (. . . .)[1] مثل يوسف — عليه السلام — بثمن بخس ، لا سـيَّما « وكانوا فيه من الزاهدين » (الخرق لا غاية له ، وكذا العجب لا نباته له)[2] .

ويقال ليس العجب ممن يبيع يوسف — عليه السـلام — بثمنٍ بخسٍ ، إنما العجب ممن يبيع وقته الذى أعزُّ من الـكبريت الأحمر بعَرَضٍ حقيرٍ من أعراض الدنيا .

ويقال إنَّ السيارة لم يعرفوا قيمته فزهدوا فى شرائه بدراهم ، والذين وقفوا على جماله وشىءٍ من أحواله غالوا — بمصر — فى ثمنه حتى اشتروه بزنته دراهم ودنانير مراتٍ — كما فى القصة[3] ، وفى معناه أنشدوا :

إنْ كنتُ عندكَ يا مولاى مُطَّرَحاً فعند غيرِك محمولٌ على الحَدَقِ[4]

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذى اشـتراه مِنْ مِصْرَ

(١) هنا كلمة فى الـكتابة هكذا (بحل) ولا ندرى كيف نصرفها إلى إتجاه يخدم المعنى .
(٢) ما بين القوسين ورد هـكذا فى (ص) وفيه التباس ناشىء عن سوء النسخ .
(٣) يقال إن العزيز إشتراه بزنته ورقاً وحريراً ومسكاً .
(تفسير النسفى جـ ٢ ص ٢١٦ ط عيسى الحلبى)
(٤) الحدق جمع حدقة وهى السواد المستدير وسط للعين .

لامرأته أكرمى مثواه عسى أنْ
ينفعَنا أو نتخذَه وَلدًا ﴾

لمَّا نودى على يوسف فى مصر بالبيع لم يَرْضَ الحقُّ — سبحانه — حتى أصابتهم الضرورةُ ومَسَّتْهمُ الفاقةُ حتى باعوا من يوسف — عليه السلام — جميعَ أملاكهم ، ثم باعوا كلُّهم منه أنْفُسَهم — كما فى القصة — وفى آخر أمرهم طلبوا الطعام ، فصاروا بأجمعهم عبيدَه ، ثم إنه عليه السلام لما مَلَكَهم مَنَّ عليهم فأعتقهم[1] ؛ فَلَئِنْ مَرَّ عليه بمصرَ يومٌ نودى فيه عليه بالبيع ؛ فقد أصبح بمصر يوماً آخر وقد مَلَكَ جميعَ أملاكهم ، ومَلَكَ رقابَ جميعهم ؛ فيومٌ بيومٍ ، قال تعالى : « فإنّ مع العسر يسراً » يومان شَتَّان بينهما !

ثم إنه أعتقهم جميعاً ... وكذا الكريمُ إذا قدر غفر .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك مَكَّنَّا ليوسفَ فى
الأرض ، ولِنُعَلِّمَه من تأويل
الأحاديث ﴾

أراد مَنْ حَسَدَه ألَّا تكونَ له فضيلةٌ على إخوته وذويه ، وأراد اللهُ أن يكونَ له مُلْكُ الأرضِ ، وكان ما أراد اللهُ لا ما أراد أعداؤه .

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ غالبٌ على أمرِه ﴾

أرادوا أن يكونَ يوسفُ عليه السلام فى الجُبِّ ، وأراد اللهُ — سبحانه — أن يكون يوسف على سرير المُلْكِ ؛ فكان ما أراد الله ، والله غالبٌ على أمره .

---

(١) فى القصة « وباع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام بالدرام والدنانير فى السنة الأولى حتى لم يبق معهم شىء منها ثم بالحلى والجواهر فى الثانية ثم بالدواب فى الثالثة ثم بالعبيد والإماء فى الرابعة ثم بالدور والعقار فى الخامسة ثم باولادهم فى السادسة ثم برقابهم فى السابعة حتى استرقهم جميعاً ثم اعتق أهل مصر ورد عليهم أملاكهم » النسفى ج ٢ ص ٢٢٨ .

وأرادوا أن يكون يوسفُ عبداً لمن ابتاعوه من السيارة ، وأراد اللهُ أن يكونَ عزيزَ مصر — وكان ما أراد اللهُ .

ويقال العِبْرَةُ لا تُرى من الحقِّ في الحال ، وإنما الاعتبارُ بما يظهر في سِرِّ تقديره في المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا بَلَغَ أشُدَّه آتيناه حُكْماً وعِلْماً ، وكذلك نَجْزِى المحسنين ﴾

من جملة الحُكْمِ الذى آتاه اللهُ نفوذُ حُكْمِه على نَفْسِه حتى غَلَبَ شهوته ، وامتنع عما رَاوَدَتْه تلك المرأةُ عن نَفْسِه ؛ ومن لا حكم له على نفسه فلا حكْمَ له على غيره .

ويقال إنما قال : « ولمَّا بلغ أشدَّه » أى حين استوى شبابُه واكتملت قوَّته ، وكان وقت استيلاء الشهوة ، وتوفر دواعى مطالبات البشرية — آتاه اللهُ الحُكْمَ الذى حبسه على الحقِّ وصَرَفَهَ عن الباطل ، وعَلِمَ أنَّ ما يعقب اتباع اللذاتِ من هواجم النَّدمِ أشدُّ مقاساةً من كلفة الصبر فى حال الامتناع عن دواعى الشهوة . . فآثَرَ مَشَقَّةَ الامتناع على لَذَّةِ الاتباع . وذلك الذى أشار إليه الحقُّ — سبحانه — من جميل الجزاء الذى أعطاه هو إمدادُه بالتوفيق حتى استقام فى التقوى والورع على سَوَاءِ الطريق ، قالَ تعالى : والذين جاهدوا فينا لنهديَنَّهم سُبُلَنا »[1] : أى الذين جاهدوا بسلوك طريق المعاملة لنهدينهم سُبُلَ الصبرِ على الاستقامة حتى تتبين لهم حقائقُ المواصلة .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ وَرَاوَدَتْه التى هو فى بيتِها عن نَفْسه وغلَّقت الأبوابَ وقالت هَيْتَ لَكَ قال معاذَ اللهِ إنه ربى أحسَنَ مثواى إنَّه لا يُفْلِحُ الظالمون ﴾

لما غَلَّقَتْ عليه أبوابَ المسكنِ فَتَحَ الله عليه باب العصمة[2] ، فلم يُضِرْه ما أُغلِقَ بعد إكرامه بما فُتِحَ .

---

(١) آية ٦٩ سورة العنكبوت .
(٢) نلفت النظر إلى جمال عبارة القشيرى الناتج عن المقابلة بين (الإغلاق) و (الفتح) .

وفى التفسير أنه حفظ حُرْمةَ الرجل الذى اشتراه ، وهو العزيز .

وفى الحقيقة أشار بقوله : « إنه ربِّى » إلى ربه الحقِّ تعالى : هو مولاى الحق تعالى ، وهو الذى خلَّصنى من الُجبِّ ، وهو الذى جعل فى قلب العزيز لى محلاً كبيراً فأكرم مثواى فلا ينبغى أنْ أُقْدِمَ على عصيانه — سبحانه — وقد غمرنى بجميل إحسانه .

ويقال إن يوسف عليه السلام قال لها : إن العزيز أمرنى أنْ أنفعَه . « عسى أن ينفعنا » فلا أخُونُه فى حُرْمَتِه بظهر الغيب .

ويقال لمَّا حفظ حُرْمة المخلوقِ بظهر الغيب أكرمه الحقُّ سبحانه بالإمداد بالعصمة فى الحال ومَكَّنَه من مواصلتها فى المآل على وجه الحَلال .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد هَمَّتْ به وهَمَّ بها لولا أنْ رأى بُرْهانَ ربِّه كذلك لِنَصْرِفَ عنه السُّوءَ والفحشاء إنَّه مِنْ عبادِنا المخلَصين ﴾

ما ليس بفعل الإنسان مما يعتريه — بغير اختياره ولا بِكَسْبِه — كان مرفوعاً لأنه لا يدخل تحت التكليف ، فلم يكن « الهمُّ »[1] منه ولا منها زَلَّةً ، وإنما الزَّلَّةُ من المرأة كانت من حيث عَزَمَتْ على ما هَمَّتْ ، فأمّا نفسُ الهمِّ فليس مما يَكْسِبُه العبد .

ويقال اشتركا فى الهمِّ وأُفْرِد — يوسف عليه السلام — بإشهاده البرهان .

وفى تعيين ذلك البرهان — ما الذى كان ؟ — تكلُّفٌ غيرُ محمودٍ إذ لا سبيل إليه إلا بالخَبَرِ المقطوع به .

وفى الجملة كان البرهانُ تعريفاً من الحقِّ إياه بآية من آيات صُنْعِه ، قال تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبيَّن لهم أنه الحق »[2] .

---

(١) واضح أن القشيرى يهدف إلى نفى كل تهمة عن يوسف ولهذا يلجأ إلى تأويل لفظة « الهم » الذى اشترك فيه وامراة العزيز كما يعبر ظاهر اللفظ .

(٢) آية ٥٣ سورة فصلت .

وقوله : « كذلك لنصرف عنه السُّوء والفحشاء » صَرَفَ عنه السُّوء حتى لم يوجَد منه العزمُ على ذلك الفعل — وإنْ كان منه همٌّ — إلا أن ذلك لم يكن جُرْماً كما ذكرنا .

والصَّرْفُ عن الطريق بعد حصول الهمِّ ـ كشفٌ ؛ والسوء المصروفُ عنه هو العزمُ على الزنا والفحشاء أو نفْسُ الزنا ، وقد صرفهما الله تعالى عنه .

قوله « إنه من عبادنا المُخْلَصين » : لم تكن نجاتُه فى خلاصه ، ولكن فى صرفِ السوء عنه واستخلاصه .

قوله جل ذكره : ﴿ واستبَقَا البابَ وقَدَّتْ قميصَه مِنْ دُبُرٍ وأَلْفَيَا سَيِّدَها لدى البابِ ﴾

استبقا ، هذا ليَهْرَبَ ، وهذه للفعلة التى كانت تطلب .

ولم يضر يوسفَ — عليه السلام — أَنْ قَدَّتْ قميصه وهو لِبَاسُ دنياه بعد ما صحّ عليه قميصُ تقواه .

ويقال[1] لم تَقْصِدْ قَدَّ القميصِ وإنما تَعَلَّقَتْ به لتَحْبِسَه على نفسها ، وكان قصدُها بقاء يوسف — عليه السلام — معها ، ولكن صار فعلُها وَبالاً على نَفْسِها ، فكان بلاؤها من حيث طَلَبَتْ راحتَها وشفاءها .

ويقال تولَّد انخراقُ القميصِ من قبضها عليه وكان فى ذلك افتضاح أمرها ؛ لأن قَبْضَها على قميصه كان مزجوراً عنه .. لِيُعْلَمَ أَنَّ الفاسِدَ شَجُه فاسدٌ .

ويقال لشدة استيلاء الهوى عليها لم تعلم فى الحالِ أنها تقدُّ قميصه من ورائه أو من قُدَّامِه .. كذلك صاحبُ البلاءِ فى الهوى مسلوبُ التمييز .

ويقال لَمَّا لم تَصِلْ ولم تتمكن من مرادها من يوسف خَرَقَتْ قميصَه ليكونَ لها فى إلقائها الذَّنْبَ على يوسف — عليه السلام — حُجَّةٌ ، فَقَلَبَ اللهُ الأمرَ حتى صار ذلك عليها حجة ، وليوسف دلالة صدق ، قال تعالى : « ولا يحيق المكرُ السيئُ إلا بأهله »[2]

---

(١) فيما يلى من إشارات نلاحظ أن القشيرى قد جعل من امرأة العزيز رمزاً لطالب الدنيا وأسير الهوى ومن يوسف رمزاً مقابلا لذلك .

(٢) آية ٤٣ سورة فاطر .

قوله تعالى : « وأَلْفَيا سيدها لدى الباب » : لمَّا فتَحَا البابَ وجدا سيدها لدى الباب ، والإشارة فيه إلى أن ربك بالمرصاد ، إذا خَرَجَ العبدُ عن الذى هو عليه من التكاليف فى الحال وقع فى ضِيق السؤال .

ويقال قال : « ألفيا سيدها » ولم يقل سيدهما لأن يوسف فى الحقيقة كان حراً ولم يكن العزيزُ له سيداً .

قوله جل ذكره : ﴿ قالت ما جزاء مَنْ أَرَادَ بأهلِكَ سوءًا إلاّ أَنْ يُسْجَنَ أو عذابٌ أليم ﴾

شَغَلَتْهُ بإغرائها إياه بيوسف عن نَفْسِها بأن سَبَقَتْ إلى هذا الكلام .

ويقال لقنته حديث السجن أو العذاب الأليم لئلا يقصد قتلَه ، فنى عين ما سَعَتْ به نظرت له وأَبْقَتْ عليه .

ويقال قالت ما جزاء من فعل هذا إلا السجن فإن لم ترضَ بذلك ، وستزيد ، فالعذاب الأليم يعنى الضَّرب المُبَرِّح . . كأنما ذكرت حديث العقوبة بالتدريج .

ويقال أوقعت السجن الذى يبقى مؤجَّلا فى مقابلة الضرب الأليم المعجل ليُعْلَم أنّ السجنَ الطويل — وإنْ لم يكن فيه فى الظاهر ألم — فهو فى مقابلة الضرب الشديد الموجع ، لأنه — وإنْ اشتدّ فلا يقابله .

ويقال قالت : « ماجزاء مَن أراد بأهلك سوءاً ؟ » فذِكْرُ الأهل هاهنا غايةُ تهييج الحمِّية وتذكيرٌ بالأَنَفَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قال هى رَاوَدَتْنِي عن نَفْسِى وشَهِدَ شاهِدٌ من أهْلِها إنْ كان قميصُه قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وهو من الكاذبين * وإنْ كان قميصُه قُدَّ من دُبُرٍ فكَذَبَتْ وهو من الصادقين * فلمَّا رأى قميصَه قُدَّ من

دُبُرٍ قال إنَّه من كيدكن إنَّ كَيْدَكُنَّ عظيم ﴾ .

أفصح يوسف عليه السلام بجُرْمِها إذ ليس للفاسق حُرْمَة يجب حِفْظُها ، فلم يُبَالِ أَنْ هَتَك سترها فقال : « هى راودتنى عن نفسى » فلمَّا كان يوسفُ صادقاً فى قوله ، ولم يكن له شاهدٌ أنطق اللهُ الصبيَ الصغير الذى لم يبلغ أوانَ النطق[1] . ولهذا قيل إذا كان العبد صادقاً فى نفسه لم يبالِ اللهُ أن يُنْطِقَ الحجرَ لأجله .

قوله : « فلما رأى قميصه قُدَّ من دُبُر . . . » لما اتضح الأمرُ واستبان الحالُ وظهرت براءة ساحة يوسف عليه السلام قال العزيز : « إنه من كيدكن » : دلَّت الآيةُ على أنَّ الزنا كان مُحرَّماً فى شرعهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يوسفُ أَعْرِضْ عن هذا واستغفرى لذنبكِ إنَّكِ كنتِ من الخاطئين ﴾

لم يُرِدْ أن يهتك ستر امرأته فقال ليوسف : أعرِضْ عن هذا الحديث ، ثم قال لها : « واستغفرى لذنبك » : دلَّ على أنه لم يكن فى شرعهم على الزنا حدٌّ — وإن كان مُحَرَّماً حيث عَدَّه ذنباً .

ويقال ليس كلُّ أحد أهلاً للبلاء ؛ لأن البلاء من صفة أرباب الولاء ، فأمَّا الأجانب فَيُتَجاوَزُ عنهم ويُخْلَّى سبيلُهم — لا لكرامةِ مَحَلِّهم — ولكن لحقارة قدرهم ، فهذا يوسف عليه السلام كان برىء السَّاحةِ ، وظهرت للكلِّ سلامةُ جانبه وابتُلِيَ بالسجن . وامرأة العزيز فى سوء فِعْلها حيث قال : « إنه من كيدكن » ، وقال لها : « واستغفرى لذنبك » . . ثم لم تنزل بها شظيةٌ من البلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال نِسوةٌ فى المدينةِ امرأةُ العزيزِ

---

(١) قيل هو صبى فى المهد وهو ابن خال لها . وسمى قوله شهادة لأنه أدى مؤدى الشهادة فى أن ثبت به قول يوسف وبطل قولها (النسفى ج ٢ ص ٢١٨) .

تراودُ فتاها عن نفسِه قد شغفها حُبّاً
إنّا لنراها في ضلالٍ مبين ﴾

إنَّ الهوى لا ينكتم، ولا تكون المحبة إلا وأبيح لها لسان عذول، فلما تحققت محبتها ليوسف بسطت النِّسوةُ فيها لسانَ الملامة.

ولما كانت أحسن منهن قيمةً — فقد كُنَّ من جملة خَدَمِها — كانت أسرعَ إلى الملامة.

قوله جل ذكره: ﴿ فلمَّا سَمِعَتْ بِمَكرِهنَّ أرسَلَتْ
إليهنَّ وأعتَدَتْ لَهنَّ مُتَّكئاً
وآتَتْ كُلَّ واحدةٍ منهن سِكِّيناً
وقالتْ أخرُجْ عليهنَّ فلمَّا رَأَيْنَه
أَكْبَرْنَهُ وقَطَّعْنَ أيديَهنَّ وقُلْنَ
حَاشَ لله ما هذا بَشَراً إنْ هذا
إلا مَلَكٌ كريمٌ * قالت فَذَلِكُنَّ
الذى لُمْتُنَّني فيه ولقد رَاوَدْتُهُ عن
نفسِه فاستعْصَمَ ولئِنْ لم يفعَلْ ما آمُرُه
لَيُسجننَّ وليكوناً من الصَّاغرين ﴾

أرادتْ أن يغلب عليهن استحقاقُ الملامة، وتَنْفِيَ عن نفسها أن تكون لها[1] أهلاً، ففعلت بهن ما عَمِلَتْ، فلمَّا رأينه تَغَيَّرْنَ وتحيَّرْنَ ونطقن بخلاف التمييز، فقلن: «ما هذا بشراً»: وقد كان بشراً، وقلن «إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريم»: ولم يكن مَلَكاً.

قوله: «فذلكن الذى لمتنني فيه»: أثَّرَتْ رؤيتُهن له فيهن فَقَطَّعْنَ أيديَهن بدل الثمار، ولم يشعرن، وضعفن بذلك عندها فقالت: ألم أقل لكن؟ أنتن لم تتمالكن حتى قَطَّعْتنَّ أيديَكُنَّ! فكيف أصبر وهو فى منزلى؟! وفى معناه أنشدوا:

(1) أى أهلا للملامة.

(أنت عنــد الخصام عدوى . . . .)[1]

ويقال[2] إن امرأة العزيز كانت أتم فى حديث يوسف — عليه السلام — من النسوة فأثّرَتْ رؤيتُه فيهن ولم تُؤَثِّرْ فيها ، والتَّغَيُّرُ صفة أهل الابتداء فى الأمر ، فاذا دام المعنى زال التغيُّر ، قال أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — لمن رآه يبكى وهو قريب العهد فى الإسلام : هكذا كُنَّا حتى قَسَتْ القلوبُ . أى وَقَرَتْ[3] وصَلُبَتْ . وكذا الحريق أول ما يطرح فيها الماء يُسْمَعُ له صوتٌ فإذا تعوَّدَ شُرْبَ الماء سَكَنَ فلا يُسْمعُ له صوت .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربِّ السِّجنُ أحَبُّ إلىَّ مما يدعوننى إليه ، وإلاَّ تَصْرِفْ عنى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إليهنَّ وأكُنْ من الجاهلين ﴾

الاختبار مقرونٌ بالاختيار ، ولو تمنَّي العافية بدل ما كان يُدْعى إليه لعلَّه كان يُعَافَى ، ولكنه لما قال : « السجن أحبُّ إلىَّ مما يدعوننى إليه » طُولِبَ بِصِدْقِ ما قال .

ويقال إن يوسف عليه السلام نَطَقَ من عين التوحيد حيث قال : « وإلا تصرف عنى كيدهن أصبُ إليهن » فقد عَلِمَ أن نجاته فى أن يَصْرِفَ — سبحانه — البلاء عنه لا بتكلُّفِهِ ولا بتَجنبِهِ .

ويقال لمَّا آثر يوسفُ — عليه السلام — لحوقَ المشقة فى اللهِ على لذَّة نفسه آثره عَصْرُهُ حتى قيل له : « تاللهِ لقد آثرك اللهُ علينا »[4]

قوله جل ذكره : ﴿ فاستجابَ له ربُّه فَصَرَفَ عنه كَيْدَهُنْ إنه هو السميع العليم ﴾

---

(١) بقية البيت مضطربة فى الكتابة ، ومطموسة فى بعض المواضع .

(٢) القشيرى هنا مستفيد من رأى استاذه أبى على الدقاق .

(أنظر رأى الدقاق فى رسالة القشيرى فى معنى التلوين والتمكين ص ٤٤)

(٣) وقرت = أصابها الثقل .

(٤) آية ٩١ من سورة يوسف .

لمَّا رجع إلى إلله بصدق الاستغاثة تداركه الله سبحانه بوشيكِ الإغاثة . . كذلك ما اغبرَّ لأحدٍ — فى الله تعالى — قَدَمُ إلاَّ روَّحه بِكَرَمِهِ وتولاَّه بِنِعَمِهِ — إنه هو « السميع » لأقوال السائلين ، « العليم » بأحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم بدا لهم مِنْ بعدِ ما رَأَوُا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حين ﴾

لمَّا سَجَنَ يوسفَ — عليه السلام — مع ظهور براءة ساحته إتقاءً على امرأته أن يُهتَكَ سترُها حوَّل اللهُ مُلْكَهَ إليه ، ثم فى آخر الأمر حَكَمَ اللهُ بأن صارت امرأتُه بعد مقاساتها الضُّر . . . وهذا جزاء مَنْ صَبَرَ .

ويقال لمَّا ظُلِمَ يوسفُ عليه السلام بمـا نُسِبَ إليه أنطق الله تلك المرأة حتى قالت فى آخر أمرها بمـا كان فيه هتك سترها ، فقالت : « الآن حصحص الحقُّ أنا راودته عن نفسه » .

قوله جل ذكره : ﴿ ودَخَـلَ معه السجنَ فَتَيَانِ
قال أحدُهما إِنِّى أرانى أَعْصِرُ خَمْراً
وقال الآخَرُ إِنِّى أرانى أَحْمِلُ فوقَ
رأسى خُبزاً تأكلُ الطيرُ منه نَبِّئْنَا
بتأويله إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِين ﴾

لصحبة السجن أثرٌ يظهر ولو بعد حين ؛ فإنَّ يوسف عليه السلام لمَّا قال لصاحبه اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطانُ ذكر ربِّه فبقى يوسف فى السجن زماناً ، ثم إن خلاصه كان على لسانه حيث قال : فأَرْسِلوا إلى يوسف وقيل له : « يوسف أيها الصديق أَفْتِنَا . . . الآيه » فالصحبة تُعْطِى بَرَكَاتِها وإن كانت تُبْطِى .

قوله : « إنا نراك من المحسنين » : الشهادة بالإحسان للمحسن ذريعةٌ ، بها يَتَوَسَّلُ إلى استجلاب إحسانه .

قوله جل ذكره : ﴿ قال لا يأتيكما طعامٌ تُرْزَقانِه
إلاَّ نَبَّأتُكما بتأويله قبل أن يأتِيَكما
ذلكما مما علَّمني ربى إنِّى تركتُ مِلَّة
قومٍ لا يؤمنون باللهِ وهم بالآخِرة
هم كافرون ﴾

التَّثَبُّتُ فى الجواب دون التسرع من أمارات أهل المكارم ، كيوسف عليه السلام وعدهما أن يجيبَهما ولم يُسْرِعْ الإجابةَ فى الوقت .

ويقال لمَّا أخَّرَ الإجابة عَلَّقَ قلوبَهما بالوعد ، وإذا لم يكن نَقْدٌ فليكن وَعْدٌ .

ويقال لمَّا فاتحوه بسؤالهم قدَّم على الجواب ما اقترحه عليهما من كلمة التوحيد فقال : « ذلك مما علَّمنى ربى إنِّى تركتُ مِلَّةَ قوم . . . » ثم قال :

﴿ واتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائى إبراهيمَ
وإسحقَ ويعقوبَ ما كان لنا أن
نُشْرِكَ باللهِ مِنْ شىءٍ ذلك مِنْ
فَضْلِ اللهِ علينا وعلى الناسِ ولكنَّ
أكثرَ الناسِ لا يَشْكُرون ﴾

ولما فَرغَ من تفسير التوحيد والدعاء إلى الحق سبحانه أجابهما فقال :

﴿ ياصَاحِبَيْ السِّجنِ أأَرْبَابٌ متفرقون
خيرٌ أَمِ اللهُ الواحِدُ القهَّارُ *
ما تعبدون من دُونِهِ إلا أسماءً
سَمَّيْتُمُوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله
بها من سلطانٍ إنِ الحكم إلا للهِ أَمَرَ
ألا تَعْبدوا إلا إياه ، ذلك الدِّينُ القيِّمُ
ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون ﴾

هكذا كاد يوسف عليه السلام ألا يسكتَ حين أخذ فى شرح التوحيد وذكر المعبود ، وفى الخبر : مَنْ أحبَّ شيئاً أكثَرَ مِنْ ذِكْرِه .

قوله جل ذكره : ﴿ يا صاحِبيْ السِّجنِ أمَّا أحدُكما
فيَسْقى ربَّه خَمْراً وأمَّا الآخَرُ
فَيُصْلَبُ فتأكُلُ الطيرُ مِنْ رأسِه
قُضِيَ الأمرُ الذى فيه تستفيان ﴾

اشتركا فى السؤال واشتركا فى الحكم وفى دخول السجن ، ولكن تباينا في المآلِ ؛ واحدٌ صُلِبَ ، وواحدٌ قُرِّبَ ووُهِبَ .. وكذا قضايا التوحيد واختيار الحق ؛ فَمِنْ مرفوعٍ فوق السِّماكِ مَطْلَعُه ، ومن مدفونٍ : تحت التراب مضجعُه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال للذى ظَنَّ أنه ناجٍ منهما اذكُرْنى
عند ربِّكَ فأنساه الشيطانُ ذِكْرَ ربِّه
فَلَبِثَ فى السِّجْنِ بِضْعَ سنين ﴾ .

يتبيَّن أنَّ تعبير الرؤيا — وإنْ كان حقّاً — فهو بطريق غَلَبَةِ الظَّنِّ دون القطع .

ثم إنه عاتب يوسفَ عليه السلام لأنه نَسِيَ فى حديثه مَنْ يستعين به حين قال : « اذكرنى عند ربِّك » .

ويقال إنه طَلَبَ من بَشَرٍ عِوَضاً على ما عَلَّمَه ، وفى بعض الكتب المنزلة : ياابن آدم ، عَلِّمْ مجاناً كما عُلِّمْتَ مجاناً .

ولما استعان بالمخلوقِ طال مُكْثُهُ فى السجن ، كذلك يجازى الحقُّ — سبحانه — مَنْ يُعَلِّقُ قلبَه بمخلوق .

قوله ذكره : ﴿ وقال المَلِكُ إنِّي أرى سَبْعَ بَقَرَاتٍ
سِمَانٍ يأكُلُهنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وسَبْعَ
سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابِسَاتٍ

﴿ يا أيها الملأُ أفتونى فى رؤياى إنْ كنتم للرؤيا تَعْبُرُون ﴾ .

كان ابتداء بلاء يوسف — عليه السلام — بسبب رؤيا رآها فَنَشَرَها وأظهرها ، وكان سببُ نجاتِهِ أيضا رؤيا رآها الملِكُ فأظهرها ، ليُعْلَمَ أنَّ اللهَ يفعل ما يريد ؛ فكما جعل بلاءه فى إظهار رؤيا جعل نجاته فى إظهار رؤيا[1] ؛ لِيَعْلَمَ الكافةُ أن الأمر بيد الله يفعل ما يشاء .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أضغاثُ أحلامٍ وما نحن بتأويل الأحلامِ بعَالِمِين ﴾ .

حال الرؤيا لا يختلف بالخطأ فى التعبير ؛ فإنَّ القومَ حكموا بأن رؤياه أضغاثُ أحلام فلم يُضِرْه ذلك ، ولم يؤثِّرْ فى صحة تأويلها .

قوله : « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » : مَنْ طلَبَ الشىء مِنْ غيرِ موضعِه لم يَنَلْ مطلوبه ، ولم يَسْعَد بمقصوده .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذى نجا منهما وادَّكَرَ بعْدَ أُمَّةٍ أنا أُنَبِّئُكم بتأويلِهِ فأَرْسِلُونِ ﴾

لمَّا كان المعلومُ لله والمحكومُ أن يوسفَ عليه السلام يكون فى ذلك الوقت هو مَنْ يُعَبِّرُ الرؤيا — قَبَضَ القلوبَ حتى خَفِيَ عليها تعبيرُ تلك الرؤيا ، ولم يحصل للمَلِكِ ثَلَجُ الصدْرِ إلا بتعبير يوسف[2] ، ليُعْلَمَ أنَّ اللهَ — سبحانه — إذا أراد أمراً سَهَّل أسبابَه .

ويقال : إن الله تعالى أَفْرَد يوسفَ عليه السلام من بين أشكاله بشيئين : بحُسْن الخِلْقة وبزيادة العلم ؛ فكان جمالُه سببَ بلائه ، وصار علمُه سببَ نجاته ، لتَعْلَمَ مزيَّةَ العلمِ على غيره ، لهذا قيل : العلم يُعْطِى وإن كان يُبْطِى .

---

(١) يهدف القشيرى إلى شىء بعيد هو أن المقاييس الإنسانية نسبية ولا تؤدى حتما إلى الصواب ، وبالتالى لا ينبغى تطبيقها على ما يجرى فى الكون من تصاريف إلهية .

(٢) يصلح هذا التصور — على نحو ما — لتفسير كرامات الأولياء .

ويقال إذا كان العلم بالرؤيا يوجب الدنيا فالعلمُ بالمولى أَوْلَى أن يوجِبَ العقبى ، قال تعالى: « وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيماً ومُلْكاً كبيراً »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ قال تزرعون سَبْعَ سنين دَأَباً فما
حَصَدتُم فَذَرُوه فى سُنْبُلِه إلا قليلاً
مِمَّا تأكلون ﴾ .

لم يقدِّم الدعاء إلى الله تعالى على تعبير هذه الرؤيا كما فعل فى المرة الأولى ، لأن هذا السائل هو الذى دعاه فى المرة الأولى . فإمَّا أنه قد قَبِلَ فى المرة الثانية ، وإمَّا أنه لم يقبل فيئِسَ منه فأهمله .

وصاحبُ الرؤيا الثانية كان المَلِكَ وكان غائباً ، والوعظ والدعاء لا يكونا إلا فى المشاهدة دون المغايبة .

ويقال يحتمل أن يكون قد تفرَّس فى الفَتَيان قبولَ التوحيد فإنَّ الشباب ألينُ قلباً ، أمَّا فى هذا الموضع فقد كان المَلِكُ أصلبَ قلباً وأفظَّ جانباً ؛ فلذلك لم يَدْعُه إلى التوحيد لِمَا تفرَّسَ فيه من الغِلظة .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال المَلِكُ ائتونى به فلمَّا جاءه
الرسولُ قال ارجِعْ إلى ربِّك فاسأَلْهُ
ما بالُ النِّسوةِ اللاتى قطَّعْنَ أيديَهُنَّ
إنَّ ربى بكيدهِنَّ عليم ﴾ .

أراد عليه السلام ألا يلاحظه المَلِكُ بعين الخيانة فيُسْقِطَه عيبُه من قلبه ؛ فلا يؤثِّر فيه قوله ، فلذلك توقَّفَ حتى يَظْهَرَ أمرُه للمَلِكِ وتنكشفَ براءةُ ساحته .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ما خَطْبُكُنَّ إذ رَاوَدْتُنَّ يوسفَ

---

(1) آية ٢٠ سورة الإنسان .

عن نَفْسِهِ قُلْنَ حاشا للهِ ماعَلِمْنا عليه
من سوءٍ ﴾

الحقائق لا تنــكتم أصلاً ولا بُدَّ من أن تَبِينَ . . ولو بعد حين .

نُسِبَ يوسفُ إلى ما كان منه بَرِيئاً ، وأُنِّبَ على ذلك مدةً ، وكان أمرُه فى ذلك خَفِيًّا. ثم إن الله تعالى دَفَعَ عنه التهمة ورفع عنه المَظَنَّة ، وأنطق عُذّالَه ، وأظهر حالَه ، عما فرق به سرباله[1] ، فقُلْنَ : « حاشا لله ما علمنا عليه من سوءٍ » .

قوله جل ذكره : ﴿ قالت امرأةُ العزيزِ الآن حَصْحَصَ
الحقُّ أنا راودْتُهُ عن نفْسِه وإنه
لَمِنَ الصادقين ﴾

لمّا كانت امرأةُ العزيزِ غيرَ تامّةٍ فى محبة يوسف تركَتْ ذنبَهاَ عليه وقالت لزوجها : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ولم يكن ليوسف عليه السلام ذنب . ثمَّ لمّا تناهَتْ فى محبته أقَرَّت بالذنبِ على نفسها فقالت : « الآن حصحص الحقُّ ... » فالتناهي فى الحبِّ يوجب هتكَ الستر ، وقلة المبالاة بظهور الأمر والسِّرِّ[2] ، وقيل :

لِيقُلْ مَنْ شاء ما شاء فإنى لا أُبالى

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أنِّى لم أَخُنْهُ بالغيبِ
وأنَّ اللهَ لا يَهْدِى كَيْدَ الخائنين ﴾

إنما أراد اللهُ أن يُظْهِرَ براءةَ ساحةِ يوسف ، لأنه علم أنهم يستحقون العقوبة على مايبسطون فيه من لسان الملامة وذكر القبيح ، ولم يُرِدْ يوسف أن يصيبهم بسببه — من قِبَلِ اللهِ — عذابٌ

---

(١) السربال = القميص .

(٢) من هذه الإشارة نستطيع بطريق غير مباشر أن نعرف موقف القشيرى من قضية هامة وهى : هل يفصح المحب الواله عن حبه المكنون أم يكتم ؟ وهل تغتفر له شطحاته في هذا الموقف أم لا ؟

شَفَقَةً منه عليهم ، وهذه صفةُ الأولياءِ : أن يكونوا خَصْمَ أنفسِهم ، ولهذا قيل : الصوفى دمه هَدَرٌ ومِلْكُه مُباحٌ[1] — ولذلك قال :

﴿ وما أبرِّئُ نَفْسِى إنَّ النَّفْسَ لأمَّارة
بالسوءِ إلا ما رَحِمَ ربى إنّ ربى غفور
رحيم ﴾

لمَّا تمدَّح بقوله : « ذلك ليعلم أنى لم أخُنْهُ بالغيب » كأنه نودى فى سِرِّه : ولاحين هَمَمْتَ؟ فقال : « وما أبرئُ نفسى ! »[2]

ويقال : قوله « ليعلم أنى لم أخُنْهُ بالغيب » بيانُ الشكر على ما عصمه الله ، وقوله : « وما أبرئُ نفسى » بيانُ العُذْرِ لما قصَّر فى أمر الله ، فاستوجب شكرُه زيادةَ الإحسان ، واستحقَّ بعذره العفوَ .

والعفو بادٍ من قوله :

﴿ وَقال الملِكُ ائتونى به أسْتَخْلِصْهُ
لِنَفْسِى فلمَّا كَلَّمَهُ قال إنَّك اليومَ
لدينا مكينٌ أمينٌ ﴾ .

لما اتضحت للملِك طهارةُ فِعْلِه ونزاهةُ حالِه استحضره لاستصفائه لنفسه ، فلمَّا كَلَّمه وسَمِعَ بيانَه رَفَعَ محلَّه ومكانه ، وضمنه بِرَّه وإحسانَه ، فقال : « إنك اليومَ لدينا مكينٌ أمين »

قوله جل ذكره : ﴿ قال اجعلنى على خزائنِ الأرضِ إنِّى
حفيظٌ عليمٌ ﴾

إنما سأل ذلك ليضعَ الحقَّ مَوْضِعَه ، وليصلَ نصيبُ الفقراءِ إليهم ، فَطَلَبَ حقَّ الله تعالى فى ذلك ، ولم يطلب نصيباً لنفسه .

ويقال لم يقل إنى حَسَنٌ جميلٌ بل قال : إنى حفيظ عليم أى كاتِبٌ حاسِبٌ ، لِيُعْلَمَ أنَّ الفضلَ فى المعانى لا فى الصورة .

---

(١) هذا تعريف الصوفى عند سهل بن عبد الله التُّسْتَرى (الرسالة ص١٣٩) .
(٢) هذا نموذج لمقاومة دعوى النفس ومحاربة اغترارها على الدوام ، وعدم الاطمئنان إلى مصالحتها .

قوله جل ذكره: ﴿ وكذلك مكَّنَّا ليوسفَ فى الأرضِ يَتَبَوَّأُ منها حيثُ يَشَآءُ نُصيبُ برحمتِنا مَنْ نَشَآءُ ولا نُضيعُ أجرَ المحسنين ﴾.

لمَّا لم تكن له دواعى الشهوات من نَفْسِهِ مَكّنَهُ اللهُ من مُلْكِه — قال تعالى: « ومَنْ يقترفْ حسنةً نزد له فيها »[1] — فقال: « ولا نُضيع أجر المحسنين ».

ثم أخبر عن حقيقة التوحيد، وبيَّن أنه إنما يوفِّى عبادَه من ألطافه بفضله لا بفعلهم، وبرحمته لابخِدْمتِهم؛ فقال: « نُصيب برحمتنا من نشاء » ثم يرقى هممهم عما أولاهم من النِّعَم فقال:

﴿ وَلأَجْرُ الآخِرة خَيْرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾.

لِيُعْلَمَ أنَّهُ لابُدّ من التقوى ومخالفة الهوى.

قوله جل ذكره: ﴿ وجاءَ إخوةُ يوسفَ فدخلوا عليه فعَرَفَهُم وهم له مُنْكِرون ﴾.

عَرَفَ يوسفُ — عليه السلام — إخوتَه وأنكروه، لأنهم اعتقدوا أنَّ فى رِقِّ العبودية لمّا باعوه، بينما يوسف — فى ذلك الوقت — كان قاعداً بمكانِ المَلِكِ. فمَنْ طلب الملكَ فى صفة العبيد متى يعرفه؟

وكذلك مَنْ يعتقد فى صفات المعبودِ ما هو مِنْ صفات الخَلْق ... متى يكون عارفاً؟ هيهات هيهات لمـا يحسبون!

ويقال لمَّا أَخْفَوْه صار خفاؤه حجاباً بينهم وبين معرفتهم إياه، كذلك العاصى .. بخطاياه وزلاتِه تقع غَبَرَةٌ على وجه معرفته.

قوله جل ذكره: ﴿ ولمَّا جَهَّزَهم بِجَهَازِهم قال ائتونى

(١) آية ٦٣ سورة الشورى.

بأخٍ لكم مِنْ أبيكم ألاَ ترَوْنَ أنّى
أوفى الكيلَ وأنا خير المُنْزِلين ﴾

المحبُّ غيورٌ ، فلمّا كان يعقوبُ عليه السلام قد تَسَلَّى عن يوسف برؤية ابنه بنيامين غار يوسف أن ينظر إليه يعقوب(١) .

ويقال تَلَطَّفَ يوسف فى استحضار بنيامين بالترغيب والترهيب ، وأما الترغيب ففى مالِه الذى أوصله إليهم وهو يقول : « ألا ترون أنى أوفِى الكيل » وفى إقباله عليهم وفى إكرامه لهم وهو يقول : « وأنا خير المنزلين » .

وأمّا الترهيب فبمنع المال وهو يقول :

﴿ فإنْ لم تأتونى به فلا كَيْلَ لكم
عندى ولا تقْرَبون ﴾

أى فإن لم تؤامِنونى عليه فلا كيل لكم عندى ، وأمنع الإكرام والإقبال عنكم .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا سَنُرَاوِدُ عنه أباه وإنَّا لفاعِلون ﴾

لما عَلِمَ يوسفُ من حالهم أنهم باعوه بثمنٍ بَخْسٍ عَلِمَ أنهم يأتونه بأخيهم طمعاً فى إيفاء الكيل ، فلن يَصْعُبَ عليهم الإتيان به .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال لفتيانِه اجعلوا بضاعتَهم
فى رِحالِهم لعلَّهم يعرفونها إذا انقلبوا
إلى أهلِهم لعلَّهم يرجعون ﴾

جَعْلُ بضاعتهم فى رحالهم — فى باب الكَرَم — أتمُّ مِنْ أنْ لَوْ وَهَبَها لهم جهْراً ، لأنه يكون حينئذٍ فيه تقليد منه بالمواجَهَةِ ، وفى تمليكها لهم بإشارةٍ تجرُّدٌ مِنْ تكلُّفِ تقليد منه بالمحاضرة(٢) .

ويقال عَلِمَ أنهم لا يَسْتحِلُّون مالَ الغَيْر فَدَسَّ بضاعتهم فى رحالِهِم ، لكن إذا رأَوْها قالوا : هذا وقع فى رحالنا منهم بغَلَطٍ ، فالواجبُ علينا ردُّها عليهم . وكانوا يرجعون بسبب ذلك شاءوا أم أبَوْا .

---

(١) وكذلك فإن للحق غيرة على عبده المؤمن أن يساكن سواه .
(٢) وكذلك نعمة الحق تأتى فى خفاء ... وقلَّ من يفطن إليها .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنِعَ مِنَّا الكَيْلُ فأَرْسِلْ معنا أخانا نَكْتَلْ وإنَّا له لحافظون ﴾

لم يمنع يوسفُ منهم الكيْلَ ، وكيف مَنَعَ وقد قال : « ألا ترون أنى أوفى الكيل » ؟ ولكنهم تجوزوا فى ذلك تفخيماً للأمر حتى تسمح نَفْسُ يعقوب عليه السلام بإرسال بنيامين معهم .

ويقال أرادوا بقولهم : « مُنِعَ منا الكيلُ » فى المستقبل إذا لم تحْمِلْه إليه .

ويقال إنهم تَلَطَّفُوا فى القول ليعقوبَ — عليه السلام — حيث قالوا : « أخانا » إظهاراً لشفقتهم عليه ، ثم أكَّدوا ذلك بقولهم : « وإنَّا له لحافظون » .

قوله جل ذكره : ﴿ قال هل آمَنُكُم عليه إلا كما آمِنْتُكُم على أخيه مِنْ قَبْلُ ؟ ﴾

مَنْ عَرَفَ الخيانة لا يلاحظ الأمانة ، ولذا لم تسكنْ نَفْسُ يعقوبَ بضمانهم لِمَا سَبَقَ إليه من شأنهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فاللهُ خيرٌ حافِظاً وهو أرحم الراحمين ﴾

« الله خير حافظاً » : يحفظ بنيامين فلا يصيبه شىء مِنْ قِبَلِهم .

ولم يقل يعقوب فالله خيرٌ مَنْ يَرُدُّه إلىَّ ، ولو قال ذلك لعلَّه كان يرده إليه سريعاً .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتَهم رُدَّتْ إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا ونمير أهْلَنَا ونحفظُ أخانا ونزدادُ كَيْلَ بعيرٍ ذلك كَيْلٌ يسير ﴾

بيّن يوسفُ — عليه السلام — أنه حين عاملهم لم يَحْتَجْ إلى عِوَضٍ يأخذه منهم ،

فلمَّا باعهم وجَمَعَ لهم الـكيلَ ما أخذ منهم ثمناً ، والإشارة من هذا إلى قوله تعالى : « إنْ أحسنتم أحسنتم لأنفسكم » .

وكلُّ مَنْ خطا للدِّين خطوةً كافأه اللهُ تعالى وجازاه ، فجَمَع له بين رَوْحِ الطاعةِ ولذَّةِ العيش من حيث الخدمة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قال لَنْ أُرْسِلَه مَعَـكم حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ لتأْتُنَّنِي به إلا أنْ يُحاطَ بِكُم فلمَّا آتوْه مَوثِقَهُم قال : اللهُ على ما نقولُ وكيلٌ ﴾

إنَّ الحذَرَ لا يُغْنِي من القَدَر . وقد عَمِل يعقوب — عليه السلام — معهم في باب بنيامين ما أمكنه من الاحتياط ، وأخذ الميثاق ولـكن لم يغْنِ عنه اجتهادُه ، وحَصَلَ ما حكم به الله .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلوا مِنَ بابٍ واحدٍ وادخلوا مِنْ أبوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وما أُغْنِي عنكم مِنَ اللهِ مِنْ شيءٍ إنِ الحُـكْمُ إلا للهِ عليه توكلتُ وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾

يحتمل أن يكون أراد تفريقهم في الدخول لعلَّ واحداً منهم يقع بَصَرُه على يوسف ، فإن لم يره أحدهم قد يراه الآخر (١) .

ويقال ظنَّ يعقوب أنهم في أمر يوسف كانوا في شدة العناية بشأنه ، ولم يعلم أنهم كارهون لمـكانه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا دَخَلوا مِنْ حيثُ أَمَرَهُم أبوهم

---

(١) نحسب أنه ربما كان الأمر بتفريقهم مرده إلى أنه في الجمـاعة تختفي المسئولية الفردية إذ تذوب في الـكيان الجماعي ، بينما يكبر الشعور بالمسئولية إذا كانوا آحاداً ، وقد قالوا ليعقوب من قبل (لئن أكله الذئب ونحن عصبة . .) .

ما كان يُغْنِى عنهم مِنَ اللهِ مِنْ شىءٍ
إلاَّ حاجةً فى نَفْسِ يعقوبَ قَضاها وإنَّه
لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاه ولكنَّ أكثرَ
الناسِ لا يعلمون ﴾

إن لم يحصل مقصودُ يعقوب عليه السلام فى المآل حصل مراده فى الحال ، وفى ذلك القَدْرِ لأرباب القلوب استقلال .

ويقال على الأصاغر حفظُ إشاراتِ الأكابر ، والقولُ فيما يأمرون به هل فيه فائدةٌ أم لا – تَرْكٌ للأدب .

ويقال إذا كان مثل يعقوب عليه السلام يشير على أولاده ، ويتمنَّى به حصولَ مرادِه ..
ثم لا يحصل مرادُه عُلِمَ أنه لا ينبغى أن يُعْتَقَدَ فى الشيوخ أنَّ جميع مايريدون يتَّفِقُ كونُه على ما أرادوا ؛ لأنَّ الذى لا يكونُ إلا ما يريده واجباً وما أراده فهو كائن . . هو اللهُ الواحدُ القهارُ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا دخلوا على يوسفَ آوى إليه
أخاه قال إنِّى أنا أخوك فلا تَبْتَئِسْ
بما كانوا يعملون ﴾

حديثُ المحبةِ وأحكامها أقسام : اشتَاقَ يعقوبُ إلى لقاء يوسف عليهما السلام فَبَقِيَ سنين كثيرة ، واشتاقَ يوسف إلى بنيامين فَرُزِقَ رؤيته فى أَوْجَزِ مدةٍ .

وهكَذَا الأمر ؛ فمنهم موقوفٌ به ، ومنهم صاحب بلاء .

ويقال لئن سَخِنَتْ[1] عين يعقوب عليه السلام بمفارقة بنيامين فلقد قَرَّتْ عيْنُ يوسفَ بلقائه . كذا الأمر : لاتغرُبُ الشمس على قوم إلا وتطلع على آخرين .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا جهَّزَهم بجَهَازِهم جعل السِّقَايَةَ
فى رَحْلِ أخيه ثم أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أيَّتُها
العيرُ إنكم لسارقون ﴾

---

(١) سخنت العين أى لم تقَرّ

احتمل بنيامينُ ما قيل فيه من السرقة بعدما التقى مع يوسف .

ويقال : ما نُسِبَ إليه من سوء الفعال هان عليه فى جَنْبِ ما وجد من الوصال .

ويقال لئن نَسَبَ يوسفُ أخاه للسرقة فقد تعرَّف إليه بقوله : إنى أنا أخوك — سراً ، فكان مُتَحَمِّلاً لأعباء الملامة فى ظاهره ، محمولاً بوجدان الكرامة فى سِرِّهِ ، وفى معناه أنشدوا :

أَجِدُ الملامةَ فى هواكِ لذيذةً حُبّاً لذكرك فَلْيَلُمْنِى اللُّوَّمُ

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا تاللهِ لقد عَلِمْتُم ما جِئْنَا لِنُفْسِدَ فى الأرضِ وما كُنَّا سارقين ﴾

يعنى حُسْنُ سيرتنا فى سير المعاملة يدلكم على حسن سريرتنا فى الحالة .

ويقال لو كُنَّا نسرق متاعكم لما رددناه عليكم ولَمَّا وجدتموه فى رحالنا بعد أن غِبْنَا عنكم .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا فما جزاؤه إنْ كُنْتم كاذبين ؟ ﴾

تجاسَرَ إخوةُ يوسف بجريانِ جزاءِ السَّرقةِ عليهم ثقةً بأنفسهم أنهم لم يُباشِروا الزَّلَّةَ ، وكان بنيامينُ شريكَهم فى براءة السَّاحةِ ، فلما استُخْرِجَ الصَّاعُ مِنْ وعائه بَسَطَ الإخوةُ فيه لسانَ الملامةِ ، وبقى بنيامين[1] فلم يكن له جوابٌ كأنَّه أقرَّ بالسرقة ، ولم يكن ذلك صدقاً إذ أنه لم يَسْرِقْ ، ولو قال : لم أَفْعَلْ لأفشى سِرَّ يوسف عليه السلام الذى احتال معهم ذلك لأَجْلِه حتى يُبْقِيه معه ، فَسَكَتَ لسان بنيامين ، وتحقَّق بالحالِ قَلْبُهُ .

ويقال لم يستصعب الملامة — وإنْ كان بريئاً — مما قُرِنَ به ، ولا يَضُرُّ سوء المقالةِ بالمكاشفين بعد حُسْنِ الحالةِ مع الأحباب .

ويقال سِىء بما أُظْهِرَتْ عليه المقالة ، ولكن حَصَلَ له بذلك صفاء الحالة .

قوله جل ذكره . ﴿ قالوا إنْ يَسْرِقْ فقد سَرَقَ أخٌ له

---

(١) يصلح بنيامين — كما يصوره القشيرى — نموذجاً لواحد من أهل الملامة ، لو دققنا النظر فى إشارات القشيرى بصدده .

مِنْ قَبلُ فأسرَّها يوسفُ فى نَفْسه
ولم يُبْدِها لهم قال أنتم شَرٌّ مَكاناً ،
واللهُ أعْلَمُ بما تصِفون ﴾ .

كان بنيامينُ بريئاً مما رُمِىَ به من السرقة ، فأنطقهم الله تعالى حتى رَمَوْا يوسف عليه السلام بالسرقة ، واحدٌ بواحدٍ ليَعْلَمَ العالمون أنَّ الجزاء واجبٌ .

ويقال كان القُرْحُ بالقَدْح أوجعَ ما سَمِعَه يوسف منهم[1]؛ حيث قالوا : « إنْ يَسْرِق فقد سَرَقَ أخٌ له من قبل » فقد كان ذلك أشدَّ تأثيراً فى قلبه من الجفاءِ الأول .

ويقال إذا حَنِقَ عليك المِلكُ فلا تأمَنْ غِبَّه — وإنْ طالت المدة — فإن يوسف عليه السلام حَنِقَ عليهم فلقوا فى المستأنف منه ما ساءهم مِنْ حَبْسِ أخيه ، وما صاحبَهم من الخجل من أبيهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يأيها العزيزُ إنَّ له أباً شيخاً
كبيراً فخُذْ أحَدَنا مكانَه — إنَّا
نراكَ من المحسنين ﴾ .

لم تنفعهم كثرةُ التنَصُّلِ ، وما راموا به من ذكر أبيهم ابتغاء التوسُّل ، ولم ينفعهم ما قيل منهم حين عرَضُوا عليه أن يأخذَ أحدَهم فى البَدَل . . كذلك فكلٌّ مُطَالَبٌ بفعل نفسه : لا تزِرُ وازرةٌ وِزرَ أخرى ؛ فلا الأبُ يُؤْخَذُ بَدَلَ الولد ، ولا القريبُ يُرضَى به عوضاً عن أحد ؛ لذلك قال يوسف عليه السلام :

﴿ قال مَعَاذَ الله أنْ نأخذَ إلاَّ مَنْ
وَجدْنا متاعَنا عنـدَه إنَّا إذاً
لظالِمون ﴾ .

توهموا أن الحديث معهم من حيث معاملة الأموال ، فعرَضُوا أنفسهم كى يؤخَذَ واحدٌ منهم بَدَلَ أخيهم ، ولم يعلموا أن يوسف عليه السلام كادَهم فى ذلك ، وأنَّ مقصودَه من

---

(١) القُرْح = الجرح ، والقَدْح = العيب فى عِرض غيرك .

ذلك ما استكَنَّ فى قلبه مِنْ حُبٍّ لأخيه ، وكلاَّ . . أَنْ يكونَ عن المحبوبِ بَدَلٌ أو لقوم مقامُ أحدٍ . . وفى معناه أنشدوا :

إذا أَوْصَلْتَنَا الخُلْدَ كيما تُذِيقنا أَبَيْنا وقُلْنا : أنتَ أَوْلَى إلى القلب

وقيل :

أُحِبُّ لَيْلَى وبغِّضَتْ إلىَّ نساء ما لَهُنَّ ذُنُوبُ

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا استيأسوا منه خَلَصُوا نَجِيًّا قال كبيرُهم أَلَمْ تعلموا أَنَّ أباكم قد أَخَذَ عليكم مَوْثِقاً مِنَ اللهِ ومن قبلُ ما فَرَّطتُم فى يوسفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأرضَ حتَّى يأذَنَ لى أبى أو يَحْكُمَ الله لى وهو خيرُ الحاكمين ﴾ .

لما عَلِموا أن يوسف عليه السلام ليس يبرح عن أخيه خلا بعضُهم ببعضٍ فعملت فيهم الخجلة ، وعلموا أن يعقوب فى هذه الكَرَّةِ يتجدد له مثلما أسلفوه من تلك الفَعْلة ، فلم يرجع ، أكبرهم إلى أبيهم ، وتناهى إلى يعقوبَ خَبَرُهم ، فاتهمهم وماصدّقهم ، واستخونهم وماااستوثقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إرجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إنَّ ابنَك سَرَقَ وما شَهِدْنا إلا بماعَلِمْنا وما كُنَّا للغيبِ حافظين ﴾

كان لهم فى هذه الكَرَّةِ حجة على ما قالوه ، ولكن لم يسكن قلبُ يعقوب عليه السلام إليها ، فإنَّ تعيُّنَ الجُرْمِ فى المرة الأولى أَوْجَبَ التُّهمةَ فى الكَرَّةِ الأخرى .

قوله جل ذكره : ﴿ واسأل القريةَ التى كُنَّا فيها والعيرَ التى أقبلنا فيها وإنّا لصادقون ﴾

ما ازدادوا إقامةَ حُجَّةٍ إلا ازداد يعقوبُ — عليه السلام — فى قولهم شُبْهَةً .

ويقال: فى مُساءلة الأطلال أُخذٌ لقلوب الأحباب، وسَلْوَةٌ لأسرارهم.. وهذا الباب مما للشرح فيه مجال.

قوله جل ذكره ﴿قال بل سَوَّلَتْ لكم أنفُسُكُم أمراً فَصَبْرٌ جميلٌ عسى اللهُ أن يأتيني بهم جميعاً﴾

لجأ إلى قُرْبِ خلاصه من الضُرِّ بالصبر.

ويقال لما وعد من نفسه الصبر فلم يُمْسِ حتى قال: «يا أسفا على يوسف» ليُعْلَمَ أنَّ عَزْمَ الأحبابِ على الصبر منقوضٌ غيرُ محفوظ[1].

قوله جل ذكره: ﴿وتولَّى عنهم وقال يا أَسَفَا على يوسف وابيَضَّتْ عَيْناه من الحُزْنِ فهو كظيم﴾

تولَّى عن الجميع — وإن كانوا أولادَه — ليُعْلَمَ أنَّ المحبةَ لا تُبْقِى ولا تَذَر.

ويقال أراد إخوةُ يوسفَ أن يكونَ إقبالُ يعقوب عليهم بالكلية فأَعْرَضَ، وتولَّى عنهم، وفاتَهُم ما كان لهم، ولهذا قيل: مَنْ طَلَبَ الكلَّ فاته الكلُّ.

ويقال لم يَجِدْ يعقوبُ مُساعِداً لنفسِه على تأسفه على يوسف فتولَّى عن الجميع، وانفرد بإظهار أسفه، وفى معناه أنشدوا:

فريدٌ عن الخِلاَّنِ فى كل بلدةٍ إذا عَظُمَ المطلوبُ قَلَّ المُساعِدُ

ويقال كان بكاء داود عليه السلام أكثرَ من بكاء يعقوب عليه السلام، فلم يذهب بَصَرُ داود وذهب بَصَرُ يعقوب، لأن يعقوب عليه السلام بكى لأَجْلِ يوسف ولم يكن فى قدْرةِ

---

(١) يوضح القشيرى هذا المعنى فى رسالته حيث يقول: [واعلم أن الصبر على ضربين: صبر العابدين وصبر المحبين، فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظاً وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضاً، وفى هذا المعنى سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول: أصبح يعقوب وقد وعد من نفسه — فصبر جميل — ثم لم يمس حتى قال. يا آسفاً على يوسف] الرسالة ص ٩٥.

يوسف أن يحفظَ بصره من البكاء لأجله ، وأمَّا داود فقد كان يبكى لله ، وفى قدرة الله — سبحانه — ما يحفظ بَصَرَ الباكى لأَجْلِه .

سمعتُ الاستاذ أبا على الدقاق — رحمه الله — يقول ذلك ، وقال رحمه الله : إن يعقوبَ بكى لأجل مخلوقٍ فذهب بَصَرُه ، وداود بكى لأَجْلِ الله فبقى بَصَرُه .

وسمعته — رحمه الله — يقول : لم يقل الله : « عَمِىَ يعقوب » ولكن قال : « وابيضَّتْ عيناه » ، لأنه لم يكن فى الحقيقة عَمىً ، وإنما كان حجاباً عن رؤية غير يوسف(١) .

ويقال كان ذهابُ بصرِ يعقوب حتى لا يحتاج إلى أن يرى غير يوسف ، لأنه لا شىء أشدُّ على الأحبابِ من رؤية غير المحبوب فى حال فراقه ، وفى معناه أنشدوا :

لما تَيَقَّنْتُ أنى لَسْتُ أُبْصرِكم أغمضتُ عينى فلم أنظر إلى أحد

وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله يقول : كان يعقوب عليه السلام يتسلَّى برؤية بنيامين فى حال غيبة يوسف ، فلما بقى عن رؤيته قال : « يا أسفا على يوسف» أى أنه لما مُنِعَ من النظر كان يتسلى بالأثر ، فلمَّا بقى عن النظر قال : يا أسفا على يوسف .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا تالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يوسفَ حتى تكونَ حَرَضاً أو تكونَ من الهالكين ﴾

هددوه بأن يصير حرضاً — أى مريضاً مشفياً على الهلاك — وقد كان ، وخوفُّوه مما لم يبالِ أن يصيبه حيث قالوا « أو تكون من الهالكين » .

ويقال أطيب الأشياء فى الهلاكِ ما كان فى حكم الهوى — فكيف يُخَوَّفُ بالهلاكِ من كان أحبُّ الأشياءِ إليه الهلاكَ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قال إنَّما أشكو بَثِّى وحُزْنى إلى اللهِ وأعلم مِنَ الله مالا تعلمون ﴾

شكا إلى الله ولم يَشْكُ مِنَ اللهِ ، ومَنْ شكا إلى الله وَصَلَ ، ومَنْ شكا من الله انفصل .

---

(١) هذا نموذج من التذوق للنص القرآنى لا يفطن إليه إلا أرباب الذوق الصوفى .

ويقال لمَّا شكا إلى الله وَجَدَ الخَلَفَ من الله .

ويقال كان يعقوبُ — عليه السلام — مُتَحمِّلاً بنفسه وقلبه ، ومستريحاً محمولاً بِسِرِّه وروحه ؛ لأنه عَلِمَ من الله — سبحانه — صِدْقَ حالِه فقال : « وأعلم من الله مالا تعلمون » ، وفى معناه أنشدوا :

إذا ما تمنَّى الناسُ روْحاً وراحةً تمنَّيْتُ أن أشكو إليكَ فَتَسْمَعَا

قوله جل ذكره : ﴿ يا بَنِيَّ إذهبوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يوسفَ وأخيه ولا تيأسوا من رَوْحِ اللهِ إنَّه لا ييأسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلا القومُ الكافرون ﴾

كان يعقوب عليه السلام يبعث بنيه فى طلب يوسف ، وكان الإخوة يخرجون بطلب الميرة وفى اعتقادهم هلاكُ يوسف . . وكلٌّ إنسانٍ وهمُّه .

ويقال قوله « فتحسسوا من يوسف وأخيه » أمرٌ بطلب يوسف بجميع حواسِّهم ؛ بالبَصَرِ لعلَّهم تقع عليه أعينهم ، وبالسَّمْعِ لعلَّهم يسمعون ذِكْرَه ، وبالشمِّ لعلَّهم يجدون رِيحَه ؛ وقد توهَّم يعقوبُ أنهم مثله فى إرادةِ الوقوفِ على شأنه . ثم أحالهم على فضل الله حيث قال : « لا ييأس من روْح الله إلا القوم الكافرون » .

ويقال لم يكن ليعقوب أحدٌ من الأولاد بمكان يوسف ، فظَهَرَ من قِلَّةِ الصبرِ عليه ما ظهر ، وآثَرَ غَيْبَةَ الباقين من الأولاد فى طلب يوسف على حضورهم عنده . . فشتَّان بين حاله معهم وبين حاله مع يوسف ! واحدٌ لم يَرَهْ فابْيَضَّتْ عيناه من الحزن بفرقته ، وآخرون أَمَرَهُم — باختياره — بِغَيْبَتِهِم عنه[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مَسَّنَا وأهْلَنَا الضُّرُّ وجئنا ببضاعةٍ

---

(١) هنا لفتة ذكية إلى أننا قد نحب ونهلك في حب من لا تراه أعيننا .. فإذا صح هذا بالنسبة لمخلوق مثلنا فكيف بالنسبة لبارئنا وخالقنا ! ! ؟
ثم إن التقريب والإبعاد يرتبطان بالاجتباء الإلهى وحده .

مُزْجاةٍ فأوفِ لنا الـكَيْلَ وتَصَدَّقْ
علينا إنَّ اللهَ يجزى المتصدقين ﴾

لما دخلوا على يوسف خاطبوه بذكر الضُّرِّ ، ومقاساة الجوع والفقر ، ولم يذكروا حديث يوسف عليه السلام ، وما لأجله وَجَّهَهُم أبوهم .

ويقال استلطفوه بقولهم : « مَسَّنَا وأهلنا الضُّرُّ » ثم ذكروا بعد ذلك حديث قلة بضاعتهم .

ويقال لَمَّا طالعوا فقرهم نطقوا بِقَدْرِهم فقالوا : وجئنا ببضاعة مزجاةً — أى رديئة — ولما شاهدوا قَدْرَ يوسفَ سألوا على قَدْرِه فقالوا : أوفِ لنا الـكيْلَ .

ويقال قالوا كِلْنا كَيْلاً يليق بفضلِكَ لا بفقرنا ، وبكرمِك لا بِعَدِمِنا ، ثم تركوا هذا اللسان وقالوا : « وتصدَّق علينا » : نَزَلوا أوْضعَ مَنْزِلٍ ؛ كأنهم قالوا : إنْ لم نستوجِبْ معاملةَ البيعِ والشراء فقد استحققنا بَذْلَ العطاءِ ، على وجه المـكافأة والجزاء .

فإنْ قيل كيف قالوا وتصدَّقْ علينا وكانوا أنبياءَ — والأنبياء لا تحل لهم الصدقة ؟ فيقال لم يكونوا بعد أنبياء ، أو لعلّه فى شرعهم كانت الصدقةُ غيرَ مُحَرَّمةٍ على الأنبياء .

ويقال إنما أرادوا أنَّ مِنْ ورائنا مَنْ تَحِلُّ له الصدقة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف
وأخيه إذْ أنتم جاهِلون ﴾

افتضحوا بحضرة يوسف عليه السلام وقالوا : « فأَوْفِ لنا الـكيْلَ » فعرفهم فعلمهم ووقفهم عند أحدهم فقال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ؟ يعنى إنَّ مَنْ عَامَلَ يوسفَ وأخاه بمثل معاملتكم فلا ينبغى له أن يتجاسَرَ فى الخطاب كتجاسركم .

ويقـال إن يوسف عليه السلام قال لهم : أنهيتم كلامكم ، وأكثرتم خطابكم ، فـا كان فى حديثـكم إلا ذكر ضرورتـكم . . أفلا يخطر ببالـكم حديث أخيكم يوسف ؟ ! وذلك فى باب العتابِ أعظم من كلِّ عقوبة .

ولمّا أخجلهم حديث العتاب لم يَرْضَ يوسفُ حتى بسط عنـدهم فقال : « إذ أنتم جاهلون »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أإنك لأنت يوسفُ قال :
أنا يوسفُ وهذا أخي قد مَنَّ اللهُ
علينا إنَّه مَنْ يتَّقِ ويَصْبِرْ فإن اللهَ
لا يُضيعُ أجْرَ المحسنين ﴾

فى الابتداء حين جهلوه كانوا يقولون له فى الخطاب : « يأيها العزيز » فلمّا عرفوه قالوا : « إنَّكَ لأنت يوسف » ؛ لأنه لَمّـا ارتفعت الأجنبيةُ سقط التـكلُّفُ فى المخاطبـة ، وفى معناه أنشدوا :

إذا صَفَتْ المودَّةُ بين قومٍ ودام ودادُهم قَبُحَ الثناء

ويقال إنَّ التفاصُلَ والتفارُقَ بين يوسف وإخوته سَبَقا التواصلَ بينه وبين يعقوب عليهما السلام ؛ فالإخوةُ خَبَرَه عرفوه قبلَ أَنْ عَرَفَه أبوه ليعلَمَ أن الحديث بلا شك .

ويقال لم يتقدموا على أبيهم فى استحقاق الخبر عن يوسف ومعرفته ، بل إنهم ـ وإن عرفوه ـ فلم يلاحظوه بعين المحبة والخلة ، إنما كان غرضُهم حديثَ الميرة والطعام فقط ، فقال : « أنا يوسف وهذا أخي » : يعنى إنى لَأَخٌ لِمثْلِ هذا لا لمثلـكم ؛ ولذا قال : « أنا يوسف وهذا أخي » ، ولم يقل وأنتم إخوتى ، كأنَّه أشار إلى طرفٍ من العتاب ، يعنى ليس ما عاملتمونى به فِعْلَ الإخوة .

ويقال هَوَّنَ عليهم حالَ بَدَاهَةِ[2] الخجلة حيث قال « أنا يوسف» بقوله : «وهذا أخي» ، وكأنه شَغَلَهم بقوله : « وهذا أخي » كما قيل فى قوله تعالى : « وما تلك بيمينك يا موسى » إنه سبحانه شَغَلَ موسى عليه السلام باستماع : « وما تلك بيمينك يا موسى » بمطالعة العصا فى عين ما كوشِف به من قوله : « إنى أنا الله » .

---

(١) واضح أن القشيرى يطبق فـكرة القبض والبسط فى هذه الإشارة .
(٢) بداهة الخجلة = مفاجأتها

ثم اعترف بوجدان الجزاء على الصبر فى مقاساة الجهد والعناء فقال : « إنه مَنْ يتّقِ ويصبرْ فإنَّ اللهَ لا يضيع أجر المحسنين » .

وسمعتُ الأستاذ أبا على الدقاق ـ رحمه الله ـ يقول لما قال يوسف : « إنَّه من يتقِ ويصبر» أحالَ فى استحقاق الأجر على ما عمل من الصبر . . . فأنطقهم الله حتى أجابوه بلسان التوحيد فقالوا : « تاللهِ لقد آثرك اللهُ علينا » يعنى ليس بِصَبْرِكَ يا يوسفُ ولا بتقواك ، وإنما هو بإيثارِ اللهِ إياك علينا ؛ فبه تقدمت علينا بجهدك وتقواك . فقال يوسف ـ على جهة الانقياد للحقِّ : «لا تثريبَ عليكم اليوم» ؛ فأسقط عنهم اللوم ، لأنه لمَّا لم يرَّ تقواه من نفسه حيث نبهّوه عليه نَطَقَ عن التوحيد ، وأخبر عن شهود التقدير[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا تاللهِ لقد آثَرَكَ اللهُ علينا وإنْ كُنَّا لخاطئين ﴾

اعترفوا بالفضل ليوسف — عليه السلام — حيث قالوا : لقد آثرك الله علينا ، وأكّدوا إقرارَهم بالقَسَمِ بقولهم « تالله » وذلك بعد ماجحدوا فَضْلَه بقولهم : « ليوسف وَأَخُوهُ أحبُّ إلى أبينا منَّا ونحن عصبة إنَّ أبانا لفى ضلالٍ مبين » ، وهكذا مَنْ جَحَدَ فلأنه ما شهد ، ومن شهد فما جحد .

ويقال لمَّا اعترفوا بفضله وأقرُّوا بما اتصفوا به من جُرْمِهم بقولهم : « وَإن كنا لخاطئين» وجدوا التجاوزَ عنهم حين قال يوسف :

﴿ قال لا تثريبَ عليكم اليومَ يَغْفِرُ اللهُ لكم وهو أرحمُ الراحمين ﴾

أسرع يوسفُ فى التجاوز عنهم ، وَوَعَدَ يعقوبُ لهم بالاستغفار بقوله : « سوف أستغفر لكم ربى » لأنه كان أشدَّ حباً لهم فعاتبهم ، وأما يوسف فلم يرهم أهلاً للعتاب فتجاوز عنهم على الوهلة ، وفى معناه أنشدوا :

تركُ العتابِ إذا استحق أخ منك العتابَ ذريعةُ الهجْرِ

(١) خلاصة رأى الدقاق أنه ليس بعمل الإنسان يصل ولكن بفضل الله واختياره ، وحتى عمل الإنسان فهو أيضاً يتم بفضل الله واختياره . . وذلك أصل من أصول المذهب القشيرى كما وضح فى مواضع متفرقة.

ويقال أصابهم — فى الحال — مِن الخجلة ما قام مقام كلّ عقوبة ، ولهذا قيل :

كفى للمقصِّر الحياء يوم اللقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ إذهبوا بقميصى هذا فألقُوه على وجهِ أبى يأتِ بصيراً وأْتُونى بأهلِكم أجمعين ﴾

البلاء إذا هَجَمَ هَجَمَ مرَّةً ، وإذا زال زال بالتدريج ؛ حلَّ البلاء بيعقوب مرةً واحدةً حيث قالوا : « فأكله الذئب» ولما زال البلاء .. فأولاً وَجَدَ ريحَ يوسفَ عليه السلام ، ثم قميص يوسف ، ثم يوم الوصول بين يدى يوسف ، ثم رؤية يوسف .

ويقال لمَّا كان سببُ البلاءِ والعمى قميصَ يوسف أراد اللهُ أن يكونَ به سَبَبُ الخلاص من البلاء[1] .

ويقال علم أن يعقوب عليه السلام — لِمَا يلحقه من فَرْطِ السرور — لا يطيقه عند أخذ القميص فقال : « فألقوه على وجه أبى » .

ويقال القميص لا يصلح إلا للباس إلا قميص الأحباب فإنه لا يصلح إلا لوجدان ريح الأحباب .

ويقال كان العمى فى العين فأمر بإلقاء القميص على الوجه ليجدَ الشفاء من العمى .

ويقال لمَّا كان البكاء بالعين التى فى الوجه كان الشفاء فى الإلقاء على العين التى فى الوجه ، وفى معناه أنشدوا :

وما بات مطوياً على أريحية عُقَيب النَّوى إلا فتىً ظلَّ مغرماً

وقوله « وأتونى بأهلِكم أجمعين » : لما عَلِمَ حزنَ جميعِ الأهلِ عليه أراد أن يشترك فى الفرح جميعُ من أصابهم الحزن .

---

(١) ويضاف إلى ذلك أن عدم تمزق قميص يوسف كان دلالة على براءة الذئب ، وأن تمزقه من دبر كان دلالة على براءة يوسف من تهمة زليخا ، وبهذا وذاك يمكن أن يكون قميص يوسف رمزاً لموحيات كثيرة فى القصة .

ويقال عَلِمَ يوسفُ أن يعقوبَ لن يطيق على القيام بكفاية أمور يوسف فاستحضَرَه ، إبقاء على حالِه لا إخلالاً لِقَدْرِه وما وَجبَ عليه من إجلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا فَصَلَتْ العيرُ قال أبوهم إنِّى لأَجِدُ ريحَ يوسفَ ﴾ .

ما دام البلاء مُقْبِلاً كان أمرُ يوسفَ وحديثُه — على يعقوب — مُشْكلاً ، فلما زالت المحنة بعثرت بكل وجهٍ حاله .

ويقال لم يكن يوسف بعيداً عن يعقوب حين ألقوه فى الُجبِّ ولكن اشتبه عليه خَبَرُه وحالُه ، فلما زال البلاء وَجدَ ريحَه وبينهما مسافة ثمانين فرسخاً — من مصر إلى كنعان .

ويقال إنما انفرد يعقوبُ عليه السلام بوجدان ريح يوسف لانفراده بالأسف عند فقدان يوسف . وإنما يجد ريح يوسف مَنْ وَجَدَ على فراق يوسف[1] ؛ فلا يعرف ريحَ الأحبابِ إلا الأحبابُ ، وأمَّا على الأجانب فهذا حديثٌ مُشْكِل . . إذ أنَّى يكون للإنسان ريح ؟! .

ويقال لفظ الريح هاهنا توسع[2] ، فيقال هبَّتْ رياحُ فلانٍ ، ويقال إنى لأَجِدُ ريحَ الفتنة . . وغير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ لولا أَنْ تفنِّدُون ﴾

تَفَرَّسَ فيهم أنهم يبسطون لسان الملامة فلم ينجع فيهم قولُه ، فزادوا في الملامة فقالوا : —

﴿ قَالوا تاللهِ إنَّكَ لَفِى ضلالِكَ القديم ﴾

قرنوا كلامهم بالشتم ، ولم يحتشموا أباهم ، ولم يُراعوا حقَّه فى المخاطبة ، فوصفوه بالضلال فى المحبة .

ويقال إن يعقوب عليه السلام قد تعرَّف من الريح نسيمَ يوسف عليه السلام ، وخبر يوسف كثر حتى جاء الإذن للرياح ، وهذه سُنَّةُ الأحباب : مساءلة الديار ومخاطبة الأطلال ، وفى معناه أنشدوا :

---

(١) لاحظ الجمال فى أسلوب القشيرى فى (يجد) ريح يوسف و (وجد) على فراقه .

(٢) كلمة (توسع) يستخدمها القشيرى بمعنى (مجاز) — ذلك الاصطلاح البلاغى المعروف .

وإنِّي لأستهدي الرياح نسيمكم إذا هي أقبلتْ نحوكم بِهُبُوب

واسألها حَمْلَ السلامِ إليكمُ فإنْ هي يوماً بلَغتْ فأجيبُوا

قوله جل ذكره: ﴿ فلمَّا أنْ جاء البشيرُ ألقاه على وجهِهِ فارتدَّ بصيراً قال ألَمْ أقُلْ لكم إني أعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تعلمون ﴾

لو أُلقِيَ قميصُ يوسف على وجه مَنْ في الأرض مِنَ العميان لم يرتد بصرهم، وإنما رجع بصرُ يعقوب بقميص يوسف على الخصوص؛ فإنَّ بَصَرَ يعقوبَ ذهب لفراق يوسف، ولمَّا جاءوا بقميصه أنْطَقَ لسانَه، وأوْضَحَ برهانَه، فقال لهم: «ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون» عن حياة يوسف، وفي معناه أنشدوا:

وَجْهُكَ المأمولُ حُجَّتُنا يومَ يأتي النَّاسُ بالحجج

قوله جل ذكره: ﴿ قَالُوا يا أبانا استغفِرْ لنا ذنوبَنا إنَّا كنا خاطئين ﴾

كلٌّ إنسانٍ وهمُّه؛ وَقَعَ يعقوبُ ويوسفُ عليهما السلام في السرور والاستبشار، وأخَذَ إخوةُ يوسف في الاعتذارِ وطَلَبِ الاستغفار.

ويقال إخوة يوسف — وإنْ سَلَفَتْ منهم الجفوة كلَّموا أباهم بلسان الانبساط لتقديم شفقةِ الأبوةِ على ماسَبَقَ منهم من الخطيئة.

ويقال يومٌ بيومٍ؛ اليوم الذي كان يعقوب محزوناً بغيبة يوسف فلا جَرَمَ اليوم كان يعقوب مسروراً بقميص يوسف، وكان الإخوة في الخجلة مما عملوا بيوسف.

قوله جل ذكره: ﴿ قال سوف أستغفِرُ لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾

وَعدَهمُ الاستغفارَ لأنه لم يفْرَغْ من استبشاره إلى الاستغفار.

ويقال لم يُجِبْهُم على الوهلة ليدلَّهم على ما قدَّمُوا من سوء الفَعْلةِ؛ لأن يوسفَ كان غائباً

وقتئذٍ ، فوعدهم الاستغفارَ فى المستأنَف — إذا رضِىَ عنهم يوسف حيث كان الحقُّ أكثرُه له ، ولو كان كله ليعقوب لوهبهم على الفور .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا دَخَلوا على يوسفَ آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصرَ إنْ شاء اللهُ آمنين ﴾

اشتركوا فى الدخول ولكن تباينوا فى الإيواء ، فانفرد الأبَوَان به لِبُعْدِهما عن الجفاء ، كذلك غداً إذا وصلوا إلى الغفران يشتركون فى وجود الجنان ، ولكنهم يتباينون فى بساط القربة فيختص به أهل الصفاء دون من اتصف اليوم بالاستواء .

قوله جل ذكره : ﴿ ورَفَعَ أبويه على العرشِ وخرُّوا له سُجَّدَاً وقال يا أبَتِ هذا تأويلُ رؤياى مِن قَبْلُ قد جعلها ربى حَقّاً ﴾

أوقف كُلاًّ بمحلّه ؛ فرفَعَ أبويه على السرير ، وتَرَكَ الإخوةَ نازلين بأماكنهم .

قوله : « وخرُّوا له سُجَّداً » : كان ذلك سجودَ تحيةٍ ، فكذلك كانت عادتهم . ودَخَلَ الأَبَوان فى السجود — فى حقِّ الظاهر — لأنَّ قوله « خرُّوا » إخبارٌ عن الجميع ، ولأنه كان عن رؤياه قد قال : إنّى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » وقال هاهنا : « هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقاً » .

قوله جل ذكره : ﴿ وقد أَحْسَنَ بى إذْ أخرجنى من السجن وجاء بكم مِنَ البدو مِنْ بعد أن نَزَغَ الشيطانُ بينى وبين إخوتى إنَّ ربى لطيفٌ لما يشاء إنَّه هو العليم الحكيم ﴾

شهد إحسانه فَشَكَرَه . . كذلك مَنْ شهد النعمة شَكَرَ ، ومَنْ شهد المُنْعِمَ حمده[1] .

وذَكَرَ حديثَ السجن — دون البئر — لطول مدة السجن وقلة مدة البئر .

وقيل لأن فيه تذكيرا بجُرْمِ الإخوة وكانوا يخجلون . وقيل لأن « السجن أحب إلىَّ مما يدعوننى إليه » . وقيل لأنه كان فى البئر مرفوقاً به والمبتدئ يُرفَقُ به وفى السجن فَقَدَ ذلك الرِّفق لقوة حاله ؛ فالضعيف مرفوقٌ به والقوىُّ مُشَدَّدٌ عليه فى الحال ، وفى معناه أنشدوا :

وأسررتنى حتى إذا ما سَبَبْتَنِي ... بقولٍ يحل العُصْم سهلَ الأباطح
تجافيتَ عنِّي حين لا لِى حيلة ... وغادرت ما غادرت بين الجوانح

وفى قوله : « وجاء بكم من البدو » إشارة إلى أنه كما سُرَّ برؤية أبويه سُرَّ بإخوته — وإنْ كانوا أهل الجفاء ، لأَنَّ الأُخُوَّة سَبَقَتْ الجفوة[2] .

قوله : « من بعد أن نزغ الشيطانُ بينى وبين إخوتى » أظهر لهم أمرهم بما يشبه العذر ، فقال كان الذى جرى منهم من نزعات الشيطان ، ثم لم يرض بهذا حتى قال : « بينى وبين إخوتى » ، يعنى إن وَجَدَ الشيطان سبيلا إليهم ، فقد وجد أيضاً إلىَّ حيث قال : « بينى وبين إخوتى » .

ثم نطق عن عين التوحيد فقال : « إنَّ ربى لطيف لما يشاء » فبلطفه عصمهم حتى لم يقتلونى .

قوله جل ذكره : ﴿ ربِّ قد آتيتنى مِن المُلْكِ وعلمتنى من تأويلِ الأحاديث

من حرف تبعيض ؛ لأن المُلك — بالكمال — لله وحده .

ويقال المُلْكُ الذى أشار إليه قسمان : مُلْكُهُ فى الظاهر من حيث الولاية ، ومُلْكٌ على نفسه حتى لم يعمل ما همَّ به من الزَّلَّة .

---

(١) أى إن (الحمد) أعلى درجة من (الشكر) . . وهكذا ترى البحوث الصوفية اللغة .

(٢) وبما يرمى القشيرى من بعيد إلى أن يشير إلى أن الحق — سبحانه — يتفضل بكرمه على عباده — حتى ولو كانت منهم جفوة — لأنهم عباده أولا . . وإلى هذا يشير فى موضع آخر من كتابه : « عبدى . . إن لم تكن لى . فأنا لك »

ويقال ليس كلُّ مُلْكِ المخلوقين الاستيلاء على الخلْق ، إنما المُلْكُ — على الحقيقة — صفاء الخُلُق .

قوله : « وعلمتنى من تأويل الأحاديث » : التأويل للخواص ، وتفسير التنزيل للعوام[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فاطر السموات والأرضِ أَنْتَ
وَلِيِّ فى الدنيا والآخرة تَوَفَّنِي مُسْلِماً
وأَلْحِقْنى بالصَّالحين ﴾

« فاطر السموات والأرض » — هذا ثناء ، وقوله : « توفَّنى » — هذا دعاء .

فَقَدَّمَ الثناء على الدعاء ، كذلك صفة أهل الولاء .

ثم قال : « أنت وليي فى الدنيا والآخرة ، هذا إقرارٌ بِقَطْعِ الأسرار عن الأغيار .

ويقال معناه : الذى يتولَّى فى الدنيا والآخرة بعرفانه أنتَ ؛ فليس لى غيرك فى الدارين .

قوله : « توفنى مسلماً » : قيل عَلِمَ أنه ليس بعد الكمال إلا الزوال فسألَ الوفاة .

وقيل من أمارات الاشتياق تمنِّي الموت على بساط العوافى[2] مثل يوسف عليه السلام أُلْقِيَ فى الجُبِّ فلم يقل توفنى مسلماً ، وأُقيم فيمن يزيد[3] فلم يقل توفنى مسلماً ، وحُبِسَ فى السجن سنين فلم يقل توفنى مسلما ، ثم لما تمَّ له المُلْكُ ، واستقام الأمر ، ولَقِيَ الإخوةَ سُجَّداً ، وأَلْقَى أبويه معه على العرش قال :

« توفَّني مسلماً » ، فعُلِمَ أنه كان يشتاق للقائه (سبحانه) .

وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق — رحمه الله يقول . قال يوسف ليعقوب : عَلِمْتَ أنَّا نلتقى فيما بعد الموت . . فلِمَ بكيْتَ كلَّ هذا البكاء ؟

---

(١) تصلح هذه العبارة لتوضيح الفرق — فى نظر القشيرى — بين كلمتى التأويل والتفسير .

(٢) هذه العبارة والاستشهاد عليها من قصة يوسف أوردها القشيرى منسوبين لشيخه الدقاق فى الرسالة ص ١٦٣ .

(٣) (أقيم فيمن يزيد) لم ترد فى النص السابق بالرسالة . ومعناها : نودى عليه ليباع كالعبيد بعد إخراجه من البئر .

فقال يعقوب ، يا بُنَيّ إنَّ هناك طرُقا ، خِفْتُ أن أسلكَ طريقاً وأنت تسلك طريقاً ، فقال يوسف عند ذلك : « توفَّني مسلماً » .

ويقال إن يوسف — عليه السلام — لما قال : توفني مسلماً ، فلا يبعد من حال يعقوب أن لو قال : يا بنى دَعْني أشتفى بلقائك من الذى مُنِيتُ به فى طول فراقك ، فلا تُسْمِعْنى — بهذه السرعة — قولَكَ : توفَّني مسلماً .

قوله جلَّ ذكره . ﴿ ذلك مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نوحيه إليكَ وما كُنْتَ لديهم إذْ أجمعوا أمرهم وهم يَمْكُرون ﴾ .

تبيّن للكافة أن مثل هذا البيان لهذه القصة على لسان رجلٍ أمىٍّ لا يكون إلا بتعريف سماوىّ .

ويقال كونُ الرسولِ — صلى الله عليه وسلم — أُميًّا فى أول أحواله علامةُ شَرَفِهِ وعلوِّ قدْرِهِ فى آخر أحواله ، لأنَّ صِدْقَهُ فى أن هذا من قِبَلِ اللهِ إنما عُرِفَ بكونه أميا ، ثم أتى بمثل هذه القصة من غير مدارسة كتاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أكثرُ الناسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بمؤمنين ﴾

أخبر عن سابق علمه بهم ، وصادق حُكْمِهِ حكمته فيهم .

ويقال معناه : أَقَمْتُكَ شاهداً لإرادة إيمانهم ، وشِدَّةِ الحِرْصِ على تحقُّقِهم بالدِّين وإيقانهم . ثم إنِّى أعلم أنهم لا يؤمن أكثرُهم ، وأخبرتك بذلك ، وفُرِضَ عليكَ تصديقى بذلك ، وفرضتُ عليك إرادتى كونَ ما عَلِمْتُ أنه لا يكون من إيمانهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا تسألُهم عليه مِنْ أجرٍ إنْ هو إلا ذِكْرٌ للعالَمِين ﴾

هذه سُنَّةُ اللهِ — سبحانه — مع أنبيائه حيث أَمَرَهُم بألا يأخذوا على تبليغ الرسالة

عوَضا ولا أجراً ، وكذلك أمره للعلماء — الذين هم وَرثةُ الأنبياء عليهم السلام — بألاّ يأخذوا مِنَ الخلْقِ عِوَضا على دعائهم إلى الله . فمَنْ أخذ منهم حظا من الناس لم يُبارَكْ للمستمِع فيما يسمع منه ، فلا له أيضا بركة فيما يأخذ منهم فتنقطع به .

قوله جل ذكره : ﴿وكأيِّن مِنْ آيةٍ في السمواتِ والأرضِ يمرُّون عليها وهم عنها مُعْرِضون﴾ .

الآياتُ ظاهرة ، والبراهين باهرة ، وكلُّ جزْءٍ من المخلوقات شاهِدٌ على أنَّه واحد ، ولكن كما أنَّ مَنْ أغْمَضَ عينه لم يستمتع بضوء نهاره فكذلك مَنْ قَصَّرَ في نَظَرِه واعتباره لم يحظَ بعرفانه واستبصاره .

قوله جل ذكره : ﴿وما يؤمِنُ أكثرُهم باللهِ إلا وهم مشرِكون﴾ .

الشِّرْكُ الجَلِيُّ أن يتَّخِذَ من دونه — سبحانه — معبوداً ، والشِّرْكُ الخفِيُّ أن يتخذ بقلبه عند حوائجه من دونه — سبحانه — مقصوداً .

ويقال شِرْكُ العارفين أن يتخذوا من دونه مشهوداً ، أو يطالعوا سواه موجوداً[1] .

ويقال مِنَ الشِّركِ الخفيِّ الإحالةُ على الأشكال في تجنيس الأحوال ، والإخلاد إلى الاختيار والاحتيال[2] عند تزاحم الأشغال .

قوله جل ذكره : ﴿أفأَمِنُوا أنْ تأتيَهم غاشيةٌ من عذاب الله أو تأتيَهم الساعةُ بغتةً وهم لا يشعرون﴾

أفأَمِنَ الذى اغترَّ بطول الإمهال ألا يُبْتلى بالاستئصال ، أفأَمِنَ مَنْ اغترَّ بطول السلامة ألا يقوم البلاء عليه يومَ القيامة .

---

(١) أى (موجوداً) على الحقيقة .

(٢) (الاحتيال) معناها اللجوء إلى الحيلة أى التدبير الإنسانى بل ينبغى إسقاط التدبير واللجوء إلى التقدير الإلهى .

ويقال الغاشيةُ حجابٌ من القسوة يحصل فى القلب، لايزول بالتضرع ولا ينقشع بالتخشع

ويقال الغاشيةُ من العذاب أن تزولَ من القلب سرعةُ الانقلاب إلى الله تعالى ، حتى إذا تمادى صاحب الغفلة استقبله فى الطريق ما يوجب قنوطه من زواله ، وفى معناه أنشدوا :

قلتُ للنَّفسِ إنْ أردتِ رجوعاً فارجعى قَبْلَ أَنْ يُسَدَّ الطريقُ

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومَنْ اتَّبَعَنِي وسبحانَ اللهِ وما أنا مِنَ المشركين ﴾

« البصيرة » : اليقين الذى لا مِرْيَةَ فيه ، والبيان الذى لاشكَّ فيه . البصيرة يكون صاحبُها مُلَاطَفاً بالتوفيق جَهْرًا ، ومكاشَفاً بالتحقيق سِرًّا .

ويقال البصيرة أن تطلع شموسُ العرفانِ ، فتندرجُ فيها أنوارُ نجومِ العقل .

قوله « أنا ومن اتبعنى » أى ذلك سبيلى، وسبيلُ مَنْ اقتدى بهدى فهو أيضاً على بصيرة .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرسلنا مِنْ قبلِكَ إلا رجالاً نوحِى إليهم مِنْ أهل القُرى أفَلَم يسيروا فى الأرضِ فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم ؟ ولدارُ الآخرةِ خيرٌ للذين اتقوا أفلا تَعْقِلون ﴾ .

تعجبوا أن يبعثَ اللهُ إلى الخلْق بشرًا رسولاً ، فبيَّن أنه أجرى سُنَّته — فيمن تقدَّمَ من الأمم — ألا يكونَ الرسولُ إليهم إلا بَشَرًا ، فإما أن جحدوا جوازَ بعثةِ الرسولِ أصلاً ، أو أنهم استنكروا أن يبعث بشرًا رسولاً .

ثم أمَرَهم بالاستدلال والتفكر والاعتبار والنَّظَر فقال : « أفلم يسيروا فى الأرض . . ؟ »

قوله جل ذكره : ﴿ حتَّى إذا استيأسَ الرُّسُلُ وظنُّوا أنَّهم

قد كُذِبُوا جَاءهُم نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ
نشاء ولا يُرَدُّ بأْسُنا عن القومِ
المجرمين ﴾ .

حتى إذا استيأس الرسلُ مِنْ إيمانِ قومهم ، و تَيقَّنُوا أنهم كذبوهم — والظن ها هنا بمعنى اليقين — فعند ذلك جاءهم نصرُنا ، للرسل بالنجاةِ ولأقوامهم بالهلاك ، ولا مَردَّ(١) لبأسنا

ويقال حكم الله بأنه لا يفتح للمريدين(٢) شيئاً من الأحوال إلا بعد يأسهم منها ، قال تعالى : « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته »(٣) ، فكما أنه يُنَزِّلُ المطَر بعد اليأسِ فكذلك يفتح الأحوالَ بعد اليأس منها والرضا بالإفلاس عنها .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد كان فى قَصصِهم عِبْرةٌ لأُولِى
الألبابِ ، ما كان حديثاً يُفْتَرى
ولكن تصديقَ الذى بين يديه
وتفصيلَ كلِّ شىءٍ وهُدًى ورحْمَةً
لقومٍ يؤمنون ﴾ .

عِبْرةٌ منها للملوكِ فى بَسْطِ العدل كما بسط يوسفُ عليه السلام ، وتأمينهم أحوال الرعية كما فعل يوسف حين أحسن إليهم ، وأعتقهم حين مَلَكَهم .

وعبرة فى قصصهم لأرباب التقوى ؛ فإن يوسفَ لمَّا ترك هواه رقَّاه الله إلى ما رقَّاه .

وعبرةٌ لأهل الهوى فيما فى اتباع الهوى من شدة البلاء ، كامرأة العزيز لمَّا تبعت هواها لقيت الضرَّ والفقر .

وعبرةٌ للمماليك فى حضرة السادة ، كيوسف لما حفظ حرمة زليخا مَلَكَ مُلْكَ العزيز ، وصارت زليخا امرأته حلالاً .

---

(١) سقطت الدال من (لا مرد) فأثبتناها .

(٢) وردت (المرتدين) وهى خطأ فى النسخ فالكلام عن أحوال (المريدين) ، كذلك فإن الله لا يفتح على (المرتدين) شيئاً فهم مغضوب عليهم .

(٣) آية ٢٨ سورة الشورى .

وعبرةٌ فى العفو عند المقدرة ، كيوسف عليه السلام حين تجاوز عن إخوته .

وعبرةٌ فى ثمرة الصبر ، فيعقوب لما صبر على مقاساة حزنه ظفر يوماً بلقاء يوسف عليه السلام[1] .

السورة التى يذكر فيها « الرعد »

بسم الله الرحمن الرحيم

« بسم الله » كلمةٌ سماعُها يُورِثُ لقومٍ طلباً ثم طرباً ، ولقومٍ حزناً ثم هَرَباً ، فَمَنْ سَمِع بشاهد الرجاء طلب وجود رحمته فأُذُنُه لها طَرَب ، ومَنْ سَمِعَ بشاهد الرهبة حزن من خوف عقوبته ثم إليه هرب .

قوله جل ذكره : ﴿ آلمر تلك آياتُ الكتابِ والذى أُنْزِلَ إليكَ مِنْ ربكَ الحقُّ ﴾

أقسم بما تدل عليه هذه الحروف من أسمائه إنَّ هذه آيات الكتاب الذى أخبرتُ أنِّى أُنَزِّلُ عليك

فالألف تشير إلى اسم « الله » ، واللام تشير إلى اسم « اللطيف » ، والميم تشير إلى اسم « المجيد » ، والراء تشير إلى اسم « الرحيم » . فقال بسم الله اللطيف المجيد الرحيم إن هذه آياتُ الكتابِ الذى أخبرتُ أنى أنزله على محمد — صلى الله عليه وسلم . ثم عَطَفَ عليه بالواو قولَه تعالى : « والذى أُنزل إليك من ربك الحق » هو حق وصدق ، لأنه أنزله على نبيِّه — صلى الله عليه وسلم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكنَّ أكثر الناسِ لا يؤمنون ﴾

أى ولكن الأكثر من الناس من أصناف الكفار لا يؤمنون به ، فَهُمْ الأكثرون عدداً ، والأقلون قَدْراً وخَطَراً .

قوله جل ذكره : ﴿ اللهُ الذى رَفَعَ السمواتِ بغير عَمَدٍ ترونها ثم استوى على العرشِ ﴾

---

(1) أحسن القشيرى إذ جعل خاتمة السورة بمثابة خلاصة دقيقة لها ، وأوضح العبرة المستفادة من دور كل شخصية فيها .

دَلَّ على صفاته وذاته بما أخبر به من آياته ، ومن جملتها رفعُ السموات وليس تحتها عمادٌ يَشُدُّها ، ولا أوتادٌ تُمسِكُها . وأخبر فى غير هذه المواضع أنه زَيَّنَ السماء بكواكبها ، وخصَّ الأرض بجوانبها ومناكبها .

« واستوى على العرش » : أى احتوى على مُلْكِه احتواء قُدْرَةٍ وتدبير . والعرشُ هو المُلْكُ حيث يقال : اندكَّ عرشُ فلان إذا زال مُلْكُه .

قوله جل ذكره : ﴿ وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ كلٌّ يجرى لأَجَلٍ مُسَمًّى . . . ﴾

كلٌّ يجرى فى فَلَكٍ . ويدلُّ كل جزء من ذلك على أنه فِعلُ مَلِكٍ فى مُلْكِه غير مشترك .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى مَدَّ الأرضَ وجَعَلَ فيها رواسِيَ وأنهاراً ومِنْ كلِّ الثمرات جَعَلَ فيها زوجين اثنين يُغْشِي الليلَ النهارَ إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يَتَفَكَّرون ﴾

بَسَطَ الأرضَ ودحاها ، والجبالَ أرساها ، وفَجَّرَ عيونها ، وأجرى أنهارها ، وجَنَّسَ بحارها ، ونَوَّعَ من الحيوانات ما جعل البحرَ قرارها ، وأنبت أشجارَها ، وصَنَّفَ أزهارَها وثمارَها ، وكَوَّر عليها ليلَها ونهارَها . . ذلك تقديرُ العزيز العليم .

قوله جل ذكره : ﴿ وفى الأرضِ قِطَعٌ مُتَجاوِرات وجَنَّاتٌ من أعنابٍ وزَرْعٌ ونخيلٌ صِنْوانٌ وغيرُ صِنْوانٍ يُسْقَى بماءٍ واحدٍ ، ونُفَضِّلُ بَعْضَها على بَعْضٍ فى الأُكُلِ إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون ﴾

فَمِنْ سبخٍ[1] ومن حَجَرٍ ومن رملٍ .. أنواع مختلفة، وأزواج متفقة. وزروع ونبات وأشجار أشتات، وأصل الكل واحد، فأجزاؤها متماثلة، وأبعاضها متشاكلة، ولكن جعل بعضها غدقاً[2]، وبعضها قشراً، وبعضها غُصْناً، وبعضها جذعاً، وبعضها أزهاراً، وبعضها أوراقاً .. ثم الكلُّ واحد، وإن كان لكلِّ واحدٍ طبعٌ مخصوص وشكلٌ مخصوص، ولون مخصوص وقشر مخصوص مع أنها تُسْقَى بماءٍ واحدٍ؛ إذ يصل إلى كل جزء من الشجر من الماء مقدارُ ما يحتاج إليه، «ونُفَضِّلُ بعضها على بعض في الأُكُل».

قوله جل ذكره: ﴿وإنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قولُهم أئذا كُنَّا تراباً أئنا لَفِي خَلْقٍ جديدٍ، أولئك الذين كَفَرُوا بربِّهم وأولئك الأغلالُ في أعناقِهم وأولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون﴾

وإن تعجبْ — يا محمد — لقولهم فهذا موضعٌ يُتَعَجَّبُ منه الخَلْق، فالعَجَبُ لا يجوز في صفة الحقِّ[3]، إذ أن التعجبَ الاستبعادُ والحقُّ لا يَسْتَبْعِدُ شيئاً، وإنما أثبت موضعَ التعجب للخَلْق، وحَسَنٌ ما قالوا: «إنما تعجَّبَ مَنْ حُجِبَ» لأنَّ مَنْ يَنَلْ عيونَ البصيرةِ لا يتعجَّبُ مِنْ شيء.

وقومٌ أطلقوا اللفظ بأن هذا من باب الموافقة أي إنك إن تعجب فهذا عجب موافقتك له.
وإطلاق هذا — وإن كان فيه إشارة إلى حالة لطيفة — لا يجوز، والأدبُ السكوتُ عن أمثال هذا. والقوم عبّروا عن ذلك فقالوا: أعجبُ العجبِ قول ما لا يجوز في وصفه العجب .. وإنْ تعجَّب.

وقوله تعالى: «أئذا كنا تراباً أئنا لَفِي خَلْقٍ جديد»: استبعادُهم النشأةَ الثانيةَ — مع إقرارهم بالخَلْقِ الأولِ وهما في معنًى واحد — موضعُ التعجب، إذ هو صريح

(1) السبخ المكان يظهر فيه الملح وتسوخ فيه الأقدام (الوسيط).
(2) الغدق من العشب بلله وريه (الوسيط)
(3) إشارة إلى ما في الآية (فعجب قولهم ..).

فى المناقضة ، وكان القومُ أصحابَ تمييز وتحصيل ، فقياسٌ مثل هذا يدعو إلى العجب. ولكن لولا أن الله — سبحانه — لَبَّسَ عليهم كما قال : « فأغشيناهم فهم لا يبصرون »[1] — وإلا ما كان ينبغى أنْ يخفى عليهم جواز هذا مع وضوحه[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ له مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بين يديه ومِن خَلْفِهِ يحفظونه من أَمْرِ اللهِ ﴾

الكناية فى : « له معقبات » راجعةٌ إلى العبد ، أى أن الله وَكَّلَ بكلٍّ واحدٍ منهم معقباتٍ وهم الملائكة الذين يعقب بعضهم بعضاً بالليل والنهار يحفظون هذا المكلَّف وذاكَ[3] من أمر الله ، أى من البلاء الذى بقدرة الله . يحفظونهم بأمر الله من أمر الله ، وذلك أن الله — سبحانه — وَكَّلَ لكلٍّ واحدٍ من الخَلْق ملائكةً يدفعون عنهم البلاء إذا ناموا وغفلوا ، أو إذا انتبهوا وقاموا ومشوا . . . وفى جميع أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ لا يُغَيِّر مابقومٍ حتّي يُغَيِّروا ما بأنفسِهم وإذا أراد اللهُ بقومٍ سوءًا فلا مَرَدَّ له ، ومَا لَهُم من دُونه مِنْ وَالٍ ﴾

إذا غيَّروا ما بهم إلى الطاعات غيَّر الله ما بهم منه من الإحسان والنعمة ، وإذا كانوا فى نعمة فغيَّروا ما بهم من الشكر لله تغيَّر عليهم ما مَنَّ به من الإنعام فيسلبهم ما وهبهم من ذلك ، وإذا كانوا فى شدة لا يغير ما بهم من البلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أخذوا فى التضرع ، وأظهروا العجز غيَّر ما بهم من المحنة بالتبديل والتحويل .

ويقال إذا غيَّروا ما بألسنتهم من الذِّكْرِ غيَّر الله ما بقلوبهم من الحظوظ فأبدلهم به النسيانَ

---

(١) آية ٩ سورة يس .

(٢) هنا وضع الناسخ علامة على سقوط مساحة من النص ، ومن المؤسف أنه لا يوجد استدراك لذلك فى الهامش ويقع فى هذه المساحة تفسير للآيات من (٥ إلى ١٠) من السورة .

(٣) فى النسخة (وهذا) ولكننا آثرنا أن نجعلها (وذاك) حتى تزيد السياق إيضاحاً ونمنع اللبس إذ ربما يظن أن (وهذا) الثانية مبتدا .

والغفلة ، فإذا كان العبد فى بسطةٍ وتقريبٍ ، وكشفٍ بالقلب وترقب . . فالله لا يُغيِّر ما بأنفسهم بترك أدبٍ ، أو إخلال بحقٍ ، أو إلمام بذنبٍ .

ويقال لا يَكْشِفُ ما أتاحه للعبد من النعمة الظاهرة أو الباطنة حتى يترك ويُغَيِّر ماهو به من الشكر والحمد . فإذا قابل النعمة بالكفران ، وأبدلحضور[1] القلب بالنسيان ومايُطابح به من العصيان . . أبدل اللهُ تعالى ما به من النعمة بالحرمان والخذلان ، وسَلَبَه ما كان يعطيه من الإحسان .

ويقال إذا توالت المحنُ وأراد العبدُ زوالَها فلا يصل إليه النَّفْضُ[2] منها إلاَّ بأَنْ يغير ما هو به ؛ فيأخذ فى السؤال بعد السكوت ، وفى إظهار الجَزَع بعد السكون ، فإذا أخذ فى التضرع غيَّر ما به من الصبر[3] .

قوله : « وإذا أراد الله بقومٍ سوءًا فلا مردَّ له » : يقال إذا أراد اللهُ بقومٍ بلاءً وفتنة فما تعلَّقَتْ به المشيئة لا محالة يجرى .

ويقال إذا أراد الله بقوم سوءًا (. . .)[4] أعينهم حتى يعملوا ويختاروا ما فيه بلاؤهم ، فهم يمشون إلى هلاكهم بأقدامهم ، ويسعون — فى الحقيقة — فى دَمِهِم كما قال قائلهم :

إلى حَتْـفِى مَشَى قدمى إذا قَدَمِى أراق دمى

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى يُرِيكم البرقَ خوفاً وطمعاً ويُنشِئُ السحابَ الثِّقال ﴾

كما يريهم البرقَ — فى الظاهر — فيكونون بين خوفٍ وطمعٍ ؛ خوفٍ من إحباس المطر وطمعٍ فى مجيئه . أو خوفٍ للمسافر من ضرر مجىء المطر ، وطمعٍ للمقيم فى نفعه . . كذلك يُرِيهم البرقَ فى أسرارهم بما يبدو فيها من اللوائح ثم اللوامع ثم كالبرق فى الصفاء ، وهذه أنوار المحاضرة ثم أنوار المكاشفة .

---

(١) وردت (حصول) وقد آثرنا أن تكون (حضور) القلب حتى تقابل (النسيان) .

(٢) يقال نفض فلان من مرضه أى برىء منه (الوسيط)

(٣) سيعود القشيرى إلى الإجابة عن سؤالين : متى يجوز للعبد أن يشكو ويتضرع ؟ وهل هذا آية نفاد صبره أم علامة ضعفه إزاء القوة الإلهية ؟ . . عند حديثه عن أيوب فى سورة الأنبياء .

(٤) مشتبهة وربما كانت لفظة بمعنى (أعمى)

« خوفاً » : من أن ينقطع ولا يبقى . « وطمعاً » : فى أن يدومَ فيه نقلُ صاحبِه من المحاضرة إلى المكاشفة ، ثم من المكاشفة إلى المشاهدة ، ثم إلى الوجود ثم دوامُ الوجود ثم إلى كمال الخمود .

ويقال « يريكم البرق » : من حيث البرهان ، ثم يزيد فيصير كأقمار البيان ، ثم يصير إلى نهار العرفان . فإذا طلعت شموسُ التوحيدِ فلا خفاء بعدها ولا استتار ولا غروب لتلك الشموس ، كما قيل :

هى الشمسُ إلا أنَّ للشمس غيبةً ... وهذا الذى نَعْنيه ليس يغيب

ويقال تبدو لهم أنوار الوصال فيخافون أن تجنَّ[1] عليهم ليالى الفرقة ، فَقَلَّمَا تخلو فرحةُ الوصال من أن تعقبها موجة الفراق[2] ، كما قيل :

أى يومٍ سررتنى بوصالٍ ... لم[3] تَدَعْني ثلاثةً بصدود ؟!

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُنْشِئُ السَّحَابَ[4] الثِّقَالَ ﴾

إذا انتاب السحابةَ فى السماء ظلامٌ فى وقتٍ فإنه يعقبه بعد ذلك ضحكُ الرياض ، فما لَمْ تبكِ السماء لا يضحكُ الروضُ ، كما قيل :

ومأتمٌ فيه السماء تبكى ... والأرضُ من تحتها عَرُوسُ

كذلك تنشأ فى القلب سحابة الطلب ، فيحصل للقلب ترددُ الخاطر ، ثم يلوح وجهُ الحقيقة ، فتضحكُ الروح لفنونِ راحاتِ الأُنْس ، وصنوفِ أزهارِ القُرْب .

قوله جل ذكره : ﴿ ويُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ والملائكةُ من خِيفَتِهِ ﴾

أى الملائكة أيضاً تسبح من خوفه تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ ويُرْسِلُ الصواعقَ فَيُصِيبُ بها مَنْ

---

(١) مصوبة هكذا فى الهامش ، والمعنى يتقبلها ويرفض (ثمن) التى فى المتن .
(٢) وردت (القرآن) وهى خطأ فى النسخ .
(٣) وردت (كم) (٤) وردت (الصحاب) بالصاد وهى خطأ .

يشاء ، وهم يُجَادِلُونَ فى اللهِ وهو
شديدُ المِحَالِ ﴾

قد يكون فى القلب حنين وأنين ، وزفير وشهيق . والملائكة إذا حصل لهم على قلوب المريدين — خصوصاً — اطلاعٌ يبكون دَمَاً لأَجْلهم ، لا سيّما إذا وقعت لواحدٍ منهم فترةٌ ، والفترةُ فى هذه الطريقة الصواعقُ التى يصيب بها من يشاء ، وكما قيل :

ما كان ما أَوْلَيْتَ مِن وَصْلنا إلا سراجاً لاح[1] ثم انطَفَا

قوله جل ذكره : ﴿ له دعوةُ الحق والذين يَدْعُونَ مِن
دونِه لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَىْءٍ إلاَّ
كَباسِطِ كَفَّيْهِ إلى الماءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ
وما هو بِبَالِغِه ﴾

دواعى الحق تصير لائحةً فى القلوب من حيث البرهان فمن استمع إليها بسمع الفهم ، استجاب لبيان العلم . وفى مقابلتها دواعى الشيطان[2] التى تهتف بالعبد بتزيين المعاصى ، فمن أصغى إليها بسمع الغفلة استجاب لصوت[3] الغَىّ ، ومعها دواعى النَّفْس وهى قائدةٌ للعبد بزمام الحظوظ ، فمن رَكَنَ إليها ولاحظَها وقع فى هوانِ الحجاب .

ودواعى الحقِّ تكون بلا واسطة مَلَكٍ ، ولا بدلالة عقل ، ولا بإشارة علم ، فمن أسمعه الحقُّ ذلك استجاب لا محالةَ لله بالله .

قوله جل ذكره : ﴿ وما دعاء الكافرين إلَّا فى ضلال ﴾

هواجس النَّفس ودواعيها تدعو — فى الطريقة — إلى الشِّرْكِ ، وذلك بشهود شىءٍ منكَ ، وحسبان أمرٍ لَكَ ، وتعريجٍ فى أوطان الفرْق ، والعَمَى عن حقائق الجَمْعِ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولله يَسْجُدُ مَنْ فى السموات

---

(١) وردت (راح) بالراء والمعنى لا يتقابلها فاخترنا (لاح) لأنها أقرب فى المعنى والخط .
(٢) وردت (السلطان) وهى خطأ في النسخ .
(٣) وردت (لصورت) والراء زائدة كما هو واضح .

والأرضِ طَوْعاً وكَرْهاً وظِلالهم
بالغُدُوِّ والأَصال﴾

المؤمن يسجد لله طوعاً ، وإذا نزل به ضر ألجأه إلى أنْ يتواضع ويسجد ، وذلك معنى سجوده كرهاً — وهذا قول أهل التفسير . والكافر يسجد طائعاً مختاراً ، ولكن لمَّا كان سجودُه لطلبِ كَشْفِ الضُّرِّ قال تعالى : إنه يسجد كرهاً وعلى مقتضى هذا كلُّ مَنْ يَسْجُدُ لابتغاءِ عِوَضٍ أولكشفِ محنة .

ويقال السجودُ على قسمين : ساجدٌ بنَفْسِه وساجدٌ بقلبه ؛ فسجودُ النَّفْسِ معهود[1] ، وسجودُ القلب من حيث الوجود . . وفَرْقٌ بين من يكون بنفسه ، وواجد بقلبه .

ويقال الكلُّ يسجدون لله ؛ إمَّا من حيث الأفعال بالاختيار ، أو من حيث الأحوال بنعت الافتقار والاستبشار : سجودٌ من حيث الدلالة على الوحدانية ؛ فكلُّ جزءٍ من عين أو أثر فَعَلَى الوحدانيةِ شاهدٌ ، وعلى هذا المعنى للهِ ساجدٌ . وسجود من حيث الشهادة على قدرة الصانع واستحقاقه لصفات الجلال .

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ مَنْ ربُّ السمواتِ والأرضِ
قُل اللهُ قُلْ أفاتَّخَذْتُم مِنْ دونِهِ أولياء
لا يَمْلِكُون لأَنْفُسِهِمْ نَفْعاًولاضَرًّا﴾

سَلْهُمْ — يامحمد — مَنْ موجِدُ السواتِ والأرض ومُقَدِّرُها ، ومُخْتَرِعُ ما يحدث فيها ومدبِّرُها ؟ فإنْ أَسْكَتَهُمْ عنالجواب ما استَكَنَّ فىقلوبهم مِنَ الجهلِ فقُلْ الله منشيهاومجزيها .

ثم قال : « أفاتخذتم من دونه أولياء » : يعنى الأصنام ، وهى جمادات لاتملك لنفسها نَفْعاً ولا ضَرًّا ، ويلتحقَ فى المعنى بها كلُّ مَنْ هو موسومٌ برقم الحدوثِ ، فَمَنْ علَّقَ قلبه بالحدثان ساوَى — مِنْ وجهٍ — مَنْ عَبَدَ الأصنام ، قال تعالى : «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون »[2] .

---

(١) أى السجود فى الصلوات العادية بالنسبة للكافة ، وأما سجود القلب فللخاصة .

(٢) آية ١٠٦ سورة يوسف .

قوله جل ذكره: ﴿ قُلْ هل يَسْتَوِى الأعمى والبصيرُ أَمْ هل تستوى الظلماتُ والنُّورُ ﴾

الأعمى مَنْ على بصيرته غشاوة وحجبة، والبصيرُ مَنْ كَحَّلَ الحقُّ بصيرة سِرِّه بنور التوحيد.. لا يستويان!

ثم هل تستوى ظلماتُ الشِّرْك وأنوارُ التوحيد؟ ومن جملة النور الخروجُ إلى ضياء شهود التقدير.

قوله جل ذكره: أَمْ ﴿ جعلوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عليهم قلْ اللهُ خالِقُ كلِّ شىءٍ وهو الواحِدُ القَهَّارُ ﴾

أى لو كان له شريك لَوَجَبَ أن يكون له نِدٌّ مُضَاهٍ، وفى جميع الأحكام له موازٍ، ولم يُجْدِ حينئذٍ التمييزُ بين فِعْلَيْهما.

وكذلك لو كان له نِدٌّ.. فإنَّ إثباتَهما شيئين اثنين يوجب اشتراكهما فى استحقاق كل وصف، وأن يكون أحدهما كصاحبه أيضاً مستحقاً له، وهذا يؤدى إلى ألا يُعْرَفَ المَحَلُّ.. وذلك محال.

قوله جل ذكره: ﴿ قُلْ اللهُ خالقُ كُلِّ شىءٍ وهو الواحدُ القَهَّارُ ﴾

« كل شىء » تدخل فيه المخلوقات بصفاتها وأفعالها، والمخاطِبُ لا يدخل فى الخطاب.

« وهو الواحد »: الذى لا خَلَفَ عنه ولا بَدَلَ(١)، الواحد الذى فى فضله منزه عن فضل كل أحد، فهو الكافى لكلِّ أحد، ويستعين به كل أحد.

« والقهار »: الذى لا يجرى بخلاف حُكْمِه — فى مُلْكِه — نَفَسٌ.

قوله جل ذكرُه: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السماءِ ماءً فَسَالَتْ أودية

---

(١) وردت (يدل) بالباء وهى خطأ فى النسخ.

بِقَدَرِها فاحتمل السَّيْلُ زَبَداً رابياً
ومِمَّا يُوقِدُون عليه في النار ابتغاء
حلية أو متاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه كذلك
يَضْرِبُ اللهُ الحقَّ والباطلَ ،
فأمَّا الزَّبَدُ فيذهبُ جُفَاءً وأمَّا ما يَنْفَعُ
الناسَ فَيَمْكُثُ في الأرضِ كذلك
يضْرِبُ اللهُ الأمثال ﴾

هذه الآية تشتمل على أمثالٍ ضربها اللهُ لتشبيه القرآنِ المُنَزَّلِ بالماءِ المُنَزَّلِ من السماء ، وشبَّه القلوب بالأودية ، وشبَّه وساوسَ الشيطان وهواجسَ النَّفْس بالزَّبَدِ الذي يعلو الماء ، وشبَّه الخُلُق[1] بالجواهر الصافية من الخَبَثِ كالذهب والفضة والنحاس وغيرها ، وشبَّه الباطلَ بخَبَثِ هذه الجواهر . وكما أن الأودية مختلفة في صغرها وكبرها وأن بقدرها تحتمل الماء في القلة والكثرة — كذلك القلوبُ تختلف في الاحتمال على حسب الضعف والقوة . وكما أن السيلَ إذا حَصَلَ في الوادي يُطَهِّرُ الوادي فكذلك القرآن إذا حصل حفظُه في القلوب نَفَى الوساوسَ والهوى عنها ، وكما أنَّ الماء قد يصحبه ما يكدره ، ويخلص بعضه مما يشوبه — فكذلك الإيمان وفَهْمُ القرآن في قلوب المؤمنين حين تخلص من نَزَغَاتِ الشيطان ومن الخواطر الرَّدِيَّة ، فالقلوب بين صافٍ وكَدِرٍ .

وكما أنَّ الجواهر التي تتخذ منها الأواني إذا أذيبت خَلَصَتْ من الخَبَثِ كذلك الحق يتميز من الباطل ، ويبقى الحقُّ ويضمحل الباطل .

ويقال إن الأنوار إذا تلألأت في القلوب نَفَت آثار الكلفة ، ونور[2] اليقين ينفي ظلمة الشك ، والعلم ينفي تهمة الجهل ، ونور المعرفة ينفي أثر النكرة ، ونور المشاهدة ينفي آثار البشرية ،

---

(١) هكذا في المصورة ونرجح أنها (الحق) ليقابل (الباطل) كما تقابل الجواهر الصوفية الخبث — ويزيد من قوة هذا الترجيح ما سيأتي بعد قليل عند (التمييز بين الحق والباطل) .

(٢) وردت (ونون) وهي خطأ في النسخ .

وأنوار الجمع تنفى آثار التفرقة . وعند أنوار الحقائق تتلاشى آثار الحظوظ ، وأنوارُ طلوعِ الشمس من حيث العرفان تنفى سَدَفَةَ الليل من حيث حسبان أثر الأغيار .

ثم الجواهر التى تتخذ منها الأوانى مختلفة فَمِنْ إناءٍ يتخذ من الذهب وآخر من الرصاص، إلى غيره ـ كذلك القلوب تختلف ، وفى الخبر : إن لله تعالى أوانىَ وهى القلوب » ؛ فزاهد قاصدٌ ومحب واجِدٌ ، وعابدٌ خائفٌ ومُوَحِّدٌ عارفٌ ، ومتعبِّدٌ متعفِّفٌ ومتهجِّدٌ متصوف ، وأنشدوا :

ألوانُها شتّى الفنونِ وإنما ... تُسْقى بماءٍ واحدٍ من مَنْهَلِ

قوله جل ذكره : ﴿ للذين استجابوا لربِّهم الْحُسْنَى والذين لم يستجيبوا له لو أنَّ لهم ما فى الأرض جميعاً ومثْلَه معه لافتَدَوْا به أولئك لهم سوء الحسابِ ومأواهم جهنَّمُ وبِئْسَ المِهَادُ ﴾

« الحسنى »[1] : الوعد بقبول استجابتهم ، وذلك مِنْ أجَلِّ الأشياء عندهم ؛ فلا شىءَ أعزُّ على المحبِّ مِنْ قبولِ محبوبه منه شيئاً .

أمّا الذين لم يستجيبوا له فلو أنّ لهم جميع مافى الأرض وأنفقوه عَمْداً لا يُقْبَلُ منهم ، ولهم سوء الحساب ، وهو المناقشة فى الحساب ، ثم مأواهم جهنم ودوام العذاب .

قوله جل ذكره : ﴿ أفَمَنْ[2] يعلمُ أنّما أُنزِلَ إليكَ من ربِّك الحقُّ كَمَنْ هو أعمى إنَّما يَتَذَكَّرُ أولوا الألباب ﴾

استفهام فى معنى النفى ، أى لا يستوى البصير والضرير ، ولا المقبول بالمردود بالحجبة ، ولا المُؤَمَّل بالتقريب بالمُعَرَّض للتعذيب ، ولا الذى أقصيناه عن شهودنا بالذى هديناه

---

(١) يرى النسفى أن (الحسنى) هنا صفة للمصدر أى استجابوا الاستجابة الحسنى .

(٢) أخطأ الناسخ إذ جعلها (أفلم) .

بوجودنا . إنما يتَّعِظُ مَنْ عقله له تشريف ، دونَ مَنْ عقله له سببُ إقصاءٍ وتعنيف .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين[1] يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ ولا يَنْقُضُون الميثاق ﴾

الوفاء بالعهد باستدامة العرفان ، والوفاء بشرط الإحسان ، والتوقِّى من ارتكاب العصيان — بذلك أُبْرِمَ العقدُ يوم الميثاق والضمان .

وميثاقُ قومٍ ألا يعبدوا شيئاً سواه ، وميثاق قومٍ ألا يسألوا سواه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يَصِلونَ ما أَمَرَ اللهُ به أَنْ يُوصَلَ ويَخْشَوْن ربَّهم ويخافون سُوءَ الحساب ﴾ [2]

الذين يَصلون الإيمان به بالإيمان بالأنبياء والرسل .

ويقال الذين يصلون أنفاسَهم بعضاً ببعض ؛ فلا يتخلَّلُها نَفَسٌ لغير الله ، ولا بغير الله ، ولا فى شهود غير الله .

ويقال يَصِلُون سَيْرَهم بِسُرَاهم فى إقامة العبودية ، والتبرِّى من الحول والقوة .

وقوله : « ويخشون ربهم » : الخشية لجامٌ يُوقفُ المؤمنَ عن الرَّكْضِ فى ميادين الهوى ، وزِمامٌ يَجُرُّهُ إلى استدامة حكم التُّقَى .

وقوله : « ويخافون سوء الحساب » هو أن يبدو من الله ما لم يكونوا يحتسبون .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين صَبَرُوا ابتغاء وجهِ ربِّهم وأقاموا الصلاةَ ﴾

الصبر يختلف باختلاف الأغراض التى لأَجلِها يصبر الصابر ، فالعُبَّاد يصبرون لخوف العقوبة ، والزهاد يصبرون طمعاً فى المثوبة ، وأصحاب الإرادة هم الذين صبروا ابتغاء وجهِ ربهم ، وشرطُ هذا النوع من الصبر رَفْضُ ما يمنع من الوصول ، واستدامةُ التوقى منه ،

---

(١) أخطأ الناسخ إذ جعلها (والذين) .

(٢) هذه الآية مستدركة فى هامش الورقة بعد أن سقطت من المتن .

فيدخل فيه ترك الشهوات ، والتجردُ عن جميع الشواغل والعلاقات ، فيصبر عن العِلّةِ والزَّلةِ ، وعن كل شيءٍ يشغل عن الله .

ومما يجب عليه الصبر الوقوفُ على حكم تعزُّزِ الحق ، فإنّه - سبحانه — يتفضلُ على الكافة من المجتهدين ، ويتعزز — خصوصاً — على المريدين ، فيمنحهم الصبر فى أيام إرادتهم ، فإذا صَدَقُوا فى صبرهم جادَ عليهم بتحقيق ما طلبوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنفقوا مِمَّا رَزَقْنَاهم سِرّاً وعَلانِيةً ﴾ .

الأغنياء ينفقون أموالَهم . والعُبَّاد ينفقون نفوسَهم ويتحملون صنوف الاجتهاد ، ويصبرون على أداء الفرائض والأوراد . والمريدون ينفقون قلوبهم فيسرعون إلى أداء الفرائض والأوراد ويصبرون إلى أن يلوحَ علم من الإقبال عليهم . وأمَّا المحبون فينفقون أرواحهم . . وهى كما قيل :

ألستَ لى خَلَفاً ؟ كفى شَرَفاً فما وراءكَ لى قَصْدٌ ومطلوبُ .

قوله جل ذكره : ﴿ ويَدْرَءون بالحسَنَةِ السَّيِّئةَ أُولئك لَهمْ عُقْبَي الدار ﴾

يعاشرون الناس بِحُسْنِ الخُلُق ، فيبدأون بالإنصاف ولا يطلبون الانتصاف ، وإنْ عامَلَهم أحدٌ بالجفاء قابلوه بالوفاء ، وإنْ أذنب إليهم قومٌ اعتذروا عنهم ، وإن مرضوا عادوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائهم وأزواجهم وذُرِّيَّاتِهم ، والملائكةُ يَدْخُلونَ عليهم مِنْ كلِّ باب * سلامٌ عليكم بما صبَرْتم ، فنِعْمَ عُقْبى الدار ﴾

يتم النعمة عليهم بأن يجمع بينهم وبين مَنْ يحبون صحبتهم مِنْ أقاربهم وأزواجهم ، وقد ورد فى الخبر : « المرءُ مع مَنْ أَحَبَّ » فمَنْ كان محبوبُه أمثالَه وأقاربَه حُشِرَ معهم ، ومَنْ كان اليومَ بقلبه مع الله ، فهو غداً مع الله ، وفى الخبر : « أنا جليسُ مَنْ ذكرنى » ، وهذا فى العاجل ، وأمَّا فى الآجل ، ففى الخبر : « الفقراء الصابرون جُلَساءُ الله يومَ القيامة » .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ميثاقِه ، ويقطعون ما أَمَرَ اللهُ به أَنْ يُوصَلَ ، ويُفسِدون فى الأرضِ أولئك لهم اللَّعْنَةُ ولهم سوءُ الدار ﴾

مَنْ كفر بعد إيمانه نَقَضَ عهدَ الإسلام فى الظاهر ، ومن رجع إلى أحكام العادة بعد سلوكه طريق الإرادة ، فقد نقض عَهْدَه فى السَّرَّاء . . . فهذا مُرْتَدٌّ جهراً ، وهذا مرتَدٌّ سِرًّا ، والمرتد جهراً عقوبته قطعُ رأسِه ، والمرتد سِرًّا عقوبته قَطْعُ سِرِّه .

وقوله : « يقطعون ما أمر الله به أن يوصل » ، هو نقض قوله : « يصلون ما أمر الله به أن يوصل » .

ويقال نقض العهد هو الاستعانة بالأغيار ، وتَرْكُ الاكتفاء بالله الجبَّار .

ويقال نَقْضُ العهد الرجوع إلى الاختيار والتدبير بعد شهود الأقدار ، وملاحظة التقدير .

ويقال نقض العهد بِتَرْكِ نَفْسِه ، ثم يعود إلى ما قال بتركه .

قوله جل ذكره : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يشاءُ ويقدِرُ ﴾

يبسط الرزق للأغنياء ويُطالِبُهم بالشكر ؛ ويُضَيِّقُ على الفقراء ويطالبهم بالصبر .

وَعَدَ الزيادةَ للشاكرين ، ووعد المَعِيَّةَ للصابرين . للأغنياء الأموال بمزيدها ، وللفقراء التجرد فى الدارين عن طريفها وتليدها .

قوله جل ذكره : ﴿ وفَرِحُوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع ﴾

فَرِحَ الأغنياء بزكاء أموالهم ، وفَرِحَ الفقراء بصفاء أحوالهم .

« وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاعٌ » قليلٌ بالإضافة إلى ما وعدهم الله ؛ فأموالُ الأغنياء — وإنْ كَثُرَت — قليلةٌ بالإضافة إلى ما وَعَدَهم من وجود أفضاله ، وأحوال الفقراء — وإنْ صَفَتْ — قليلة بالإضافة إلى ما وعدهم من شهود جماله وجلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أُنْزِلَ عليه آيةٌ مِنْ ربِّه قُلْ إنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يشاء ويَهْدِى إليه مَنْ أناب ﴾

« يضل من يشاء » : وهم الذين لم يشهدوا ما أعطى نبينا — صلى الله عليه وسلم — من الشواهد والبرهان حتى (. . .)[1] الزيادة .

« ويهدى من يشاء » : وهم الذين أبصروا بعيون أسرارهم ما خُصَّ به من الأنوار فسكنوا بنور استبصارهم .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آمنوا وتطمئنُ قلوبُهم بِذِكْرِ اللهِ ، ألا بِذِكْرِ اللهِ تطمئنُ القلوب ﴾

قومٌ اطمأنت قلوبُهم بذكرهم الله ، وفى الذكر وَجَدُوا سَلْوَتَهم ، وبالذكر وصلوا إلى صفوتهم . وقومٌ اطمأنت قلوبُهم بذكر الله فَذَكَرَهُمْ الله — سبحانه — بلطفه ، وأَثْبَتَ الطمأنينةَ فى قلوبهم على وجه التخصيص لهم .

---

(١) مشتبهة .

ويقال إذا ذكروا أنَّ اللهَ ذَكَرَهم استروحت قلوبُهم ، واستبشرت أرواحُهم ، واستأنست أسرارُهم ، قال تعالى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » لِمَا نالت بذِكْرِهِ من الحياة ، وإذا كان العبدُ لا يطمئن قلبُه بذكر الله ، فذلك لِخَلَلٍ فى قلبه ، فليس قلبه بين القلوب الصحيحة .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ طُوبى لهم وحُسْنُ مآب ﴾

طابت أوقاتُهم وطابت نفوسُهم .

ويقال طوبى لمن قال له الحقُّ : طوبى .

طوبى لهم فى الحال ، وحُسْنُ المآب فى المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ كذلك أرسلناكَ فى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لتتلوَ عليهم الذى أوحينا إليك ﴾

لئن أرسلناكَ بالنبوة إليهم فلقد أرسلنا قبلك كثيراً من الرسل ، ولئن أصابك منهم بلاء فلقد أصاب مَنْ قَبْلَكَ كثيرٌ من البلاء ، فاصْبِرْ كما صَبَرُوا تُؤْجَرْ كما أُجِرُوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وهم يَكْفُرُون بالرحمنِ قُلْ هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلتُ وإليه متاب ﴾

لئن كفروا بنا فآمِنْ أنت ، وإذا آمنتَ فلا تبالِ بِمَنْ جحد ، فإنَّك أنت المقصودُ من البَرِيَّة ، والمخصوصُ بالرسالة والمحبة .

لو كان يجوز فى وصفنا أن يكون لنا غرضٌ فى أفعالنا .

ولو كان الغرض فى الخِلْقَة فأنت سيد البَشَر ، وأنت المخصوص من بين البشرية بحسن الإقبال[1] ، فهذا مخلوق يقول فى مخلوق :

---

(١) هذه أقصى درجة فى التصور لشخصية الرسول صلوات الله عليه — فى نظر هذا الصوفى .. قارن ذلك بأقوال باحث آخر كابن عربى أو الجيلى عن « الإنسان الكامل » ، لتلحظ الفرق الهائل بين الاتجاهين .

وكنتُ أخرّتُ أوطاري لوقت　　فكان الوقت وقتك والسلام
وكنت أطالبُ الدنيا بحُبٍّ　　فكنتَ الحبَّ..وانقطع الكلام

قوله جل ذكره: ﴿ولو أنَّ قرآناً سُيِّرَتْ به الجبالُ أو قُطِّعَتْ به الأرضُ أو كُلِّمَ به الموتى بل للهِ الأمرُ جميعاً﴾

لو كان شىء من المخلوقات يظهر بغيرنا فى الإيجاد لكان يحصل بهذا القرآن، ولكن المنشئ الله، والخير والشر جملةً من الله، والأمر كله لله. فإذا لم يكن شىء من الحدثان بالقرآن — والقرآن كلام الله العزيز — فلا تكون ذرة من النفى والإثبات لمخلوق.. فإن ذلك محال.

قوله جل ذكره: ﴿أفلم ييْئَس الذين آمنوا أنْ لو يشاء اللهُ لهدى الناسَ جميعاً﴾

معناه أفلم يعلم الذين آمنوا، ويقال أفلم ييأسوا من إيمانهم وقد علموا أنه من يهديه الحق فهو المهتدى؟

قوله جل ذكره: ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صَنَعُوا قارِعةٌ أو تَحُلُّ قريباً من دارِهم حتى يأْتِيَ وعدُ اللهِ إنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الميعاد﴾

يعنى شؤمُ كُفْرِهم لا يزال واصلاً إليهم، ومقتص(1) فعلهم لاحِقٌ بهم أبداً.

قوله جل ذكره: ﴿ولقد اسْتُهزِئَ برُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فأَمْلَيْتُ للذين كَفَرُوا، ثم أخذتُهُم فكيف كان عِقَاب﴾

---

(1) من (اقتص) والقصاص أن يوقع على الجانى مثل ماجنى.

أنزل هذه الآية على جهة التسلية للرسول — صلى الله عليه وسلم — عما كان يلاقيه منهم.
وكما أن هؤلاء فى التكذيب جرَوْا على نهجهم فنحن أدَمْنا سُنَّتَنا فى التعذيب معهم.

قوله جل ذكره: ﴿ أفَمَنْ هو قائمٌ على كلِّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ ﴾

الجواب فيه مضمر ؛ أى أفمن هو مُجْرِى ومنشئُ الخلْقِ والمُطَّلِعُ عليهم ، لا يَخْفَى عليه منهم شىء كَمَنْ ليس كذلك ؟ لا يستويان غداً أبداً .

قوله جل ذكره: ﴿ وجعلوا لله شركاء قُلْ سَمُّوهم أم تُنَبِّئُونه بما لا يَعْلَمُ فى الأرضِ أم بظاهرٍ من القَوْل ﴾

قُلْ لهم أرونى أى تأثير منهم ، وأى نفع لكم فيهم ، وأى ضرر لكم منهم ؟ أتقولون ما يعلم الله بخلافه ؟ وهذا معنى قوله : « مالا يعلم » .

قوله جل ذكره: ﴿ بَلْ زُيِّنَ للذين كفروا مَكْرُهم وصُدُّوا عن السبيلِ ، ومن يُضْلِلْ اللهُ فما له مِنْ هادٍ ﴾ .

أى قد تبين لكم أن ذلك من كيد الشيطان ، وزين للذين كفروا مكرهم ، وصاروا مصدودين عن الحق ، مسدودة عليهم الطُّرُقُ ، فإنَّ مَنْ أَضَلَّه حُكْمُهُ — سبحانه — لا يهديه أحدٌ قطعاً .

قوله جل ذكره: ﴿ مَثَلُ الجنةِ التى وُعِدَ المُتَّقُون تجرى مِنْ تحتها الأنهارُ أُكُلُها دائِمٌ وظِلُّها تلك عُقْبى الذين اتقوا ، وعقبى الكافرين النارُ ﴾ .

المَثَلُ أى الصفة ، فصفة الجنة التى وعد المتقون هى أنها جنة تجرى من تحتها الأنهار ، وأُكُلُها دائم وظلها دائم ، أى أن اللذاتِ فيها متصلةٌ . وإنما لهم جنات معجلة ومؤجلة ، فالمؤَجَّلةُ

ما ذكره الله — سبحانه — فى نص القرآن ، والمعجلة جنة الوقت[1] .. والدرجات — من حيث البسط — فيها متصلة ، ونفحاتُ الأُنْسِ لأربابها لا مقطوعة ولا ممنوعة .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آتيناهم الكتابَ يفرحون بما أُنْزِلَ إليك ﴾ .

يريد بهم مؤمنى أهل الكتاب الذين كانوا يفرحون بما ينزل من القرآن لصدق يقينهم .

﴿ومِنَ الأحزاب مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَه﴾

أى الأحزاب الذين قالوا كان محمد يدعو إلى إله واحد ، فالآن هو ذا يدعو إلى إلهين لَمَّا نزل : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن »[2] .

﴿ قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ ولا أُشْرِكَ به ، إليه أدعو وإليه مآب ﴾ .

قل يا محمد : « إنما أمرت أن أعبد الله » . والعبوديةُ المبادرةُ إلى ما أُمِرْتُ به ، والمحاذرة[3] مما زجِرْتُ عنه ، ثم التبرِّى عن الحَوْل والمُنَّة ، والاعتراف بالطوْل والمِنَّة .

وأصل العبودية القيام بالوظائف ، ثم الاستقامة عند رَوْح اللطائف .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك أنزلناه حُكْماً عربياً ولَئِنْ اتَّبَعْتَ أهواءهم بعدما جاءكَ مِنَ العِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ من وَلِىٍّ ولا وَاقٍ ﴾ .

أى حُكْماً ببيان العرب ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أرسلَ الرسلَ فى كلِّ وقتٍ كُلاًّ بلسان قومه ليهتدوا إليه .

ويقال مِنْ صفات العرب الشجاعة والسخاء ومراعاة الذِّمام ، وهذه الأشياء مندوبٌ إليها فى الشريعة .

---

(١) أى جنة أرباب الأحوال . . . هنا فى هذه الدنيا

(٢) آية ١١٠ سورة الإسراء ومنهم كعب بن الأشرف والسيد والعاقب وأشباههم .

(٣) وردت (المحاضرة) بالضاد وهى خطا فى النسخ كما هو واضح من السياق .

« ولئن اتبعت أهواءهم » : أى ولئن وافقتهم ، ولم تعتصم بالله ، ووَقَعَتْ على قلبك حشمةٌ من غير الله — فَمَالَكَ من واقٍ من الله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ
وجعلنا لهم أزواجاً وذريَّةً وما كان
لرسولٍ أَنْ يأْتىَ بآيةٍ إلاَّ بإذنِ الله ﴾

أى أرسلنا رسلًا من قبلك إلى قومهم ، فلم يكونوا إلا من جنسك ، وكما لكم أزواج وذرية كانت لهم أزواج وذرية ، ولم يكن ذلك قادحاً فى صحة رسالتهم ، ولا تلك العلاقات كانت شاغلة لهم .

ويقال إن من اشتغل بالله فكثرة العيال وتراكم الأشغال لا تؤثر فى حاله ؛ ولا يضره ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ لكلِّ أَجَلٍ كتاب ﴾ .

أى لكل شىء أجل مثبت فى كتاب الله وهو المحفوظ ، وله وقت قُسِمَ له ، وأنه لا اطلاعَ لأحدٍ على علمه ، ولا اعتراضَ لأحدٍ على حُكْمه .

قوله جل ذكره : ﴿ يَمْحُو اللهُ ما يشاء ويُثْبِتُ وعِنْدَه
أُمُّ الكتاب ﴾ .

المشيئة لا تتعلق بالحدوث ، والمحو والإثبات متصلان بالحدوث .

فصفات ذات الحق — سبحانه — من كلامه وعلمه ، وقوْلِه وحُكْمِهِ لا تدخل تحت المحو والإثبات ، وإنما يكون المحو والإثبات من صفات فعله ؛ المحوُ يرجع إلى العَدَم ، والإثباتُ إلى الإحداثِ ، فهو يمحو من قلوب الزُّهاد حُبَّ الدنيا ويُثْبِتُ بَدَلَه الزهدَ فيها ، كما فى خبر حارثةَ : « عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى حَجَرُها وذَهَبُها »[1] .

(١) سأل النبي (ص) حارثة . لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا ..... ، خرجنا هذا الحديث فى هامش سابق .

ويمحو عن قلوب العارفين الحظوظَ ، ويُثْبِتُ بدلها حقوقَه تعالى ، ويمحو عن قلوب المُوحِّدين شهودَ غير الحق ويثبت بَدَلَه شهود الحق ، ويمحو آثار البشرية ويثبت أنوار شهود الأحدية .

ويقال يمحو العارفين عن شواهدهم ، ويثبتهم بشاهد الحق .

ويقال يمحو العبد عن أوصافه ويثبته بالحقِّ فيكون محواً عن الخلْق مثبتا بالحق للحق .

ويقال يمحو العبد فلا يجرى عليه حكم التدبير،ويكون محواً بحسب جريان أحكام التقدير، ويثبت سلطانَ التصديق والتقليب بإدخال ما لا يكون فيه اختيار عليه على ما يشاء .

ويقال يمحو عن قلوب الأجانب ذِكْرَ الحق ، ويثبت بَدَلَه غلباتِ الغفلةِ وهواجِمَ النسيان.

ويقال يمحو عن قلوب أهل الفترة ما كان يلوح فيها من لوامع الإرادة ، ويثبت بدلها الرجوعَ إلى ما خرجوا عنه من أحكام العادة .

ويقال يمحو أوضارَ الزَّلَّة عن نفوس العاصين ، وآثار العصيان عن ديوان المذنبين (ويثبت)[1] بدل ذلك لَوْعَةَ النَّدم ، وانكسار الحَسْرَةِ ، والخمودَ عن متابعة الشهوة .

ويقال يمحو عن ذنوبهم السيئةَ ، ويثبت بدلها الحسنة ، قال تعالى : « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » .

ويقال يمحو الله نضارةَ الشباب ويثبت ضعفَ المشيب .

ويقال يمحو عن قلوب الراغبين فى مودة أهل الدنيا ما كان يحملهم على إيثار صحبتهم ، ويثبت بدلاً منه الزهد فى صحبتهم والاشتغال بعِشْرَتِهِم .

ويقال يمحو الله ما يشاء من أيام صفَتْ من الغيب[2]، وليالٍ كانت مُضاءةً بالزلفة والقربة ويثبت بدلاً من ذلك أياما هى أشدُّ ظلاما من الليالى الحنادس[3] ، وزمانا يجعل سَعَةَ الدنيا عليهم محابِس .

---

(١) سقطت هذه اللفظة من الناسخ .

(٢) من (الغيب) يكون المعنى أن الأيام التى كانت تمنح لهم من الغيب صافية ، ولكننا لا نستبعد أنها قد تكون (الغيم) على معنى خلو تلك الأيام من كل كدورة بدليل المقابلة التى وردت فيا بعد .

(٣) جمع حندس أى شديد السو د .

ويقال يمحو العارفين بكشف جلاله ، ويثبتهم فى وقت آخر بلطف جماله .

ويقال يمحوهم إذا تجلَّى لهم ، ويثبتهم إذا تعزَّز عليهم .

ويقال يمحوهم إذا ردَّهم إلى أسباب التفرقة لأنهم يبصرون بنعت الافتقار والانكسار ، ويثبتهم إذا تجلَّى لقلوبهم فيبصرون بنعت الاستبشار ، ويشهدون بحكم الافتخار .

قوله جل ذكره : ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾

قيل اللوح المحفوظ الذى أثبت فيه ما سبق به عِلْمُه وحُكْمُه مما لا تبديلَ ولا تغييرَ فيه .

ويقال إنه إشارة إلى علمه الشامل لكل معلوم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن مَّا نُرِيَنَّكَ بعضَ الذى نَعِدُهُم أو نَتَوَفَّيَنَّكَ فإنَّما عليكَ البلاغُ وعلينا الحساب ﴾

نفى عنه الاستعجال أمرا ، و (. . . .)[1] فى قلوبهم أنه يوشك أن يجعل الموعود جهرا .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الأرضَ نَنْقُصُها مِنْ أطرافِها والله يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه وهو سريعُ الحساب ﴾

فى التفاسير : بموت العلماء ، وفى كلام أهل المعرفة بموت الأولياء ، الذين إذا أصاب الناسَ بلاءٌ ومحنةٌ فزعوا إليهم فيدعون الله ليكشف البلاء عنهم .

ويقال هو ذهاب أهل المعرفة حتى إذا جاء مسترشِدٌ فى طريق الله لم يجد مَنْ يهديه إلى الله .

ويقال : فى كل زمان لسانٌ ينطق عن الحقِّ سبحانه[2] ، فإذا وَقَعَتْ فترةٌ سَكَنَ ذلك اللسانُ — وهذا هو النقصان فى الأطراف الذى تشير إليه الآية ، وأنشد بعضهم :

طوى العصران ما نشراه منى   وأبلى جدتى نشرٌ وطىٌّ

---

(١) مشتبهة .   (٢) يتصل ذلك بفكرة القطب والأوتاد والأبدال

أراني كلَّ يومٍ في انتقاصٍ ولا يبقى مع النقصان شيءٌ

ويقال ينقصها مِنْ أطرافها أي بفتح المدائن وأطراف ديار الكفار، وانتشار الإسلام، قال تعالى: «ليظهره على الدين كله»[1].

ويقال ينقصها من أطرافها بخرابِ البلدان، قال تعالى: «كل شيء هالك إلا وجهه»[2] وقال: «كلُّ مَنْ عليها فان»[3] فموعودُ الحقِّ خرابُ العَالَمِ وفناء أهله، ووعدُه حقٌّ لأن كلامَهُ صدقٌ، واللهُ يحكم لا مُعَقِّبَ لحُكْمِهِ، ولا ناقضَ لما أبرمه، ولا مُبْرِمَ لِمَا نَقَضَه، ولا قابل لِمَنْ رَدَّه، ولا رَادَّ لِمَنْ قَبِلَه ولا مُعِزَّ لِمَنْ أهانه، ولا مُذِلَّ لمن أعزَّه.

«وهو سريع الحساب»: لأن ما هو آتٍ فقريب.

ويقال «سريع الحساب» في الدنيا؛ لأنَّ الأولياء إذا ألموا بشيء، أو هَمُّوا لمزجورٍ عُوتِبُوا في الوقت، وطولِبوا بِحُسْنِ الرُّجعى.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الذين مِنْ قَبْلِهِم فَلِلَّهِ المكْرُ جميعاً يعلم ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وسيعلم الكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدار﴾

مكرُهم إظهارُ الموافقة مع إسرارهم الكُفْرَ، ومكرُ الله بهم تَوَهُّمُهُم أنهم مُحْسِنون في أعمالهم، وحسبانهم[4] أنهم سَتَأْمَنُ أحوالُهم، وظَنُّهم أنه لا يحيق بهم مكرُهم، وتخليتُه إياهم — مع مَكْرِهِم — مِنْ أَعْظَمِ مَكْرِه بهم.

قوله جل ذكره: ﴿ويقول الذين كفروا: لَسْتَ مُرْسَلاً قلْ كَفَى بالله شهيداً بيْني وبَيْنَكُم ومَنْ عِنْدَه عِلْمُ الكتاب﴾

---

(١) آية ٢٨ سورة الفتح.

(٢) آية ٨٨ سورة القصص.

(٣) آية ٢٦ سورة الرحمن.

(٤) وردت (وحسناتهم) وهي خطأ في النسخ.

وَبالُ تكذيبهم عائدُ إليهم ، فإنَّ اللهَ شهيدٌ لَكَ بِصِدْقِك . « ومن عنده علم الكتاب » هو الله سبحانه وتعالى عنده عِلْمُ جميع المؤمنين . فالمعنى كفى بالله شهيداً فعنده علم الكتاب وكفى بالمؤمنين شهيداً ؛ إذ المؤمنون يعلمون ذلك .

السورة التي يذكر فيها إبراهيم عليه السلام

قوله جل ذكره : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

بسم الله معناه بالله ؛ فقلوب العارفين بالله إشراقُها ، وقلوب الوالهين بالله احتراقُها ، لهؤلاء فا (. . .)[1] محبته ، ولهؤلاء شوقاً إلى عزيز رؤيته .

وأصحاب الوصول قالوا : بالله . . فوَصَلَ من الطالبين مَنْ وصل

قوله جل ذكره : ﴿ الۤر كتابٌ أنْزلناه إليكَ لتُخْرِجَ الناسَ من الظُّلمَاتِ إلى النورِ بإذْنِ ربِّهم إلى صِراطِ العزيزِ الحميدِ ﴾

أقسم بهذه الحروف : إنَّه الكِتَابٌ أُنْزِل إليكَ لتُخرِجَ الناسَ به من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومِنْ ظُلماتِ الشَّكِّ إلى نور اليقين ، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير ، ومن ظلمات الابتداع[2] إلى نور الاتباع ، ومن ظلمات دَعَاوَى النَّفْسِ إلى نورِ معارفِ القلب ، ومن ظلماتِ التفرقة إلى نور الجمْعِ — بإذن ربهم ، وبإرادته ومشيئته ، وسابقِ حُكْمِه وقضائه إلى صراط رحمته ، وهو نهج التوحيد وشواهد التفريد .

قوله جل ذكره : ﴿ اللهِ الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويلٌ للكافرين مِنْ عذابٍ شديدٍ ﴾

عرَّف الخَلْقَ أنَّ اللهَ هو الذى له ما فى السموات وما فى الأرض .

---

(١) مشتبهة .

(٢) وردت (الابتداء) بالهمزة وهى خطأ من الناسخ .

فمنْ عرَف فله المآب الحميد، ومَنْ جَحَدَ فله العذاب الشديد، وذلك العذاب هو جَهْلُه بأنه — سبحانه — مَنْ هو.

قوله جل ذكره: ﴿ الذين يَسْتَحِبُّونَ الحياةَ الدُّنيا على الآخرةِ ويَصُدُّونَ عن سبيلِ اللهِ ويَبْغُونَهاعِوَجاًأولئكفيضلالٍ بعيد ﴾

ثم ذكر ذميمَ أخلاقهم، فقال: هُمُ الذين يُؤْثِرُونَ اليسيرَ مِنْ حُطَامِ الدنيا على الخطير من نعِمَ الآخرة، وذلك من شدة جُحْدِهِم، ويبغون للدِّين عِوَجاً بكثرة جَمْعِهِم، أولئك لهم في الدنيا الفراق وهو أشد عقوبة، وفي الآخرة الاحتراق وهو أجلُّ محنة ومصيبة.

قوله جل ذكره: ﴿ وما أَرْسَلْنا مِنْ رسولٍ إلّا بلِسَانِ قومِه لِيُبَيِّنَ لهم فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يشاء ويَهْدِى مَنْ يشاء وهو العزيزُ الحكيم ﴾

إنما كان كذلك ليكون آكَدَ في إلزام الحجة: وأنَّى ينفع ذلك إذا لم يُوَفَّقُوا لِسُلُوكِ المحجَّةِ؟ فأهلُ الهدايةِ فازوا بالعنايةِ السابقة، وأصحابُ الغواية وقعوا في ذُلِّ العداوة: فلا اعتراضَ عليه فيما يصنع، ولا يُسأَلُ عما يفعل أو لم يفعل.

قوله جل ذكره: ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أنْ أَخْرِجْ قَوْمَك مِنَ الظلماتِ إلى النورِ وذَكِّرْهُمْ بأيَّامِ اللهِ إنَّ في ذلك لآياتٍ لكلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

أَخْرِجْ قومَك بدعوتك من ظلمات شكهم إلى نور اليقين، ومِنْ إشكالِ الجهل إلى رَوْحِ العِلْم. وذَكِّرْهُم بأيام الله؛ ماسلف لهم من وقت الميثاق، وما رفع عنهم من البلاء في سابق أحوالهم.

ويقال ذكِّرْهُم بأيام الله وهى ما سبق لأرواحهم من الصفوة وتعريف التوحيد قبل حلولها فى الأشباح :

سقياً لها ولطيبها ولحسنها وبهائها
أيام لم (. . . . .)[1]

ويقال ذكِّرْهم بأيام الله وهى التى كان العبدُ فيها فى كتم العدم ، والحق يتولَّى عباده قبل أن يكون لِلعبَادِ فِعلٌ ؛ فلا جُهْدَ للسابقين ، ولا عناء ولا تَرْكَ للمقتصدين ، ولا وقع من الظالم لنفسه ظلم[2].

إذ كان متعلق العلم متناول القدرة ، والحكم على الإرادة . . ولم يكن للعبد اختيار فى تلك الأيام .

قوله : « .... إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

« صبَّار » : راضٍ بحكمه واقف عند كون لذيذ العيش يَسُرهُ .

« شكورٌ » : محجوبٌ[3] بشهود النِّعم عن استغراقه فى ظهور حقه . . هذا واقفٌ مع صبره وهذا واقف مع شكره ، وكلٌ مُلزَمٌ بحدِّه وقَدْرِه . . : . والله غالب على أمره ، مقدَّسٌ فى نَفْسِه مُتعزِّزٌ بجلال قُدْسِه .

قوله جل ذكره ﴿وإذْ قال موسى لقومه أذكروا نِعْمَةَ الله عليكم إذْ أنجا كم مِنْ آلِ فرعون يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العذابِ ويُذَبِّحُونَ أبناءكم ويَسْتَحْيُونَ نساءكم وفى ذلك بلاءٌ مِنْ ربكم عظيم﴾

(١) بقية الكلام غامضة فى الكتابة والمعنى ، وتعجز المطبعة أن تنقل حروفها .

(٢) يشير القشيري بذلك إلى الآية ٣٢ من سورة فاطر : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات » .

(٣) فلا زوال الحجاب إلا إذا تجرد العبد عن شهود النعمة ، وشاهد المنعم ، ومن شاهد المنعم استقبل السراء والضراء بلا تمييز .

تَذَكُّرُ ما سَلَفَ من النِّعَمِ يوجِبُ تجديد ما سَبقَ من المحبة ، وفى الخبر :

« جُبِلَتْ القلوبُ على حُبِّ مَنْ أحسن إليها » ؛ فالحقُّ أَمَرَ موسى عليه السلام . بتذكير قومه ما سبق إليهم من فنون إنعامه ، ولطائف إكرامه . . وفى بعض الكتب المنزلة على الأنبياء — عليهم السلام : « عبدى ، أنا لَكَ مُحِبٌّ فبحقى عليكَ كُنْ لى محباً »

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ تأذَّنَ ربُّكم لَئِنْ شَكَرْتُم لَأَزِيدَنَّكم ولَئِنْ كَفَرْتُم إِنَّ عذابى لشديد ﴾

إن شكرتم لأزيدنكم من إنعامى وإكرامى ، وإن كفرتم بإحسانى لأعذبنكم اليومَ بامتحانى ، وغدا بفراقى وهجرانى .

لئن عرفتم وصالى لأزيدنكم من وجود نوالى إلى شهود جمالى وجلالى[1] .

ويقال لئن شكرتم وجوه توفيق العبادة لأزيدنكم بتحقيق الإرادة .

ويقال لئن شكرتم شهود المَكَافِى لأزيدنكم بشهود أوصافى .

ويقال لئن شكرتم صنوف إنعامى لأزيدنكم بشهود إكرَامِى ثم إلى شهود إقْدَامى .

ويقال لئن شكرتم مختص نعمائى لأزيدنكم مُنْتَظَرَ آلائى .

ويقال لئن شكرتم مخصوصَ نعمَى لأزيدنكم مأمولَ كَرَمِي .

ويقال لَئن شكرتم ما خَوَّلْنَاكُم من عطائى لأزيدنكم ما وعدناكم من لقائى .

ويقال لئن شكرتم ما لَوَّحْتُ فى سرائركم زِدْنَاكُم ما أَلْبسْنَا من العصمة لظواهركم .

ويقال لئن كفرتم نِعْمَتِي بأَنْ توهمتم استحقاقَها[2] لَجَرَّعْنَاكم ما تَستَمِرُّون مذاقها .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال موسى إنْ تكفروا أنتم ومَنْ فى الأرض جميعاً فإنَّ اللهَ لَغَنِىٌّ حميد ﴾

(١) أى إن الوجود والشهود — عند هذا الصوفى — يرتبطان بالأوصاف لا بالذات ، فقد جلت الصمدية عن أن يستشرف العبد من الذات .

(٢) أى ينبغى أن تنظروا لأعمالكم بعين الاستصغار وأن ما تنالون من نعمة فضل من الله وليس نظير أعمالكم .

إن اجتمعتم أنتم ومن عاضدكم ، وكل من غاب عنكم وحضركم ، والذين يقتفون أثركم — على أن تكفروا بالله جميعاً ، وأخذتم كل يوم شركاء قطيعاً — ما أوجبتم لعزِّنا شَيْنًا ، كما لو شكرتم ما جعلتم بمُلْكنا زَيْنًا . والحقُّ بنعوته ووصف جبروته عَلِيٌّ ، وعن العالَمِ بأَسْرِه غنيٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نبأُ الذين مِنْ قبلِكُم قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُم إلَّا اللهُ جاءتهم رُسُلُهُم بالبيناتِ فَرَدُّوا أيديهم فى أفواهِهم وقالوا إنا كَفَرْنا بما أُرْسِلْتُم به وإنَّا لفى شَكٍّ مِمَّا تدعوننا إليه مُرِيبٍ ﴾ .

استفهام فى معنى التقرير . أخبره أنه لما جاءتهم الرسلُ قابلوهم بالكنود ، وعاملوهم بالجحود وردوا أيديهم فى أفواههم ، وحَذَوْا سبيلَ أمثالهم فى الكفر ، وبنوا على الشك والريبة قواعدَهم ، وأسسوا على الشِّرْكِ والغَىِّ مذاهبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قالت رُسُلُهم أفى اللهِ شكٌّ فاطِرِ السمواتِ والأرضِ يدعوكم ليغفرَ لكم من ذنوبكم وَيُؤَخِّرَكُمْ إلى أَجَلٍ مُسَمّىً ﴾

استفهام والمراد منه توبيخ ونفى . سبحانه لا يتحرك نَفَسٌ إلا بتصريفه .

وكيف يبصر جلالَ قَدْرِهِ إلا من كَحَّله بنور برِّه ؟

ثم قال : « يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم » : ليس العجب ممن تكلف لسيده المشاق وتحمل مالا يطاق ، وألَّا يهربَ من خدمةٍ أو يجنحَ إلى راحة .. إنما العَجَبُ من سيدٍ عزيزٍ كريمٍ يدعو عبدَه ليغفرَ له وقد أخطأ ، ويعامله بالإحسان وقد جفا .

والذى لا يَكُفُّ عن العناد ، ولا يؤثر رضاء سيده على راحة نفسه فلا يُحْمَلُ هذا إلا على قسمةٍ بالشقاء سابقة . . وإن أحكام الله بردِّه صادقة . ثم أخبر أنهم قالوا لِرُسُلِهم :

﴿ قالوا إنْ أنتم إلا بَشَرٌ مِثْلُنا
تُرِيدون أنْ تَصدُّونا عمَّا كان يعبد
آباؤُنا فَأْتُونَا بسلطانٍ مبين ﴾

نظروا إلى الرسل من ظواهرهم ، ولم يعرفوا سرائرهم ، ومالوا إلى تقليد أسلافهم ، وأصروا على ما اعتادوه من شقاقهم وخلافهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قالت لهم رُسُلُهم إنْ نحن إلا بَشَرٌ
مِثْلُكُم ولكنَّ الله يَمُنُّ على مَنْ
يشاء مِن عبادِه ، وما كان لنا أنْ
نأتِيَكم بسلطانٍ إلا بإذنِ اللهِ
وعلى اللهِ فليتوكل المؤمنون ﴾

قالت لهم الرسلُ مانحن إلا أمثالكم ، والفرق بيننا أنه — سبحانه — مَنَّ علينا بتعريفه ، واستخلَصنا بما أفْرَدَنا به من تشريفه . والذى اقترحتم علينا من ظهور الآيات فليس لنا إلى الإتيانِ به سبيلٌ إلاَّ أن يُظْهِرَه الله علينا إذا شاء بما شاء — وهو عليه قدير .

قوله جل ذكره : ﴿ وما لَنَا ألا نتوكَّلَ على اللهِ وقد
هدانا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ على
ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل
المتوكِّلون ﴾

« ما لنا ألا نتوكل على الله » : وقد رقَّانا من حدِّ التكليف بالبرهان إلى وجود روح البيان بكثرة ما أفاض علينا من جميل الإحسان ، فكفانا من مهان الشان . « وما لنا ألا نتوكل على الله » : وقد حقَّق لنا ما سبق به الضمان من وجود الإحسان ، وكفاية ما أظلَّنا من الامتنان . « ما لنا ألا نتوكل على الله » ولم نخرج إلى التقاضى على الله فيما وعدنا الله .

قوله : « ولنصبرن على ما آذيتمونا » : والصبر على البلاء يهون إذا كان على رؤية المُبْلِي ، وفى معناه أنشدوا :

يستقدمون بلاياهم كأنهمُ لا ييأسون من الدنيا إذا قتلوا

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين كفروا لِرُسُلِهِم لَنُخْرِجَنَّكم مِنْ أرضِنا أو لَتَعُودُنَّ فى مِلَّتِنا فأوحى إليهم ربُّهم لَنُهْلِكَنَّ الظالمين ﴾

لما عجز الأعداء عن معارضة الأنبياء عليهم السلام فى الإتيان بمثل آياتهم أخذوا فى الجفاء معهم بأنواع الإنذار ، والتهديد بفنون البلاء من الإخراج عن الأوطان ، والتشريد فى البلدان . وبسط الله على قلوبهم بوعد نصره ولقائه ما أظلَّهم من الأمر ، ومَكَّن لهم من مساكن أعدائهم بما قوّى قلوبهم على الصبر على مقاساة بلائهم فقال :

« لنهلكن الظالمين » ، وقال :

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرضَ مِنْ بَعْدِهِم ذلك لِمَن خافَ مقامى وخافَ وعيدِ ﴾

« وخاف وعيدِ » : أى خاف مقامه فى محل الحساب غداً فأناب إلى نفسه على وجه التخصيص .

ويقال خاف مقامى أى هاب اطلاعى عليه ، فالأول تذكير المحاسبة فى الآجل ، والثانى تحقيق المراقبة فى العاجل .

قوله جل ذكره : ﴿ واستفتحوا وخاب كلُّ جبَّارٍ عنيد ﴾

الاستفتاح طلب الفتح ، والفتح القضاء ، واستعجلوا حلول القضاء مثل قولهم : « إن كان هذا هو الحق من عندك فأَمْطِرْ علينا حجارة من السماء »[1] وغيره فلما نزل بهم البلاء ، وتحقق لهم

---

(١) آية ٣٢ سورة الأنفال .

الأمر لم ينفعهم تضرعهم وبكاؤهم، ولم تُقْبَلْ منهم صدقتهم وفداؤهم، وندموا حين لا ندامة، وجزعوا بعدما عَدِموا السلامة.

ويقال: «واستفتحوا»: بغير الرسل، ولما وجد الرسل إصرارَ قومهم سألوا النصرة عليهم من الله كقول نوح — عليه السلام —: «ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً»، وقول موسى عليه السلام: «ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم»[1] فأجابهم الله بإهلاكهم.

ويقال إذا اشتد البلاءُ وصَدَقَ الدعاءُ قَرُبَ النَّجاء.

قوله جل ذكره: ﴿مِنْ ورائه جَهَنَّمُ ويُسْقَى مِنْ ماءٍ صديدٍ * يتجرَّعه ولا يكادُ يُسيغه﴾

لفظ «وراء» يقع على ما بين يديه وعلى ما خَلْف، والوراء ما توارى عليك أى استتر؛ يريد هذا الكافر يأتيه العذاب فيما بين يديه من الزمان، وعلى ما خَلْفَه؛ أى لأجل ما سلف من الماضى من قبيح أفعاله، ويُسْقَى من النار ما يشربه جرعة بعد جرعة، فلصعوبته ومرارته لا يشربه مرةً واحدةً.

قوله جل ذكره: ﴿وَيأْتِيه الموتُ مِنْ كلِّ مَكانٍ وما هو بِمَيِّتٍ ومِنْ وَرَائِه عذابٌ غليظٌ﴾

يرى العذابَ — من شدته — فى كل عضو، وفى كل وقت، وفى كل مكان. وليس ذلك الموت؛ لأنَّ أهلَ النار لا يموتون. ولكنه فى الشدة كالموت. ثم «من ورائه عذاب غليظ»: وهو الخلود فى النار، وهذا جزاء مَنْ اغترَّ بأيامٍ قلائل ساعدته المشيئةُ فيها، وانخدع فلم يشعر بما يليها.

---

(١) الآية ٨٨ سورة يونس.

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ الذين كفروا بربِّهم أعمالهُم
كَرَمَادٍ اشتدَّتْ به الريحُ في يومٍ
عاصفٍ لا يَقْدِرُون مِمَّا كَسَبُوا
على شيءٍ ذلك هو الضلالُ
البعيدُ﴾

أي وفيما يُتْلَى عليكَ — يا محمد — مَثَلٌ لأعمال الكفار في تلاشيها، وكيف أنه لا يُقْبَلُ شيء منها كَرَمَادٍ في يومٍ عاصف، فإنه لا يَبْقَى منه شيء — كذلك أعمالُهم. ومَنْ كان كذلك فقد خاب في الدارين، وحلَّ عليه الويل.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السمواتِ
والأرضَ بالحقِّ، إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
ويأتِ بِخَلْقٍ جديدٍ﴾

خَلَقَ السمواتِ والأرضَ بالحُكْمِ الحق، أي له ذلك بحقٍّ ملكه، وخلقهما بقوله الحق؛ فجعل كلَّ جزءٍ منهما على وحدانيته دليلاً، ولِمَنْ أراد الوصول إلى ربِّه سبيلاً.

ثم قال: إنْ يَشَأْ يذهبكم بالإفناء، ويأتِ بِخَلْقٍ جديدٍ في الإنشاء، وليس ذلك عليه بعزيز ... وأنَّى ذلك وهو على كل شيء قدير؟!

قوله جل ذكره: ﴿وبَرَزُوا للهِ جميعاً، فقال الضعفاءُ
للذين استكبروا إنَّا كنَّا لكم
تَبَعاً فهل أنتم مُغْنُون عَنَّا مِنْ
عذابِ اللهِ مِنْ شيءٍ .....﴾

لم يكونوا عن الحقِّ — سبحانه — مستترين حتى يظهروا له، ولكن معناه صارت معارفهم ضرورية فحصلوا في مواطن لم يكن لغير الله فيها حكم، فصاروا كأنهم ظهروا لله. فقال الضعفاء للذين استكبروا: «إنا كنا لكم تبعاً» توهماً أن يرفعوا عنهم شيئاً من العناء، فأجابهم المتكبرون: إنَّا جميعاً في العذاب مشتركون، ولو أمكننا أنْ نرفعَ عنكم من

العذاب ، وقدرنا على أن نهديكم إلى طريق النجاة لنجيناكم مما شكوتم ، وأجبناكم إلى ما سألتم ، ولكنكم لستم اليوم لنا بمصرخين ، ولا نحن لكم بمغيثين ، ولا لما تدعونا إليه بمستجيبين . . .

فلا تلومونا ولوموا أنفسكم ، ولات حين ملام ! إنما ينفع لومُ النَّفْس فيما تتعاطاه من الإساءة فى زمان المُهْلَةِ وأوقات التكليف ؛ فإنَّ أبوابَ التوبةِ مفتوحة ، ولكن لمن لم ينزع روحه .

قوله جل ذكره : ﴿ وأُدْخِلَ الذين آمنوا وعملوا
الصالحاتِ جناتٍ تجرى مِنْ تحتها
الأنهارُ خالدينَ فيها بإذْنِ ربهم
تحيَّتُهم فيها سَلاَمٌ ﴾

ذلك الذى مضى ذِكْرُه صفةُ الكفار والأعداء . وأمَّا المؤمنون والأولياء ، فقال : « وأُدْخِلَ الذين آمنوا .... » والإيمان هو التصديق ، «وعملوا الصالحات» تحقيق التصديق . ويدخل فى جملة الأعمال الصالحة ما قلَّ أو كَثُرَ من وجوه الخيرات حتى القَذَر تميطه[1] عن الطريق .

و « تحيتهم فيها سلام» — وكذلك قال تعالى : «لهم دار السلام » ، فالوصفُ العام والتحيةُ لهم من الله السلامُ .

ويقال إن أحوالهم متفاوتة فى الرتبة ؛ فقومٌ سَلِمُوا من الاحتراق ثم من الفراق ثم من العذاب ثم من الحجاب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَم تَرَ كيف ضرب اللهُ مَثَلاً
كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلُها
ثابتٌ وفَرْعُها فى السماء * تُؤْتِي
أُكُلَهَا كلَّ حين بإذْنِ رَبِّها

---

(١) أماط الأذى أى نحاه وأبعده

ويَضْرِب اللهُ الأمثال للناسِ لعلهم يَتَذَكَّرُون * ومَثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشَجَرَةٍ خبيثةٍ اجتُثَّتْ مِنْ فوقِ الأرضِ مالها من قرار *

هذا مثل ضربه الله للإيمان والمعرفة به سبحانه ، فشبهه بشجرة طيبة ، وأصل تلك الشجرة ثابت فى الأرض وفروعها باسقة وثمراتها وافية . تؤتى أُكلها كل وقت ، وينتفع بها أهلُها كل حين .

وأصل تلك الشجرة المعرفة ، والإيمان مُصَحَّحاً بالأدلة والبراهين ، وفروعها الأعمال الصالحة التى هى الفرائض ومجانبة المعاصى .

والواجب صيانة الشجرة مما يَضُرُّ بها مثل كشف القِشْر وقَطْع العِرْق وإملاق الغصن(١) وما جرى مجراه .

وأوراق تلك الشجرة القيام بآداب العبودية ، وأزهارها الأخلاق الجميلة ، وثمارها حلاوة الطاعة ولذة الخدمة .

وكما أن الثمار تختلف فى الطَّعم والطبع والرائحة والصورة . . كذلك ثمرات الطاعات ومعانى الأشياء التى يجدها العبدُ فى قلبه تختلف من حلاوة الطاعة وهى صفة العابدين ، والبسطِ الذى يجده العبدُ فى وقته وهو صفة العارفينَ ، وراحةٍ فى الضمير وهو صفة المريدين ، وأُنْسٍ يناله فى سِرِّه وهو صفة المحبين . وقلقٍ واهتياجٍ يجدها ولا يعرف سببهما ، ولا يجد سبيلا إلى سكونه وهو صفة المشتاقين . . إلى مالا يفى بشرحه نطقٌ ، ولا يستوفيه تكلُّفُ قَوْلٍ . وذكرٍ من لوائح ولوامع ، وطوارق وشوارق ، كما قيل .

طوارق أنوار تلوح إذا بدت فتُظْهِرُ كتمانا وتُخْبِرُ عن جمع

ثم إن ثمراتِ الأشجار فى السنة مرة ، وثمرات هذه الشجرة فى كل لحظة كذا كذا مرة . وكما قال الله تعالى فى ثواب الجنة : « لا مقطوعة ولا ممنوعة » كذا لطائف هذه الشجرة

---

(١) أى إذهاب الفاسد منه .

لامقطوعة ولا ممنوعة ، وقلوب أهل الحقائق عنها لا مصروفة ولا محجوبة ، وهى فى كل وقت ونَفَسٍ تبدو لهم غيرَ محجوبة .

وثمرات الشجرة أشرف الثمار ، وأنوارها ألطف وأظرف الأنوار ، وإشارات أهل هذه القصة وألفاظهم فى مراتبهم ومعانيهم كالرياحين والنَّوْر .

ويقال الكلمة الطيبة هى الشهادة بالإلهية ، وللرسول — صلى الله عليه وسلم — بالنبوة . وإنما تكون طيبة إذا صدرت عن سرٍّ مخلص .

والشجرة الطيبة المعرفة ، وأصلها ثابت فى أرضٍ غير سبخةٍ ، والأرض السبخة قلب الكافر والمنافق ، فالإيمان لا ينبت فى قلبيهما كما أن الشجرة فى الأرض السبخة لا تنبت . ثم لا بدَّ للشجرة من الماء ، وماء هذه الشجرة دوام العناية ، وإنما تُورِقُ بالكفاية ، وتَتَوَرَّدُ بالهداية .

ويقال ماء هذه الشجرة ماء الندمِ والحياءِ والتلهفِ والحسرةِ والأمانةِ والخشوعِ وإسبال[1] الدموع .

ويقال ثمرات هذه الشجرة مختلفة بحسب اختلاف أحوالهم ؛ فمنها التوكل والتفويض والتسليم ، والمحبة والشوق والرضا ، والأحوال الصافية الوافية ، والأخلاق العالية الزكية .

ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة هى كلمة الكفر ، وخبثُها ما صحبها من نجاسة الشِّرْك ، فَخُبْثُ الكلمة لصدورها عن قلبٍ هو مُسْتَقَرُّ الشِّرْكِ ومنبعه .

والشجرة الخبيثة هى الشِّرْكُ اجتُثَّ من فوق الأرض ؛ لأن الكفر متناقض متضاد ، ليس له أصل صحيح ، ولا برهان موجب ، ولا دليل كاشف ، ولا علة مقتضية ، إنما هو شُبَهٌ وأباطيل وضلال ، تقتضى وساوسَ وتسويلاتٍ ما لها من قرار ، لأنها حاصلةٌ من شُبَهٍ واهية وأصول فاسدة .

قوله جل ذكره : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الذين آمنوا بالقولِ

---

(١) أسبلت العين = سال دمعها (الوسيط جـ ١ ص ٤١٧) .

الثابتِ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ
ويُضِلُّ اللهُ الظالمين ويفعل اللهُ
ما يشاء ﴾

بالقول الثابت وهو البقاء على الاستقامة ، وترك العِوَج .

ويقال القول الثابت هو الشهادة الضرورية عن صفاء العقيدة وخلوص السريرة .

ويقال القول الثابت هو بنطق القلوب لا بذكر اللسان .

ويقال القول الثابت هو قول الله العزيز القديم الذى لا يجوز عليه الفناء والبطول[1] فهو بالثبوت أَوْلَى من قول العبد ؛ لأن قولَ العبد أثرٌ ، والآثار لايجوز عليها الثبوت والبقاء وإنما يكون باقياً حُكْماً ثباتُ العبد لقول الله ؛ وهو حكمه بالإيمان وإخباره أنه مؤمن وتسميته بالإيمان . وقول الله لايزول ؛ ففي الدنيا يثبتُه حتى لا بِدْعَةَ تعتريه ، وفي الآخرة يثبتُه برسله من الملائكة ، وفي القيامة يثبتُهُ عند السؤال والمحاسبة وفي الجنة يثبتُهُ لأنه لايزول حمد العبد لله ، ومعرفته به . وإذا تنوعت عليه الخواطر ورفع إليه — سبحانه — دعاءه ثَبَّتَه حتى لا يحيد عن النهج المستقيم والدين القويم .

ويقال إذا دَعَتْه الوساوسُ إلى متابعةِ الشيطان ، وصيَّرتْه الهواجسُ إلى موافقة النَّفْس فالحق يثبته على موافقة رضاه .

ويقال إذا دَعَتْه دواعى المحبة من كل جنس كمحبة الدنيا ، أو محبة الأولاد والأقارب والأموال والأحباب أعانه الحقُّ على اختيار النجاة منها ، فيترك الجميع ، ولا يتَحسَّسُ إلا دواعىَ الحقِّ — سبحانه كما قيل :

إذا ما دَعَتْنا حاجةٌ كى تردَّنا أبيْنا وقلنا : مطلبُ الحقِّ أوَّلا

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين بَدَّلوا نعمةَ اللهِ
كُفْراً وأحلُّوا قومَهم دارَ البَوار ﴾

(١) بطل الشيء بطولا وبطلانا = ذهب ضياعاً (الوسيط جـ ١ ص ٦١) .

وضعوا الكفران محل الشكر ، فاستعملوا النعمة للكفر ، بدلاً من استعمالها فيما كان ينبغى لها من الشكر . واستعمال النعمة فى المعصية من هذه الجملة ، فأعضاء العبد كلها نِعَمٌ من الله على العبد ، فإذا استعمل العاصى بَدَنَه فى الزَّلة بدلاً من أن يستعملها فى الطاعة فقد بَدَّلَ النعمة كفراً ، وكذلك إذا أودع الغفلَة قلبَه مكانَ المعرفة ، والعلاقَة فيه مكان الانقطاع إليه ، وعَلَّقَ قلبه بالأغيار بَدَلَ الثقة به ، ولَطَّخَ لسانَه بذكر المخلوقين ومَدْحِهم بَدَلَ ذكرِ الله واشتغل بغير الله دون العناء فى ذكره . . . كلٌ هذا تبديلُ نِعَمِ الله كفراً . وإذا كان العبدُ منقطعاً إلى الله ، مكتفياً من قِبَلِ الله . . وَجَدَ فى فراغه مع الله راحةً عن الخَلْق ، ومن إقباله عليه — سبحانه — كفاية ، فإذا رجع إلى أسباب التفرقة ، ووقع فى بحار الاشتغال ومعاملة الخلْق ومدحهم وذمهم فقد أحلَّ قومه دار البوار ؛ على معنى إيقاعه قلبَه ونَفْسَه وجوارحَه فى المذلة من الخلْق ، والمضرة فى الحال ، وشأنه كما قيل :

ولم أَرَ قَبْلى مَنْ يُفَارِقُ جَنَّةً ويقرع بالتطفيل بابَ جهنمِ

قوله جل ذكره : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وبِئْسَ القرار ﴾

وهى الجحيم المُعَجَّل . . وعذابُها الفُرْقَةَ لا الحُرْقَة .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلوا لله أنداداً لِيُضِلُّوا عن سبيله قُلْ تَمَتَّعُوا فإنَّ مصيرَكُم إلى النار ﴾

رضوا بأن يكون معمولُهم معبودَهم ، ومنحوتُهم مقصودَهم ، فضلُّوا عن نَهْجِ الاستقامة ، ونأوا عن مقر الكرامة ، وسيلقون غِبَّ(1) ما صنعوا يوم القيامة كما قيل :

قد تركناكَ والذى تريد فعسى أن تَمَلَّهُم فتعودا

قل تمتعوا أياماً قليلة فأيامُ السرور قِصارٌ ، ومُتَعُ الغفلة سريعة الانقضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لعبادىَ الذين آمنوا يُقيموا

---

(1) وردت (غير) وقد آثرنا أن تكون (غب) ليقوى المعنى أى عاقبة ما صنعوا .

الصلاة وينفقوا مِمَّا رزقناهم سِرًّا وعلانيةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يأتِيَ يومٌ لا بَيْعٌ فيه ولا خِلال ﴾

جعل اللهُ راحةَ العبدِ — اليومَ — بكمالها فى الصلاة ؛ فإنَّها محلُّ المناجاة ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « أَرِحْنا يا بلال بالصلاة »[1] والصلاة استفتاح باب الرزق ، قال تعالى : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً »[2] .

وفى الصلاة يبث[3] العبد أسرارَه مع الحق ؛ فإذا كان لقاء الإخوان — كما قالوا — مَسْلاةً لهم فكيف بمناجاتك مع الله ، و نشر قصتك بين يديه ؟ كما قيل :

قُلْ لى بألسنة التَنَفُّسِ كيف أنت وكيف حالك ؟

« وينفقوا مما رزقناهم » : أمرهم بإنفاق اللسان على ذكره ، وإنفاق البَدَنِ على طاعته ، والوقتَ[4] على شكره ، والقلبَ على عرفانه ، والروح على حبه ، والسِّرَّ على مشاهدته . . ولا يكلِّف الله نَفْسَاً إلا ما آتاها ، وإنما يطالبك بأن تحضر إلى الباب ، وتقف على البساط بالشاهد الذى آتاك . . يقول العبد المسكين : لو كان لى نَفْسٌ أطوع من هذه لأَتيْتُ بها ، ولو كان لى قلبٌ أشدُّ وفاء من هذا لَجُدْتُ به ، وكذلك بروحى وسِرِّى ، وقيل :

يفديك بالروح صَبٌّ لو انَّ له أعز من روحه شيئاً فداك به

« من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال » : وفى هذا المعنى أنشدوا :

قلتُ للنَّفْسِ إنْ أردتِ رجوعاً فارجعى قبل أن يُسدَّ الطريق

قوله جل ذكره : ﴿ الله الذى خَلَقَ السموات والأرضَ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من

(١) سبق تخريج هذا الحديث الشريف .
(٢) آية ١٣٢ سورة طه .
(٣) وردت (يثبت) والمعنى يقتضى (يبث) .
(٤) وردت (الوقف) وهى — كما هو واضح — خطأ فى النسخ .

الثمراتِ رِزْقاً لـكم وسخَّر لـكم
الفُلْكَ لتجرىَ فى البحر بأمره
وسخَّر لـكم الأنهار * وسخَّر لـكم
الشمسَ والقمرَ دائبيْن وسخَّر لـكم
الليل والنهار ﴾

فى الظاهر رَفعَ السماء فأعلاها، والأرض من تحتها دحاها، وخلقَ فيها بحاراً، وأجرى أنهارا، وأنبت أشجاراً، وأثبت لها أنوار وأزهارا، وأمطر من السماء ماء مدراراً. وأخرج من الثمرات أصنافا، ونوَّع لها أوصافا، وأفرد لـكلٍّ منها طعماً مخصوصاً، ولإدراكه وقتاً معلوماً.

وأمَّا فى الباطن فسماء القلوب زَيَّنَها بمصابيح العقول، وأطلع فيها شمس التوحيد، وقمر العرفان. ومَرج فى القلوب بحرى الخوف والرجاء، وجعل بينهما برزخاً لا يبغيان؛ فلا الخوف يقلب الرجاء ولا الرجاء يقلب الخوف، كما جاء فى الخبر: «لو وزنا لاعتدلا»[1] — هذا لعوام المؤمنين، فأمَّا للخواص فالقبض والبسط، ولخاص الخاص فالهيبة والأُنْس والبقاء والفناء.

وسَخَّر لهم الفُلْكَ فى هذه البحار ليعبروها بالسلامة، وهى فلك التوفيق والعصمة، وسفينة الأنوار والحفظ. وكذلك ليالى الطلب للمريدين، وليالى الطرب لأهل الأُنْس من المحبين، وليالى الحرب[2] للتائبين، وكذلك نهار العارفين باستغنائهم عن سراج العلم عند متوع نهار اليقين.

قوله جل ذكره: ﴿وآتاكم من كلِّ ما سألتموه، وَإِنْ
تَعُدُّوا نعمةَ اللهِ لا تُحْصُوها، إِنَّ
الإنسانَ لظلومٌ كفَّار﴾

ما سَمَتْ إليه هِمَمُـكم، وتعلَّق به سؤالُـكم، وخَطَر تحقيقُ ذلك ببالِـكم، أنلناكم

(١) أورده السراج فى لمعه ص ٩١ (قال صلى الله عليه وسلم: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا)
(٢) ربما يقصد القشيرى بالحرب هنا جهاد التائب مع نفسه، وإظهار الحزن والتأسف.

فوق ما تُؤَمِّلُون[1] ، وأعطيناكم أكثر مما تَرْجُون[2] ، قال تعالى : « ادعونى استجب لكم » .

وقرأ بعض القراء[3] : « من كُلٍّ ما سألتموه » فَيُنَوِّنُ قوله : كلٍ ، ويجعل ما سألتموه (ما) للنفى أى كل شىء مما لم تسألوه .

كذلك جاز أن يكون المعنى ، قل يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألونى — وهذا لأرباب الطاعات ، وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى — وهذا لأصحاب الزلات . عَلِمَ قصور لسان العاصى وما يمنعه من الخجل وما يقبض على لسانه إذا تذكَّر ما عمله من الزلاَّت ، فأعطاه غفرانه ، وكفاه حشمةَ السؤال ، والتفضل ؛ فقال : غفرتُ لكم قبل أن تستغفرونى .

ولكن متى يخطر على قلب العبد ما أهَّلَه الحق — سبحانه — من العرفان ؟ وكيف يكون ذلك الحديث ؟ . . قَبْلَ أَنْ كان له إمكانٌ ، أو معرفة وإحسان ، أو طاعة أو عصيان ، أو عبادة وعرفان ، أو كان له أعضاء وأركان ، أو كان العبد شيخاً أو عيناً أو أثراً . . لا بَلْ :

أتانى هواها قبل أَنْ أعْرِفَ الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكّنا

قوله جل ذكره : (وإنْ تَعُدُّوا نِعمةَ اللهِ لا تُحْصُوها إنَّ الإنسانَ لظلومٌ كَفَّار)

كيف يكون شكركم كفاء نِعَمِهِ . . ؟ وشكرُكم نَزْرٌ يسير ، وإنعامُه وافر غزير .
وكيف تكون قطرة الشكر بجوار بحار الإنعام ؟
إنَّ نِعَمَهُ عُلُومُكم عن تفصيلها متقاصرةٌ ، وفُهُومُكم عن تحصيلها متأخرةٌ .

---

(1) وردت (تؤمنون) وهى — كما هو واضح — لا يستقيم بها السياق فآثرنا تؤملون .
(2) وردت (ترجعون) وهى — كما هو واضح — لا يستقيم بها السياق فآثرنا ترجون .
(3) لا يهتم القشيرى بالقراءات إلا نادراً ، وحيثما وجد فى ذلك مجالا لإشارة نافعة للصوفية .

وإذا كان ما يدفع عن العبد من وجوه المحن[1] وفنون البلايا من مقدوراته لا نهاية له . . فكيف يأتى الحصر والإحصاء على مالا يتناهى ؟

وكما أن النَّفْعَ من نِعَمِهِ فالدفعُ أيضاً من نعمه .

ويقال إن التوفيق للشكر من جملة ما ينعم به الحقُّ على العبد فإذا أراد أن يشكره لم يمكنه إلا بتوفيقٍ آخر فلا يبقى من النعم إلا ما يشكر عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ[2] قال ابرهيم ربِّ اجعلْ هذا البلدَ آمِناً واجْنُبْني وبَنِيَّ أنْ نَعْبُدَ الأصنامَ * ربِّ إنهنَّ أضْلَلْنَ كثيراً من النـاسِ فمن تبِعَـنِي فإنه مِنِّي ﴾

كما سأل أن يجعل مكةَ بلداً آمناً طلب أن يجعل قلبَه محلاً آمناً ؛ أى لا يكون فيه شيء إلا بالله . « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » : والصنم ما يعبد من دونه ، قال تعـالى : « أفرأيتَ مَنْ اتخذ إلهه هواه »[3] فصنمُ كلِّ أحدٍ ما يشغله عن الله تعالى من مالٍ وولَدٍ وجاهٍ وطاعة وعبادة .

ويقال إنه لمَّا بنى البيتَ استعان بالله أن يجرِّدَه من ملاحظة نفسه وفعله .

ويقال إنه — صلى الله عليه وسلم — كان متردداً بين شهود فضـل الله وشهود رفق نفسه ، فلما لقى من فضله وجوده قال من كمال بسطه : « واغفر لأبى إنه كان من الضالين » . ولما نظر من حيث فقر نفسه قال : « واجنبنى وبنىَّ أن نعبد الأصنام » .

ويقال شاهد غيره فقال : « واجنبنى وبنىَّ أن نعبد الأصنام » ، وشاهد فضله ورحمته ولطفه فقال : « واغفر لأبى إنه كان من الضالين » .

---

(1) وردت (المحسن) وهى خطأ فى النسخ .
(2) سقطت (وإذ) من الناسخ .
(3) آية ٢٣ سورة الجاثية .

قوله جل ذكره : ﴿ فمن تبعني فإنه مني ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾

« فإنه مني » : أى موافق لى ومن أهل مِلَّتِى ، ومن عصانى خالفنى وعصاك .

قوله : « فإنك[1] غفور رحيم » : طلبٌ للرحمة بالإشارة ، أى فارحمهم .

وقال : « ومَنْ عصانى » . . ولم يَقُلْ : مَنْ عصاك ، وإنْ كان من عصاه فقد عصى الله ، ولكن اللفظ إنما لطلب الرحمة فيما كان نصيب من ترك حقه ، ولم ينتصر لنفسه بل قابلهم بالرحمة .

ويقال إن قولَ نبينا صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب أتمُّ فى معنى العفو حيث قال : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » ، وابرهيم — عليه السلام — عَرَّضَ وقال : « فإنك غفور رحيم » .

ويقال لم يجزم السؤال لأنه بدعاء الأدب[2] فقال : « ومن عصانى فإنك غفور رحيم » .

قوله جل ذكره : ﴿ ربَّنَا إنِّى أسكَنْتُ من ذريتى بوادٍ غيرِ ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاةَ فاجعل أفئدةً من النـاسِ تهوى إليهم وارزُقْهم مِنَ الثَّمراتِ لعلهم يَشْكُرُون ﴾

أخبر عن صدق توكله وصدق تفويضه بقوله : « إنى أسكنت . . . » وإنما رأى الرِّفقَ بهم فى الجِوارِ لا فى المَبَارِّ فقال : « عند بيتك المحرم » ثم قال : « ليقيموا الصلاة » : أى أسكنتُهم لإقامة حقِّكَ لا لِطَلَبِ حظوظهم .

ويقال اكتفى أن يكونوا فى ظلال عنايته عن أن يكونوا فى ظلال نعمته .

---

(1) أخطأ الناسخ إذ جعلها « فإن الله غفور رحيم » .

(2) تفيد هذه الإشارة فى النواحى البلاغية حيث استبدل التعبير بالأسلوب الإنشائى بالأسلوب الخبرى .

ثم قال : « فاجعل أفئدةً من الناس تهوى إليهم » أى ليشتغلوا بعبادتك ، وأقم قومى — ما بقوا — بكفايتك ، « وارزقهم من الثمرات » : فإنَّ مَنْ قام بحقِّ الله أقام اللهُ بحقِّه قَوْمَه ، واستجاب اللهُ دعاءه فيهم ، وصارت القلوبُ من كل بَرٍ وبحرٍ كالمجبولة على محبة تلك النسبة ، وأولئك المتصلين به ، وسكان ذلك البيت .

ويقال قوله : « بوادٍ غير ذى زرعٍ » : أى أسكنتُهم بهذا الوادى حتى لا تتعلق بالأغيار قلوبُهم ، ولا تشتغل بشَىْءٍ أفكارهم وأسرارُهم ؛ فهم مطروحون ببَابِكَ ،مصونون بحضرتك ، مرتبطون بحُكْمِكَ ؛ إنْ رَاعيتَهم كَفَيْتَهُم وكانوا أعزَّ خَلْقِ الله ، وإنْ أقصيتَهم ونفيتهم كانوا أضعفَ وأذلَّ خَلْقِ الله .

قوله جل ذكره : ﴿ ربَّنَا إنك تعلم مانُخْفِى وما نُعْلِنُ وما يخفَى على اللهِ من شىءٍ فى الأرضِ ولا فى السماء ﴾ .

استأثرتَ بعلم الغيب فلا يَعْزُبُ عن علمك معلومٌ ، وحالى لا تخفى عليك ، فهى كما عرفتَ ، أنت تعلم سِرِّى وعَلَنِى .. ومَنْ عرف هذه الجملة استراح من طوارق الأغيار ، واستروح قلبُه عن تَرَجُّمِ الأفكار ، والتَّقَسُّمِ في كون الحوادث من الأغيار .

قوله جل ذكره : ﴿ الحمدُ للهِ الذى وَهَبَ لى على الكِبَرِ إسماعيلَ وإسحقَ إنّ ربى لَسميعُ الدعاء ﴾

أسمعه بمنحه الولد على الكبر ، ويلتحق ذلك بوجهٍ من المعجزات ؛ فحمد عليه . ولمَّا كان هذا القول عقيب سؤاله ما قدَّم من ذكر نعمته — سبحانه — عليه ، وإكرامه بأنواره ،وهذا يكون بمعنى المَلَق[1] ، ويكون استدعاء نعمةٍ بنعمة ؛ فكأنه قال : كما أكرمتنى بِهِبَة الوَلَدِ على الكِبَر ؛ فأكْرِمْنى بهذه الأشياء التى سألتُها .

ويقال الإشارة فى هذا أنه قال : كما مَنَنْتَ علىَّ فوهبتنى على الكِبَر هذه الأولاد

---

(١) الملق = الدعاء والتضرع (الوسيط) .

فأَجْنِبْنا أن نعبد الأصنام لتكونَ النعمةُ كاملةً . وفى قوله : « إن ربى لسميع الدعاء » . . إشارة إلى هذه الجملة .

قوله جل ذكره : ﴿ ربِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصلاةِ ومِنْ ذُرِّيتِى * ربَّنَا وتَقَبَّلْ دُعَاءِ *
ربَّنَا اغْفِرْ لى ولوالدىَّ وللمؤمنين
يومَ يقومُ الحساب ﴾

فى قوله : « ربِّ اجعلنى مقيم الصلاة . . » إشارة إلى أن أفعال العباد مخلوقة ، فمعناه اجعل صلاتى ، والجَعْلُ والخَلْقُ بمعنى ، فإذا جعله مقيمَ الصلاة فمعناه أن يجعل له صلاةً .

وقوله : « ومن ذريتى » : أى اجعل منهم قوماً يُصَلُّون ، لأنه أخبره فى موضع آخر بقوله : « لا ينال عهدى الظالمين » (١)

ثم قال : « ربنا اغفر لى ولوالدىَّ » وهذ قبل أن يعلم أنه لا يُؤْمِن .

ويقال إن إجابة الدعاءِ ابتداء فضلٍ منه . ولا ينبغى للعبد أن يَتَّكِلَ على دُعاءِ أحد وإن كانْ عَلِيَّ الشأن ، بل يجب أن يعلق العبد قلبه بالله ؛ فلا دعاء أَتَمُّ من دعاءِ إبراهيم عليه السلام ، ولا عنايةَ أتمُّ من عنايته بشأن أبيه ، ثم لم ينفعه ولا شفع الله له .

ويقال لا ينبغى للعبد أن يترك دعاءه أو يقطعَ رجاءه فى ألا يستجيبَ الله دعاءه ، فإن إبرهيمَ الخليلَ عليه السلام دعا لأبويه فلم يُسْتَجَبْ له ، ثم إنه لم يترك الدعاء ، وسأل حينما لم يُجَبْ فيه . فلا غضاضةَ على العبد ولا تناله مَذَلَّةٌ إنْ لم يُجِبْهُ مولاه فى شىء ؛ فإنَّ الدعاء عبادةٌ لا بدَّ للعبد من فِعْلِها ، والإجابةُ من الحقِّ فضلٌ ، وله أن يفعل وله ألا يفعل .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافلاً عمَّا يَعْمَلُ الظالمون ﴾

هذا وعيدٌ للظالمين وتسلية للمظلومين ؛ فالمظلوم إذا تحقَّق بأنه — سبحانه — عالِمٌ بما يلاقيه من البلاء هانت على قلبه مقاساته ، وحق عليه تحمله .

---

(١) آية ١٢٤ سورة البقرة .

والظلم على وجوه ؛ ظلمٌ على النَّفْس بوضع الزَّلَّةِ مكان الطاعة ، وظلم على القلب بتمكين الخواطر الردية منه ، وظلم على الروح بجعلها لمحبة المخلوقين .

ويقال من جملة الظالمين الشيطانُ ، فالعبدُ المؤمنُ مظلومٌ من جهته ، والحقُّ — سبحانه — ينتصف له منه غداً ، وذلك إنْ لم يَتّبِعْهُ اليومَ ، ودَفَعَه عن نفسه بالمجاهدة وترك وساوسه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما يُؤَخِّرُهم ليوم تَشْخَصُ فيه الأبصارُ * مُهْطِعين مُقْنِعِى... الآية ﴾

وهذا للعوام من المؤمنين ، علّق قلوبهم بالانتقام منهم فى المستأنف ، وأمَّا الخواص فإذ علموا أنه — سبحانه — عالِمٌ بهم وبحالهم فإنهم يعفون ويكتفون بذلك ، وأمَّا خواص الخواص فإذ علموا أنهم عبيده فإنهم لا يرضون بالعفو عن ظُلْمِهم حتى يستغفرَلهم ، كما قال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » ، وفى معناه أنشدوا :

وما رضوا بالعفو عن ذى زلة حتّى أنالوا كفّه وازدادوا

وأمَّا أصحاب التوحيد فإذ عَلِمُوا أنه المنشىء ، وألا مخترعَ سواه فليس بينهم وبين أحدٍ محاسبة ، ولا معَ أحدٍ مُعَاتَبَة ، ولا منه مطالبة ، لأنهم يَعُدُّون إثباتَ الغيرِ فى الظن والحسبان شِرْكاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وأَنْذِرْ الناسَ يومَ يأتيهم العذابُ فيقولُ الذين ظَلَمُوا ربَّنا أَخِّرْنا إلى أَجَلٍ قريبٍ نُجِبْ دعوتَكَ ونَتَّبِعْ الرُّسُلَ أو لم تكونوا أَقْسَمْتُم من قَبْلُ ما لكم من زوال ﴾

أفسدوا فى أول أمورهم ، وقصَّروا فى الواجب عليهم ، ولم يكن للخَلَلِ فى أحوالهم جبران ، ولا لعذرهم قبول لتصحَّ الحجة عليهم ، فافتضح المجرم منهم ، وخاب الكافر ، وحُقَّ الحكمُ عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسَهم وتبيَّنَ لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴾

أحللنا بهم العقوبة ، وأشهدناكم ذلك مما اعتبرتم ، وجريتم على مناهجهم ، وفعلتم مثلَ فِعْلِهم ، وبإمهالنا لكم اغتررتم . . فانْتَظِرُوا منَّا ما عاملناكم به جزاءً لكم على ما أسلفتم .

ويقال إن معاشرةَ أهل الهوى والفسق ومجاورتَهم مُشَارَكةٌ لهم فى فِعْلِهم ، فيستقبلُ فاعلُ ذلك استقبالَهم ، ومَنْ سَلَكَهُم ينخرط فى التردِّى نحو وَهْدَةِ هلاكهِ مِثْلَهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَه إنَّ اللهَ عزيزٌ ذو انتقام ﴾ .

أى لا تحسبنَّه يخلف رسله وعده ، لأنه لا يخلف الوعد لصدقه فى قوله ، وله أن يعذبهم بما وعدهم لحقِّه فى مُلْكِه ، وهو « عزيز » لا يصل إليه أحد ، وإن كان ولياً . « ذو انتقام » لا يفوته أحد وإن كان (. . . . . .)[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسموات وبَرَزُوا للهِ الواحدِ القهار ﴾ .

لا يختلف عَيْنُها وإنما تختلف صورتها ، وكذلك إذا انكدرت النجوم ، وانشقت السماء يقال ما بدِّل عينها وإنما بدِّل الأزمانَ والمكانَ على الناس باختلاف أحوالهم فى السرور والمحن ؛ كمَنْ صار من الرخاء إلى البلاء يقول : تغيَّر الزمانُ والوقتُ . . وكذلك من صار من البلاء إلى الرخاء .

ويقال إن آدم لما قتل أحدُ ابنيه الآخرَ قال :

تغيرت البلادُ ومَنْ عليها فوجهُ الأرضِ مُغْبَرٌّ قبيحُ

وفى هذه القصة[2] من كان صاحب بسطٍ فَرُدَّ إلى حال القبض ، ومن كان صاحب أُنسٍ

(١) وردت لفظتان هكذا (سهماً قوماً) .

(٢) يشير القشيرى إلى (بالقصة) إلى الحياة الصوفية .

فصار صاحب حجاب — يصحُّ أن يقال بدل له الأرض ، قال بعضهم :

ما الناس بالناس الذى عهدى بهم ولا البلاد بتلك التى كنت أعرفها

وكذلك العبد المريد إذا وقعت له وقفة أو فترة كانت الشمس له كاشفة ، وكانت الأرض به راجفة ، وكان النهار له ليلا ، وكان الليل له ويلا ، وكما قيل :

فما كانت الدنيا بسهل ولا الضحا بطَلْقٍ ولا ماء الحياة ببارد

قوله جل ذكره : ﴿ وتَرَى المُجْرِمين يَوْمئذٍ مُقَرَّنين فى الأصفاد * سَرابِيلُهم من قَطِرَانٍ وتَغْشَى وُجوهَهم النارُ * لِيَجْزِىَ الله كُلَّ نفسٍ ما كَسَبَتْ إنَّ اللهَ سريعُ الحساب ﴾ .

الأصفاد الأغلال . الأصفاد تجمعهم ، والسلاسل تقيدهم ، والقطران سرابيلهم ، والحميم شُربُهم ، والنارُ محيطةٌ بهم . . وذلك جزاء مَنْ خالف إلهه .

قوله جل ذكره : ﴿ هذا بَلاغٌ للناسِ وَلِيُنْذَروا به ولِيَعْلَموا أنَّما هو إلـهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الألبابِ ﴾ .

الحجج ظاهرة ، والأمارات لائحة ، والدواعى واضحة ، والمهلة متسعة ، والرسول عليه السلام مُبَلِّغ ، والتمكين من القيام بحق التكليف مساعد . ولكنَّ القسمةَ سابقةٌ ، والتوفيقُ عن القيام ممنوعٌ ، والربُّ — سبحانه — فعَّالٌ لما يريد ، فَمَنْ اعتبر نجا ، ومن غفل تردَّى . ولله الأمر من قبل ومن بعد ، والله أعلم .

السورة التى يذكر فيها الحجر

بسم الله الرحمن الرحيم

سقطت ألف الوصل من كتابة بسم الله وليس لإسقاطها علة ، وزيد فى شكل الباء من بسم الله وليس لزيادتها علة ، ليُعْلَمَ أن الإثبات والإسقاط بلا علة ؛ فلم يَقْبَلْ من قَبِلَ لاستحقاق علة ، ولا رَدَّ مَنْ رَدَّ لاستيجاب علة . فإنْ قيل العِلَّةُ فى إسقاط الألف من بسم الله كثرةُ الاستعمال فى كتابتها أُشْكِلَ بأن الباء من بسم الله زيد فى كتابتها وكثرة الاستعمال موجودة . فإن قيل العلة فى زيادة شكل الباء بركة أفضالها باسم الله أشكل بحذف ألف الوصل لأن الاتصال بها موجود ، فلم يبقَ إلا أن الإثبات والنفى ليس لهما علة ؛ يرفع من يشاء ويمنع من يشاء .

قوله جل ذكره : ﴿ الر تلك آياتُ الـكتابِ وقرآنٍ مبين ﴾ .

أسمعهم هذه الحروف مُقَطَّعَةً على خلاف ما كانوا يسمعون الحروف المنظومة فى الخطاب ، فأعرضوا عن كل شىءٍ وسمعوا لها . ونبههم القرآنُ إلى أن هذه التى يسمعونها آياتُ الـكتاب ، فقال لهم لما حضرت ألبابُهم ، واستعدت لسماع ما يقول آذانُهم : « تلك آيات الـكتاب وقرآنٍ مبين » .

ووصف القرآن بأنه مبين ، لأنه يُبَيِّنُ للمؤمنين ما يسكن قلوبهم ، وللمريدين ما يقوى رجاءهم ، وللمحسنين ما يهيج اشتياقهم ، وللمشتاقين ما يثير لواعجَ أسرارهم ، ويبيِّن للمصطفى — صلى الله عليه وسلم — تحقيقَ ما مَنَعَ غَيْرَه بعد سؤاله . . ألم تر إلى ربك قال لموسى عليه السلام : « لن ترانى » بعد سؤاله : « رب أرنى أنظر إليك »[1] .

(١) آية ١٤٣ سورة الأعراف

قوله جل ذكره : ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الذين كَفروا لو كانوا مسلمين ﴾ .

إذا عرفوا حالهم وحال المسلمين يوم القيامة لعلموا كيف شقوا ، وأى كأس رشفوا .

ويقال إذا صارت المعارفُ ضروريةً أحرقَتْ نفوسَ أقوامٍ العقوبةُ ، وقطَّعَتْ قلوبَهم الحسْرَةُ .

ويقال لوعرفوا حالَهم وحالَ المؤمنين لَعَلِمُوا أن العقوبةَ بإهلاكهم حاصلةٌ لقوله تعالى بعدئذ :

﴿ ذَرْهُم يأكلوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فسوف يعلمون ﴾ .

قيمةُ كل امرئٍ على حسب هِمَّتِه ؛ فإذا كانت الهمةُ مقصورةً على الأكل والتمتع بالصفة البهيمية لا يُحَاسَبُ ، وعلى العقل لا يُطَالَبُ ؛ فالتَّكليفُ يتبعه التشريف ! وغداً سوف يعلمون .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أَهْلَكْنا من قريةٍ إلا ولها كتابٌ معلومٌ * ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وما يستأخِرون ﴾ .

الآجال معلومة ، والأحوال مقسومة ، والمشيئة فى الكائنات ماضية ، ولا تخفى على الحق خافية .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا يأيها الذى نُزِّل عليه الذِّكْرُ إنَّكَ لَمجْنُون ﴾ .

الجنون معنًى يوجب إسناد ما ينكشف للعقلاء من التحصيل على صاحبه ، فلمَّا كانوا بوصف التباس الحقائق عليهم فهم أَوْلى بما وصفوه به[1] ، فهم كما فى المَثَل : رَمَتْني بدَائِها وانْسَلَّت .

---

(١) لأنهم ليسوا عقلاء ولا تحصيل لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْمَا تأتينا بالملائكةِ إنْ كنتَ
من الصادقين * ما نُنَزِّلُ الملائكةَ
إلاَّ بالحقِّ وما كانوا إذاً مُنْظَرين ﴾

اقترحوا عليه الإتيان بالملائكة بعد ما أزيحت العلة عليهم بما أيَّد به معجزاته ، فيتوجب اللَّوْمُ عليهم لسوءِ أدَبِهم . وأخبر الحقُّ — سبحانه — أنه أجرى عادته أنه إذا أظهر الملائكةَ لأبصارِ بنى آدم فيكون ذلك عند استبصارهم ؛ لأنه تصير المعرفة ضرورية . وفى المعلوم أنه لم يكن ذلك الوقتُ أوَانَ هَلاَكِهم ؛ لِعِلْمِهِ أنَّ فى أصلابهم مَنْ يُؤْمِنُ بالله سبحانه فى المستأنف .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّا نحن نَزَّلْنا الذِّكْرَ وإنَّا له
لحافظون ﴾ .

أنزل التوراة وقد وَكَلَ حفظها إلى بنى إسرائيل بما استحفظوا من كتاب الله ، فحرَّفوا وبَدَّلوا ، وأنزل الفرقان وأخبر أنه حافظه ، وإنما يحفظه بقرائه ؛ فقلوبُ القُرَّاءِ خزائنُ كتابه ، وهو لا يضيع كتابه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا مِنْ قَبْلِكَ فى شِيَعِ
الأولين * وما يأتيهم من رسولٍ
إلا كانوا به يستهزئون * كذلك
نَسْلُكُه فى قلوبِ المجرمين *
لا يُؤْمنون به وقد خَلَتْ سُنَّةُ
الأولين ﴾ .

أخبر أنه كانت عادتهم التكذيب ، وأنه أدام سُنَّتَه معهم فى التعذيب . ثم قال : « كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين » : وهم لا يؤمنون به لأنه أزاح قلوبهم عن شهود الحقيقة ، وسَدَّ — بالحرمان — عليهم سلوكَ الطريقة ، وبيَّن أنه لو أراهم الآياتِ عياناً ما ازدادوا

إلا عتواً وطغيانا ، وأن مَنْ سَبَقَ له الُحكْمُ بالشقاء فلا يزداد على ممر الأيام إلا ما سَبَقَ به القضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ولو فَتَحْنا عليهم باباً من السماءِ فظلوا فيه يَعْرُجُون * لقالوا إنما سُكِّرَتْ أبصارُنا بل نحن قومٌ مَسْحُورُون﴾

مَنْ عليه التقدير كان بأمر التكليف مدعوا ، وبأمر التكوين مقضياً . . فمتى ينفع فيه النصح ؟ ومتى يكون للوعظ فيه مساغ ؟ كلا . . إن البصيرةَ له مسدودةٌ ، و (. . . .)(1) الخذلان بِقَدَمِه مشدودة ، فهو يحمل النصيحة له على الوقيعة ، والحقيقة على الخديعة .

قوله جل ذكره : ﴿ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزَيَّنَّاها للناظرين﴾

بروجاً أى نجوماً هى لها زينة ، ثم تلك النجوم للشياطين رجوم .

﴿وحَفِظْناها من كلِّ شيطان رجيم * إلا مَنِ استَرَقَ السمعَ فأَتْبَعَه شِهابٌ مبين﴾ .

إذا رام الشياطينُ أن يسترقوا السمعَ كانت النجومُ لها رجوماً .

كذلك للقلوب نجومٌ وهى المعارف وهى فى الوقت ذاته رجوم على الشياطين ، فلو دنا إبليسُ وجنودُه من قلب ولىٍّ من الأولياء أحرقَتْه بل محقَتْه نجومُ عقلِه وأقمارُ علمِه وشموسُ توحيدِه .

وكما أنَّ نجومَ السماءِ زينةٌ للناظرين إذا لاحظوها فقلوبُ العارفين إذا نظر إليها ملائكة السماءِ لهى زينة .

قوله جل ذكره : ﴿والأرضَ مَدَدْناها وألقينا فيها رواسِيَ﴾

---

(1) مشتبهة وهى فى الخط هكذا (متقلاب) وربما كانت (مثقلات) بمعنى أثقال وقيود .

النفوس أرض عبادة العابدين ، وقلوبُ العارفين أرض المعرفة وأرواح المشتاقين أرض المحبة ، والخوف والرجاء لها رواسٍ . وكذلك الرغبة والرهبة .

ويقال من الرواسى التى أثبتها فى الأرض الأولياء فبهم يثبت الناس إذا وَقَعَ بهم الفزعُ .

ومن الرواسى العلماء الذين بهم قِوَامُ الشريعة ؛ فعلماء الأصول هم قِوامُ أصلِ الدِّين ، والفقهاء بهم نظامُ الشرع ، قال بعضهم :

واحسرتا من فراق قوم   هم المصابيحُ والأمنُ والمُزْنُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وأَنْبَتْنَا فيها مِنْ كلِّ شىءٍ موزون ﴾

كما أنبت فنوناً من النبات ذات أنوار[(١)] أنبت فى القلوب صنوفاً من الأنوار[(٢)] ، منها نور اليقين ونور العرفان ، ونور الحضور ونور الشهود ، ونور التوحيد .. إلى غير ذلك من الأنوار .

﴿ وجعلنا لكم فيها معايشَ ومَنْ لستم له برازقين ﴾

سببُ عيشِ كلٍّ واحدٍ مختلفٌ ؛ فعيشُ المريدين من إقباله ، وعيش العارفين التجمل بأفضاله[(٣)] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ مِنْ شىءٍ إلا عندنا خزائنه وما نُنَزِّلُه إلا بِقَدَرٍ معلوم ﴾

خزائنه فى الحقيقة مقدوراته ، وهو — سبحانه — قادر على كل ما هو مرسوم بالحدوث .

ويقال خزائنه فى الأرض قلوبُ العارفين بالله ، وفى الخزانة جواهر من كل صنف ؛ لحقائقُ العقل جواهر وضعها فى قلوب قوم ، ولطائف العلم جواهر بدائع المعرفة ، وأسرار العارفين

---

(١) أنوار النبات جمع نورة وهى الزهرة البيضاء .

(٢) أنوار القلوب جمع نور .

(٣) وردت (أفعاله) وقد رجحنا (أفضاله) لأنها أدق فى المعنى ، وإن كان كلاهما صحيحا .

مواضع سِرِّه ، والنفوس خزائن توفيقه ، والقلوب خزائن تحقيقه ، واللسان خزانةُ ذِكْرِه .

ويقال من عرف أن خزائن الأشياء عند الله تقاصرت خُطَاه عن التردد على منازل الناس فى طَلَبِ الإرفاق منهم ، وسعى فى الآفاق فى طلب الأرزاق منها ، قاطعاً أَمَلَه عن الخَلْق ، مُفْرِداً قلبَه لله متجرِّداً عن التعلُّق بغير الله .

قوله : « وما ننزله إلا بقدر معلوم » : عَرَفَ القِسْمَةَ مَنْ استراح عن كدِّ الطلب ؛ فإنَّ المعلومَ لا يتغير ، والمقسوم لا يزيد ولا ينقص ، وإذا لم يَجِبْ عليه شىء لأحد فبقدرته على إجابة العبد إلى طلبته لا يتوجب عليه شىء .

ويقال أراح قلوب الفقراء مِنْ تَحَمُّلِ المِنَّةِ من الأغنياء مما يعطونهم ، وأراح الأغنياء من مطالبة الفقراء منهم شيئاً ، فليس للفقير صَرْفُ القلب عن الله سبحانه إلى مخلوق واعتقادُ مِنَّةٍ لأحد ، إذ المُلْكُ كله لله ، والأمر بيد الله ، ولا قادر على الإبداع إلا الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وأرسلنا الرياحَ لواقِحَ فأنزلنا من السماء ماء ﴾

كما أن الرياحَ فى الآفاق مُقَدِّمَاتُ المطر كذلك الآمال فى القلوب،وما يقرب العبدمما يتوارد على قلبه من مبشرات الخواطر ، ونسيم النجاة فى الطلب يحصل ، فيستروح القلب إليه قبل حصول المأمول من الكفاية واللطف .

قوله جل ذكره : ﴿ فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾

أسقاه إذا جعل له السُّقيا ، كذلك يجعل الحق — سبحانه — لأوليائه ألطافاً معلومة فى أوقات محدودة ، كما قال فى وصف أهل الجنة : « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً » .

كذلك يجعل من شراب القلوب لِكُلٍّ ورداً معلوماً ، ثم قضايا ذلك تختلف : فمِنْ شراب يُسْكِر ، ومن شراب يُحْضِر ، ومن شراب يزيل الإحساس ، كما قيل :

فصحوك من لفظى هو الصحو كله وسُكْرُكَ من لحظى يبيح لك الشُّربا

ويقال إذا هبت رياح التوحيد على الأسرار كنست آثار البشرية ، فلا للأغيار فيها أثر ، ولا عن الخلائق لهم خبر .

ويقال إذا هبَّت رياح القرب على قلوب العارفين عَطَّرَتْها بنفحات الأُنس ، فَيستَقون في نسيمها على الدوام ، وفي معناه أنشدوا :

وهبَّتْ شمال آخر الليل قَرَّةٌ[1] ولا ثوبَ إلا بُرْدَةً وردائيا
وما زال بُرْدِي لينا من ردائها إلى الحوْلِ حتى أصبح البُرْدُ باليا

ويقال إذا هبَّت رياح العناية على أحوال عبد عادت مَسَاوِيه مناقِبَ ومثالبُه محاسنه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون ﴾ .

نحيي قلوبهم بالمشاهدة ، ونميت نفوسهم بالمجاهدة .

ويقال نحييهم بأن نفنِيَهُمْ بالمشاهدة ، ونميتَهم بأنْ نأخذَهم عن شواهدهم .

ويقال يحيي المريدين بذكره ، ويميت الغافلين بهجره .

ويقال يحيي قوماً بموافقة الأمر في الطاعات ، ويميت قوماً بمتابعة الشهوات .

ويقال يحيي قوماً بأن يلاطفهم بلطف جماله ، ويميت قوماً بأن يحجبهم عن أفضاله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد علمنا المُسْتَقْدِمين منكم ولقد علمنا المُسْتأخِرين ﴾ .

العارفون مستقدمون بِهِمَمِهم ، والعابدون مستقدمون بقَدَمِهم ، والتائبون بندمهم . وأقوام مستأخِرون بقدمهم وهم العُصاة ، وآخرون مستأخرون بهمومهم وهم الراضون بخسائس الحالات .

ويقال المستقدمون الذين يسارعون في الخيرات ، والمستأخرون المتكاسلون عن الخيرات .

ويقال المستقدمون الذين يستجيبون خواطرَ الحقِّ — من غير تعريجٍ إلى تفكر ، والمستأخِرون الذين يرجعون[2] إلى الرُّخَصِ والتأويلات .

ويقال المستقدمون الذين يأتون على مراكب التوفيق ، والمستأخرون الذين تثبطهم مشقة الخذلان .

---

(1) قرة أي باردة .

(2) وردت (برجون) وهي خطأ في النسخ — حسبما نعرف من رأى القشيري في مثل هذا الموقف .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ ربَّكَ هو يحشرهم إنَّه حكيم عليم ﴾ .

يبعث كلاً على الوصف الذى خرجوا من الدنيا عليه : فمن منفرد القلب بربه ، ومن مُتَطَوِّحٍ فى أودية التفرقة ، ثم يحاسبهم على ما يستوجبونه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأٍ مَسْنون * والجانَّ خلقناه مِنْ قَبْلُ من نار السَّموم ﴾ .

ذكَّرهم بِخِسَّتِهم لئلا يُعْجَبُوا بحالتهم .

ويقال القيمة فى القُربةِ لا بالتُّربة ؛ والنسب تربة ولكن النعت قربة .

« والجان خلقناه من قبل من نار السموم » : وإذا انطفأت النار صارت رماداً لا يجىء منها شيء ، والطين إذا انكسر عاد به الماء إلى ما كان عليه ، كذلك العدو[1] لمَّا انطفأ ما كان يلوح عليه من سراج الطاعة لم ينجبر بعده ، وأمَّا آدم — عليه السلام فلمَّا اغْتَرَّ جَبَرَهُ ماء العناية ، قال تعالى : « ثم اجتباه ربه . . . »[2]

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال ربُّك للملائكة إنى خالقٌ بَشَراً من صلصالٍ من حمأٍ مَسْنُونٍ * فإذا سَوَّيْتُه ونَفَخْتُ فيه مِنْ روحى فقعوا له ساجدين * فَسَجَدَ الملائكةُ كُلُّهم أجمعون * إلاَّ إبليسَ أَبَى أَنْ يكونَ مع الساجدين ﴾ .

أظهرهم بهذا القول ، وفى عين ما أظهرهم سَتَرَهم .

ويقال ليست العِبْرة بقوالبهم ، إنما الاعتبار بالمعانى التى أودعها فيهم .

---

(١) يقصد إبليس . (٢) آية ١٢٢ سورة طه .

ويقال الملائكة لا حظوه بعين الخِلْقة فاستصغروا قَدْرَه وحاله ، ولهذا عجبوا من أمر الله — سبحانه — لهم بالسجود له ، فكشف لهم شظية مما اختصَّه به فسجدوا له .

قوله : « إلا إبليس أبى أن يكونَ من الساجدين » : وكذا أمرُ مَنْ حُجِبَ عن أحواله ادَّعى الخَيْرَةَ وبَقِيَ فى ظُلمة الحَيْرةِ .

ويقال بَخِلَ بسجدةٍ واحدةٍ ، وقال : أَسْتَنْكِفُ أَنْ أسجد لغير الله . ثم من شقاوته لا يبالى بكثرة معاصيه ، فإنه لا يَعْصِى أحدٌ إلاَّ وهو سببُ وسواسه ، وداعيه إلى الزَّلَّةِ . . وذلك هو عين الشقْوة وقضية الخذلان .

قوله جل ذكره : ﴿ قال يا إبليسُ مَالَكَ ألاَّ تكونَ مع الساجدين * قال لم أَكُنْ لأسجد لبشرٍ خَلَقْتَهُ من صلصالٍ من حمأٍ مسنون * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإنَّ عليكَ اللَّعْنَةَ إلى يوم الدين ﴾ .

سأله ومعلومٌ له حالُه ، ولو ساعدته المعرفةُ لقال : قُلْ لى مالك ؟ وما مَنَعَكَ ؟ وَمَنْ مَنَعَكَ حتى أقول · أنت .. حيث أَشْقَيْتَني ، وبقهرك أَغْوَيْتَني ، ولو رَحِمْتَني ، لَهَدَيْتَنِي وفى كنف عصمتك آويتنى ... ولكنَّ الحرمانَ أدركه حتى قال : « لم أكن لأسجد لبشرٍ »

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربِّ فأَنْظِرْنى إلى يومِ يُبْعَثُون * قال فإنك من المُنْظَرين * إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ .

ولَمَّا أبعده الحقُّ — سبحانه — عن معرفته ، وأفرده باللعنة استنظره إلى يوم القيامة والبعث ، فأجابه . وظَنَّ اللَّعينُ أنه حصل فى الخير مقصوده ، ولم يعلم أنه أراد بذلك تعذيبه عذاباً شديداً ، فكأنه كان فى الحقيقة مكراً — وإن كان فى الحال فى صورة إجابة السؤال بما يُشْبِهُ اللطفَ والبرَّ .

وبعض أهل الرجاء يقول : إن الحق — سبحانه — حينما يهين عدوَّه لا يَرُدُّ دعاءه

فى الإمهال ولا يمنعه من الاستنظار ، فالمؤمن — إذ أمْرُهُ الاستغفارُ والسؤالُ بوصفِ الافتقارِ — أَوْلَى ألا يقنطَ مِنْ رحمتِهِ ، لأنَّ إنظارَ اللعينِ زيادةُ شقاءٍ له لا تحقيق عطاء .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربِّ بما أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فى الأرضِ وَلأُغْوِيَنَّهُم أجمعين ﴾

الباء فى : « بما أغويتنى » باء القَسَم ، ولم يكن إغواؤه إياه مما يجب أن يُقْسِم به لولا فَرْطُ جَهْلِهِ . ثم هو فى المعنى صحيح ، لأنَّ الإغواء مما يتفرَّدُ الحق بالقدرة عليه ، ولا يشاركه فيه أحد ، ولكنَّ اللَّعِينَ لا يعرف الله على الحقيقة ، إذ لو عرَفَه لم يدعُ إلى الضلال ، لأنه لو قدر على إضلالِ غيرِه لاستبق على الهدايةِ نَفْسَه . وعند أهل التحقيق إنه يقول جميع ذلك حَدْساً وهو لم يَعْرِفْ الله — على الحقيقة — قَطُّ .

قوله جل ذكره : ﴿ إلَّا عبادَك منهم المُخْلَصِين * قال هذا صِراطٌ عَلَيَّ مستقيم ﴾

الإخلاصُ هو تصفيةُ الأعمالُ عن الغَيْن وعن الآفات المانعة من صالح الأعمال . وقد عَلِمَ اللعينُ أنه لا سبيل له إليهم بالإغواء لمَّا تحقَّقَ من عناية الحقِّ بشأنهم .

« قال هذا صراط عليَّ مستقيم » تهديدٌ ، كما تقول : افعل ما شِئْتَ . . وهذا طريقى .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ عبادى ليس لَكَ عليهم سلطانٌ إلَّا مَنْ اتَّبعَكَ مِنْ الغاوين ﴾

السلطان الحجة ، وهى لله على خَلْقِه ؛ وليس للعدوِّ حجة على مخلوق ، إذ لا تتعدَّى مقدرتُه محلَّه ، فلا تَسلُّطَ — فى الحقيقة[1] — لمخلوقٍ على مخلوق بالتأثير فيه .

« إن عبادى ... » : إذا سمى الله واحداً عبداً فهو من جملة الخواص ، فإذا أضافه إلى نفسه فهو خاص الخاص ، وهم الذين محاهم عن شواهدهم ، وحفظهم وصانهم عن أسباب التفرقة

---

(١) نلاحظ أن القشيرى يكثر فى هذا الموضوع من قوله (فى الحقيقة ، وعلى الحقيقة . . ونحو ذلك) والسبب فى ذلك راجع إلى أن ظاهر النصوص أن لابليس إرادة وفعلا ، ولكن — فى الحقيقة — كل شىء مرده إلى الحق سبحانه .

وجرَّدهم عن حَوْلهم وقُوَّتِهم ، وكان النائبَ عنهم فى جميع تصرفاتِهم وحالاتِهم ، وحفظ عليهم آدابَ الشرع ، وألبَسهم صِدارَ الاختيار فى أوان أداء التكليف ، وأخذهم عنهم باستهلاكهم فى شهوده ، واستغراقهم فى وجوده . . . فأىُّ سبيلٍ للشيطان إليهم؟ وأى يدٍ للعدو عليهم ؟

ومَنْ أشهده الحقُّ حقائقَ التوحيد ، ورأى العالَمَ مُصَرَّفاً فى قبضة التقدير ، ولم يكن نهباً للأغيار .. فمتى يكون لِلَّعين عليه تسلط ، وفى معناه قالوا :

جحودى فيك تقديسُ وعقلى فيك تهويسُ
فمن آدم إلاَّ كَ ومَنْ فى البيت إبليسُ(1)

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ جَهَنَّم لَمَوْعِدُهم أجمعين * لها سَبْعَةُ أبوابٍ لِكلِّ بابٍ منهم جزْءٌ مَقْسُوم ﴾ .

اجتمعوا اليومَ فى أصل الضلالة ، ثم الكفر مِلَلٌ مختلفةٌ ، ثم يجتمعون غداً فى العقوبة وهم زُمَرٌ مختلفون ، لكلِّ دَرَكَةٍ من دركات جهنم قوم مخصُوصون .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ المتَّقين فى جناتٍ وعيون ﴾ .

المتقى مَنْ وقَّاه الله بفضله لا مَنْ اتَّقَى بتكلُّفِه ، بل إنه ما اتقى بتكلفه إلاَّ بعد أن وقَّاه الحقُّ — سبحانه — بفضله . هم اليومَ فى جنات ولها دَرَجات بعضها أرفعُ من بعض ، كما أنهم غداً فى جنَّات ولها درجات بعضها فوق بعض .

اليوم لقومٍ درجةُ حلاوة الخدمة وتوفيق الطاعة ، ولقوم درجة البسط والراحة ، ولآخرين درجة الرجاء والرغبة ، ولآخرين درجة الأُنسِ والقربة ، قد علم كلُّ أناسٍ مشربَهم ولزم كلُّ قومٍ مذهبَهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أدخلوها بسلام آمنين ﴾ .

---

(1) هذان البيتان للحلاج (الطواسين ص ٣ ؛) والديوان المقطعة رقم ٢٨ ومعناها : أننى لو سجدت لغيرك — حسبما أمرتنى — فأنا جاحد ، ولكن — نظراً لمعرفتى بك — فإن جحودى عين تقديسى ، لأننى أعلم أنه لا يستحق السجود على الحقيقة إلا أنت ، فأنا راض باحتمال لعنتك ثمناً لامتثالى لإرادتك.

معناه : يقال لهم : « أدخلوها » ، وأَجْمَلَ ذلك ولم يقل مَنْ الذى يقول لهم . ويرى قومٌ أن المَلَكَ يقول لهم : أُدخلوها .

ويقال إذا وافَوْا الجنة وقد قطعوا المسافة البعيدة ، وقاسوا الأمورَ الشديدةَ فمِنْ حقِّهم أن يدخلوا الجنة ، خاصةً وقد علموا أنَّ الجنةَ مُباحةٌ لهم ، ولعلهم لايفقهون حتى يقال لهم .

ويقال يحتمل أنهم لايدخلونها بقول المَلَكِ حتى يقول الحقُّ : أدخلوها ، كما قالوا :

ولا أَلْبَسُ النُّعمى وغيرُك مُلْبِسٌ   ولا أَقْبَلُ الدنيا وغيرك واهبُ

قوله : « بسلامٍ آمنين » : بمعنى السلامة ، وهى الأمان ، فيأمنون أنهم لايخرجون منها .

ويقال كما لا يخرجون من الجنة لايخرجون عما هم عليه من الحال ؛ فالرؤيةُ لهم وما هم فيه من الأحوال الوافية — مديدةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ ونزَعْنا مافى صُدُورِهم من غِلٍّ ﴾ .

أمَرَ الخليلَ عليه السلام ببناء الكعبة وتطهيرها فقال : « وطهِّر بيتى »[1]، وأمَرَ جبريلَ عليه السلام حتى غَسَلَ قلبَ المصطفى – صلى الله عليه وسلم – فطَهَّرَه[2]..وتولَّى هو – سبحانه – بنفسه تطهيرَ قلوب العاصين ، فقال: « ونزعنا مافى صدوهم من غل »[3] وذلك رفقاً بهم ، فقد يصنع الله بالضعيف مايتعجَّبُ منه القوى ، ولو وكل تطهير قلوبهم إلى الملائكة لاشتهرت عيوبُهم ، فتولَّى ذلك بنفسه رفقاً بهم .

ويقال قال : « مافى صدورهم » ولم يقل مافى قلوبهم لأن القلوب فى قبضته يقلبها ، وفى الخبر : « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » : يريد بذلك قدرته ، فاستعمل لفظ الإصبع لذلك توسعاً . وقيل بين إصبعين أى نعمتين

قوله جل ذكره : ﴿ إخواناً على سُرُرٍ مُتقَابِلين ﴾

قابل بعضُهم بعضاً بالوجه ، وحفظ كلٌّ واحدٍ عن صاحبه سِرَّه وقلبَه ، فالنفوس متقابلة

(١) آية ٢٦ سورة الحج .
(٢) أنظر كتاب (المعراج) للقشيرى ففيه تفصل ذلك .
(٣) عن على بن الحسين أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر وعمر وعلى رضى الله عنهم وأن الغل غل الجاهلية الذى كان بين تيم وعدى وبنى هاشم فلما أسلموا تحابوا .

ولكنَّ القلوبَ غيرُ متقابلة ؛ إذ لايشتغل بعضهم ببعض ، قال تعالى : « واعلموا أنَّ الله يحول بين المرء وقلبه »[1]

قوله جل ذكره : ﴿ لا يَمَسُّهم فيها نَصَبٌ وما هم منها بمُخْرَجين ﴾ .

أى لا يلحقهم تعبٌ ، لابنفوسهم ولا بقلوبهم . وإذا أرادوا أمراً لايحتاجون إلى أن ينتقلوا من مكانٍ إلى مكان ، ولا تحار أبصارهم ، ولا يلحقهم دَهَشٌ ، ولا يتغير عليهم حالٌ عما هم عليه من الأمر ، ولا تشكل عليه صفة من صفات الحق .

« وما هم منها بمخرجين » أى لايلحقهم[2] ذلُّ الإخراج بل هم بدوام الوصال .

قوله جل ذكره : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أنا الغفورُ الرحيم ﴾

لَمَّا ذَكَرَ حديثَ المتقين وما لهم من علوِّ المنزلة انكسرت قلوب العاصين ، فتداركَ اللهُ قلوبهم ، وقال لنبيِّه — صلى الله عليه وسلم — أخبر عبادى العاصين أنى غفور رحيم ، وأنى إنْ كنتُ الشكورَ الكريمَ بالمطيعين فأنا الغفورُ الرحيمُ بالعاصين .

ويقال مَنْ سَمِعَ قوله : « أنى أنا » بسمع التحقيق لا يبقى فيه مساغٌ لسماع المغفرة والرحمة ، لأنه يكون عندئذ مُخْتَطَفاً عن شاهده ، مُسْتَهلَكاً فى أَنِّيته .

قوله جل ذكره : ﴿ وأَنَّ عَذَابِي هو العذابُ الأليم ﴾ .

العذابُ الأليم هنا هو الفراق ، ولا عذابَ فوق الفراق فى الصعوبة والألم[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ ونَبِّئْهُم عن ضيفِ ابرهيم * إذ دَخَلُوا عليه فقالوا سلاماً ﴾ .

أَلاعرِّفهم كيف كانت فتوة الخليل فى الضيافة ، وقيامه بحقِّ الضيفان ، وكان الخليلُ

---

(١) آية ٢٤ سورة الأنفال .

(٢) هنا وقع الناسخ فى خطأ التكرار إذ أعاد كتابة عبارات سابقة مما ورد بعد (لا يلحقهم تعب ... إلخ) :

(٣) أى أن عذاب الفراق يفوق فى نظر الصوفية — عذاب الاحتراق .

عليه السلام يقوم بنفسه بخدمة الضيفان ، فلمَّا سلموا من جانبهم وردَّ عليهم وانْفَضُوا عن تناولِ طعامِه :

﴿ قال إنَّا منكم وَجِلون ﴾ .

وَجِلون أى خائفون ، فإنَّ الإمساكَ عن تناول طعام الكرام موضعٌ للريبة . ولمَّا عَلِمَ أنهم ملائكة خاف أن يكونوا نزلوا لتعذيب قومه إذ كانوا مجرمين . ولكن سكن رَوْعُه عندما قالوا له :

﴿ قالوا لا تَوْجَلْ إنَّا نُبَشِّرُكَ بغُلامٍ عليم ﴾ .

فليس لك موضِعٌ للوَجَلِ لكن موضِعٌ للفَرَجِ ، فإنا جئناكَ مُبَشِّرين ، وإنْ كُنَّا لغيرِكَ مُعَذِّبين .

نحن « نبشرك بغلام عليم » : أى يعيش حتى يعلم ، لأن الطفل ليس من أهل العلم ، وكانت بشارتُهم بالوَلَدِ وببقاءِ الولد هى العجب فقال :

﴿ قال أبشرتمونى على أنْ مَسَّنِيَ الكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرون * قالوا بَشَّرْناكَ بالحقِّ فلا تكن من القانطين * قال ومَنْ يقنطُ من رحمة ربِّه إلا الضالون ﴾

قال أبشرتمونى وقد مسَّنى الكِبَرُ ؟ وإنَّ الكبير قد فاته الوقت الذى يفرح فيه من الدنيا بشىء . بماذا تبشرونى وقد طَعَنْتُ فى السنِّ ، وعن قريبٍ أرتحل إلى الآخرة ؟ قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من جملة من يقنط من رحمة الله ، ولا يقنط من رحمة ربه إلا من كان ضالاً .

قال : كيف أخطأ ظنكم فىّ فتوهمتم أنى أقنط من رحمة ربى ؟

فلما فرغ قلبه من هذا الحديث ، وعرف أنه لن يُصيبَه ضررٌ منهم سألهم عن حالهم :

﴿ قال فما خَطْبُكم أيها المُرْسَلون * قالوا إنا أرسلنا إلى قومٍ مجرمين * إلاَّ آلَ لوطٍ إنّا لَمُنَجّوهُم أجمعين * إلاَّ امرأتَه قَدَّرْنا إنَّها لَمِنَ الغابرين ﴾ .

قال ما شأنكم ؟ وإلى أين قصدكم ؟

قالوا : أُرْسِلْنا لعذاب قوم لوط ، ولننجيَ أهله إلا امرأته لمشاركتها معهم فى الفساد ، وكانت تدل قومه على أضيافه ، فاستوجبت العقوبة .

فلمَّا وافى المرسلون من آل لوطٍ أنكرهم لأنه لم يجدهم على صورة البشر ، وتفرَّس فيهم على الجملة أنهم جاءوا لأمرٍ عظيم ، قالوا : بل جئناكَ بما كان قومُك يَشُكُّونَ فيه مِنْ تعذيبنا إياهم ، وآتيناك بالحق ، أى بالحكم الحق :

﴿ فَأَسْرِ بأَهلِكَ بِقِطْعٍ من اللَّيلِ واتَّبِعْ أَدْبارهم ولا يلتفتْ مِنْكُم أَحدٌ وامضوا حيثُ تؤْمَرُون ﴾

فأسْرِ بأهلك بعد ما يمضى شىء من الليل ، وامش خلفهم ، وقدِّمهم عليك ، واتبع أدبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد لئلا يَرَوْا ما ينزل بقومهم من العذاب ، وإنا ننقذك وأهلَكَ إلا امرأتَك ، فإنا نعذبها لمشاركتها مع قومك فى العصيان . « وامضوا حيث تؤمرون » : فلكم السلامة ولقومكم العقوبة .

« وقضينا إليه ذلك الأمر » أى عَلَّمْناه وعَرَّفْناه : « أنَّ دابِرَ هؤلاء مقطوع » ، أى أنهم مُهْلَكون ومُسْتَأْصَلُون بالعقوبة .

ثم لما نزل الملائكةُ بلوط عليه السلام قال لقومه إن هؤلاء أضيافى ، فلا تتعرضوا لهم فتفضحونى ، واتقوا اللهَ ، وذروا مخالفة أمره ولا تُخْجِلونى . فقال قومه : ألم نَنْهَكَ عن أن تحمِيَ أحداً ، وأمرناك ألا تمنعَ مِنَّا أحداً ؟ فقال : هؤلاء بناتى يعنى نساء أمتى . وقال قومٌ :

أراد بناته من صلبه ، عَرَضَهن عليهم لئلا يُلِمُّوا بتلك الغلطة الفحشاء ، فلم تنجع فيهم نصيحة ، ولم يُقلِعوا عن خبيثِ قَصْدِهم .

فأخبره الملائكة ألا يخافَ عليهم ، وسكنوا من رَوْعه حين أخبروه بحقيقة أمرهم ، وأنهم إنما أرسلوا للعقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

أقسم بحياته تخصيصاً له فى شرفه ، وتفضيلاً له على سائر البرية ، فقال وحياتك — يا محمد — إنهم لفى ضلالهم وسكرة غفلتهم يترددون ، وإنهم عن شِرْكهم لا يُقْلِعون .

ويقال أقسم بحياته لأنه لم يكن فى وقته حياة أشرف من حياته — إنهم فى خُمَارِ سُكْرِهم ، وغفلةِ ضلالتهم لا يترقبون عقوبةً ، ولا يخافون سوءاً .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

باتوا فى حبور وسرور ، وأصبحوا فى محنة وثبور ، وخرَّت عليهم سقوفُهم ، وجعلنا مُدُنَهم ومنازِلَهم عاليَها سافِلَها ، وأمطرنا عليهم من العقوبة مالم يُبْقِ عيناً ولا أَثَراً ، إنَّ فى ذلك لَعِبْرةً لمن اعتبر ، ودلالةً ظاهرة لمن استبصر ، « وإنها لبسبيل مقيم » لِمَنْ شاء أن يَعْتَبِرْ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (1)

جاء فى التفسير « المتفرسين » ، والفراسةُ خاطرٌ يحصل من غير أن يعارضه ما يخالفه عند ظهورِ برهانٍ عليه ، فيخرج من القلب عين ما يقع لصاحب الفراسة . مشتق من فريسة

---

(1) أخر الناسخ تفسير هذه الآية عند النقل فوضعها بعد الآية ٨٦ (إن ربك هو الخلاق العليم) وقد صححنا هذا الوضع .

الأسد إذ لفريسته يقهر . والحق — سبحانه — يُطْلِعُ أولياءه على ما خفى على غيرهم . وصاحب الفراسة لا يكون بشرط التفرس فى جميع الأشياء وفى جميع الأوقات ؛ بل يجوز أن تُسدّ عليه عيونُ الفراسة فى بعض الأوقات كالأنبياء عليهم السلام ؛ فَنبِيُّنا — صلى الله عليه وسلم — كان يقول لعائشة — رضى الله عنها — فى زمان الإفك : « إنْ كُنْتِ فعلتِ فتوبى إلى الله » . وكابراهيم ولوط — عليهما السلام — لم يعرفا الرسل .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين * فانتقمنا منهم وإنهما لَبِإمامٍ مبين * ولقد كَذَّبَ أصحابُ الحِجْرِ المرسلين * وآتيناهم آياتِنا فكانوا عنها مُعرِضين * وكانوا يَنْحِتون من الجبال بيوتاً آمنين * فأَخَذَتْهُم الصيحةُ مُصْبِحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسِبون ﴾ .

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب ، وكان شعيب — عليه السلام — مبعوثا لهم فكَذَّبوه ، فانتقمنا منهم .

قوله : « وإنهما » يعنى مدين والأيكة . . . « لبإمام مبين » : أى بطريق واضح مَنْ قصده (. . .)[1] .

وكذلك أخبر أن أصحاب الحجر[2] — وهم ثمود — كذبوا المرسلين إليهم ، وأنهم أعرضوا عن الآيات التى هى المعجزات كناقةِ صالح وغيرها ، وأنهم كانوا أخلدوا إلى الأرضين وكانوا مُغْتَرِّين بطول إمهال الله إياهم من تأخير العقوبة عنهم ، وكانوا يتخذون من الجبال بيوتاً ، ويظنون أنهم على أنفسهم آمِنُونَ من الموتِ والعذاب .

---

(١) مشتبهة .

(٢) الحجر واد بين المدينة والشام .

ثم أخبر أنهم أخذتهم الصيحةُ على بغتةٍ ، ولم تغنِ عنهم حيلتهم لمَّا حَلَّ حَيْنُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وماخَلَقْنا السمواتِ والأرضَ وما بينهما ﴾ .

دلَّت الآيةُ على أنَّ أكسابَ العباد مخلوقةٌ لله لأنها بين السموات والأرض .

﴿ إلاَّ بالحقِّ وإنَّ الساعةَ لآتيةٌ ﴾

« إلا بالحق » : أى وأنا مُحِقٌّ فيه ويقال « بالحقِّ » : بالأمرِ العظيم الكائنِ إنَّ الساعة لآتية يعنى القيامةَ .

﴿ فاصفَحْ الصفحَ الجميلَ ﴾

يقال الصفح الجميل الذى تذكَر الزَّلَّةُ فيه .

ويقال الصفح الجميل سحبُ ذيل الكَرَمِ على ما كان مِنْ غير عقْدِ الزَّلَّةِ ، بلا ذِكْرٍ لما سَلَفَ من الذنب ، كما قيل :

تعالوا نصطلح ويكون منَّا

(. . . . .)(١)

ويقال الصفح الجميل الاعتذار عن الجُرْم بلا عدٍّ الذنوب من المجرم ، والإقرار بأن الذنب كان منك لا من العاصى ، قال قائلهم :

(وتُذْنِبُون فننسى ونعتذر)

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ ربَّكَ هو الخلاَّق العليم ﴾ .

« هو الخلاَّقَ العليم » إذ لا يصح الفعل بوصف الانتظام والاتساق من غير عالِم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتيناكَ سبعاً من المثانى والقرآنَ العظيم ﴾ .

أكثَرُ المفسرين على أنها سورة الفاتحة ، وسميت مثانى لأنها نزلت مرتين : مرة بمكة

---

(١) الشطر الثانى مطموس غير واضح .

ومرة بالمدينة ، ولأنها شيء في كل صلاة يتكرر ، من « التثنية » وهي التكرير ، أو لأن بعضها يضاف إلى الحق وبعضها يضاف إلى الخلق . . ومعنى هذا مذكور في كتب التفاسير[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ لا تَمُدَّنَّ عينيكَ إلى ما مَتَّعْنَا به أزواجاً منهم ﴾ .

لم يُسَلِّمْ له إشباع النظر إلى زَهْرَةِ الدنيا وزينتها .

ويقال غار على عينيه — صلى الله عليه وسلم — أن يستعملها في النظر إلى المخلوقات .

ويقال أَدَّبَه اللهُ — سبحانه — بهذا التأديب حتى لا يُعيرَ طَرْفَه من حيث الاستئناس به .

ويقال أمره بحفظ الوفاء لأنه لمَّا لم يكن اليومَ سبيلٌ لأحد إلى رؤيته[2] ، فلا تمدن عينيك إلى ملاحظة شيء من جملة ماخَوَّلْنَاهم ، كما قال بعضهم :

لمَّا تيَقَّنْتُ أنى لستُ أبصركم ... أغمضتُ عينى فلم أنظر إلى أحد

ويقال شَتَّانَ بينه وبين موسى — عليه السلام ! قال له : لن ترانى ولكن أنظر إلى الجبل » ، ونبينا — صلى الله عليه وسلم — مَنَعَه من النظر إلى المخلوقات بوصفٍ هو تمام النظر فقال : « ولا تَمُدَّنَّ عينيك » .

ويقال إذا لم يسلم له إشباع النظر بظاهره إلى الدنيا فكيف يسلم له السكون بقلبه إلى غير الله ؟ !

ويقال لما أُمِرَ بِغَضٍّ بَصَرِه عما يتمتَّع به الكفارُ في الدنيا تَأَدَّبَ — عليه السلام — فلم ينظرْ ليلةَ المعراج إلى شيءٍ مما رأى في الآخرة ، فأثنى عليه الحقُّ بقوله : « مازاغ البصر وما طغى » وكان يقول لكل شيءٍ رآه : « التحيات لله » أى المُلْكُ لله .

---

(١) ويرى بعضهم أنها سبع سور وهي الطوال ، واختلف في السابعة فقيل الأنفال وبراءة لأنهما في حكم سورة بدليل عدم التسمية بينهما ، وقيل سورة يونس . أو أسباع القرآن .

(٢) الضمير في (رؤيته) يعود إلى الحق سبحانه ، والمقصود حفظ العين — من قبيل الوفاء — لكى لا تعاين سواه سبحانه فيما بعد .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾

أدّبه حتى لا يتغير بصفة أحد ، وهذه حال التمكين .

قوله جل ذكره : ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾

أى ألِنْ لهم جانبَكَ . وكان عليه السلام إذا استعانت به الوليدة[1] فى الشفاعة إلى مواليها يمضى معها .. إلى غير ذلك من حسن خُلُقِه — صلوات الله عليه — وكان فى الخبر : إنه كان يخدم بيته وكان فى (مهنة) أهله[2] . وتولَّى خدمة الوفد ، وكان يقول: سيدُ القومِ خادمُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُلْ إنِّى أنا النذيرُ المبين ﴾

لمَّا لم يكن بنفسه وكان قائماً بحقه — سبحانه وتعالى — سَلِمَ له أن يقول : إنى وأنا . وفى الخبر : أن جابراً دَقَّ عليه الباب ، فقال : مَنْ ؟ قال : أنا . . فقال النبى عليه السلام : « أنا أنا » .. كأنه كرهها[3]

ويقال : قُلْ لاحدَّ لاستهلاكك فينا ، سلَّمنا أن تقول : إنى أنا ، لما كنتَ بنا ولنا .

قوله جل ذكره ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين ﴾

أى قل إنى أنا لكم منذرٌ بعذابٍ كالعذاب الذى عذَّبْنا به المقتسمين ، وهم الذين تقاسموا بالله لنبيِّه فى قصه صالح عليه السلام . وقيل هم من أهل الكتاب الذين اقتسموا كتاب الله ، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه .

ويقال إنى لكم نذير أخوفكم عقوبة المقتسمين الذين اقتسموا الجبال والطرق بمكة فى الموسم ، وصدوا الناس . وكان الواحد منهم يقول لِمَنْ مَرَّ به : لا تُؤْمِنْ بمحمدٍ فإنه ساحر ، ويقول الآخر : إنه كاهن ويقول ثالث : إنه مجنون ، فهم بأقسامهم :

﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾[4]

---

(١) الوليدة = الجارية ، قال طرفة :

فذالت كما ذالت وليدة مجلس ترى ربها أذيال سحل ممدد.

(٢) عن الأسود بن يزيد : قال سئلت عائشة رضى الله عنها ما كان النبى (ص) يصنع فى بيته ؟ قالت : كان يكون فى مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إليها (رواه البخارى) .

(٣) الحديث جاء مضطرب الكتابة في النسختين وقد صححناه كما أورد النووى فى رياض الصالحين ط بيروت ص ٣٥١

(٤) عضين ج عضة وأصلها عضوة أى جزء ، وعضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء وأجزاء وأقساما .

ففرقوا القول فيه ، فقال بعضهم إنه شعر ، وقال بعضهم إنه سحر ، وقال بعضهم إنه كهانة . . . إلى غير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كانوا يَعْمَلُونَ ﴾

العوام يسألهم عن تصحيح أعمالهم ، والخواص يسألهم عن تصحيح أحوالهم .

ويقال يسأل قوماً عن حركات ظوهراهم ، ويسأل آخرين عن خطرات سرائرهم . ويسأل الصديقين عن تصحيح المعانى بفعالهم ، ويسأل المدَّعين عن تصحيح الدعاوى تعنيفاً لهم .

ويقال سماع هذه الآية يوجب لقومٍ أُنْسَاً وسروراً حيث علموا أنه يكلِّمهم ويُسْمِعُهُم خطابَه لاشتياقهم إليه ، ولا عَجَبَ فى ذلك فالمخلوق يقول فى مخلوق :

من الخَفِراتِ البيضِ وَدَّ جليسُها إذا ما انتهت أُحْدُوثَةٌ لَوْ تُعيدُهَا

فلا أسعدَ مِنْ بَشَرٍ يعرف أَنَّ مولاه غداً سيكلمه .

قوله جل ذكره : ﴿ فاصدع بما تُؤْمَرُ وأَعْرِضْ عن عن المشركين ﴾

كُنْ بنا وقُلْ بنا ، وإذَا كنتَ بنا ولَنَا فلا تجعلْ حِساباً لغيرنا ، وصرِّحْ بما خاطبناك به ، وأَفْصِحْ عَمَّا نحن خصصناكَ به ، وأَعْلِنْ محبتنا لك :

فسبِّحْ[1] باسم مَنْ تَهْوى ودَعْنا من الـكُنى فلا خيرَ في اللَّذاتِ مِنْ بعدها سَتْرُ

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِين * الذين يجعلون مع الله إلهاً آخَرَ فسوف يعلمون ﴾

الذين دَفَعْنَا عَنكَ عاديةَ[2] شَرِّهم ، ودَرَأْنا عنكَ سوء مكرهم ، ونصرناك بموجب

---

(١) الأصل فى البيت (فصرح) والتصريح يقابل (الـكناية) .

(٢) وردت (غادية) بالغين ، والملائم للسياق (عادية) بالعين . حيث يقال (دفعت عنك عادية فلان أى ظلمه وشره) : الوسيط ص ٥٩٥ .

عنايتنا بشأنك . فلا عليكَ فيما يقولون أو يفعلون ، فما العقبي إلا لكَ بالنصر والظفر .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد نعلم أنَّكَ يضيقُ صدرُك بما يقولون * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربِّكَ وكُنْ من الساجدين ﴾ .

وقال : « يضيق صدرك » ولم يقل يضيق قلبكِ ؛ لأنه كان فى محل الشهود ، ولا راحة للمؤمن دون لقاء الله ، ولا تكون مع اللقاء وحشة .

ويقال هَوَّنَ عليه ضيق الصدر بقوله : « ولقد نعلم » ويقال إن ضاق صدرُك بسماع ما يقولون فيك من ذمِّكَ فارتفع"[1] بلسانك فى رياض تسبيحنا ، والثناءِ علينا ، فيكون ذلك سبباً لزوال ضيق صدرك ، وسلوة لك بما تتذكر من جلال قدرنا وتقديسنا ، واستحقاق عِزِّنا .

قوله جل ذكره : ﴿ واعبد ربَّك حتى يأتيَكَ اليقين ﴾

قف على بساط العبودية معتنقاً للخدمة ، إلى أنْ تجلس على بِساط القربة ، وتطالَبَ بآداب الوصلة .

ويقال التزِمْ شرائطَ العبودية إلى أنْ تَرْقَى بل تُكْفَى بصفات الحرية .

ويقال فى « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »[2] : إن أشرف خصالك قيامك بحقِّ العبودية :

---

(١) وردت هكذا ونرجح أنها فى الأصل (فارتع) فهى أكثر ملاءمة للمعنى . جاء فى رسالة القشيرى ص ١١١ (وفى الخبر المشهور عن الرسول صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها ، فقيل له : وما رياض الجنة ؟ فقال : مجالس الذكر .

(٢) عن العلاقة بين العبودية واليقين ينقل القشيرى عن شيخه الدقاق قوله : « العبادة لمن له علم اليقين ، والعبودية لمن له عين اليقين والعبودة لمن له حق اليقين » الرسالة ص ٩٩ .

السورة التي يذكر فيها النحل

قوله جل ذكره : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

ألف الوصل في « بسم الله » لم يكن لها في التحقيق أصل ، جُلِبَتْ للحاجة إليها للتوصل بها إلى النطق بالسَّاكن ، وإذ وقع ذلك أنفا عنها أُسقِطَتْ في الإدراج ، ولكن كان لها بقاء في الخط وإنْ لم يكن لها ظهور في اللفظ ، فلمّا صارت إلى « بسم الله » أسقطت من الخط كذلك .. وكذلك من ازداد صحبةً استأخر[1] رتبةً .

ويقال أي استحقاق لواو عمرو حتى ثبتت في الخط ؟ وأي استحقاق إلى الألف في قولهم قتلوا وفعلوا ؟ وأيُّ موجبٍ لحذف الألف من السموات ؟

طاحت العِلَلُ في الفروق ، وليس إلا اتفاق الوضع .. كذلك الإشارة في أرباب الردِّ والقبول ، قال تعالى « إن ربَّك فعَّال لما يريد »[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوه سُبْحانَه وتعالى عمَّا يُشْرِكون ﴾ .

صيغة أتى للماضي ، والمراد منه الاستقبال لأنه بشأن ما كانوا يستعجلونه من أمر الساعة ، والمعنى « سيأتي » أمر القيامة ، والكائناتُ كلُّها والحادثات بأَسْرِها من جملة أمره ؛ أي حصل أمرُ تكوينه وهو أمر من أموره لأنه حاصلٌ بتقديره وتيسيره ، وقضائه وتدبيره ؛ فما يحصل من خير وشرٍّ ، ونفع وضُرٍّ ، وحلو ومُرٍّ .. فذلك من جملة أمره تعالى .

« فلا تستعجلوه » وأصحاب التوحيد لا يستعجلون شيئاً باختيارهم لأنهم قد سقطت عنهم الإرادات والمطالبات ، وهم خامدون تحت جريان تصريف الأقدار ؛ فليس لهم إيثار ولا اختيار فلا يستعجلون أمراً ، وإذا أَمَّلُوا شيئاً ، أو أُخْبِروا بحصول شيءٍ فلا استعجالَ لهم ، بل شأنهم

(١) إن صح نقل هذه الكلمة عن الأصل فلربما يقصد القشيري منها استخفى عن الظهور ، وازداد ذبولا ، وبعداً عن التظاهر والدعوى .

(٢) آية ١٠٧ سورة هود .

التأنِّى والثباتُ والسكونُ . وإذا بَدَا من التقدير حُكمٌ فلا استعجالَ لهم لمـا يَرِدُ عليهم ، بل يتقبلون مفاجأةَ التقدير بوجهٍ ضاحك ، ويستقبلون ما يبدو من الغيب من الردِّ والقبول ، والمنع والفتوح بوصف الرضاء ، ويحمدون الحق — سبحانه وتعالى — على ذلك .

« سبحانه وتعالى عما يشركون » : تعالى عما يشركون بربهم ، والكفار لم ييسر لهم حتى أنّه لا سكَنَ لقلوبهم من حديثه .

قوله جل ذكره : ﴿ يُنَزِّلُ الملائكةَ بالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ
على مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا
أنه لا إله إلاَّ أنا فاتقونِ ﴾ .

ينزل الملائكة على الأنبياء — عليهم السلام — بالوحى والرسالة ، وبالتعريف والإلهام على أسرار أرباب التوحيد وهم المُحَدَّثُون . وإنزالُ الملائكةِ على قلوبهم غيرُ مردودٍ لكنهم لا يُؤْمَرُون أن يتكلموا بذلك ، ولا يَحْمِلون رسالةً إلى الخَلْق .

ويُراد بالروح الوحى والقرآن ، وفى الجملة الروح ما هو سبب الحياة ؛ إمَّا حياة القلب أو حياة الدنيا .

قوله جل ذكره : ﴿ خَلَقَ السموات والأرضَ بالحقِّ تعالى
عمَّا يُشْرِكون ﴾

خَلَقَها بالحق ، ويَحكُم فيها بالحق ، فهو مُحِقٌّ فى خَلْقِها لأنَّ له ذلك ، ويدخل فى ذلك أمرُه بتكليف الخَلْق ، وما يَعْقُبُ ذلك التكليفَ من الحَشْرِ والنَّشْرِ ، والثواب والعقاب .

« تعالى عما يشركون » : تقديساً وتشريفاً له عن أن يكون له شريك أو معه مليك .

قوله جل ذكره : ﴿ خَلَقَ الإنسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فإذا هو
خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ .

تعرَّفَ إلى العقلاء بكمال قدرته حيث أخبر أنه قدر على تصوير الإنسان على ما فيه من التركيب العجيب ، والتأليف اللطيف ، من نطفةٍ متماثلة الأجزاء ، منشا كلة فى وقت الإنشاء ، مختلفة الأعضاء وقت الإظهار والإبداء ، والخروج من الخفاء . ثم ما رَكَّبَ فيه من تمييز وعقل ،

ويُسَّرَ له النطقَ والفعل ، والتدبير فى الأمور ، والاستيلاء على الحيوانات على وجه التسخير .

قوله جل ذكره : ﴿ والأنعام خَلَقَهَا لـكم فيها دِفْءٌ
ومنافِعُ ومنها تأكلون ﴾ .

ذكّرهم بما تفضّل عليهم ، وأخبرهم بما للحيوانات من النِّعم ، وما لهمُ فيها من وجوه الانتفاع فى جميع الأحوال ، كالحمْلِ وكالسفر عليها وقطع المسافات ، والتوصّل على ظهورها إلى مآربهم ، وما لِنَسْلِها ولدرِّها من المنافع .

قوله جل ذكره : ﴿ ولـكم فيها جمالٌ حين تُرِيحون وحين
تَسْرحون * وتحمل أثقالَـكم إلى بلد
لم تـكونوا بالغيه إلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ
إنَّ رَبَّـكم لرءوفٌ رحيم ﴾ .

الغنيُّ له جمال بماله ، والفقير له استقلال بحاله . . وشتّان ماهما ! فالأغنياء يتجملون بأنعامهم حين يريحون وحين يسرحون ، والفقراء يستقلون بمولاهم حين يصبحون وحين يمسون . أولئك تحمل أثقالَهم جِمالُهم ، وهؤلاء يحمل الحقُّ عن قلوبهم أثقالَهم .

« لم تـكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » : قومٌ أحوالهم مقاساة الشدائد ؛ يَصِلُون سيرهم بسُراهم ، وقومٌ فى حمل مولاهم ؛ بعيدون عن كَدِّ التدبير ، مستريحون بشهود التقدير ، راضون باختيار الحقِّ فى العسير واليسير[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ والخيلَ والبِغَالَ والحميرَ لِتَرْكَبُوها
وزينةً ويَخْلُقُ مالا تعلمون ﴾ .

فالنفوس فى حَمْلِها كالدواب ، والقلوب معتقة عن التعنِّى فى الأسباب . « ويخلق ما لا تعلمون » : كما أن أهل الجنة من المؤمنين يجدون فى الآخرة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطَرَ على قلب بَشَرٍ فـكذلك أرباب الحقائق يجدون — اليومَ — مالم يخطر قطُّ على بال ، ولا قرأوا فى كتاب ، ولا تلقنوه من أستاذ ، ولا إحاطة بما أخبر الحق أنه

(١) يطلق القشيرى على الأول اصطلاح (متحمل) وعلى الثانى (محمول) .

لا يعلم تفصيله[1] سواه . . وكيف يعلم من أخبر الحقُّ — سبحانه — أنه لا يعلم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وعلى اللهِ قَصْدُ السبيلِ ومنها جائرٌ ولو شاء لَهَدَاكُمْ أجمعين ﴾ .

قومٌ هداهم السبيل ، وعرَّفهم الدليل ، فصرفَ عن قلوبهم خواطر الشكِّ ، وعَصَمَهم عن الجحْدِ والشِّرْك ، وأَطْلَعَ فى قلوبهم شمسَ العرفان ، وأفردهم بنور البيان . وآخرون أضلّهم وأغواهم ، وعن شهود الحُجَجِ أعماهم ، وفى سابق حُكْمِهِ من غير سببٍ أَذَلَّهم وقمهم[2] ، ولو شاء لعرَّفهم وهداهم .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى أَنْزَلَ من السماءِ ماءً لكم منه شرابٌ ومنه شَجَرٌ فيه تُسِيمُون * يُنْبِتُ لكم به الزرعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ ومن كُلِّ الثمراتِ إنَّ فى ذلك لآيةً لقومٍ يتفكَّرون ﴾ .

أنزل المطر وجعل به سُقيا النبات ، وأجرى العادة بأن يديمَ به الحياة ، وينبت به الأشجار ، ويخرج الثمار ، ويجرى الأنهار .

ثم قال : « إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » ثم قال بعده بآيات : « لقوم يعقلون » ، ثم قال بعده : « لقوم يذكرون » . وعلى هذا الترتيب تحصل المعرفة[3] ؛ فأولاً التفكر ثم العلم ثم التذكر ، أولاً يضع النظر موضعه فإذا لم يكن فى نظره خَلَلٌ وجب له العلم لا محالة ، ولا فرق بين العلم والعقل فى الحقيقة ، ثم بعده استدامة النظر وهو التذكر .

ويقال إنما قال : « آيات لقوم يعقلون » : على الجمع لأنه يحصل له كثير من العلوم حتى يصير

---

(١) وردت (تفضله) وهى خطأ من الناسخ .

(٢) (قمهم) = قهرهم وذلهم . على أننا لا نستبعد — حسبما نعرف من كلف القشيرى بالحرص على الموسيقى اللفظية — أنها ربما كانت (أقمأهم) أى صغرهم وأذلهم (أنظر آية ٤ سورة القصص المجلد الخامس).

(٣) هذه نقطة هامة إذا أردنا أن ندرس مذهب المعرفة عند الصوفية عموماً ، والقشيرى بخاصة .

عارفاً ، وكل جزء من العلم تحصل له آية ودليل ، فللعالِم حتى يكون عارفاً بربِّه آياتٌ ودلائل ، لأن دليل هذه المسألة خلاف دليل تلك المسألة ؛ فبدليل واحد يعلم وَجْهَ النظر ، وبأدلة كثيرة يصير عارفاً بربه .

قوله جل ذكره : ﴿ وسَخَّرَ لكم الليلَ والنهارَ ﴾

الليل والنهار ظرفا الفعل ، والناس فى الأفعال مختلفون : فموفَّقٌ ومخذول ؛ فالموفَّق يجرى وقته فى طاعة ربه ، والمخذول يجرى وقته فى متابعة هواه .

العابد يكون فى فَرْضٍ يقيمه أو نَفْلٍ يديه ، والعارف فى ذكره وتحصيل أوراده بما يعود على قلبه فيؤنسه ، وأما أرباب التوحيد فهم مُخْتَطَفُون عن الأحيان والأوقات بغلبة ما يَرِدُ عليهم من الأحوال كما قيل :

لستُ أدرى أطال لَيْلِىَ أم لا ... كيف يدرى بذاك مَنْ يَتَقَلَّى ؟

لو تَفَرَّغْتُ لاستطالة لَيْلِى ... ورعيت النجومَ كنت مُخِلَّا

قوله جل ذكره : ﴿ والشمسَ والقمرَ والنجومُ مُسَخَّرَاتٌ بأمره إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يَعْقِلون ﴾ .

هذا فى الظاهر ، وفى الباطن نجوم العلم وأقمار المعرفة وشموس التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ وما ذَرَأَ لَكُمْ فى الأرض مختلفاً ألوانُه إنَّ فى ذلك لآيةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُون ﴾

أقوامٌ خَلَقَ لهم فى الأرض الرياضَ والغياض[1] ، والدور والقصور ، والمساكن والمواطن ، وفنون النِّعم وصنوف القِسَم . . وآخرون لا يقع لهم طير على وكر ، ولا لهم فى الأرض شِبْر ؛ لا ديارَ تملكهم ، ولا علاقة تُمْسِكُهُم — أولئك ساداتُ الناس وضياء الحق .

---

(١) الغياض جمع غيضة وهى الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف .

قوله جل ذكره: ﴿ وهو الذى سَخَّرَ البحرَ لتأكلوا منه لحماً طَرِيًّا وتَسْتَخْرِجُوا منه حِلْيَةً تلبسونها وترى الفُلْكَ مواخِرَ فيه ولتبتغوا مِنْ فضلِهِ ولعلكم تشكرون ﴾

سخر البحر فى الظاهر، وسهَّل ركوبه فى الفُلْك، ويَسَّر الانتفاع بما يستخرج منه من الحُلِىِّ كاللؤلؤ والدُّرِّ، وما يُقْتَاتُ به من السمك وحيوان البحر.

ومن وجوه المعانى خلق صنوفا من البحر، فقومٌ غَرْقَى فى بحار الشغل وآخرون فى بحار الحزن، وآخرون فى بحار اللهو.. فالسلامةُ من بحر الشغل فى ركوب سفينة التوكل، والنجاة من بحر الحزن فى ركوب سفينة الرضا، والسلامة من بحر اللهو فى ركوب سفينة الذكر، وأنشد بعضهم[1].

قوله جل ذكره: ﴿ وألقى فى الأرض رواسِىَ أنْ تميدَ بكم وأنهارًا وسُبُلاً لعلكم تهتدون ﴾.

الرواسى فى الظاهر الجبال، وفى الإشارة الأولياء الذين هم غياث الخَلْق، بهم يرحمهم، وبهم يغيثهم.. ومنهم أبدال ومنهم أوتاد ومنهم القطب. وفى الخبر: «الشيخ فى قومه كالنبى فى أمته» وقال تعالى: «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم»[2]، كما قال تعالى: «ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم»[3]، وأنشد بعضهم:

واحسرتا من فراق قوم هم المصابيح والأمن والمزن

قوله جل ذكره: ﴿ وعَلاَمَاتٍ وبالنَّجمِ هم يهتَدُون ﴾.

الكواكبُ نجومَ السماء ومنها رجومٌ للشياطين، والأولياء نجومٌ فى الأرضِ. وكذلك العلماء وهم أئمة فى التوحيد وهم رجومٌ للكفَّار والملحدين.

(١) سقط الشاهد الشعرى من الناسخ. (٢) آية ٣٣ سورة الأنفال.
(٣) آية ٤٥ سورة الفتح.

ويقال فرقٌ بين نجوم يهتدَى بها فى فِجَاج الدنيا ، ونجومٍ يُهتَدَى بهم إلى الله تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ أفمن يَخْلُق كمَنْ لاَ يخلُقُ أفلا تذكَّرون ﴾ .

تدل هذه الآية على نفي التشبيه بينه — سبحانه — وبين خَلْقه . وصفاتُ القِدَم لله مُسْتَحَقَّة ، وما هو من خصائصِ الحدثان وسِمَاتِ الخلْق يتقدَّس الحقُّ — سبحانه — عن جميع ذلك . ولا تُشَبِّه ذاتُ القديمِ بذواتِ المخلوقين ، ولا صفاتُه بصفاتِهم ، ولا حُكْمُه بحُكْمِهم ، وأصلُ كلِّ ضلالةٍ التشبيهُ ، ومِنْ قُبْحِ ذلك وفسادِه أنَّ كلَّ أحدٍ يتبرأُ منه ويستنكِفُ من انتحاله .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ تعدُّوا نعْمَة الله لا تُحْصُوها إنَّ اللهَ لَغفورٌ رحيم ﴾ .

الموجوداتُ لا تحصوها لِتقاصُرِ علومِكم عنها ، وما هو من نِعَمَ الدفع[1] فلا نهاية له . وهو غفور رحيم حيث يتجاوز عنكم إذا عجزتم عن شكره ، ويرضى بمعرفتكم (. . . .)[2] لكم عن شكره .

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ يعلم ماتُسِرُّون وما تُعْلِنُون ﴾ .

ما تُسِرُّون من الإخلاص وملاحظة الأشخاص . فلا يخفى عليه حسبان ، وما تعلنون من الوفاق والشقاق ، والإحسان والعصيان . والآيةُ توجِبُ تخويفَ أربابِ الزَّلاَّت، وتشريفَ أصحابِ الطاعات .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يَدْعُونَ من دونِ الله لا يَخْلُقُون شيئاً وهم يُخْلَقُون ﴾ .

أخبر أن الأصنامَ لا يَصِحُّ منها الخلْقُ لكونها مخلوقةً ، ودلَّت الآيةُ على أنَّ من وُجِدَتْ له سِمَةُ الخلْق لا يصِحُّ منه الخلْق ، والخلْقُ هو الإيجاد ؛ ففي الآية دليلٌ على خلْقِ الأعمال .

---

(١) من قصور الانسان أنه لا يشعر إلا بنعم المنح ، ولكن نعم الدفع التى لا تتناهى لا يكاد الانسان يشعر بها ألبتة وبالتالى لا يشكر عليها . . وما أكثرها !

(٢) مشتبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ أمواتٌ غيرُ أحياءٍ وما يَشْعُرون أَيَّان يُبعثون ﴾ .

لأنَّ مَنْ لَحِقَهُ وصفُ التكوين لا يصحُّ منه الإيجاد . وفى التحقيق كُلُّ مَنْ عَلقَ قلبَه بشىءٍ ، وتَوَهَّم منه خيراً أو شراً فقد أشرك بالله بظنِّه ، وإنما التوحيدُ تجريدُ القلبِ عن حسبان شظيّةٍ من النفى والإثبات من جميع المخلوقين والمخلوقات .

قوله جل ذكره : ﴿ إلَهُكم إلهٌ واحدٌ فالذين لا يُؤْمِنون بالآخرةِ قلوبُهم مُنْكِرَةٌ وهم مُسْتَكْبِرُون ﴾ .

لا قَسِيمَ لِذاته جوازاً أو وجوباً ، ولا شبيهَ له ولا شريك . . ومَنْ لم يتحققْ بهذه الجملة قطعاً ، وبشهادة البراهين له تفصيلا فهو فى دَرَكاتِ الشِّرك واقعٌ ، وعن حقائق التوحيد بمعزل ، قال تعالى فى صفة الكفار : « قلوبهم منكرة وهم مستكبرون » أى فى أَسْرِ الشِّرْكِ وغطاء الكفر ، ثم ليس فيه انتصاف لطلب العرفان ؛ لأنَّ العلةَ — لِمَنْ أراد المعرفة — مُتَاحة ، وأدلة الخلْق لائحة .

قوله جل ذكره : ﴿ لا جَرَمَ أَنَّ الله يعلم ما يُسِرُّون وما يُعْلِنُون ﴾ .

فيفضحهم ويبيِّنُ نفاقَهم ، ويُعْلِنُ للمؤمنين كفرهم وشِقاقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو لا يحب المستكبرين ﴾ .

دليل الخطاب أنه يحب المتواضعين المتخاشعين ، ويكفيهم فضلاً بشارة الحق لهم بمحبته لهم .

قوله جَلَّ ذكره : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربُّكم قالوا أساطير الأولين ﴾ .

لحِقَهم شؤمُ تكذيبهم ، فأَصَرُّوا على إعراضهم عن النظر ، وقَسَتْ قلوبُهم ولم تجنح

إلى الإقرار بالحق ، فَلَبَّسُوا على من يسائلهم ، وقالوا : هذا الذى جاء به محمد من أكاذيب العجم ، فَضلّوا وأَضلوا .

قوله جل ذكره : ﴿لِيَحْمِلوا أوزارَهم كاملةً يومَ القيامة
ومِنْ أوزارِ الذين يُضِلّونهم بغير
عِلمٍ ألاَ سَاَء مايَزِرُون﴾ .

لما سَعَوْا فى الدنيا لغير الله لم تَصْفُ أعمالُهم ، وفى الآخرة حَمَلُوا معهم أوزارهم.. أولئك الذين خسِروا فى الدنيا والآخرة .

قوله جل ذكره : ﴿قد مَكرَ الذين مِنْ قبلهم﴾ .

اتصفوا بالمكر فحاق بهم مَكْرُهم ، ووقعوا فيما حفروه لغيرهم ، واغتروا بطول الإمهال ، فأخذهم العذابُ من مأْمَنِهم ، واشتغلوا بِلهوِهم فَنَغَّصَ عليهم أطيب عَيْشِهم :

﴿فأتى اللهُ بُنْيانَهم مِنَ القواعدِ
فَخَرَّ عليهم السَّقْفُ مِنْ فوقِهم
وأتاهم العذابُ من حيث
لايشعرون﴾ .

الذى وصف نفسه به فى كتابه من الإتيان فمعناه العقوبة ، وذلك على عادة العرب فى التوسع فى الخطاب .

وهو سبحانه يكشف الليلَ ببَدْره ثم يأخذ الماكر بما يليق بمَكْره ، وفى معناه قالوا :

وأَمِنْتُهُ فأَتَاحَ لى من مأْمَنى   مكرًا ، كذا مَنْ يَأْمَنُ الأياما

قوله جل ذكره : ﴿ثم يومَ القيامة يُخْزيهم ويقولُ أين
شركائِىَ الذين كُنْتُم تُشاقون فيهم ،
قال الذين أوتوا العِلْمَ إنَّ الخِزْىَ
اليومَ والسوء على الكافرين﴾ .

فى الدنيا عاجلُ بلائهم ، وبين أيديهم آجِلُه . وحَسْرةُ[1] المُفْلِس تتضاعف إذا ماحُوسِبَ ، وشاهَدَ حاصِلَه .

« قال الذين أوتو العلم .. » : يُسْمِعُ الكافرين قولَ المؤمنين ، ويبيِّن للكافة صِدْقَهم. ويقع الندمُ على جاهلهم[2] . وأما اليومَ فعليهم بالصبر والتحمُّل ، وعن قريب ينكشف الغطاء ، وأنشد بعضهم :

خليليَّ لو دارت على رأسِيَ الرَّحى من الذُّلِّ لم أجْزَعْ ولم أتكلَّمِ
وأطرقتُ حتى قيل لا أعرفُ الجفا ولكننى أفصحتُ يومَ التَّكلُّمِ

قوله جل ذكره : ﴿ الذين تتوفَّاهم الملائكةُ ظالمى أنفسِهم فألْقَوُا السَّلَمَ ما كنَّا نَعْمَلُ مِنْ سوءٍ بلى إنَّ الله عليمٌ بما كنتم تعملون * فادخلوا أبوابَ جهنَّمَ خالدين فيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكبِّرين ﴾ .

« ظالمى أنفسهم » : بارتكاب المعاصى وهم الكفار .

« فألقوا السلم » : انقادوا واستسلموا لحكم الله .

« ما كنا نعمل من سوء » : جحدوا وأنكروا ماعملوا من المخالفات .

« بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون » : هكذا قالت لهم الملائكة ، ثم يقولون لهم : « ادخلوا أبواب . . » : وكذلك الذين تقسو نفوسُهم بإعراضهم عن الطاعات إذا نزلتْ بهم الوفاةُ يأخذون فى الجزع وفى التضرع ، ثم لاتطيبُ نفوسهم بأن يُقِرُّوا بتفاصيل أعمالهم عند الناس ، فيما يتعلق بإرضاء خصومهم لما أخَلُّوا من معاملاتهم ، ثم الله يؤاخذهم بالكبير والصغير ، والنقير والقطمير ، ثم يبقون أبداً فى وبال ما أحقبوه ، لأن شؤم ذلك يلحقهم فى أُخراهم .

---

(١) وودت (مسرة) بالميم (وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .

(٢) وردت (جاهدم) بالدال ، وربما كانت فى الأصل (جاحدم) ، فالجهل والجحد من صفات الكافرين .

قوله جل ذكره : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربُّـكُم
قالوا خيراً ، للذين أحسنوا فى هذه
الدنيا حسنة ولَدارُ الآخرةِ خير
ولنِعْم دارُ المتقين » .

أما المسلمون فإذا وردوا عليهم ، وسألوهم عن أحوال محمد — صلى الله عليه وسلم ، وعما أنزل اللهُ عليه ، قالوا : دينه حقٌّ ، واللهُ أنزل عليه الحقَّ .. والذين أحسنوا فى الدنيا يجِدُون الخير فى الآخرة .

ويقال فى هذه الدنيا حسنة ، وهى ما لهم من حلاوة الطاعة بصفاء الوقت ويصحُّ أن تكونَ تلك الحسنةُ زيادةَ التوفيق لهم فى الأعمال ، وزيادةَ التوفيقِ لهم فى الأحوال .

ويصح أن يقال تلك الحسنة أَنْ يُوَفِّقَهم بالاستقامة على ما هم عليه من الإحسان .

ويصح أن يقال تلك الحسنة أن يبلِّغهم منازلَ الأكابر والسادةِ ،

قال تعالى : « وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا لما صبروا »(١)

ويصح أن تكون تلك الحسنة ما يتعدَّى منهم إلى غيرهم من بركات إرشادهم للمريدين ، وما يجرى على من اتبعهم مما أخذوه وتعلموه منهم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : لأن يهتدى بهداك رجل خير لك من حمر النعم »(٢) .

ثم قال : « ولدار الآخرة خير » ، لأن ما فيها يبقى ، وليس فيها خطر الزوال . ولأن فى الدنيا مشاهدة وفى الآخرة معاينة(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ جناتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونها تجرِى مِنْ

(١) آية ٢٤ سورة السجدة .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

(٣) نفهم من هذا أن المعاينة أعلى درجة من المشاهدة ، ونفهم كذلك أن المشاهدة — وهى تتم فى هذه الدنيا — هى أقصى درجات المعراج الروحى عند أصحاب وحدة الشهود ، وكل قول بما يزيد عن ذلك خروج عن أصول هذا المذهب ، وقد نعى كثير من الباحثين على الغلاة والأدعياء والمضللين ، فى هذا الخصوص .

تحتها الأنهارُ لهم فيها ما يشاءون
كذلك يجزى اللهُ المتقين﴾

كما أن الإرادات والهممَ تختلف فى الدنيا فكذلك فى الآخرة ، وفى الخبر : « مَنْ كان بحالةٍ لقِىَ الله بها » فَمِنْ مريدٍ يكتفى من الجنة بورودها ، ومن مريدٍ لا يكتفى من الجنة دون شهود ربِّ الجنة .

ويقال إذا شاءوا أن يعودوا إلى ما فاتهم من قصورهم ، وما وجدوا فى ذلك من صحبة اللَّعين[1] فى سائر أحوالهم وأمورهم يسلم لهم ذلك ، ومن شاء أن تدومَ رؤيتهُ ، ويتأبّدَ سماعُ خطابه فلهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ، وهو ما لم يخطر ببال أحد .

قوله جل ذكره : ﴿الذين تتوفّاهم الملائكةُ طيِّبين
يقولون سلامٌ عليكم ادخلوا الجنّةَ
بما كنتم تعملون﴾ .

يقبض أرواحَهم طيبةً . أو يقال « طيبين » حال .

والأسباب التى تطيب بها قلوبُهم وأرواحُهم مختلفة ، فمنهم مَنْ طاب وقتُه لأنه قد غُفِرتْ ذنوبُه ، وسُتِرتْ عيوبه ، ومنهم مَنْ طاب قلبُه لأنه سَلَّمَ عليه محبوبُه ، ومنهم من طاب قلبه لأنه لم يَفُتْه مطلوبه .

ومنهم من طاب وقته لأنه يعود إلى ثوابه ، ويصل إلى حُسْنِ مآبه .

ومنهم من يطيب قلبه لأنه أمِنَ من زوال حاله ، وحظى بسلامة مآله[2] ، ومنهم من يطيب قلبُه لأنه وصل إلى أفضاله ، وآخر لأنه وصل إلى لطف جماله ، وثالث لأنه خُصَّ بكشف جلاله — قد عَلِمَ كلُّ أناسٍ مَشْرَبَهم .

ويقال « تتوفاهم الملائكة » طيبةً نفوسهم أى طاهرةً من التدنُّس بالمخالفات ، وطاهرةً قلوبُهم عن العلاقات ، وأسرارهم عن الالتفات إلى شىء من المخلوقات .

---

(١) اللعين مقصود به إبليس .
(٢) وردت (ماله) والملائم هنا أن تكون (مآله) .

قوله تعالى : « سلام عليكم » إحظَوْا بالجنة ، منهم مَنْ يخاطبه بذلك المَلَكُ ، ومنهم مَنْ يُكاشفه بذلك المَلِكُ .

قوله جل ذكره : ﴿ هل ينظرون إلاَّ أنْ تأتيَهم الملائكةُ
أو يأتيَ أمرُ ربِّكَ كذلك فعلَ
الذين مِنْ قبلهم وما ظَلَمَهمْ اللهُ
ولكِنْ كانوا أنفسَهم يَظْلِمون *
فأصابهم سَيِّئاتُ ما عَملوا وحاقَ
بهم ما كانوا به يَسْتَهزِئون ﴾

القوم ينتظرون مجيءَ المَلَكِ لأنهم لم يعرفوه ولم يعتقدوا كونَه . ولكن لمَّا كانوا يستعجلون معتقدين أن الرسلَ غيرُ صادقين ، ولمَّا سلكوا[1] مسلكَ أضرابهم من المتقدمين — عوملوا بمثل مالقىَ أسلافُهم ، وما كان ذلك من الله ظلماً ، لأنه يتصرف فى مُلْكه من غير حُكْمِ حاكمٍ عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين أشركوا لوشاء اللهُ
ما عَبَدْنا مِنْ دُونه مِنْ شيءٍ نحن
ولا آباؤُنا ولا حَرَّمْنَا مِنْ دونِه مِنْ
شيء كذلك فعل الذين من قبلِهم فهل
على الرُّسُلِ إلاَّ البلاغ المبين ﴾ .

خَبثَتْ قصودُهم فيما قالوا على وجه التكذيب والاستهزاء ، وغَلَبَتْ على نطقهم ظلمات جهلهم وجحدهم ، وانكشف عدمُ صِدْقِهم فى أحوالهم .

وقولهم : « لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء . . » يشبه قولهم : « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه »[2] . ولا خلاف أن الله لو شاء أن يطعمهم لكان ذلك .

(١) وردت (سكنوا) وهى خطأ من الناسخ .
(٢) اية ٤٧ سورة يس .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد بَعَثْنا فى كل أمةٍ رسولاً
أن اعبدوا اللهَ واجتنبوا الطاغوت
فمنهم مَنْ هدى اللهُ ومنهم من حَقّت
عليه الضلالة فسيروا فى الأرضِ
فانظروا كيف كانعاقبة المكذّبين ﴾

لم يُخْلِ زماناً من الشرع توضيحاً لحجته ، ولكن فرَّقهم فى سابقِ حُكْمِه ؛ ففريقاً هداهم، وفريقاً حَجَبَهم [١] وأعماهم [٢] .

قوله جل ذكره : ﴿ إنْ تَحْرِصْ على هُدَاهم فإن اللهَ
لا يَهْدِى من يُضِلُّ وما لَهُم من
ناصرين ﴾

ألزمهم الوقوفَ على حدِّ العبودية فى إرادة هدايتهم ومعرفتهم حقائق الربوبية فقال : إنك وإنْ كنتَ بأمرنا لك حريصاً على هدايتهم ؛ فإن من قَسَمْتُ له الضلالَ لا يجرى عليه غيرُ ما قسمتُ له .

ويقال من ألبستُه صدارَ الضلال لا تنزعه وسيلةٌ ولا شفاعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقسموا باللهِ جهْدَ أيْمانِهم لا يبعثُ
اللهُ مَنْ يموت بلى وعداً عليه حقاً
ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون ﴾ .

القَسَمُ يؤكِّد الخبرَ ، ولكنَّ يمينَ الكاذب توجِب ضَعْفَ قوله ؛ لأنه كلما زاد فى جحد الله ازداد القلبُ نفرةً من قوله .

قوله جل ذكره : ﴿ ليبُيِّنَ لهم الذى يختلفون فيه وليعْلَمَ
الذين كفروا أنَّهم كانوا كاذبين ﴾ .

---

(١) وردت (حجتهم) وهى خطأ فى النسخ إذ ربما كانت النقطتان فوق الباء فتحة فى الأصل وتوهم الناسخ أنها نقطتان .

(٢) وردت (وأعمالهم) والمعنى والسياق يرفضانها ويتقبلان (وأعماهم) .

إذا بيَّن الله صدْقَ ما ورد به الشرع فى الآخرة بكشف الغيب زاد افتضاحُ أهل التكذيب فيكون فى ذلك زيادةٌ لهم فى التعذيب .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما قولُنا لشئٍ إذا أردناه أن نقولَ له كُنْ فيكون ﴾ .

فيكون بالسمع عِلْمُ تعَلُّقِ قَوْلِه بما يفعله . وحَمَلَه قومٌ على أن معناه أنه لا يتعسَّرُ عليه فعلُ شئٍ أراده ، فالآية على القولين جميعاً .

والذى لا يحتاج فى فعله إلى مادة يخلق منها لا يفتقر إلى مدةٍ يقع الفعل فيها .

وتدل الآيةُ على أنَّ قولَه ليس بمخلوق ؛ إذ لو كان مخلوقاً لكان مقولا له : كن ، وذلك القول يجب أن يكون مقولا له بقولٍ آخر . . . وهذا يؤدى إلى أن يتسلسل ما يحصل إلى مالا نهاية له[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هاجروا فى الله مِنْ بَعْدِ ما ظُلِموا لَنُبَوِّئَنَّهم فى الدنيا حَسَنَةً ولَأَجرُ الآخرةِ أكبرُ لو كانوا يعلمون ﴾ .

مَنْ هَاجَرَ عن أوطان السوء — فى الله — أبدل له اللهُ فى جوار أوليائه ما يكون له فى جوارهم معونَةٌ على الزيادة فى صفاء وقته . ومَنْ هَجَرَ أوطانَ الغفلة مَكَّنَهُ الله مِنْ مشاهدِ الوصلة . ومَنْ فَارَقَ مجالسة المخلوقين ، وانقطع بقلبه إليه — سبحانه — باستدامة ذكره — فكما فى الخبر : « أنا جليس من ذكرنى » . وبدايةُ هؤلاء القوم نهايةُ أهل الجنة ؛ ففى الخبر « الفقراء الصابرون جلساء الله يوم القيامة » . ويقال القلبُ مظلومٌ من جهة النَّفْس لما تدعوه إليه من شهواتها ، فإذا هجرها أورث اللهُ القلبَ أوطانَ النَّفْس حتى تنقادَ لما يطالبُ به القلبُ

---

(١) كلام الله ليس بمخلوق — هذا أصل هام من أصول المذهب الأشعرى الذى يُعَدّ القشيرى من أعظم أنصاره . وقد ناقش هذه القضية بإسهاب فى كتابه القيم : « شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة » . وانظر أيضاً كتابنا (الإمام القشيرى : تصوفه وأدبه — فصل : القشيري متكلماً) :

من الطاعة ، فبعد ما تكون أوطان الزَّلَّةِ بدواعى الشهوة تصير أوطانَ الطاعةِ لسهولة أدائها .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين صَبَرُوا وعلى ربِّهم يتَوكلُون ﴾

الصبرُ الوقوفُ بحسب جريان القضاء ، والتوكل التوقى بالله بحُسْن الرجاء .

ويقال صبروا فى الحال ، وتوكلوا على الله فى تحقيق الآمال .

ويقال الصبر تحسِّى كاساتِ المقدور ، والتوكل الثقة فى الله فى استدفاع المحذور .

ويقال الصبرُ تجرُّعُ ما يُسقَى ، والتوكل الثقة بما يرجو .

ويقال إنما يقوَوْن على الصبر بما حققوا من التوكل .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إلا رِجالاً
نُوحِى إليهم فاسألوا أهلَ الذكر
إنْ كُنْتُم لا تَعلَمُون ﴾ .

تعجبوا أن يكون من البَشَرِ رُسلاً ، فأخبر أنَّ الرسلَ كلَّهم كانوا من البشر ، وأنَّ فيمن سبق مَنْ أقرَّ بذلك . « وأهل الذكر » هم العلماء ، والعلماء مختلفون : فالعلماء بالأحكام إليهم الرجوعُ فى الاستفتاء من قِبَل العوام فمَنْ أشْكِل عليه شىء من أحكام الأمر والنهى يرجع إلى الفقهاء فى أحكام الله ، ومن اشتبه عليه شىء من علم السلوك في طريق الله يرجع إلى العارفين بالله ، فالفقيه يوقِّع عن الله ، والعارف ينطق — فى آداب الطلب وأحكام الإرادة وشرائط صحتها — عن الله ، فهو كما قيل : (أليس حقاً نطقت بين الورى فاشتهرت ، كاشفها يعلم ما منٌ عليها فجرت ، فهى عناء به عينيه قد طهرت)[1] .

قوله جل ذكر : ﴿ بالبينات والزُّبُر وأنزلنا إليك
الذكرَ لتُبَيِّنَ للناسِ ما نُزِّل إليهم
ولَعَلَّهم يتفكرون ﴾

أى إن البيانَ إليك ، فأنت الواسطة بيننا وبينهم ، وأنت الأمين على وحينا .

(١) ما بين القوسين نقلناه كما هو من النص ، وربما كان شاهداً شعريا مضطرب الكتابة .

قوله جل ذكره : ﴿ أفأَمِنَ الذين مكروا السيئاتِ أنْ يَخْسِفَ اللهُ بهم الأرضَ أو يأتيَهم العذابُ من حيثُ لا يشعرون * أو يأخذَهم في تقلُّبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذَهم على تَخَوُّفٍ فإنَّ ربَّكم لَرَءوفٌ رحيمٌ ﴾ .

العبدُ في جميع أحواله عُرْضَةٌ لِسِهام التقدير ، فينبغي أن يستشعر الخوفَ في كلِّ نَفَسٍ من الإصابة بها ، وألاَّ يأمنَ مَكْرَ الله في أي وقت ، وأكثر الأسنة تعمل في الموطأة نفوسُهم وقلوبُهم على ما عَوَّدَهم الحقُّ من عوائد المِنَّة ، ولكن كما قيل :

يا راقدَ الليلِ مسروراً بأوَّلِه إنَّ الحوادثَ قد يَطْرُقْنَ أسحاراً[1]

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إلى ما خَلَقَ اللهُ مِنْ شيءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالَه عن اليمين والشمائلِ سُجَّداً للهِ وهم داخِرون ﴾

كل مخلوقٍ من عين أو أثر ، مِنْ حَجَرٍ أو مَدَرٍ أو غَبَرٍ فلله — من حيث البرهان — ساجد ، ومن حيث البيان على الوحدانية شاهد .

قوله جل ذكره . ﴿ ولله يَسْجد ما في السمواتِ وما في الأرضِ من دابَّةٍ والملائكةُ وهم لا يستكبرون ﴾ .

ذلك سجود شهادة لا سجود عبادة ، فإذا امتنَعَتْ عن إقامة الشهادة لقوم قالةً ، فقد شهد كل جزء منهم من حيث البرهان والدلالة .

قوله جل ذكره : ﴿ يخافون ربَّهم من فوقِهم ويفعلون ما يُؤْمَرُون ﴾ .

يخافون الله أن يُنزِّلَ عليهم عذاباً من فوق رءوسهم .

(١) كان عبد الحميد المكفوف كثيراً ما يتمثل بهذا البيت في قصصه (الحيوان ج ٦ ص ٥٠٨) .

« ويفعلون ما يؤمرون » لا يعصونه ولا يحيدون عن طاعته .

ويقال خيرُ شيء للعبد فى الدنيا والآخرة الخوفُ ؛ إذ يمنعه من الزَّلَّة ويحمله على الطاعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال اللهُ لا تَتَّخذُوا إلٰهين اثنين

إنَّما هو إلهٌ واحدٌ فإيَّاى فارهبونِ

وله ما فى السموات والأرضِ ﴾

الحاجة إلى إثبات صانعٍ واحد داعية ، وما زاد على الواحد (فالا . . .)[1] فيه متساوية .

ويقال إثبات الواحد ضرورة ، وقُدْرَةُ الاثنين محصورة .

قوله جل ذكره : ﴿ وله الدِّينُ واصِباً أفغَيْرَ اللهِ تَتَّقُون ﴾

له الدين خالصاً وله الدين دائماً وله الدينُ ثابتاً ، فالطاعة له واجبة . فلا تتقوا غيره ، وأطيعوا شَرْعَه بخلاف هواكم ، واعبدوه وَحْدَه ، واستجيبوا له فى المَسَرَّةِ والمَضَرَّةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وما بِكُم من نعمةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾

النِّعمة ما يُقَرِّبُ العبدَ من الحق ، فأمَّا ما لا يوجِب النسيانَ والطغيان ، والغفلةَ والعصيانَ فأَوْلى أن يكون محنة .

ويقال ما للعبد فيه نفع ، أو يحصل به للشر منع فهو على أصح القولين نعمة ؛ سواء كان دينياً أو دنيوياً ، ، فالعبد مأمورٌ بالشكر على كل حال . وأكثر الناس يشكرون على نعم الإحسان ، « وقليلٌ من عبادى الشكور »[2] على كل حال .

وفائدةُ الآيةِ قَطْعُ الأسرارِ عن الأغيار فى حالتى اليُسْر والعُسْر ، والثقة بأن الخير والشر ، والنفع والضر كلاهما من الله تعالى .

قوله جل ذكره ﴿ ثُمَّ إذا مَسَّكم الضُرُّ فإليه تجأرون ﴾

إذ ليس لكم سواه ، فإذا أظلَّتْ العبدَ هواجمُ الاضطرارِ التجأ إلى الله فى استدفاع

---

(١) بقية الكلمة مشتبهة .

(٢) آية ١٣ سورة سبأ .

ما مَسَّه من البلاء ثم إذا مَنَّ الحقُّ عليه ، وجاد عليه بكشف بلائه صار كَأَنْ لم يمسه سوء أو أصابه همٌّ كما قيل :

كأنَّ الفتى لم يَعْرَ يوماً إذا اكتسى ولم يَكُ صعلوكاً إذا ما تَمَوَّلاَ[1]

وقال :

﴿ ثُمَّ إذا كَشَفَ الضُرَّ عنكم
إذا فريقٌ منكم بربِّهم يُشْرِكون ﴾

الخطاب عام ، وقوله « منكم » : لأنَّ القومَ منهم

﴿ لِيَكْفُروا بما آتيناهم فَتَمَتَّعوا
فسوف تعلمون ﴾

فى هذا تهديد أى أنهم سوف يندمون حين لا تنفع لهم ندامة ، ويعتذرون حين لا يُقْبَلُ لهم عُذْرٌ . ومَنْ زَرَعَ شراً فلن يَحْصُدَ إلا جزاءَ عَمَلِهِ .

قوله جل ذكره ﴿ ويجعلون لِمَا لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم
تالله لَتُسْأَلُنَّ عما كنتم تَفْتَرون ﴾

أى يجعلون لما لا يعلمون — وهى أصنامهم التى ليس لها استحقاق العلم — نصيباً من أرزاقهم ؛ فيقولون هذا لهم وهذا لشركائنا .

« تالله » أقسم إنهم سيلقَوْن عقوبةَ فِعْلِهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويجعلون لله البناتِ سبحانه ولهم
ما يشتهون ﴾

من فَرْطِ جهلهم وصفوا المعبودَ بالولد ، ثم زاد اللهُ فى خذلانهم حتى قالوا : الملائكة بنات الله . وكانوا يكرهون البنات ، فرضوا لله بما لم يرضوا لأنفسهم . ويلتحق بهؤلاء فى استحقاق

---

(١) تمول أى نما المال له .

الذمُّ كلُّ مَنْ آثر حَظَّ نَفْسِه على حقِّ مولاه ، فإذا فعل مَالهُ فيه نصيبٌ وغرضٌ كان مذمومَ الوصف ، ملوماً على ما اختاره من الفعل .

ثم إنه عابهم على قبيح ما كانوا يفعلونه ويتصفون به من كراهةِ أَنْ تُولَد لهم الإناثُ فقال :

﴿ وإذا بُشِّرَ أَحدُهم بالأنثى ظَلَّ
وجهُهُ مُسْوَدّاً وهو كظيم * يتَوَارَى
من القوم من سوء ما بُشِّر به أَيُمْسِكُه
على هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ في التراب
ألاَ سَاء ما يحْكُمون ﴾

استولت عليهم رؤيةُ الخَلْق[1] ، وملكتهم الحيرة ، فَحَقُوا على البنات مما يلحقهم عند تزويجهن وتمكين البَعْلِ فيهن . . وهذه نتائج الإقامة في أوطان التفرقة ، والغيبة عن شهود الحقيقة .

ثم قال : « أيمسكه على هون » أي يحبس المولودَ إذا كان أنثى على مَذَلَّة ، « أم يدسه في التراب » ليموت ؟ وتلك الجفوةُ في أحوالهم جَعَلَتْ — من قساوة قلوبهم في أحوالهم — العقُوبَةَ أشدَّ مما كانت بتعجيلها لهم . وجَعَلَهُم فرطُ غيظهم ، وفَقْدُ رضائهم ، وشدة حنقهم على من لا ذنبَ له من أولادهم — من أهل النار في دَرَكَاتِ جهنم ، وتكدَّر عليهم الوقتُ، واستولت الوحشةُ .. ونعوذ بالله من المَثَلِ السوء !

قوله جل ذكره : ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السوء
ولله المَثَلُ الأعلى وهو العزيزُ الحكيم *
ولو يؤاخِذ اللهُ الناسَ بِظُلْمِهِم
ما تَرَكَ عليها من دابةٍ ولكنْ

(١) أي تشتت رؤيتهم حين لم ينظروا إلى الخالق واستبدلوا ذلك بأن نظروا للمخلوق . . . وهذه صفة أهل التفرقة والغيبة — كما سيأتي بعد .

يؤخرهم إلى أجلٍ مُسمّى فإذا جاء
أجَلُهم لا يستأخِرون ساعةً
ولا يَسْتَقْدِمُون ﴾ .

مَثَلُ السوءِ للكفار الذين جحدوا توحيدَه فلهم صفة السوء .

ولله صفات الجلال ونعوت العزِّ ، ومَنْ عَرَفَه بنعتِ الإلهية تمَّتْ سعادتُه فى الدارين ، وتعجلت راحته ، وتنزَّه سِرُّه على الدوام فى رياضِ عرفانه ، وطَرِبَتْ روحُه أبداً فى هيجان وَجْدِه .

أمَّا الذين وُسِمُوا بالشِّرْكِ ففى عقوبة مُعَجَّلَة وهموم مُحَصَّلة . « ولو يؤاخذ الله . . . . » أى لو عاملهم بما استحقوا عاجلاً لحَلَّ الاستئصالُ بهم ، ولكنَّ الحُكْمَ سَبَقَ بإمهالهم ، وسَيَلْقَوْن غِبَّ أعمالِهم فى مآلِهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون وتصِفُ
ألسنتُهم الكَذِبَ أنَّ لهم الحسنى
لاجَرَمَ أنَّ لهم النار وأنَّهم مُفْرَطون ﴾

انخدعوا لمَّا لانَ لهم العيشُ ، فظنوا أنهم ينجون ، وبما يُؤَمِّلونه يحيطون ؛ فحَسُنَتْ فى أعينهم مقابحُ صفاتهم ، ويومَ يُكْشَفُ الغطاء عنهم يعضون بنواجذ الحسرة على أنامل الخيبة ، فلا تُسْمَعُ منهم دعوة ، ولا تتعلق بأحدهم رحمة .

قوله جل ذكره : ﴿ تاللهِ لقد أرْسَلْنَا إلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ
فزَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم فهو وَلِيُّهم
اليومَ ولهم عذابٌ أليمٌ ﴾ .

أنزل هذه الآية على جهة التسلية للنبي — صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك أنه أخبر أن مَنْ تَقَدَّمَه من الأمم كانوا فى سلوك الضلالة ، والانخراط فى سِلْكِ الجهالة كما كان من قومه ، ولكن اللهَ — سبحانه — لم يعجز عنهم . وكما سَوَّلَ الشيطانُ لأُمَّتِه ، وكان ولياً لهم ، فهو ولىُّ هؤلاء . وأمَّا المؤمنون فالله وليُّهم ، والكافرون لا مَوْلى لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أنزلنا عليكَ الكتابَ إلاّ لِتُبَيِّنَ لهم الذى اختلفوا فيه وهُدَىً ورحمةً لِقَومٍ يؤمِنون ﴾ .

أنت[1] الواسطة بيننا وبين أوليائنا ، ولك البرهان الأعلى والنور الأوفى ؛ تُبَلِّغُ عنَّا وتؤدِّى منَّا ، فأنت رحمةُ أرسلناك لأوليائنا . . فَمَنْ تَبِعَكَ اهتدى ، ومَنْ عصاك ففى هلاكه سعى .

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ أنزل من السماءِ ماءً فأحيا به الأرضَ بعد موتِها إنَّ فى ذلك لآيةً لقومٍ يسمعون ﴾ .

أحيا بماء التوفيق قلوبَ العابدين فَجَنَحَتْ إلى جانب الوفاق ، وأحيا بماء التحقيق أرواح العارفين فاستروحت على بساط الوصال ، وأحيا بماء التجريد أسرار الموحدين فتحررت من رِقِّ الآثار ، وانفردت بحقائق الاتصال .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ لَكُم فى الأنعامِ لَعِبرةً نُسقِيكم مما فى بُطُونِه من بين فَرْثٍ ودَمٍ لَبَنًا خالِصًا سائغًا للشاربين ﴾ .

سَخَّرَها لكم ، وهيأها للانتفاع بلحمها وشحمها ، وجِلْدِها وشَعْرِها ودَرِّها ، وأصلها ونَسْلِها . ثم عجيبٌ ما أظهر من قدرته من إخراج اللبن — مع صفائه وطعمه ونَفْعِه — من بين الروث[2] والدم ، وذلك تقدير العزيز العليم . والذى يقدر على حفظ اللبن بين الروث والدم يقدر على حفظ المعرفة بين وحشة الزَّلَّةِ من وجوهها المختلفة .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنْ ثمراتِ النخيلِ والأعنابِ تتخذون منه سَكَرًا ورزقًا حَسَنًا إنَّ فى ذلك لآيةً لقومٍ يعقلون ﴾

(١) وردت (آية) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) الفرث والروث بقايا الطعام .

مَنَّ على العباد بما خَلَقَ لهم من فنون الانتفاع بثمرات النخيل كالتمر والرطب واليابس .. وغير ذلك .

والرزق الحسن ما كان حلالاً . ويقال هو ما أتاك من حيث لا تحتسب ، ويقال هو الذى لا مِنَّةَ لمخلوقٍ فيه ولا تَبِعَةَ عليه .

ويقال هو ما لا يعصى اللهَ مكتسبُه فى حال اكتسابه .

ويقال هو ما لا يَنْسَى اللهَ فيه مُكْتَسِبُه .

قوله جل ذكره : ﴿ وأوحى ربُّكَ إلى النَّحلِ أن اتخذِى
من الجبالِ بيوتاً ومن الشَّجَرِ
ومما يَعْرِشُون * ثم كُلِى من كلِّ
الثمراتِ فاسلُكِى سُبُلَ ربِّكِ ذُلُلاً
يخرج من بطونها شرابٌ مختلِفٌ
ألوانُه فيه شفاءٌ للناسِ إنَّ فى ذلك
لآيةً لقومٍ يَتَفَكَّرون ﴾

أوحى إلى النحل : أراد به وحى إلهام .. ولما حَفِظَ الأمر وأكل حلالاً ، طَابَ مأكلُه وجعل ما يخرج منه شفاءً للناس .

ثم إن الله — سبحانه — عَرَّفَ الخَلْقَ أَنَّ التفضيل ليس من جهة القياس والاستحقاق ؛ إذ أن النحلَ ليس له خصوصية فى القامة أو الصورة أو الزينة ، ومع ذلك جعل منه العَسَلَ الذى هو شفاء للناس .

والإنسان مع كمال صورته ، وتمام عقله وفطنته ، وما اختص به الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الخصائص جعل فيهم من الوحشة ما لا يخفى .. فأىُّ فضيلةٍ للنحل ؟ وأىُّ ذنبٍ للإنسان ؟ ليس ذلك إلا اختياره — سبحانه .

ويقال إن الله — سبحانه — أجرى سُنَّتَه أَنْ يُخْفِيَ كلَّ شىء عزيز فى شىء حقير ؛

فجعل الإبْرَيْسَم[1] فى الدود وهو أضعف الحيوانات ، وجعل العسل فى النحل وهو أضعف الطيور ، وجعل الدُّرَّ فى الصدف وهو أوحش[2] حيوان من حيوانات البحر ، وكذلك أودع الذهب والفضة والفيروزج فى الحجر .... كذلك أودع المعرفة به والمحبة له فى قلوب المؤمنين وفيهم من يعصى وفيهم من يخطىء[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ خَلَقَكُم ثم يَتَوَفَّاكم ومِنْكُم مَنْ يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العُمُرِ لكى لا يعلم بعد عِلْمٍ شيئاً إنَّ اللهَ عليمٌ قدير ﴾

خَلَق الإنسانَ فى أحسن تركيب ، وأملح ترتيب ، فى الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة ، والنور والضياء ، والفهم والذكاء . ورَزَقَه من العقل والتفكر ، والعلم والتبصر ، وفنون المناقب التى خُصَّ بها من الرأى والتدبير ، ثم فى آخر عمره يجعله إلى أرذل العمر مردوداً ، ويرى فى كل يومٍ ألماً جديداً .

ويقال « منكم من يرد إلى أرذل العمر » : وهو أن يرد إلى الخذلان بعد التوفيق ؛ فهو يكون فى أول أحوال عمره مطيعاً ثم يصير فى آخر عمره عاصياً .

ويقال أرذل العمر أن يرغب فى عنفوان شبابه فى الإرادة ، ويسلك طريق الله مدةً ، ثم تقع له فترةٌ ، فيفسخ عقد إرادته ، ويرجع إلى طلب الدنيا . وعند القوم هذه رِدَّةٌ فى هذا الطريق .

ويقال أرذلُ العمر رغبةُ الشيخ فى طلبٍ .

ويقال أرذلُ العمر حُبُّ المرءِ للرياسة .

---

(١) الإبريسم = أحسن الحرير (معرب) (الوسيط حـ ١ ص ٢) .

(٢) هنا معناها أجوع الحيوان ، من قولهم بات وحشاً أى جائعاً لم يأكل شيئاً فخلا جوفه (الوسيط جـ ٢ ص ١٠٠٩) .

(٣) ينسجم اتجاه القشيرى فى هذه الإشارة مع السياق القرآنى .. إذ يأتى بعد قليل : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » .. وفضل الله بلا علة .

ويقال أرذل العمر اجتماع المظالم على الرجل وألا يُرْضِيَ خصومهُ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ واللهُ فَضَّلَ بعضَكم على بعضٍ
في الرزقِ فما الذين فُضِلُوا برَادِّي
رِزْقِهِم على ماملَكَتْ أيْمانُهم فهم
فيه سَوَاءٌ أفبنعمةِ اللهِ يجحدون ﴾

أرزاق المخلوقات مختلفة ؛ فَمِنْ مضَيَّقٍ عليه رزقُه ، ومِنْ مُوَسَّعٍ عليه رزقه ، ومِنْ أرزاق هى أرزاق النفوس ، وأرزاقٍ للقلوب وأرزاق للأرواح ، وأرزاق للأسرار ؛ فأرزاقُ النفوسِ لقوم بتوفيق الطاعات ، ولآخرين بخذلان المعاصى . وأرزاق القلوب لقومٍ حضورُ القلب باستدامة الفكر ، ولآخرين باستيلاء الغفلة ودوام القسوة . وأرزاق الأرواح لقوم صفاء المحبة ، ولآخرين اشتغال أرواحهم بالعلاقة بينهم وبين أشكالهم ، فيكون بلاؤهم فى محبتهم لأمثالهم . وأرزاق الأسرار لا تكون إلا بمشاهدة الحقِّ ، فأمَّا من لم يكن من هذه الجملة فليس من أصحاب الأسرار .

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ جَعَل لكم من أنفسكم
أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم
بنينَ وحَفَدَةً ﴾

شَغَلَ الخَلْقَ بالخلق لأنَّ الجنس أوْلَى بالجنس . ولَمَّا أراد الحقُّ — سبحانه — بقاء الجنس هَيَّأ سبب التناسب والتناسل لاستيفاء مثل الأصل . ثم مَنَّ على البعض بخَلْق البنين ، وابتلى قوماً بالبنات — كلٌّ بتقديره على مايشاء .

قوله جل ذكره : ﴿ ورَزَقَكم من الطيبات أفَبِالباطلِ
يؤمنون وبنعمةِ اللهِ هم يكفُرُون ﴾

والرزق الطيب لعبدٍ ما تستطيبه نَفْسُه ، ولآخر ما يستطيبه سِرُّه .

فمنهم من يستطيب مأكولاً ومشروباً ، ومنهم من يستطيب خلوةً وصفوة . . . إلى غير ذلك من الأرزاق .

« أفبالباطل يؤمنون » ، وهو حسبان حصول شيءٍ من الأغيار . وتعلُّق القلبِ بهم استكفاءً منهم أو استدفاعاً لمحذور أو استجلاباً لمحبوب .

« وبنعمة الله هم يكفرون » والنعمة التى كفروا بها هى الثقةُ بالله ، وانتظارُ الفرَجِ منه ، وحسنُ التوكلِ عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ ويعبدون مِنْ دونِ الله مالا يملك لهم رِزْقًا من السموات والأرضِ شيئاً ولا يستطيعون ﴾

ومَنْ يتَعَلَّقُ بشخصٍ أو بسببٍ مُضَاهٍ[1] لعُبَّاد الأصنام من حيث إنه يضيِّعُ وقتَه فيما لا يُعينُه ، فالرزقُ ، من الله — فى التحقيق — مُقَدَّرٌ .

قوله جل ذكره ﴿ فلا تضربوا لله الأمثالَ إنَّ اللهَ يَعْلَمُ وأنتم لا تعلمون ﴾ .

كيف تُضْرَبُ الأمثالُ لمن (لا)[2] يساويه أحدٌ فى الذات والصفات وأحكام الأفعال ؟ ومَنْ نَظَرَ إلى الحقِّ من حيث الخَلْق[3] وقع فى ظلمات التشبيه ، وبقى عن معرفة المعبود .

قوله جل ذكره : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مملوكاً لا يَقْدِرُ على شيءٍ ومَنْ رزقناه منّا رِزْقًا حَسَناً فهو يُنْفِقُ منه سِرّاً وجَهْراً هل يَسْتَوُون؟ الحمدُ لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾

شَبَّهَ الكافرَ بالعبد المملوك الذى لا يقدر على شىء ولا مِلْكَ له فى الشرع ، والمؤمنَ المخلصَ بمَنْ رَزَقَه الخيراتِ ووفقه إلى الطاعات ثم وعده الثوابَ وحُسْنَ المآبِ على ما أنفقه .

---

(١) فى الهامش هكذا ، بينما هى فى النص (معناه) ، والصواب ما جاء فى الهامش أى مماثل .
(٢) سقطت (لا) والمعنى يتطلبها .
(٣) أى من حيث مضاهاته بالخلق ، ومناظرته بالحدثان .

ثم نفى عنهما المساواة إذ ليس مَنْ كان بنفْسِه ، ملاحظاً لأبناء جنْسِه ، متمادياً فى حسبان مغاليطه كمَنْ كان مُدْرِكاً بربِّه مصْطَلَماً[1] عن شاهده ، غائبًا عن غيره ، والمُجرِى عليه ربُّه ولا حَوْل له إلا به .

قوله جل ذكره : ﴿ وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رجلين أحدُهما أبكَمُ لا يَقْدِرُ على شىءٍ وهو كَلٌّ على مولاه أينما يُوَجِّهه لا يأتِ بخيرٍ هل يستوى هو ومَنْ يأمر بالعدل وهو على صِراطٍ مستقيم ؟ ﴾

هذا المثَلُ أيضاً للمؤمن والكافر ؛ فالكافر كالجاهل الأبكم الذى لا يجىء منه شىء ، ولا يحصل منه نفع ، والمؤمن على الصراط المستقيم يتبرأ عن حَوْلِه وقُوَّتِه ، ولا يعْترف إلا بطوْلِه — سبحانه — ومِنَّتِه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولله غيبُ السموات والأرضِ ، وما أمرُ الساعةِ إلا كلَمْحِ البصرِ أو هو أقربُ إنَّ اللهَ على كل شىءٍ قدير ﴾

استأثر الحقُّ — سبحانه — بعلم الغيبيات ، وسَتَرهَا على الخلْق ؛ فيخرِجُ قوماً فى الضَّلالة ثم ينقلهم إلى صفة الولاية ، ويقيم قوماً برقم العداوة ثم يردهم إلى وصف الولاية .. فالعواقبُ مستورة ، والخواتيم مبهمة ، والخَلْقُ فى غفلة عما يُرَادُ بهم .

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ أخْرَجَكُم من بطونِ أمهاتِكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمْعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلكم تشكرون ﴾

---

(١) الاصطلام : نعت غلبة ترد على العقول فيستلبها بقوة سلطانه وقهره (اللمع ص ٤٥٠) .

خلقهم مِنْ غير أنْ شاورهم ، وأثبتهم — على الوصف الذى أراده — دون أن خيَّرهم ، ولم يعلموا بماذا سبق حُكْمُهم . . أبا لسعادة خلقهم أم على الشقاوة من العدَم أخرجهم من من بطون أمهاتهم؟ فلا صلاحَ أنفُسِهِمْ عَلِمُوا ، ولا صفةَ ربِّهم عَرفوا. ثُمَّ بحُكْمِ الإلهام هداهم حتى قَبِلَ الصبيُّ ثدىَ أمه وإن لم يكن قد تقدمه تعريف أو تخويف أو تكليف أو تعنيف .

« وجعل لكم السمعَ » : لتسمعوا خطابه ، « والأبصارَ » لتبصِروا أفعالَه ، «والأفئدة» لِتعْرِفُوا حقَّه ، ثم لتشكروا عظيم إنعامه عليكم بهذه الحواس.

قوله جل ذكره : ﴿ أَلم يَرَوْا إلى الطير مُسَخَّراتٍ فى جَوِّ السماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إلا اللهُ إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمِنُون ﴾

الطائر إذا حلَّقَ فى الهواء يبقى كالواقف ولا يسقط ، وقد قامت الدلالة على أن الحقَّ — سبحانه — متفرِّدٌ بالإيجاد ، ولا يَخْرُجُ حادثٌ عن قدرته ، وفى ذلك دلالة على كمال قدرته سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ والله جَعَلَ لكم من بيوتِكم سَكَناً وجعل لكُم من جلودِ الأنعامِ بيوتاً تستخفونها يومَ ظَعْنِكم ويومَ إقامتِكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثَاثاً ومتَاعاً إلى حين ﴾

للنفوس وطن ، وللقلوب وطن . والناس على قسمين مستوطِنٌ ومسافر : فكما أن الناس بنفوسهم مختلفون فكذلك بقلوبهم ؛ فالمريد أو الطالب مسافرٌ بقلبه لأنه يتَلَوَّنُ ، ويرتقى من درجة إلى درجة ، والعارف مقيمٌ ومستوطِنٌ لأنه واصل متمكن. والطريق منازلُ ومراحلُ ، ولا تقطع تلك المنازل بالنفوس وإنما تقطع بالقلوب ، والمريد سالِكٌ والعارف واصِلٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ والله جَعَلَ لكم مما خَلَقَ ظِلالاً

وجعل لكم من الجبال أكناناً
وجعَل لكم سَرابيلَ تقيكم الحرَّ
وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يُتِمُّ
نعمتَه عليكم لعلكم تُسْلِمون ﴾

فى الظاهر جعل لكم من الأشجار والسقوف ونحوها ظلالاً . . كذلك جعل فى ظل عنايته لأوليائه مثوىً وقراراً .

وكما سَتَرَ ظواهركم بسرابيل تقيكم الحرَّ وسرابيل تقيكم بأس عدوكم ـ كذلك ألبس سرائركم لباساً يلفكم به فى السراء والضراء ، ولباسَ العصمة يحميكم من مخالفته ، وأظلكم بظلال التوفيق مما يحملكم على ملازمة عبادته ، وكساكم بحُلَلِ الوصل مما يؤهلكم لقربته وصحبته .

قوله : « كذلك يتمُّ نعمته عليكم . . » ، إتمام النعمة بأن تكون عاقبتُهم مختومة بالخير ، ويكفيهم أمورَ الدين والدنيا ، ويصونهم عن اتباع الهوى ، ويُسَدِّدُهم حتى يؤثروا ما يوجِبُ من الله الرضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ فإنْ تَوَلَّوْا فإنما عليكَ البلاغُ المبين ﴾ .

إذا بَلَّغْتَ الرسالة فما جعلنا إليك[1] حكم الهداية والضلالة .

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْرِفون نعمةَ الله ثم يُنْكِرونها وأكثرُهم الكافرون ﴾ .

يَسْتَوْفقُونَ إلى الطاعةِ ، فإذا فعلوا أُعْجِبُوا بها[2] .

---

(١) وردت (إليكم) والخطاب موجه إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم فالصواب (إليك) .
(٢) فى هذا الصدد ينقل القشيرى عن شيخه الدقاق قوله (لما دخل الواسطى نيسابور سأل أصحاب أبى عثمان : بماذا كان يأمركم شيخكم ؟ .
فقالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها .
فقال : هلا أمركم بالغيبة عنها برؤية منشئها ومجريها ؟) الرسالة ص ٣٤ .

ويقال يستغيثون، فإذا أجابهم قصّروا فى شكره.

ويقال إذا وقعت لهم محنةٌ استجاروا بربهم، فإذا أزال عنهم تلك المحن نسوا ما كانوا فيه من الشدة، وعادوا إلى قبيح ما أسلفوه من أعمالهم التى أوجبت لهم تلك الحالة.

ويقال يعرفونَ فى حال توبتهم قُبْحَ ما كانوا فيه فى حال زلتهم، فإذا نقضوا توبتهم صاروا كأنهم لم يعرفوا تلك الحالة.

قوله جل ذكره: ﴿ويومَ نَبْعَثُ من كلِّ أمةٍ شهيداً ثم لا يُؤْذَنُ للذين كفروا ولا هم يُسْتَعْتَبُون﴾.

إذا كان يومُ الحشر سأل الرسلُ عن أحوال أُمَمِهم، فمن نَطَقَ بحجةٍ أُكْرِمَ، ومَنْ لم يُدْلِ بحجةٍ لا تُراعى له حرْمةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿وإذا رأى الذين ظلموا العذابَ فلا يُخَفَّفُ عنهم ولا هم يُنظَرُون﴾

أى يُشَدَّدُ عليهم الأمرُ ولا يُسَهَّل.

قوله جل ذكره: ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شُرَكاءَهم قالوا ربَّنا هؤلاءِ شُرَكَاؤُنا الذين كُنَّا نَدْعُو مِنْ دونِك فألْقَوْا إليهم القولَ إنَّكم لَكاذِبون﴾.

تمنوا أن يَنْفِقُوا من إخوانهم الذين عاشروهم، وحملوهم على الزَّلَّة، فيتبرأون من شركائهم، ويلعن بعضهم بعضاً، وتضيق صدورهم من بعض.

قوله جل ذكره: ﴿وألْقَوْا إلى اللهِ يومئذٍ السَّلَمَ وضَلَّ عنهم ما كانوا يَفْتَرُون﴾.

استسلموا لأمر الله وحُكْمه، ويومئذ لا تضرُّعَ منهم يُرَى، ولا مِحْنةَ — يصرخون من ويلها — عنهم تُكْشَف.

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ نَبْعَثُ في كلِّ أمةٍ شهيداً
عليهم من أنفسِهم وجئنا بِكَ شهيدا
على هؤلاءِ ونَزَّلْنا عليكَ الكتابَ
تِبْيانًا لِكلِّ شيءٍ وهُدًى ورحمةً
وبُشْرَى للمسلمين ﴾ .

تأتى — يومَ القيامة — كلُّ أمة مع رسولها ، فلا أُمةَ كهذه الأمةِ فضلاً ، ولا رسولَ كرسولنا صلى الله عليه وسلم رتبةً وقَدْراً .

« ونزلنا عليك الكتاب » أى القرآن تبيانا لكل شيء ، فيه للمؤمنين شفاء ، وهو لهم ضياء ، وعلى الكافرين بلاء ، وهو لهم سبب محنة وشقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ يأمر بالعدلِ والإحسانِ
وإيتاءِ ذى القُرْبَى ويَنْهَى عن
الفحشاءِ والمنكرِ والبغيِ يَعِظُكُم
لعلكم تَذَكَّرون ﴾ .

العدل ما هو صواب وحسن ، وهو نقيض الجور والظلم .

أمر اللهُ الإنسانَ بالعدل فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين الخَلْق ؛ فالعدلُ الذى بينه وبين نفسه مَنْعُها عما فيه هلاكُها ، قال تعالى : « ونهى النفس عن الهوى »[1] ، وكمالُ عدلِه مع نفسه كَىُّ عُروقِ طمعِه .

والعدلُ الذى بينه وبين ربه إيثارُ حقِّه تعالى على حظِّ نفسه ، وتقديمُ رضا مولاه على ما سواه ، والتجرد عن جميع المزاجر ، وملازمة جميع الأوامر .

والعدل الذى بينه وبين الخَلْق يكون ببذل النصيحة وترك الخيانة فيما قل[2] أو كثر ، والإنصاف بكل وجه وألا تَشِيَ إلى أحد بالقول أو بالفعل ، ولا بِالهَمِّ أو العزم .

(١) آية ٤٠ سورة النازعات .

(٢) وردت (كل) بالكاف وهى خطأ من الناسخ .

وإذا كان نصيبُ العوام بَذْلَ الإنصافِ وكَفَّ الأذى فإنَّ صفةَ الخواص تَرْكُ الانتصاف ، وإسداءُ الإنْعَام ، وتَرْك الانتقام ، والصبرُ على تحمّلِ ما يُصيبُكَ من البلوى .

وأما الإحسان فيكون بمعنى العلم — والعلمُ مأمورٌ به — أى العلم بحدوثِ نَفْسه ، وإثباتِ مُحْدِثه بصفات جلاله ، ثم العلم بالأمور الدينية على حسب مراتبها . وأما الإحسانُ فى الفعل فالحَسَنُ منه ما أمر الله به ، وأَذِنَ لنا فيه ، وحَكَمَ بمدح فاعله .

ويقال الإحسان أن تقوم بكل حقٍّ وَجَبَ عليك حتى لو كان لطيرٍ فى مِلْكِك ، فلا تقصر فى شأنه .

ويقال أن تَقْضِيَ ما عليك من الحقوق وألا تقتضِيَ لك حقاً من أحد .

ويقال الإحسان أن تتركَ كل ما لَكَ عند أحد ، فأما غير ذلك فلا يكون إحساناً . وجاء فى الخبر : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » وهذه حال المشاهدة التى أشار إليها القوم .

قوله : « وإيتاء ذى القربى » إعطاء ذى القرابة ،وهو صلةُ الرَّحِمِ ، مع مُقاساةِ ما منهم من الجَوْرِ والجفاءِ والحَسَدِ .

ينهى عن الفحشاء والمنكر » : وذلك كلٌّ قبيحٍ مزجورٍ عنه فى الشريعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وأوفوا بِعَهْدِ الله إذا عاهدتم
ولا تَنقُضُوا الأَيْمانَ بعد توكيدها
وقد جعلتم اللهَ عليكم كفيلاً إنَّ
اللهَ يعلم ما تفعلون ﴾

يُفْرَضُ على كافةِ المسلمين الوفاء بعهد الله فى قبول الإسلام والإيمان ، فتجبُ عليهم استدامةُ الإيمان . ثم لكلِّ قومٍ منهم عهدٌ مخصوص عاهدوا الله عليه ، فهم مُطَالَبُون بالوفاء به ؛ فالزاهدُ عَهْدُه ألا يرجعَ إلى الدنيا ، فإذا رجع إلى ما تركه منها فقد نَقَضَ عهده ولم يفِ به . والعابد عاهده فى تَرْكِ الهوى . والمريدُ عاهَدَه فى ترك العادة ، وآثره بكل وجه . والعارف عهده التجرد له ، وإنكار ما سواه . والمحب عهده تركُ نَفْسِهِ معه بكل وجه[1] .

---

(١) إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » .

والموحِّد عهده الامتحاء[1] عنه ، وإفراده إياه بجميع الوجوه والعبد مَنْهِىٌّ عن تقصير عهده ، مأمورٌ بالوفاء به .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تـكونوا كالتى نَقَضَتْ غَزْلَها من بعد قوة أنـكاثاً تتخذون أيمانـكم دَخَلاً بينـكم أنْ تـكون أُمَّةٌ هى أربى من أُمة ﴾

مَنْ نَقَضَ عهده أفسد بآخِرِ أمرِه أوَّلَه ، وهَدَمَ بِفِعْلِهِ ما أسَّسَه ، وقَلَعَ بيده ما غَرَسَه ، وكان كمن نقضت غَزْلَها من بعد قوة أنـكاثا[2] ، أى من بعد ما أُبرمت فَتْلَه .

وإنَّ السالكَ إذا وقعت له فترة ، والمريدَ إذا حصلت له فى الطريق وقفةٌ ، والعارف إذا حصلت له حجبَةٌ[3] ، والمحبَّ إذا استقبلته فرقةٌ — فهذه مِحَنٌ عظيمةٌ ومصائبُ فجيعةٌ ، فـكما قيل :

فَلَأَبْـكِيَنَّ على الهلالِ تأسُّفاً خوفَ الـكسوفِ عليه قبل تمامه

فما هو إلا أنْ تُـكْسَفَ شَمْسُهُم ، وينطفِىء — فى الليلة الظلماءِ — سِراجُهم ، ويتشتَّتَ من السماء ضياء نجومِهم ، ويصيبَ أزهارَ أُنْسِهِم وربيعَ وَصْلِهِم إعصارٌ فيه بلاءٌ شديدٌ ، وعذابٌ أليم . فإنَّ الحقَّ — سبحانه إذا أراد بقوم بلاءً فـكما يقول : « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة[4] » فإنَّ آثارَ سُخْطِ الملوكِ مُوجِعةٌ ، وقصةَ إعراضِ السلطانِ مُوحِشَةٌ وكما قيل :

والصبر يَحْسُنُ فى المواطن كلها إلا عليكَ — فإنَّه مذمومُ

---

(١) القشيرى مستفيد من قول بعض الشيوخ : المحبة محو المحب بصفاته وإثبات المحبوب بذاته . « الرسالة ص ١٥٨ »

(٢) أنـكاثا جمع نـكث وهو ما ينـكث فتله ، وقيل هى ريطة ، وكانت حمقاء تغزل هى وجواريها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فينقضن غزلهن .

(٣) وردت (محبة) وهى خطأ فى النسخ ، وقد اخترنا (حجبة) لأنها أقرب إلى السياق ، ومشابهة فى الـكتابة لـكلمة (محبة) حيث يحتمل أن يحدث الالتباس فى حرف الميم عند النقل .

(٤) آية ١١٠ سورة الأنعام .

هنالك تنسكب العَبَراتُ، وتُشَق الجيوب، وتُلْطَم الخدود، وتُمطَّلُ العِشار، وتُخَرَّبُ المنازلُ، وتسودُّ الأبواب، وينوح النائح:

وأتى الرسول فأخـ ـبر أنهم رحلوا قريباً
رجعوا إلى أوطانهم فجرى لهم دمعى صبيبا
وتركن ناراً فى الضلوع وزرعن فى رأسى مشيبا

قوله جل ذكره: ﴿إنَّما يَبْلُوكُمُ اللهُ به ولَيُبَيِّنَنَّ لَكُم يومَ القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾

بلاء كلٍّ واحدٍ على ما يليق بحاله؛ فمن كان بلاؤه بحديث النَّفْسِ أو ببقائه عن هواه، وبحرمانه لكرائمه فى عُقْباه فاسمُ البلاءِ فى صفته مَجَازٌ، وإنما هذا بلاء العوام. ولكنَّ بلاء الكرامِ غيرُ هذا فهو كما قيل:

مَنْ لم يَبِتْ — والحبُّ مِلْءُ فؤادِه لم يَدْرِ كيف تَفَتُّتُ الأكبادِ

قوله جل ذكره: ﴿ولو شاء اللهُ لجعلكم أُمَّةً واحدةً، ولكِنْ يُضِلُّ مَنْ يشاء ويَهْدِى من يشاء وَلَتُسْأَلُنَّ عما كنتم تعملون﴾

ليست واقعةُ القوم بخسرانٍ يُصيبهم فى أموالهم، أو من جهة تقصيرهم فى أعمالهم ولمِا ضيَّعوه من أحوالهم.. فهذه — لعمرى — وجوهٌ وأسبابٌ، ولكنَّ سِرَّ القصةِ كما قيل:

أنا صَبٌّ لِمَنْ هَوَيْتُ ولكن ما احتيالى بسوء رأى الموالى؟

قوله: «ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة»: لو شاء الله سَعَادَتَهم لَرَحِمَهُم، وعن المعاصى عَصَمَهُم، وبدوامِ الذكر — بَدَلَ الغفلة — ألهمهم.. ولكن سَبَقَتْ القسمةُ فى ذلك، وما أحسن ما قالوا:

شكا إليك ما وَجَدْ مَنْ خانه فيك الجَلَدْ
حيرانُ.. لو شِئْتَ اهتدى ظمآنُ... لو شِئْتَ وَرَدْ

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَتَّخِذُوا أيمانَكم دَخَلاً بينكم فَتَزِلَّ قَدَمٌ بعد ثُبُوتِها وتَذُوقُوا السوءَ بما صَدَدْتُم عن سبيلِ اللهِ ولكُم عذابٌ عظيم ﴾

أبْعَدَكُم عَدَمُ صِدقِكم فى إيمانِكم عن تحقُّقِكم ببرهانكم ، لأنكم وقفتم على حَدِّ التردد دون القطع والتعيين ، فأفضى بكم ترَدُّدُكم إلى أوطانِ شِرْكِكُم ، إذ الشكُّ فى الله والشِّركُ به قرينان فى الحُكْم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَشْتَرُوا بعهد اللهِ ثَمَناً قليلاً إنَّما عند اللهِ هو خَيْرٌ لكم إنْ كنتم تعلمون ﴾

لا تختاروا على القيام بحقِّ اللهِ والوفاءِ بعهده عِوَضاً يسيراً مما تنتفعون به من حُطام دنياكم من حلالكم وحرامكم ، فإنَّ ما أعدَّ اللهُ لكم فى جناته — بشرط وفائكم لإيمانكم — يوفى ويربو على ما تتعجلون به من حظوظكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ما عندكم يَنفَدُ وما عند اللهِ باقٍ ولنَجْزِيَنَّ الذين صَبَرُوا أجْرَهُمْ بأَحْسَنِ ما كانوا يعملون ﴾

الذى عندكم عَرَضٌ حادث فانٍ ، والذى عند الله من ثوابكم فى مآلِكُم نِعَمٌ مجموعةٌ ، لا مقطوعةٌ ولا ممنوعة .

ويقال ما عندكم أو ما منكم أو ما لكم أفعالٌ معلولة وأحوالٌ مدخولة(١) ، وما عند الله فثوابٌ مقيمٌ ونعيمٌ عظيمٌ

ويقال ما منكم من معارفكم ومحابكم آثارٌ متعاقبةٌ ، وأصناف متناوبة ، أعيانُها غيرُ باقية وإن كانت أحكامُها غيرَ باطلة(٢) ، والذى يتصف الحقُّ به من رحمته بكم ومحبته لكم وثنائه عليكم فصفاتٌ أزلية ونعوتٌ سرمدية .

(١) أى مصابة بالدَّخَل .

(٢) لأنها منكم فعلا ومن الله حُكْماً .

ويقال ما عندكم من اشتياقكم إلى لقائنا فَمُعَرَّضٌ للزوال ، وقابلٌ للانقضاء ، وما وَصَفْنَا به أنفُسَنَا من الإقبال لا يتناهى وأفضال لا تفنى ، كما قيل :

ألا طال شوقُ الأبرار إلى لقائى وإنى للقـائهم لأَشَـدُّ شـوقا

قوله : « ولنجزين الذين صبروا . . . » : جزاء الصبر الفوزُ بالطِّلْبَة ، والظَّفَرُ بالبُغية .
ومآلهم فى الطلبات يختلف : فَمَنْ صَبَرَ على مقاساة مشقةٍ فى الله . فعِوَضُه وثوابُه عظيمٌ من قِبَل الله ، قال تعالى : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب »(1) .

ومَنْ صبر عن اتباع شهوةٍ لِأَجْل الله ، وعن ارتكاب هفوةٍ مخافةً لله فجزاؤه كما قال تعالى : أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً »(2) .

ومَنْ صبر تحت جريان حُكْمِ الله ، متحققاً بأنه بِمَرْآةٍ من الله فقد قال تعالى : « إن الله مع الصابرين »(3) .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً من ذَكَرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حياةً طيبةً وَلَنَجْزِيَنَّهُم أجْرَهُم بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾ .

الصالح ما يصلح للقبول ، والذى يصلح للقبول ما كان على الوجه الذى أمر الله به . وقوله « من عمل صالحاً » : فى الحال ، « فلنحيينه حياة طيبة » : فى المآل ؛ فصفاء الحالِ يستوجبُ وفاء المآلِ ، والعملُ الصالحُ لا يكون من غير إيمان ، ولذا قال : « وهو مؤمن » .

ويقال « وهو مؤمن » أى مصدِّقٌ بأن إيمانه من فضل الله لا بعمله الصالح . ويقال « وهو مؤمن » أى مصدِّقٌ بأن عمله بتوفيق الله وإنشائه وإبدائه . قوله « فلنحيينه حياة

---

(1) آية ١٠ سورة الزمر .
(2) آية ٧٥ سورة الفرقان .
(3) صبر العبد مع الله أشد أنواع الصبر ويكون — كما يقول عمرو بن عثمان : بالثبات مع الله ، وتلقى بلائه بالرحب والدعة .

وصبر الله مع العبد يصفه الشيخ الدقاق بقوله : فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله تعالى معيته . (الرسالة ص ٩٣) .

طيبة ﴾ : الفاء للتعقيب ، ﴿ ولنجزينهم . . . ﴾ الواو للعطف ففي الأولى معجَّل ، وفي الثانية مؤجَّل ، ثم ما تلك الحياة الطيبة فإنه لا يُعْرَف بالنطق ، وإنما يعرف ذلك بالذوق ؛ فقوم قالوا إنه حلاوة الطاعة ، وقوم قالوا إنه القناعة ، وقوم قالوا إنه الرضا ، وقوم قالوا إنه النجوى ، وقوم قالوا إنه نسيم القرب . . . والكل صحيحٌ ولكلٍّ واحدٍ أهل .

ويقال الحياة الطيبة ما يكون مع المحبوب ، وفي معناه قالوا :

نحن في أكمل السرور ولكنْ ليس إلا بكم يَتِمُّ السرورُ
عَيْبُ ما نحن فيه يا أهلَ وِدِّي أنكم غُيَّبٌ ونحن حُضُورُ

ويقال الحياة الطيبة للأولياء ألا تكونَ لهم حاجةٌ ولا سؤالٌ ولا أَرَبٌ ولا مُطالبَةٌ ؛ وفرقٌ بين من له إرادة فتُرْفَع وبين من لا إرادةَ له فلا يريد شيئاً[1] ، الأولون قائمون بشرط العبودية ، والآخرون مُعْتَقُون بشرط الحرية .

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا قرأتَ القرآن فاستَعِذْ بالله من الشيطانِ الرجيم ﴾ .

شيطانُ كُلٍّ واحدٍ ما يشغله عن ربه ، فمن تَسَلَّطَتْ عليه نَفْسُه حتى شَغَلَتْه عن ربه ولو بشهود طاعةٍ أو استحلاءِ عبادةٍ أو ملاحظةِ حال — فذلك شيطانُه . والواجبُ عليه أن يستعيذَ بالله من شرِّ نَفْسِه ، وشرِّ كل ذي شر .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّه ليس له سُلْطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكلون ﴾ .

أنَّى يكون للشيطانِ سلطانٌ على العبد والحقُّ — سبحانه — متفرِّدٌ بالإبداع ، متوحِّدٌ بالاختراع ؟ .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما سلطانه على الذين يتولَّوْنه والذين هم به مُشْرِكون ﴾ .

---

(١) في هذا الصدد يقول القشيري في رسالته : « والمريد — على موجب الاشتقاق — من له إرادة كالعالم من له علم لأنه من الأسماء المشتقة ، ولكن المريد في عرف هذه الطائفة من لا إرادة له ؛ فمن يتجرد عن إرادته لا يكون مريداً . (الرسالة ص ١٠١) .

إنما سلطانُه على الذين هم فى غطاء غفلتهم ، وستر ظنونهم ومشتبهاتهم . فأمَّا أصحاب التوحيد فإنهم يرون الحادثاتِ بالله ظهورُها ، ومن اللهِ ابتداؤها ، وإلى الله مآلها وانتهاؤها .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا بدَّلْنَا آيةً مكانَ آيةٍ واللهُ أعلمُ بما يُنَزِّلُ قالوا إنما أنتَ مُفْتَرٍ بل أكثرَهُم لا يعلمون * قُلْ نَزَّله رُوحُ القُدُسِ من ربِّكَ بالحقِّ لِيُثَبِّتَ الذين آمنوا وهُدَىً وبُشْرَى للمسلمين ﴾ .

ما ازدادوا فى طول مدتهم إلا شكاً على شكٍ ، وجحداً على جحدٍ ، وجرَوْا على مناهجهم فى التكذيب ، فلم يُصَدِّقوه صلى الله عليه وسلم ، وما زادوا فى ولايته إلا شكاً ومِرْية :

وكذا الملولُ إذا أرَادَ قطيعةً ملَّ الوصال وقال كان وكانا

قوله : « قل نَزَّله روحُ القُدُس من ربك بالحق » : ردٌّ على فرط جهلهم بربهم ، وبُعْدِ رتبتهم عن التحصيل ، فلمَّا كانوا متفرقين فى شهود المَلِكِ رُدُّوا فى حين التعريف إليهم بِذِكْرِ المَلَكِ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد نعلم أنَّهم يقولون إنما يُعَلِّمُه بَشَرٌ لِسَانُ الذى يُلْحِدون إليه أعجمىٌّ وهذا لِسانٌ عربىٌّ مبينٌ ﴾ .

لم يستوحش الرسولُ — صلى الله عليه وسلم — من تكذيبهم ، وخفاءِ حاله وقَدْرِه عليهم . . وأىُّ ضررٍ يلحق مَنْ كانت مع السلطان مُجَالَسَتُه إذا خَفِيَتَ على الأخَسِّ مِنَ الرعيةِ حالتُه ؟

ثم إنه أقام الحجةَ فى الردِّ عليهم حيث قال : « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » : فَمِنْ فَرْطِ جهلهم توهموا أنَّ هذا القرآنَ — الذى عجز كافةُ الخلْق

عن معارضته فى فصاحته وبلاغته — مقولٌ وحاصلٌ باتصاله بِمَنْ هو أعجمى النطق[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين لا يؤمنُون بآياتِ الله
لا يهديهمُ اللهُ ولهم عذابٌ أليم ﴾ .

إنَّ منْ سَبقَتْ بالشقاوة قسمتُه لم تتعلق من الحق — سبحانه — به رحمتُه ، ومَنْ لم يَهْدِه اللهُ فى عاجله إلى معرفتِه لا يهديه اللهُ فى آجِلِه إلى جنته .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما يفْترى الكذبَ الذين
لا يؤمنون بآياتِ اللهِ وأولئك
هم الكاذبون ﴾ .

هذا من لطائف المعاريض ، إذ لمَّا وصفوه — عليه السلام — بالافتراء أثار الحقُّ — سبحانه — فى الجواب ، فقال : لستَ أنت المفترِى إنما المفترِى مَنْ كذَّبَ معبودَه وجَهِلَ توحيدَه .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ كَفَرَ باللهِ من بعد إيمانه
إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وقلبُه مُطْمَئِنٌ
بالإيمانِ ولكِنْ مَنْ شَرَحَ بالكفر
صَدْراً فعليهم غَضَبٌ من اللهِ
ولهم عذابٌ عظيمٌ ﴾ .

إذا عَلِمَ اللهُ صِدْقَ عبده بقلبه ، وإخلاصَه فى عَقْدِه ، ولحقته ضرورة فى حاله خَفَّفَ عنه حُكْمَهُ ، ودَفَع عنه عناءه فلا يَلْفظُ بكلمة الكفر إلا مُكْرَهاً — وهو مُوَحِّدٌ ، وهو مستحقٌ العُذْرَ فيما بينه وبين الله تعالى[2] . . . وكذلك الذين عقدوا بقلوبهم ،

---

(١) أرادوا به غلاماً كان لحويطب اسمه عائش أو يعيش وكان صاحب كتب ، أو هو جبر غلامٌ رومى لعامر بن الحضرمى وكان يقرأ التوراة والإنجيل ، أو سلمان الفارسى . . وكلهم أعاجم .

(٢) ومن أمثال ذلك عمار بن ياسر الذى جرت كلمة الكفر على لسانه مكرهاً وهو معتقد الإيمان ، وأتى رسول الله وهو يبكى ، فجعل الرسول يمسح عينيه ويقول : « إن عادوا لك فعد لهم بما قلت » . وكان يقول عنه : « إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه »

وتجردوا لسلوك طريق الله ثم عَرَضَتْ لهم أسبابٌ ، واتفقت لهم أعذارٌ ؛ كأن يكون لهم ببعض الأسباب اشتغالٌ أو إلى شيءٍ من العلوم رجوعٌ . . لم يكن ذلك قادحاً فى صحة إرادتهم ، ولا يُعَدُّ ذلك فسخاً لعهودهم ، ولا ينفى بذلك عنهم سِمَةَ القَصْدِ إلى الله تعالى .

أمَّا « مَنْ شَرَحَ بالكفر صدراً » : فرجع باختياره ، ووضع قَدَماً — كان قد رَفَعَه فى طريق الله — بِحُكْمِ هواه فقد نَقَضَ عَهْدَ إرادته ، وفَسَخَ عقده ، وهو مستوجب (. . .)[1] إلى (. . .)[2] تتداركه الرحمة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك بأنهم استَحَبُّوا الحياةَ الدنيا على الآخِرة وأَنَّ الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾

السالك إذا آثر (الحظوظ)[3] على الحقوق بَقِىَ عن الله ، ولم يبارِكْ له فيما آثره على حقٍّ الله ، ولقد قالوا :

قد تركناكَ والذى تريد   فعسى أَنْ تَمَلَّهم فتعود

قوله جل ذكره ﴿ أولئكَ الذين طَبَعَ اللهُ على قلوبهم وسَمْعِهِم وأبصارِهم وأولئك هم الغافلون ﴾ .

إذا تمادى فى غفلته، ولم يتدارك حالَه بملازمةِ حَسْرَتِه، ازداد قسوةً على قسوة ، ولم يستمتع بما هو فيه من قوة ، وكما قال جل ذكره :

﴿ لا جَرَمَ أَنَّهم فى الآخرةِ هُمُ الخاسِرون ﴾

هم فى الآخرة محجوبون ، وبِذُلِّ البعد موسومون .

---

(١) مشتبهة   (٢) مشتبهة .

(٣) سقطت هذه اللفظة والسياق يتطلبها ، فأثبتناها حسبما نعرف من أسلوب القشيرى فى المقابلة بين حظوظ النفس وحقوق الحق .

قوله جل ذكره ﴿ ثم إنَّ ربَّكَ للذين هاجروا مِنْ بَعْدِ
مافُتِنُوا ثم جاهدوا وصَبَرُوا إنَّ
ربَّكَ من بَعْدِها لَغَفُورٌ رحيمٌ ﴾

ومَنْ صَبَرَ حين عزم الأمر ، ولم يجنح إلى جانب الرُّخَصِ ، وأخذ في الأمور بالأشقِّ أكرم اللهُ حَقَّه، وقرَّب مكانَه ، ولقَّاه في كل حالةٍ بالزيادة، وربحت صفقتُه حين خسر أشكالُه، وتَقَدَّمَ على الجملة وإنْ قَلَّ احتيالُه .

قوله جل ذكره : ﴿ يوم تأتى كلُّ نفسٍ تُجادِلُ عن
نَفْسِها وتُوَفَّى كلُّ نفْسٍ ماعَمِلَتْ
وهم لايُظْلَمُون ﴾ .

غداً كلٌّ مشغولٌ بنفْسه ، ليس له فراغ إلى غيره . وعزيزٌ عبدٌ لايشتغل بنفسه ، قال صلى الله عليه وسلم : « من كان بحالٍ لقى الله بها » . إنما يكون الفارغ غداً من كان اليوم فارغا ، ويجادل عن نفسه من كان له اليوم اهتمامٌ بنفسه . والمؤمن لانَفْس له ؛ قال تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم »[1] اشتراها الحقُّ منهم ، وأودعها عندهم ، فليس لهم فيها حق ، وإنما يراعون فيها أمرَ الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ وضَرَبَ اللهُ مثلاً قريةً كانت آمنةً
مطمئنةً يأتيها رِزْقُهَا رَغَدًا من كلِّ
مكان فكفَرَتْ بأنعُمِ اللهِ فأذاقَهَا
اللهُ لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا
يصنعون ﴾ .

فراغ القلبِ من الأشغال نعمة عظيمة ، فإذا كفر عبدٌ بهذه النعمة بأن فتح على نَفْسِه بابَ الهوى ، وانجرف في فساد الشهوة ، شوَّشَ الله عليه قلبه ، وسَلَبَه ما كان يجدُه من صفاءِ وقته ؛ لأنَّ طوارقَ النفسِ تُوجِبُ غروبَ شوارقِ القلب ، وفي الخبر : إذا أقبل الليلُ من

---

(١) آية ١١١ سورة التوبة

هاهنا أدبر النهارُ من هاهنا ». وكذلك القلبُ إذا انقطع عنه معهودُ ما كان الحقُّ أتاحه له أصابه عطَشٌ شديد ولهبٌ عظيم.

قوله جل ذكره: ﴿ ولقد جاءهُم رسولٌ منهم فكذّبوه فأخذَهُم العذابُ وهم ظالمون ﴾.

كما جاءهم الرسولُ جهراً فإنه تتأدّى إليهم منْ قِبَل خواطرهم إشاراتٌ تترى[1]، فمَنْ لم يستجبْ لتلك الإشارات بالوفاق والإعتاق[2] أخذه العذابُ من حيث لا يشعر.

قوله جل ذكره: ﴿ فكلوا مما رزقكُم اللهُ حلالا طيباً واشكروا نِعمةَ اللهِ إنْ كنتُم إياه تعبُدُون ﴾.

الحلالُ الطيبُ ما يتناوله العبدُ على شريطة الإذن بشاهد الذكر على قضية الأدب في ترك الشبهة[3]، وحقيقةُ الشكرِ على النعمةِ الغيبةُ عن شهودِ النعمة بالاستغراق في شهود المنعِم.

قوله جل ذكره: ﴿ إنما حَرَّمَ عليكم الميْتَة والدَّمَ ولَحْمَ الخنزيرِ وما أُهِلَّ لغيرِ الله به فَمَنْ اضطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ ولا عادٍ فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾.

يُبَاحُ تناولُ المحرماتِ عند هجوم الضرورات حسب بيان الشرع، ولا يُرَخَّصُ في ذلك إلا على أوصاف مخصوصة، وبِقَدْرِ ما يَسُدُّ الرَّمق، كذلك عند استهلاكِ العبدِ بغلبات الحقيقة لابد من رجوعه إلى حال الصحو بقدر ما يؤدى الفرض الواجب عليه، ثم لا يُمكَّن من التعريج في أوْطان التفرقة والتمييز بعد مضى أوقات الصحو من أجل أداء الشرع[4]، كما قيل:

---

(١) تترى أي تتابع، وربما كانت (سرا) لتقابل جهراً

(٢) أي إعتاق النفس وتحريرها من رق الشهوات

(٣) وردت (الشدة) والصواب — حسب ما يقول القشيري في مواضع مماثلة — أن تكون (الشبهة)

(٤) هذه هي حالة الفرق الثاني التي تتخلل حالة جمع الجمع، وفيها يرد العبد إلى الصحو عند أوقات الفرائض ويكون رجوعه لله بالله لا للعبد بالعبد

فإنْ تَكُ منه غيبة بعد غيبةٍ فإنَّ إليه بالوجود إيابى

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقولوا لمـا تصف ألْسِنَتُـكُم الـكذبَ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ لتفتروا على الله الـكذِب إنَّ الذين يَفْتَرُون عـلى الله الـكذِبَ لا يُفْلِحون * مَتَاعٌ قليلٌ ولهُم عذابٌ أليم ﴾ .

الصدق فى كل شىء أَوْلَى[1] من الـكذب ، وكثيرٌ من أقوالهم فى الاعتراض عَيِّنَاتٌ[2] من الـكذب .

والصِّدِّيق لا يكذب صريحاً ، ولا يتداول أقوال كاذبٍ مهين . وصاحبُ الـكذبِ تظهر عليه المذَلَّةُ لما هو فيه من الزَّلَّةِ ، وله فى الآخرة عذاب أليم[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ وعلى الذين هَادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عليك مِنْ قبلُ وما ظَلَمْنَاهُمْ ولـكن كانوا أنفُسَهم يَظْلِمون ﴾ .

بيَّن أنه أوضح لِمَنْ تَقَدَّمَ الحلالَ والحرامَ ، فمنهم مَنْ أتى بما أُمِرَ به ومنهم مَنْ خالف .. وكلٌّ عُومِل بما استوجبه ؛ فمن أطاع قلبُهُ قرَّبَه ، ومَنْ عَصَى رَدَّه وحَجَبَه .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم إنَّ ربَّكَ للذين عَمِلوا السوء بجَهَالةٍ ثم تابوا مِنْ بَعْدِ ذلك وأصلحوا إنَّ ربَّكَ مِنْ بعْدِها لَغَفُورٌ رحيم ﴾ .

---

(١) وردت (أولا) وهى خطأ فى النسخ

(٢) عينات جمع عينة وهى نموذج من أصل الشىء ومادته (الوسيط)

(٣) قمنا هنا ببعض إصلاحات طفيفة نظراً لانبهام الخط ورداءته ، ووجود بعض حروف تعجز المطبعة عن نقلها كما هى فى الرسم .

إذا نَدِمُوا على قبيح ما قدَّمُوا ، وأسِفوا على كثيرٍ مما أسلفوا وفيه أسرفوا ، ومَحَا صِدْقُ عَبْرَتِهم آثارَ عَثْرَتِهم — نظَرَ اللهُ إليهم بالرحمة ، فتابَ عليهم إذا أصلحوا ، ونجَّاهم إذا تضرَّعوا .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ إبراهيمَ كان أُمَّةً قانِتاً للهِ حنيفاً ولم يَكُ مِنَ المشركين ﴾ .

قيل آمن بالله وحدَه فقام مقام الأمة ، وفى التفسير : كان معلِّما — للخير — لأمةٍ .

ويقال اجتمع فيه من الخصال المحمودة ما يكون فى أمةٍ متفرقاً .

ويقال لمَّا قال إبراهيمُ لكلٍّ مما رآه : « هذا ربى » ولم ينظر إلى المخلوقات من حيث هى بل كان مُسْتَهْلَكاً فى شهودِ الحقِّ ، ورأى الكَوْنَ كُلَّه بالله ، وما ذكر حين ذكر غيرَ الله . . كذلك كان جزاء الحق فقال : أنت الذى تقوم مقام الكلِّ ، فى القيامِ بحق الله منك على الدوام غُنْيَةٌ عن الجميع .

و « الحنيف » : المستقيم فى الدِّين ، أو المائل إلى الحق بالكلية[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ شاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجتباه وهَدَاه إلى صراطٍ مستقيم ﴾ .

الشاكرُ فى الحقيقة — مَنْ يرى عَجْزَه عن شكره ، ويرى شُكْرَهُ من الله عزَّ وجل ، لِتَحَقُّقِهِ أنه هو الذى خَلَقَهُ ، وهو الذى وَفَّقَهُ لشكره ، وهو الذى رزقه الشكرَ ، وهو الذى اجتباه حتى كان بالكلية له — سبحانه .

« وهداه إلى صراط مستقيم » أى تحقّق بأنه عَبْدُه ، وأنه رقّاه إلى محلٍّ الأكابر .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتيناه فى الدُّنيا حَسَنَةً وإنَّه فى الآخرةِ لَمِنَ الصالحين ﴾ .

الحسنةُ التى آتاه اللهُ هى دوامُ ما آتاه حتى لم تنقطعْ عنه .

---

(١) الحنيف — فى اللغة — من الأضداد = المائل والمستقيم (ابن الانبارى فى كتاب الإضداد)

ويقال هى الخلة . ويقال هى النبوة والرسالة .

ويقال آتيناه فى الدنيا حسنةً حتى كان لنا بالكلية ، ولم تكن فيه لغيرٍ بقية .

قوله جل ذكره : ﴿ثم أَوْحَيْنا إليك أن اتَّبِعْ مِلَّةَ ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾

« ملة ابراهيم » أى الكون بالحق ، والامتحاء[1] عن شاهد نفسه ، فكان نبينا — صلى الله عليه وسلم — فى اتباعه ابراهيم مؤْتَمِراً بأمر الله . وكانت ملةُ إبراهيم — عليه السلام — الخُلُقَ والسخاء والإيثارَ والوفاء ، فاتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم وزاد عليه ، فقد زاد على الكافة شأنه ، وبانت مَزِيَّتُه .

قوله جل ذكره ﴿إنَّما جُعِلَ السَّبْتُ على الذين اختلفوا فيه وإنَّ ربَّك لَيَحْكُمُ بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾

قومٌ حرَّموا العملَ فيه وقومٌ حللوه معصيةً منهم ، وقيل جعل الجمعةَ لهم فقالوا : لانريد إلا يومَ السبت . . فهذا اختلافهم فيه .

والإشارة من ذلك أنهم حادوا[2] عن موجب الأمر ، ومالوا إلى جانب هواهم . ثم أنهم لم يراعوها حق رعايتها فصار سبب عصيانهم .

قوله جل ذكره : ﴿أُدْعُ إلى سبيل ربِّك بالحكمةِ والموعظة الحسنَةِ وجادِلْهم بالتى هى أحْسَنُ إنَّ ربَّكَ هو أعلمُ بِمَنْ ضَلَّ عن سبيلِه وهو أعْلَمُ بالمُهْتَدِين﴾

---

(١) وردت (الامتحان) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) وردت (جادوا) وهى خطأ فى النسخ .

الدعاء إلى سبيل الله بحثٌ[1] الناسِ على طاعةِ الله ، وزجرهم عن مخالفة أمر الله .
والدعاء بالحكمة ألا يخالفَ بالفعل ما يأمر به الناس بالنطق .

والموعظة الحسنة ما يكون صادراً عن علمٍ وصوابٍ ، ولا يكون فيها تعنيف .

« وجادلهم بالتي هي أحسن » : بالحجة الأقوى ، والطريقة الأوضح . قال تعالى : « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه »[2] : فَشَرْطُ الأمرِ بالمعروف استعمالُ ما تأمر به ، والانتهاء عما تنهى عنه[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ عاقبتُمْ فعَاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُم به وَلَئِنْ صَبَرْتُم لَهُوَ خيرٌ للصابرين ﴾

إذا جرى عليكم ظُلْمٌ من غيركم وأردتم الانتقامَ . . فلا تتجاوزُوا حَدَّ الإذنِ بما هو في حكم الشرع .

« ولئن صبرتم » : فتركتم الانتصافَ لِأَجْلِ مولاكم فهو خيرٌ لكم إنْ فعَلْتُمْ ذلك .
والأسبابُ التي قد يترك لأجلها المرء الانتصافَ مختلفة ؛ فمنهم من يترك ذلك طمعاً في الثواب غداً فإنه أوفر وأكثر ، ومنهم من يترك ذلك طمعاً في أن يتكفَّلَ اللهُ بخصومه ، ومنهم من يترك ذلك لأنه مُكْتَفٍ بعلم الله تعالى بما يجرى عليه ، ومنهم من يترك ذلك لِكَرَمِ نَفْسه ، وتَحرُّرِه عن الأخطار ولاستحبابه العفوَ عند الظَّفَرِ ، ومنهم مَنْ لا يرى لنفسه حقاً ، ولا يعتقد أنَّ لأحدٍ هذا الحق فهو على عقد إرادته بِتَرْكِ نَفْسه ؛ فمِلْكُه مُبَاحٌ ودَمُهُ هَدَرٌ . ومنهم من ينظر إلى خصمه —أي المتسلط عليه— على أنَّ فعلَه جزاء على ماعمله هو من مخالفة أمر الله ، قال تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير »[4] . فاشتغاله باستغفاره عن جُرْمِه يمنعه عن انتصافه من خصمه .

قوله جل ذكره : ﴿ واصبِرْ وما صَبْرُكَ إلَّا باللهِ ولا تحزَنْ عليهم ولا تَكُ في ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرون ﴾

---

(١) وردت (بحيث) وهي خطأ في النسخ .
(٢) آية ٨٨ سورة هود .
(٣) أي تكون أنت قدوة فيما تدعو إليه من أوامر وما تنهى عنه من زواجر .
(٤) آية ٣٠ سورة الشورى .

« واصبر » تكليف ، « وما صبرك إلا بالله » : تعريف . « واصبر » تحققٌ بالعبودية، « وما صبرك إلا بالله » إخبارٌ عن الربوبية .

« ولا تحزن عليهم.. » أى طالِعْ التقدير ، فما لا نجعلُه خطراً عندنا لاينبغى أن يوجِبَ أثراً فيك ، فَمَنْ أَسقَطْنا قَدْرَه فاستَصْغِرْ أَمْرَه . وإذا عرفتَ انفرادَنا بالإيجادِ فلا يضيق قلبُك بشدة عداوتهم ، فإِنَّا ضَمِنَّا كِفايتَك ، وألا نُشْمِتَهم بك، وألا نجعلَ لهم سبيلاً إليك .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الله مع الذين اتَّقَوا والذين هم مُحْسِنون ﴾

إن الله معهم بالنصرة ، ويحيطهم بالإحسان والبسطة .

« الذين اتقوا » رؤيةَ النصْرةِ مِنْ غيره ، والذين هم أصحاب التبرى من الحَوْلِ والقوة .

والمحسن الذى يعبد الله كأنه يراه ، وهذه حال المشاهدة .

فهـــرس

تم المجلد الثالث ويليه المجلد الرابع

وأوله سورة الإسراء

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

فرع التوفيقية